

١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف الدون الهادئة

(المجلد الأول)

ترجمة

علي الشوك - أمجد حسين - غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان



مكتبة نوبل



Author : Mikhail Sholokhov

Title : The Silent Don /1

Translator: A. Al-Shuk/
A.Hussein\ G. Hamdoun

Al- Mada : P. C.

Cultural Foundation

First Edition 1998

Copyright ©

اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف

عنوان الكتاب : الدون الهادئ - ١

ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون

مراجعة : غائب طعمة فرمان

الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

المجمع الثقافي / أبو ظبي

الطبعة الأولى : ١٩٩٨

الحقوق محفوظة

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي

ص.ب. : ٢٢٨٠

تلفون : ٢١٥٣٠٠

دار المدا للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٣٨٦٤ فاكس : ٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Cultural Foundation

U.A.E. Abu Dhabi

P.O.Box: 2380

Tel. 215300

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or

7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,

Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

كتاب عن الثورة والانسان

قبل عدة اعوام احتفلت الصحافة الادبية بمناسبة رائعة ، وهي مرور خمسين عاما على ظهور رواية شولوخوف «الدون الهادى» .

هل كان في مقدور سيرافيموفيتش اقدم الكتاب السوفييتيين وصاحب الرواية الشهيرة «السيل الحديدي» أن يعرف أنه ، في حينه ، اي قبل نصف قرن كان ذا نبوءة بشكل ما ؟ فقد قرأ لتوه مخطوطة المؤلف الشاب من قرية الدون البعيدة «فيشينسكايا» في قلب روسيا . كانت المخطوطة قد وصلت الى مجلة «اكتوبر» التي كان سيرافيموفيتش آنذاك يرأس تحريرها . وكان سيرافيموفيتش قبل سنتين من هذا التاريخ قد شخص في مقدمة كتاب شولوخوف الاول ، وهو مجموعة قصص ، الخصائص الفنية لهذه الموهبة الشاب . وتقرر البدء بنشر الرواية ابتداء من سنة ١٩٢٨ الجديدة . في عشية ذلك استقبل الكاتب الشيخ في بيته زملاءه الاجانب هنري باربوس ، ومارتين اندرسون نيكسه ، وبيلا ايليش . وانزل من الرف اضبارة ضخمة من الاوراق المطبوعة على الالة الكاتبة ، ووزنها في يده ، وقال وفي صوته نبرة انتصار :

- اصدقائي الاعزاء! ارجو أن تتذكروا العنوان : «الدون الهادى»
وتذكروا اسم المؤلف ميخائيل شولوخوف... وهذه كلمتي لكم : عن قريب سيكون هذا العمل مشهوراً في روسيا كلها ، وبعد سنتين او ثلاث في العالم أجمع...

وهذا ما حصل بالفعل . في نهاية ١٩٢٨ ، بعد أن نشر المجلد الاول من «الدون الهادي» في مجلة «اكتوبر» صدر في مجلة «رومان - غازيتا» * بعدد نسخ ضخمة بالنسبة لذلك العهد ، ثم في طبعة «الجديد في الادب البروليتاري» . ونوهت بالكتاب جميع صحف ومجلات البلاد تقريباً (ومما تجدر الاشارة اليه أن التنويه لم يأت من قبل النقاد المحترفين وحدهم ، بل ومن عدد كبير من «القراء البسطاء» حيث اعرب عمال ومستخدمون في مكاتب ومراسلون ريفيون في القرى عن انطباعاتهم عما قرأوه) وقبل أن ينقضي عامان ترجم المجلد الاول من الرواية الفرنسيون والالمان والسويديون والاسبان ، والتشيكيون ، والهولنديون الى لغاتهم ، وصدر «الدون الهادي» في النمسا ، وفي المستعمرات الفرنسية ، ومن بعد ذلك في اليابان ، وانجلترا ، والصين ، وبولونيا ، والولايات المتحدة الامريكية...

كان ميخائيل شولوخوف عندما صدر المجلد الاول في الثالثة والعشرين لا غير . الا أنه كان يملك حياة تكفي لأكثر من شخص ، اذا جاز القول ، فقد كان معلماً في مدرسة للفلاحين القليلي التعليم ، كاتباً مسجلاً في مكتب التخزين ، وكان يعرف فخارة الاجر والشحن والتفريغ . وقد عمل في فصيلة تموين ، وهو في سن الخامسة عشرة ، فكان لذلك أعمق الاثر في ذاكرة الكاتب المقبل اذ شارك في مصادرة الحبوب من الكولاك ، الحبوب الضرورية لروسيا الجائعة .

ولم ينس شولوخوف استجواب ماخنو** نفسه له ، عندما لم ينج من الاعداء رمياً بالرصاص «الا لصغر سنه» ولا المعركة التي شارك فيها ضد زمرة فومين ، والتي ينسبها شولوخوف فيما بعد لبطله غريغوري ميليكوف .

* مجلة مخصصة للرواية تصدر حتى الآن . المترجم

** ماخنو - ناستور ماخنو هو رئيس العصابات الفوضوية المعادية للثورة في اوكرانيا ما بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ .

بل على العكس جعل الحماس الكاتب الشاب يتوغل أعمق فاعمق في تتبع واستقصاء جذور الظواهر والمصائر التي كان شاهدا عليها . وفي الوقت الذي صدرت فيه المجموعتان القصصيتان « قصص الدون » و « السهب اللازوردي » كانت قد نضجت وسجلت على الورق شخصيات المرحلة الشعبية التراجيدية والعظيمة : « الدون الهادي » .

وصار ظهور المجلد الاول من « الدون الهادي » في عام ١٩٢٨ حدثا كبيرا للادب السوفييتي الفتى بأسره . وحين قرأ مكسيم غوركي « الدون الهادي » قال عن مؤلفه : « انه يكتب كقوزاقي عاشق للدون ، ولحياة القوزاق ، وللطبيعة... »

في رواية شولوخوف بالذات انفتح اقليم الدون على الادب العالمي بشكل حقيقي . واصبحت منطقة الدون جزءا لا يمكن فصله عن اسم شولوخوف ، مثلما لا يمكن فصل الدنيبر عن غوغول ، منطقة ريازين عن يسينين ، والفولغا عن غوركي .

في السنوات الاولى من السلطة السوفييتية ، كان ذكر الدون ، وقوزاق الدون يستحضر في اذهان جمهور القراء أعلى درجات القلاقل والبلبل .

ماذا كانوا يعرفون عن القوزاق ؟ انهم ، من ناحية ، احفاد اولئك الاحرار الجريئين الذين استطاعوا حتى في القرن الخامس عشر أن يثبتوا حقوقهم في الحرية ، ويحصلوا على غايتهم في الواقع المريع لدولة الاقنان الروسية ، اولئك العبيد الهاربون ، المتمردون تحت رايتي ستيبان رازين ويميليان بوغاتشيف... ومن الناحية الاخرى ، « القوزاق » شيء يعاب ويخوف به الناس . انهم اولئك الذين كانوا يجلدون الطلبة بالسياط في العهد القيصري ويفرقون مظاهرات الاول من ايار ، والذين اغرقوا بالدم ثورة ١٩٠٥ الشعبية...

ولكن القوزاق ايضا هم جيش الخيالة الاول الاسطوري ، مجد ودرع السلطة السوفييتية الفتية! وبودوني نفسه ، قائد جيش الخيالة الاول من

القرية القوزاقية كوزيوريين... فأى ناس هم ، هؤلاء القوزاق على كل حال ، من هم في واقع الحال ؟

الرواية تجيب عن هذا السؤال ايضاً . لقد جعل شولوخوف القارىء احد المقيمين القدامى في كوخ قوزاقي ، واجلسه مع ارباب البيت على مائدة واحدة ، وأخذ به الى الحقل للتمتع في أكداس ، والى صيد السمك ، والى درس الجبوب . ولم يُره فقط القوزاقي على سهوة حصانه ، والرمح في يده ، والجزمة الطويلة في ساقيه ، فقط ، بل والقوزاقي في حذائه اللبادي والمحش في يديه ، أو الطفل على ركبتيه ، او مع محبوبته يغازلها عند السياج... وشولوخوف يتحدث عن الحياة الصعبة والمتناقضة . وقد رسم اخلاق ناس لطفاء وافظاظ ، أباة ومتشركين بايديهم وارجلهم في الانحيازات الطبقيه في الكثير من النواحي . ذلك شعب كادح ، مجتمع كادح ، يعرف مثل اي مجتمع طبقي ، الانقسام الاجتماعي الداخلي ، والتناقضات الطبقيه ، وما هو عامل على التطور التاريخي النشيط والسير نحو الكمال .

«الدون الهادى» ذو قيمة هائلة للمؤرخ والمختص بالاقتصاد السياسي ، والفيلسوف ، والعالم الاجتماعي . ومع ذلك فان كشف الفنان الكبير للنفس الانسانية هو أعلى من كل الحقائق الاخرى . ان المعرفة بالخلق القوزاقي ، والعادات ، والقوة الحياتية ، والمطامح الرفيعة لهؤلاء ليس بمجموعهم فقط ، بل ولكل شخص على انفراد ، هي وحدها تتيح لنا أن نفهم فهما كاملاً لماذا كان من الممكن أن ينشأ ، تحت سقف بيت واحد ، اشخاص متباينون ، مثل بيتر ميليوخوف ، وغريغوري ميليوخوف ، ومثل ميتكا الجزار وناتاليا الطاهرة النفس من آل كورشونوف .

يقص «الدون الهادى» بلغة الفن عن انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا بموثوقية ثابتة .

و«الدون الهادى» من ناحية الشكل الفني غالباً ما يصنّف كملحمة شعبية . ومن هذا الارتفاع يجب ان يُفهم كل شيء في هذا العمل . ومن

ضمنه المجلد الاول من الكتاب . ان حوادثه « محلية » وبعيدة عن ثورة ١٩١٧ التي كانت موضوع اهتمام المؤلف الرئيسي .

... الشاب القروي الفتى غريشا ميليوخوف ينام في الفجر . وقد رمى ذراعه بحرية وبكل طولها ، ويراجع أحلامه الفتوية .

في الامكان أن تمنع فيه العين من غير عجالة وتميزه كما هو : جميلا جماله الخاص ، نافر الخصلات ، احذب الانف ، ذا وجنتين حادتين ، وبشرة سمراء متوردة مشدودة . كم كان هذا الشاب من قرية تاتارسكي في تلك اللحظة فتيا ، مفتوحا لكل مسرات الحياة!

وأيامه قائمة على الفرح خلية ، بسيطة . وها هم فتیان القرية ينظمون السباقات ، وغريشا بالطبع ، شديد الولع بلعب الخيول . ثم جاء أوان حش المروج ، ويتهيا الى العمل بحذق . ان ذلك يريحه . وبصره يلتقط أرض المرج الملونة بتنورات النساء القشبية ، والمروحة الشفافة التي تكونها اشعة الشمس الغاربة وراء الجبال البعيدة . ومحشه يقطع الاعشاب بتنغيم ، تاركاً أثرا متماوجا ينساب بنعومة وراءه...

تبدو هذه الفصول من النظرة الأولى غير المتمعنة كثيرا « لا تقول شيئا مهما » وكأنها تخطيطات حياتية لمختلف وجوه المعيشة . نسمع نوادر الشاب المرح البسيطة تبدو على كثير من السذاجة . ونحس كيف يبرد الندى الاقدام الحافية . وكل ذلك يبدو ابسط من البسيط . وحتى ما حدث لغريغوري مع اكسينيا ، لا يحمل بعد ما يعكر كثيرا مجرى الايام الهاديء السمع ، الخالي من الاحداث من الناحية الاجتماعية...

ولكن في غضون ذلك هناك قصة تروى عن الشعب ، عن المجتمع ، عن الفرد . وبدأت ترسم ، بالفعل ، لوحة عريضة عن عالم القوزاق الخلقي ، بل ، اذا توسعنا قلنا وعن شعب روسيا بأسرها ، في عشية الحرب الامبريالية الاولى ، مع الاحساس بدنو الثورة العظمى .

ان اللحظات الاجتماعية لحياة البطل ، وما هو شخصي لصيق به ،

تماما ، يرد في «الدون الهادي» في وحدة متلاحمة ، ويشكل تيارا حياتيا هداراً واحدا . وفي سلوك غريغوري ميليوخوف الاجتماعي ، ومصيره الحياتي الكثير من النموذجي بالنسبة لقوزاق تلك السنين ، وفي نفس الوقت لا نجد شبها لكل ما يحصل له بشيء آخر . لم يتكرر في اي انسان ، وعلى الاطلاق ، مصير وشخصية غريغوري ميليوخوف! على الأقل لأن ما هو متناقض في هذه الشخصية كأنما مضاعف ، واكثر من مضاعف ، ولا عجب . فانه «تركي» «شركسي» حفيد بروكوفي الذي دخل اسمه ولمدة طويلة في تاريخ قرية تاتارسكي ، لانه كان جسورا بشكل فريد في اتخاذ القرارات ، وصلبا بشكل مذهل في الدفاع عن كرامته الانسانية...

ومن ناحية اخرى تبدو قصة حب غريغوري واكسينيا الجميلة منفصلة بما فيه الكفاية عن كل ما هو اجتماعي الى ابعد الحدود . ولكننا نفكر : أليست هي الاخرى مرتبطة ، بطريقتها الخاصة ، بتحول الاحداث والمعارك الاهلية ، وذات صلة بالتحول الشديد لمصير غريغوري السياسي ، وعموما ، بكل بحثه المضني عن الطريق الصحيح في الحياة ؟

والذي يحدث على الدوام أن الواقع الثوري يضيف ألوانه ، على نحو فريد ، ليس على ما كان يبدو خصوصا ، غير خاضع لاية تأثيرات خارجية بل على مصير غريغوري كله . ومن بداية الرواية حتى نهايتها لا يضعف ميدان الأحداث الموحد الجبار القوي .

تضم رواية «الدون الهادي» أكثر من ٦٠٠ شخصية ، وجميعهم ضروريون لان نفهم في اكثر ما يمكن من العمق ونقيم بشكل اصدق تلك الشخصية المعقدة من الشعب ، الباحثة بعذاب عن موقعها في الثورة . فغريغوري ميليوخوف مرتبط ، بهذا الشكل او بذاك ، بكل هذه الشخصيات ، وحتى بأولئك الذين لم يلتقهم بشكل مباشر ابدأ ، في شربكات الاحداث العاصفة .

وعلى خلفية مصائر كل هذه الشخصيات الستمائة في «الدون الهادي»

(وشخصيات من مثل بونتشوك أو ميشكا كوشيفوي قبل كل شيء) يمكن ان نفهم الى الآخر تاريخ حياة غريغوري نفسه ، تلك الفكرة العميقة التي وضعها المؤلف في هذه الشخصية الرائعة حقا .

و«الدون الهادى» سرد قصصي يبين لنا كيف تستحوذ عملية الثورة بشكل لا مرد له على الانسان مهما كان موقفه من الثورة ذاتها معقدا ومتناقضا .

ومع السنين تكشف رواية شولوخوف امام عالم القراء المزيد والمزيد من طبقاتها الجديدة ذات الدلالة ، والمواضيع والصراعات ، والمشاكل الاجتماعية والمعاشية المحضة التي لم يلحظها النقد من قبل . ولا يخلو من دلالة أن الجدل الابداعي الواسع الذي يدور حول «الدون الهادى» منذ عام ١٩٢٨ لا ينقطع . فالكتاب هو نفس الكتاب ، ولكن الاسئلة التي تبرز في مجرى النقاش ، في العقود المختلفة ، تبدو مختلفة .

يتصور البعض ان «الدون الهادى» يظهر بشكل شامل ومقنع اصطفا القوى الطبقيّة في الثورة والحرب الاهلية ، وأن المؤلف يجيب ، بالدرجة الاولى ، عن هذا السؤال : كيف تصرف الفلاحون المتوسطو الحال ، والذين ترتبط بهم دائما احدى اللحظات في أية ثورة شعبية . وبالطبع ليس من الصعب إيجاد الأسس لمثل هذا الرأي في المعيار العام للرواية وفي تفاصيلها ، فان «الانقسام» الطبقي لأبطال «الدون الهادى» واضح جدا . في أحد الطرفين يقف أفقر القوزاق («ولد» ، كريستونيا ، بروخور زيكوف ، كوشيفوي) وفي الطرف الاخر المستغلون الريفيون «ذوو الايدي البيض» (موخوف ، كورشونوف ، ليستنتسكى) وبينهما آل غريغوري ميليوخوف الذي يمثلون الوسط في أكثر مظاهره الاجتماعية والخلقية تعبيراً...

وآخرون في التزامهم «الضيق» للطريق السيوسياولوجي يجدون في الرواية ، دون عناء ، المادة اللازمة لان يستنتجوا : لقد كان من المهم لشولوخوف أن يظهر أن الجماهير الكبيرة ، القسم الكبير من الشعب وليس

فقط المشاركون الأفراد في الثورة يمكن أن يتعرضوا ، دون وعي ، إلى الضلال التاريخي ، ويجدوا أنفسهم منجرين إلى قضية غير صحيحة مناقضة لمصالحهم ، كما حدث ذلك في تمرد فيشينسكويه . ان تتبع طريق البطل باعتباره «ضلالا» من جانبه يعارض في البحث الأدبي اعتبار هذا الطريق جريمة ثابتة لغريغوري إزاء الثورة والشعب . جريمة شخص وحيد لم يرغب في الإصغاء إلى حقيقة الشعب المعذبة ، التي قادت أغلبية القوزاق إلى الطريق الثوري الصحيح الوحيد .

وفي رأيي إن الكثير جداً من الأدلة المقنعة سيجد ، في عمل شولوخوف هذا ، اصحاب الرأي القائل بأن الجوهرى ، بالنسبة «للدون الهادى» هو دحر الفكرة الكاذبة عن إمكانية وجود طريق ثالث للثورة . وفي حقيقة الأمر : لماذا ترك غريغوري معسكر الحمر ، على الرغم من انه كان يكره البيض «ذوي الايدي البيض» بكل قوة روحه المتمردة ؟ فهو ليس انانياً ، على الاطلاق ، ولا مالكا صغيراً ، بل على العكس ، إنه في إلقائه نفسه في الاتون ، غير باخل بها ، كان يريد أن يجد أفضل نصيب لشعبه الذي يتعرض غريغوري في سبيله لجميع العذابات التي وصفها المؤلف ذلك الوصف البليغ . ومع ذلك فإن مصيبة غريغوري هي أنه كان يعتبر الشعب كله يتجسد كلياً في القوزاق ، ولا يرى شعباً خارج الدون ، ولا يفهم «عذابات» «روسيا» هنا . ولم يكن متعطشاً أبداً للقتال مع «روسيا» هذه . يكفيه أن يكون للقوزاق برنامج بسيط بما فيه الكفاية : وليتحارب البيض مع الحمر ، أما نحن فسنجد طريقنا إلى الثورة ، الطريق الذي لا يؤدي إلى هؤلاء ، ولا إلى اولئك... وكل التاريخ الحياتي لبطل الرواية الرئيسي ، وتاريخ الكثيرين الذين كانوا مرتبطين به يخبرنا أيضاً إلى أين تؤدي بالناس مثل هذه الفلسفة في ظروف الانقسامات الثورية العظيمة .

في كل ثورة ، في كل عاصفة اجتماعية يوجد دائماً أناس يحاولون خداع انفسهم بهذه الفكرة البريئة من الوهلة الاولى ، فكرة الحياد

السياسي . ولكن كم من الناس قادت الى حافة الهاوية ، وكم من الناس دفعت الى دوامة مصائب وعذابات لا حصر لها! وقد أظهرت رواية «الدون الهادى» كل ما ينطوي عليه هذا الموقف الـ «بين بين» من تهلكة في الصراع بين القوى المقاتلة من أجل الحياة او الموت ، وفشل البحث عن «طريق ثالث» بين الحق والباطل ، الخير والشر ، النور والظلمة ، الثورة والعداء للثورة ، الايديولوجية التقدمية ، والايديولوجية الرجعية . وفي هذا المنحى يمكن ان تضاف ميزة اخرى الى الميزات الكثيرة لرواية شولوخوف الرائعة هذه وهي أن هذا العمل يصف كيف أن الافكار الاجتماعية السياسية تأسر الناس ، جماهير غفيرة من الناس ، ويكشف أهمية هذه الافكار بالنسبة لناس أحياء ، بالنسبة لعائلة بعينها او هذه القرية المعنية . ان الثمن الفعلي لفكرة «الطريق الثالث» في الثورة هو حياة غريغوري المريرة ، وموت جميع المحيطين به على وجه التقريب .

بالطبع ، إن مثل هذا التفسير «للدون الهادى» ليس إلا واحداً من التفسيرات العديدة ، ولا يستوعب مطلقاً كل الغنى الفكري للرواية . ومهما كان عدد التفسيرات التي تظهر يجب أن نفهم دائماً ، مثلما لاحظ الاكاديمي السوفييتي خرابتشنكو ، ان السمة الحقيقية لفن شولوخوف «تتمثل في أنه اعطى للشخصيات التي أبدعها عمقا مذهلاً ، وملأها بمحتوى ذي أهمية انسانية شاملة» .

في «الدون الهادى» لوحة تاريخية محددة هائلة ، وأمام نظر القارىء تندلع عاصفة الثورة النارية ، وتجري الاحداث على مساحة هائلة - من بطرسبورغ الثورية وخنادق غالييتسيا الى قرية على الدون ، وسهوب الكوبان ، التي صارت مسرحاً لواحدة من أخطر معارك الثورة . ومع كل هذه السعة توجد عناية دقيقة ومتفحصة بشكل مذهل تكاد تشمل كل الذين يقعون في مدى نظر المؤلف ، عناية بالتحولات المفاجئة للمصائر ، وباليومي الاعتيادي المعيشي الصغير...

ويجب بشكل خاص أن يُبرز في مهارة شولوخوف فن النفاذ
السيكولوجي الى حياة البطل الداخلية الروحية ، فالقارئ يعيش شيئاً فشيئاً
ودون أن يدري أحاسيس البطل ، وينظر بعينه الى ما يحيطه .

إن العبارة التي ألقاها شولوخوف ذات مرة في حديث مع ادباء فرنسيين
تجعلنا اكثر فهما لما يقلق شولوخوف أكثر من غيره في حياة الإنسانية وفي
مصير كل فرد محدد . لقد قال شولوخوف :

« يهمني الناس الذين تستحوذ عليهم الفورات الاجتماعية والوطنية... إذ
يبدو لي أن شخصياتهم تتبلور في هذه اللحظات » .

ويمكن للمرء ان يسمع من صفحات «الدون الهادي» « ذلك النداء
الداعي إلى تذكر الانسان دائما في كل الازمنة ، وفي اية هزات وتغيرات
اجتماعية عالمية . إن ذلك ما يؤكد الفنان الذي رسم شخصيات غريغوري
واكسينيا ، وبودتلكوف ، وبوتتشوك ، وايلينشنا ، وداريا ميليوخوفا . ومع
ذلك فان من القليل على شولوخوف الرضى بالتجاوب الخير مع مصيبة
انسان ، وقليل عليه أن يفهم الناس ويتعاطف معهم . بل ان الكاتب كان
يريد أن تغير الشخصيات التي أبدعها النشاط ، وتدعو بفعالية الى مساعدة
الانسان .

يشترط ميشاق جائزة نوبل أن يلقي الحائز عليها كلمة تعطي بشكل
موجز تصورا عن نظرات الكاتب إلى الحياة والفن ، والى واجب الفنان . وقد
قال شولوخوف عن نفسه ما يلي : « أود ان تساعد كتبي الناس ليكونوا
أحسن ، وأنقى روحا ، وتوقظ الحب نحو الانسان ، والسعي الى النضال
الناشط في سبيل مثل الروح الانسانية وتقدم البشرية » .
واعتقد ان ذلك أهم شيء لفهم مؤلف «الدون الهادي» كفنان ،
وكانساني .

ليتفينوف

ليس بمحراث شقّت أرضنا المجيدة... .
بسنايك الخيل تُحرث أرضنا ،
برؤوس القوزاق تُزرع أرضنا المجيدة ،
بهىء دوننا الهادىء بأرامله الصبايا ،
أبونا ، الدون الهادىء ، يزهو باليتامى ،
وأمواج الدون الهادىء، تزخر بأدمع الالباء والامهات .

ايه ، يا أبانا ، أيها الدون الهادىء!
ايه ، يا دوننا الهادىء ، علام تجري مياهك عكرة ؟
هيهات لي ، انا الدون الهادىء ، ان أجري صافيا!
ففي أعماقي تنبض ينباع باردة ،
وفي أحشائي ، ، أنا الدون الهادىء ، تتوائب الأسماك الشهب .

(أغنيتان قوزاقيتان قديمتان)

الجزء الأول

١

كان بيت ميليوخوف يقع عند طرف القرية الأقصى . وكانت بوابة زربية الماشية تفتح صوب الشمال باتجاه الدون . ويأتي الشاطئ وراء منحدر وعر يمتد مسافة حوالي سبعة عشر متراً بين صخور طباشيرية ضخمة يغطيها الطحلب . وثمة أكوام لؤلؤية من قواقع المحار ، وحافة رمادية اللون متكسرة قوامها الحصباء تلتحمها الأمواج ، ومن ثم وجه الدون الرقراق الفولاذي اللون ، تلاعبه الريح . وإلى الشرق ، وراء أسيجة من أغصان الصفصاف تحيط بساحات درس الحبوب ، يمتد طريق هتمان ، حيث يوجد نبات الشيح الرمادي ، ونبات لسان الحمل المتصلب ذو اللون البني والذي هرسه حوافر الخيل ، وثمة مصلى عند مفترق الطريق ، ثم يأتي السهب مغلفاً بضباب متنقل . وإلى الجنوب ، تمتد سلسلة من التلال الطباشيرية . وإلى الغرب ، هناك الشارع ، يقطع الساحة ميمماً صوب المروج الساحلية .

عاد القوزاقي بروكوفي ميليوخوف إلى القرية أثناء الحرب ماقبل الأخيرة مع تركياً ، وقد جلب معه زوجة : امرأة صغيرة متلفة بشال من رأسها إلى قدمها ، تغطي وجهها على الدوام ، ونادراً ما تكشف عن عينيها الوحشيتين الحزينتين . وكان الشال الحريري يحمل عطوراً غريبة فواحة ، وطرائزه

الملونة بألوان قوس قزح تغير حسد النساء القوزاقيات . وظلت هذه الأسيرة التركية بعيدة عن أقارب بروكوفي ، ولم يمض وقت طويل حتى أعطى ميليخوف العجوز لولده حصته من الإرث . وظلّ طيلة حياته يرفض أن يضع قدمه داخل بيت ابنه ، ذلك لأنه لم يستطع أن ينسى ذلك العار .

وسرعان ماتدبّر بروكوفي أمره ، فأقام له النجارون داراً ، وصنع هو بنفسه سياجاً لساحة الماشية ، وفي مطلع الخريف أخذ زوجته الأجنبية محنية الرأس الى دارها الجديدة . وقد سار معها خلال القرية وراء العربة المحملة بما لديهما من متاع الدنيا ، فاندفع الجميع ، شيباً وشباناً ، الى الشارع . وكنتم الرجال ضحكاتهم وراء لحاهم ، وتناقلت النسوة تعليقات مسموعة ، بينما اندفع سرب من أطفال القوزاق الوسخين يزعمون خلف بروكوفي . ولكنه واصل سيره بطيئاً ، بمعطفه مفتوح الأزرار ، وكأنه يترسم أرضاً حرثت توأ ، وهو يعصر معصم زوجته الرقيق بكفه السوداء الضخمة ، رافعاً رأسه ذا الناصية الشقراء ، في تحدٍّ واستخفاف . سوى أن أكياسه الدهنية تحت عظام خديه انتفخت وارتعشت ، وتفصّد العرق بين حاجبيه المقطبين دائماً .

منذ ذلك الحين لم يقع عليه نظر إنسان في القرية إلا نادراً ، ولم يحضر هو لقاءات القوزاق بتاتاً . وعاش حياة عزلة في داره المنفردة على جانب الدون ، ورويت عنه حكايات غريبة في القرية . زعم الصبيان الذين يرعون العجول وراء طريق المريج أنهم كانوا يشاهدون بروكوفي كل مساء ، وضوء النهار يتلاشى ، يحمل زوجته بين ذراعيه حتى رابية مدفن التتار . فيجلسها على قمة الرابية ، مسنداً ظهرها الى صخرة مسامية تاكلتها الأنواء ، ويجلس هو الى جانبها ، والاثنان يحدقان بثبات عبر السهب ويلبثان يحدقان حتى يتلاشى الغروب ، ثم يلف بروكوفي زوجته بمعطفه المصنوع من الجوخ الخشن ويحملها عائداً الى البيت . وتاهت القرية في الظنون ، بحثاً عن تفسير غريب كهذا . وتقولت النساء كثيراً حتى انشغلن عن تفلية رؤوسهن

بحثاً عن القمل . وسرت الشائعات حول زوجة بروكوفي أيضاً ، فقال البعض أنها ذات جمال خلّاب ، وذهب آخرون الى نقيض ذلك . على أن الأمر حسم في الأخير حينما انطلقت الى دار بروكوفي واحدة من أكثر النساء جرأة ، وهي مافرا زوجة الجندي ، بحجة الحصول على شيء من الخميرة . وحين نزل بروكوفي الى القبول لجلب الخميرة ، سنحت الفرصة لمافرا لتكتشف أن سبية بروكوفي التركية كانت الرعب بعينه...

بعد بضعة دقائق كانت مافرا ، وقد تورّد وجهها وانداحت عصابة رأسها ، تسامر جمعاً من النساء في زقاق صغير :

- وماذا يمكن أن يكون قد رأى فيها ، يا عزيزتي ؟ ليتها كانت امرأة حسب ، ولكن مخلوقاً مثلها!... لا مؤخرة لها ولا نهد! هي الهول بعينه! إن فتياتنا لذوات أجساد أفضل! عجباً! وأنتن تستطعن أن تفككن جسمها ، كالزنبور . أما تلكما العينان الهائلتان السوداوان ، فإنها تجعلهما تومضان كما يفعل الشيطان ، اللهم اغفر لي . لا بد أنها على وشك الولادة ، يشهد الله .

فقالت النساء في دهشة :

- على وشك الولادة ؟

- لست ابنة البارحة! فقد ربيت ثلاثة أبناء بنفسي .

- ولكن ، ترى ما شكل وجهها ؟

- وجهها ؟ أصفر . لاضياء في عينيها . ويتوجب عليّ أن أقول أنها لا

تجد الحياة في أرض غريبة محققة لأحلامها . والأدهى ، يا فتيتاتي ، أنها

ترتدي .. سروال بروكوفي!

فشهقت النساء معاً وفي ذعر : - مستحيل!

- لقد رأيته بنفسي ، إنها ترتدي السروال ، ولكن من غير أشرطة لا بد

أن ما عليها هو سروال عمله . إنها ترتدي قميصاً طويلاً ، ومن تحته يمكن

لكن أن تشاهدن السروال محشواً في الجواريب . أنا ، حينما رأيته ، سرت

البرودة في دمي...

وانتشر الهمس في القرية أن زوجة بروكوفي ساحرة . وأقسمت زوجة ابن استاخوف (وآل استاخوف كانوا أقرب جيران بروكوفي) انها شاهدت زوجة بروكوفي في اليوم الثاني للثالث* ، قبيل الفجر ، حافية ، حاسرة الرأس ، تحلب بقرة استاخوف في ساحة الماشية . ومنذ ذلك الحين تضاءل ضرع البقرة حتى صار بحجم قبضة الطفل ، وفقدت البقرة حليبها ، ثم سرعان ما نفقت .

في تلك السنة ، كانت ثمة حالة غير اعتيادية نفق خلالها الكثير من الماشية ، وعند المناطق الضحلة من الدون كانت تظهر ، كل يوم ، جيف جديدة لأبقار وعجول على الشاطئ الرملي . ثم سرت العدوى الى الخيل . وقلت القطعان التي كانت ترعى في مراعي القرية . وزحفت خلال أزقة القرية وشوارعها إشاعة شريرة...

عقد القوزاق اجتماعاً ثم ذهبوا الى بروكوفي ، فخرج الى درج العتبة وانحنى لهم قائلاً :

- ماالذي أستطيع أن أفعله من أجلكم ، أيها الشيوخ المبعجلون ؟ وبدون أن ينبسوا ببنت شفة ، تقدم الجمع من الدرج . وكان أول الصارخين عجوز مخمور :

- جرّ ساحرتك الى هنا! فلسوف نحاكمها...

فاندفع بروكوفي الى داخل الدار ، غير أنهم أمسكوا به في الممر ، وضرب قوزاقي ضخم ، يعرف باسم لوشنيا ، رأس بروكوفي على الحائط وقال له :

- ألق عن العراك ، ولا حاجة بك للصياح . نحن لن نمسك بشيء ، لكننا سنسحق زوجتك سحقاً . خير لنا أن نهلكها من أن تموت القرية بكاملها بسبب من نقص الماشية . ولكن إياك والعراك وإلا بقرت الحائط برأسك!

* الثالث في الدين المسيحي ، اتحاد الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . المترجمون .

وجاء الزئير من الدرج :

- اسحبوا العاهرة الى الفناء!

فلف زميل بروكوفي في الجيش شعر المرأة التركية حول إحدى يديه ، وبالأخرى أغلق فمها الصارخ وسحبها جرياً عبر الممر وطرحها أرضاً عند أقدام الجمع . وانطلقت صرخة حادة فوق الأصوات العاوية ، فانفلت بروكوفي من قبضة ستة من القوزاق واندفع متفجراً الى داخل الدار واختطف سيفاً من الحائط . فتدافع القوزاق بالمناكب وهم ينطلقون خارج الدار . وجرى بروكوفي نازلاً الدرج وهو يلوح بسيفه الصافر اللماع فوق رأسه ، فترجع الجمع وتفرقوا شذر مذر في أرجاء الفناء .

كان لوشنيا بطيئاً فاستطاع بروكوفي أن يلحق به عند السقيفة . وبضربة مائلة على الكتف الأيسر من الخلف شق سيف بروكوفي جسم القوزاقي الى حد الحزام . أما الجمع ، الذين كانوا ينتزعون أوتاد السياج ، فقد تراجعوا على أعقابهم وانطلقوا عبر ساحة درس الجيوب نحو السهب .

بعد نصف ساعة ، تجرأ القوزاق على الاقتراب من دار بروكوفي من جديد ، وتقدم اثنان منهم بحذر نحو الممر . هناك ، على عتبة المطبخ كانت زوجة بروكوفي راقدة ، وسط بركة من الدماء ، رأسها ملقى الى الوراء ، وشفتاها ملتويتان في ألم ، ولسانها المقضوم بارز الى الخارج . وكان بروكوفي يهز رأسه وفي عينيه حملقة زجاجية وهو يلف كرة صغيرة زاعقة في معطف من جلد الخراف - هو وليد جاء قبل الأوان .

ماتت زوجة بروكوفي في المساء . وأشفقت أمه العجوز على الطفل فتعهدته بالرعاية .

لبخوه بمعجون النخالة ، وأطعموه حليب الفرس ، وما أن مضى شهر حتى حملوه إلى الكنيسة ، بعد أن تأكد لهم أن الصبي الأسمر ذا الملامح

التركية سيعيش ، وهناك عمدوه ، وأطلقوا عليه اسم جدّه بانتلاي . ورجع بروكوفي بعد اثني عشر عاماً قضاها في الأشغال الشاقة . ولم يكن يشبه القوزاق بلحيته المقصوصة الحمراء التي وخطها المشيب ، وبملابسه الروسية . وأخذ ابنه وعاد الى داره .

شب بانتلاي أسمر البشرة صعب المراس . وكان يشبه أمه وجهاً وقالباً . وزوجه بروكوفي الى ابنة جار له قوزاقي .

منذ ذلك الحين بدأ الدم التركي يمتزج بدم القوزاق ، وهكذا ظهر في القرية آل ميليخوف ، الذين عرفوا باسم الأتراك ، وهم القوزاق ذوو الأنوف المعقوفة والوسامة المتوحشة .

وحيثما مات بروكوفي ، تعهد ابنه بانتلاي شؤون الدار ، فأعاد تسقيف الدار بالقش ، وألحق بالحقل نصف هكتار من الأرض المشاعة ، وبنى سقائف جديدة ومخزناً للحبوب جعل له سقفاً من صفائح الحديد . وطلب من السمكري أن يقطع من مخلفات الحديد زوجاً من ديوك ، وحيثما ثبت هذان على سطح المخزن ، أضفيا حيوية على عزبة ميليخوف وأصبغا عليها مظهر الاعتداد والرفاهية .

تحت وطأة السنين العابرات أصبح بانتلاي بروكوفتش مفتول العضل صلباً ، وعرض جسمه واحدودب قليلاً ، ولكنه مافتيء ، يبدو رجلاً كبيراً قوي البنيان . لقد كان يابس العظام ، أعرج (فقد انكسرت ساقه اليسرى في شبابه حينما كان يطفر الموانع أثناء استعراض امبراطوري للجيش) . وكان يعلق في أذنه اليسرى قرطاً فضياً على شكل هلال ، وبقي شعره ولحيته محافظين على لونهما الأسود الزاهي حتى تقدمت به السن . وكان اذا استبد به الغضب فقد زمام نفسه ، مما جعل ، بلاشك ، زوجته الممتلئة تشيخ قبل أوانها ، ويصبح وجهها ، الذي كان جميلاً يوماً ما ، كنسيج العنكبوت ، مليئاً بالغضون .

وقد ورث بيوتر ، ابنه الأكبر المتزوج ، عن أمه قامة معتدلة وأنفأ

أفطس ، وشعرأ غزيراً بلون الحنطة ، وعيوناً بنية . غير أن الابن الاصغر ، غريغوري ، كان يشبه أباه . وهو أطول من بيوتر بمقدار نصف رأس ، وأصغر منه ست سنوات ، وله ذات الأنف المتدلّي المعقوف الذي كان لأبيه ، أما بياض عينيه الملتهبتين فكان مائلاً الى الزرقة داخل شقيهما المنحرفين قليلاً . وكان جلده أسمر مائلاً للحمرة ، مشدوداً على عظام خديه البارزين . وقد احدودب ظهر غريغوري قليلاً ، تماماً كأبيه . حتى في ابتسامته كانت ثمة سمة متشابهة ، وحشية بعض الشيء .

ويكتمل شمل أسرة ميليخوف بدونيا ، الأثيرة لدى والدها ، وهي صبية نحيفة ذات ذراعين طويلتين وعينين واسعتين ، وداريا ، زوجة بيوتر وطفلها الصغير .

٢

كانت نجومات قليلات تتلأأ في سماء الفجر الرمادي ، والريح تهب عند أعتاب الغيوم . وثمرّة ضباب عال يتدحرج فوق الدون ليتجمّع عند منحدر تل طباشيري ، ويزحف داخلاً الأخاديد كما تزحف أفعى رمادية لا رأس لها . وكانت الضفة اليسرى للنهر ، والرمال ، والغدران المعشوشبة ، ومستنقعات القصب ، والأشجار الندية تومض تحت ضياء الفجر البارد الفتان . ووراء الأفق ، كانت الشمس تحترق بلا لهب ، وهي لما تزل متحجبة .

كان بانتلاي بروكوفتش أول من استيقظ في دار ميليخوف ، فخرج الى العتبة وهو يزرر ياقة قميصه المطرّز ، كان الفناء الحشيشي مغطى بلون فضّي ندي ، فأطلق الماشية في الشارع . وجرت داريا لتحلب البقرة وهي ماتزال ترتدي قميص النوم ، وتلأأ الندى على سمانتتي ساقها البيضاء العاريين ، وتركت قدمها على حشيش الفناء أثراً فضياً .

ووقف بانتلاي بروكوفتش لحظة يراقب الحشيش وهو يستقيم بعد أن تطأه أقدام داريا ، ثم استدار عائداً الى الغرفة .
على افريز النافذة المفتوحة كانت ثمة أوراق ازهار وردية لشجرة الكرز الآخذة بالتفتح في الحديقة الأمامية . وكان غريغوري نائماً على وجهه وإحدى ذراعيه مسبلة إلى جانب .

- غريغوري ، أتأتي للصيد ؟

فتساءل هامساً وهو ينزل ساقيه من السرير :
- ماذا ؟

- تعال نخرج للصيد حتى طلوع الشمس .

فسحب غريغوري بنطاله اليومي من المشجب ، وهو يتنفس من أنفه في تشاقل ، ولبسه ، ودسّه في جواربه الصوفية البيضاء ، وقضى وقتاً طويلاً في لبس حذائه وهو يصلح من وضع أعلى كعبيه المطويين .

وتساءل بصوت أجش فيما كان يتبع أباه الى الممر :

- ولكن هل غلت أمني طعم الصيد ؟

- أجل . اذهب الى القارب . سأتي بعد دقيقة .

وصب العجوز الجويدار* المغلي ذا الرائحة النفاذة في إناء ، ولمّ الحبات المتساقطة بحرص في كفه ومضى يطلع نحو الشاطئ ، فوجد ابنه جالساً في القارب محدودب الظهر .

- أين ستذهب ؟

- إلى الشاطئ الاسود . وسنجرّب الصيد عند الشجرة الغريقة حيث

كنّا نصيد منذ أيام .

انفصل القارب عن الشاطئ ، ومؤخرته تخط على الأرض ، ثم استقر في الماء . وحمله التيار ، وهو يهزه محاولاً أن يقلبه جانباً ، فيما كان

* الجويدار : نبات كالشمير . المترجمون .

غريغوري يقوده بالمجذاف دون أن يجذف .

- فيم لا تجذف ؟

- لنصل الى وسط التيار أولاً .

وتحرك القارب باتجاه الضفة اليسرى قاطعاً تيار المجرى الرئيسي . وتعالى وراءهما صياح ديوك القرية الرنان منداحاً فوق الماء بلا رنين . وفيما كان جانب القارب يحتك بالضفة الصخرية السوداء المتعالية فوق النهر ، اقترب من الشق . وعلى مبعده حوالى عشرة أمتار من الشاطئ ، ظهرت من الماء أغصان معوجة لشجرة دردار غريقة ، ودارت حولها ودومت فقايع زبد مضطربة .
همس الأب لابنه :

- أحضر الخيط بينما أنثر أنا الطعم .

وغمس يده في فوهة الإناء الذي يتصاعد منه البخار . وتناثر الجويدار في الماء بصوت مسموع كما لو أن أحداً كان يهمس « شش » . ثم لضم غريغوري بعض الحبات المنتفخة في الصنارة ، وتبسم :

- هيا ، يا أسماك! صغيرات وكبيرات معاً!

ونزل الخيط في الماء بدوائر وتوتر ، ثم ارتخى من جديد حالما وقعت رصاصة الصنارة في القمر . ووضع غريغوري قدمه على نهاية العصا ، ودس يده في جيبه بحذر ليخرج كيس تبغه .

- لا حظاً لنا اليوم يا أبتاه . فالقمر في المحاق .

- هل جلبت بعض عيدان الكبريت ؟

- أي .

- أعطني ناراً .

وشرع العجوز يدخن ، وحدج صوب الشمس الراقدة وراء شجرة الدردار . وأجاب :

- يأكل الشبوط الطعم كما يحلو له . فقد يفعل ذلك أحياناً والقمر في

أقول .

فتنهـد غريغوري :

- يبدو أن صغيرات الأسماك ينقرن الطعم .

وتلاطم الماء سخاباً على جانبي القارب ، وقفز الى الأعلى شبووطاً
طوله أكثر من متر ، زاهٍ كما لو صب من نحاس أحمر ، وهو ينن ، ضارباً
الماء بذيله العريض المقوَّس . وتناثرت قطرات كبيرة من الرذاذ فوق
القارب .

ومسح بانتلاي بروكوفتش لحيته المبللة بكمه :

- انتظر الآن!

وإلى جانب الشجرة الغريقة وبين الأغصان العارية المتفرعة ، قفز
شبوطان في آن واحد ، وتلوى ثالث في الهواء ، أصغر حجماً ، ورف بعناء
قرب الشاطئ .

لاك غريغوري بنفاد صبر عقب سيكارته المبلل . وكانت الشمس
الموشحة بالضباب قد طلع نصفها الآن . ونثر بانتلاي بروكوفتش بقية
الطعم ، وزم شفتيه معبساً وهو يشخص نظره بقساوة على طرف العصا
الساكن .

بصق غريغوري عقب سيكارته مراقباً انفلاته السريع في حلق . وفي
سرّه كان يلعن أباه لأنه أيقظه في ذلك الوقت المبكر . ثم إن التدخين
ومعدته خالية جعل الدخان يفوح من فمه وكأنه شعر محروق . وكان على
وشك أن ينحني ويغرف بعض الماء في كفه ، حينما تحرّكت نهاية العصا في
تلك اللحظة حركة طفيفة وبدأت تغيب في الماء .

همس العجوز :

- انتشه!

انتفض غريغوري وأطبق كفيه على العصا ، غير أنها تقوّست وغاص

طرفها بسرعة في الماء . جرت إلى الأسفل قوة هائلة كقوة الطارة العصا المرنة المصنوعة من الصفصاف الأحمر .

فدمدم العجوز : «أمسكه!» بينما كان يجنح بالقارب بعيداً عن الشاطئ .

حاول غريغوري أن يرفع العصا ، لكن السمكة كانت من القوة بحيث انقطع الخيط الغليظ محدثاً صوتاً جافاً ، فترنّج غريغوري وأوشك أن يسقط .

فتمتم أبوه : «إنها قويّة كالثور» فيما كان يحاول أن يلضم صنارة بشيء من الطعام الجديد دون أن يفلح . أمّا ابنه فقد أطلق ضحكة منفعة وشد خيطاً جديداً إلى العصا ، وألقى به في الماء . وما كاد الرصاص يصل الى القعر حتّى تقوّس طرف العصا .

فحمحم غريغوري وهو يداور السمكة في طرف الخيط . بصعوبة : «هوذا ابليس!» وجعلت هذه تندفع الى وسط التيار . وشق الخيط صفحة الماء محدثاً حفيفاً عالياً ، مخلفاً وراءه حاجزاً مائياً مخضوضراً . وجعلت أصابع العجوز القصيرة تعبت بمقبض المغرفة بلا تفكير .

- لا تدعه يدنو من القارب! حاذر أن يقطع الخيط!
- لا تقلق .

وارتفع الى سطح الماء شبوط كبير ، ذو لون أحمر وأصفر ، وخبط الماء محدثاً زبداً ، ثم غاص من جديد إلى الأعماق شاقاً الماء برأسه العريض .

- إنه يخلع ذراعي! كلا ، أيها الشبوط ، لن تفلت!

- أمسك به ، غريغوري!

- إنني مأسكه!

- لا تدعه يلجأ الى أسفل القارب! اياك!

وشرع غريغوري ، وهو يستعيد أنفاسه ، يسحب إلى القارب الشبوط

المنهك الراقد على جنبه ، ودفع العجوز المغرقة الى الماء ، لكن الشبوط عاد فغطس من جديد إلى الأعماق بما تبقى لديه من قوة .

وصاح العجوز :

- اجعل رأسه إلى الأعلى! ودعه يبتلع بعض الهواء ، فذلك كفيل بتهديته!
مرة ثانية ، سحب غريغوري السمكة المتعبة إلى القارب ، فطافت على سطح الماء وفمها مفتوح وأنفها يصطدم بحافة القارب الخشنة ، وزعانفها الذهبية ترف .

فقال بانتلاحي بروكوفتش منححاً ، فيما كان يرفع الشبوط بالمغرقة :
- لقد انتهى أمره!

ولبثا جالسين طوال نصف ساعة أخرى ، لكن سمك الشبوط لم يعد يتوائب .

وأخيراً قال العجوز :

- لف الخيط ، يبدو أننا حصلنا على نصيب يومنا .

استعدا للعودة فدفع غريغوري القارب بعيداً عن الشاطئ ، لقد اجتازا نصف الطريق . كان غريغوري يستشف من وجه أبيه أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، غير أن العجوز جلس يشخص بنظره في صمت الى بيوت القرية المتناثرة على سفح التل .

ثم شرع يتكلم متردداً وهو يجرجر عقدة الكيس تحت قدميه :

- اسمع يا غريغوري... لقد لاحظتُ أنك واكسينيا استاخوفا...

فاحمر وجه غريغوري بشدة ، وأدار رأسه . وحزّت ياقة قميصه رقبتة الغليظة التي لوحتها الشمس ، وضيقّت عليها حتى برز طوق أبيض من البشرة .

واستطرد العجوز ، خشناً ومغضباً هذه المرة :

- كن على حذر أيها الفتى ، وإلا فسيكون لي معك حديث من نوع

آخر . إن ستيبان جار لنا ، ولن أقبل بأي تعابث مع امرأته . فهذا الضرب من

الأشياء قد يؤدي الى أفدح الضرر ، وأنا أحذرك مقدماً ، إن وجدتك تعابثها
فسأسلخ جلدك!

وضم بانتلاي بروكوفيتش قبضته الناتئة ، ويعينين ضيقتين لاحظ
انحسار الدم عن وجه ولده .

تمتم غريغوري بصوت أجش : « كلها أكاذيب » ، وحدق صوب جسر
أنف أبيه المزرق .

- اسكت!

- الناس ميالون إلى الكلام...

- أمسك لسانك يا ابن العاهرة!

فانكب غريغوري على المجذافين ، وتوائب القارب الى الامام ، وجعلت
فقاقيع الماء تتراقص مبتعدة عن ذيل القارب في موجات صغيرة .

ظلا صامتتين إلى أن أشرفا على الشاطئ حين ذكره أبوه قائلاً :

- تذكر ماقلته لك ، وإلا فسأمنعك منذ اليوم من الخروج ليلاً ، وآئذ

لن تستطيع أن تمد قدماً خارج الحوش!

لم يجب غريغوري . وتساءل فيما كان يجنح بالقارب الى الضفة :

- هل سأعطي السمكة للنساء ؟

فأجاب العجوز بصوت أرق :

- اذهب وبعها ، وبئمنها تستطيع أن تبتاع لك تبغاً . وتبع غريغوري

أباه ، وهو يعض شفتيه . وقال في سره : « حاول ذلك ياأبي! فلسوف أخرج

الليلة حتى لو علقت قدمي » وراحت عيناه تنغرزان بقساوة في قفا رأس

العجوز .

حين وصل غريغوري إلى الدار ، غسل السمكة بعناية ونظفها من

الرمل ، وأدخل عوداً في خياشيمها .

عند بوابة الحوش التقى بصديقه القديم ميتكا كورشونوف . وكان

ميتكا يتمشى وهو يعابث طرف حزامه المرصع بالفضة ، وقد تلالأت عيناه

الدائريتان الصفراوان بوقاحة في حدقتيهما الضيقتين . كان بؤبؤا ميتكا
مستطيلين كبؤبؤي القطّة مما يجعل نظراته زائغة .

- أين تذهب بهذه السمكة ؟

- لقد صدناها اليوم ، وسوف أبيعها .

- لمو خوف ؟

- أي .

وبنظرة واحدة خَمَن ميتكا وزن السمكة .

- خمسة عشر رطلاً ؟

- خمسة عشر ونصف ، فقد وزنتها على القبان .

- خذني معك ، وسأقوم بالمساومة عليها .

- هيا إذن .

- وما هو نصيبي ؟

- لا حاجة بك للتخوف ، فلن يذهب تعبك سدى . كان القداس قد

انتهى ، والقرويون الخارجون من الكنيسة يملأون الشوارع .

وكان الاخوة من آل شامل يوسعون الخطى ، ثلاثتهم ، جنباً إلى جنب

في الطريق . كان أكبرهم ، أليكسي الأقطع* ، يتوسطهم ، وقد جعلت ياقة

قمصته العسكرية الضيقة رقبتة القوية تشرئب منتصبه ، وكانت لحية

الصغيرة المدببة ذات الشعر المجعد الخفيف تتلوى جانباً بشكل متحد ،

وعينه اليسرى تطرف بصورة عصبية فقد انفجرت بندقيته بيده أثناء تدريبه

على الرماية قبل عدة سنوات ، ونفذت شظية طائشة في وجنته ، وهكذا

غدت عينه اليسرى تطرف بمناسبة وبدونها ، وكانت ندبة زرقاء تمتد على

وجنته إلى أن تختفي وراء شعره الشبيه بألياف القنب . وقد بترت يده

اليسرى عند المرفق ، لكن أليكسي معروف بمهارته في لف السيكاارة بيد

* الأقطع : ذو الذراع الواحدة . المترجمون .

واحدة . يضغط كيس التبغ على صدره ويقطع الحجم المناسب من الورق بأسنانه ، ويلفه على شكل حوض ، ثم يضع التبغ ويلف السيكاره ، وقبل أن تدرك ما الذي يفعله تجده يسألك ناراً ليشعل سيكارته وهو يطرف بعينه .

وعلى الرغم من أنه ذو ذراع واحدة فإنه أبرع مقاتل في القرية . ولم تكن قبضته ضخمة بصورة متميزة عن القبضات الاعتيادية - حوالي حجم القرعة البرية - ولكن حدث مرة أن اغاظه ثوره أثناء الحراثة ، ولم يكن يحمل سوطه ، فانهال عليه بضربة من قبضته ، طرحت الثور على أخاديد الأرض المحروثة والدم يتدفق من اذنيه . ولم يستعد الثور صحته إلا بعد جهد . أما الأخوان الآخرا ، مارتن وبروخور فقد كانا يشبهان اليكسي حتى في أدق التفاصيل . كانا قصيرين قويين ، مثله ، وعريضي المنكبين ، سوى أن لكل منهما ذراعين .

حيّا غريغوري الأخوة شامل ، غير أن ميتكا واصل السير مشيحاً بوجهه بحدة . ففي مباريات النزال بالقبضات يوم عيد المرفع لم يظهر اليكسي أي اعتبار لأسنان ميتكا اليافة . فبضربة قوية ، أصابه في فمه وكانت النتيجة أن بصق ميتكا زوجاً من الاسنان الجيدة على الجليد الازرق الرمادي الذي حفرتة كعوب الأحذية الحديدية .

وفيما تقدّم اليكسي ناحيتهما ، غمز خمس مرات .

- أتبيع حملك ؟

- هل تريد أن تبتاعه ؟

- بكم ؟

- بزوج من الثيران زائداً امرأتك!

فزر اليكسي عينيه وهزهز طرف ذراعيه وقال :

- إنك لشخص هزلي! ها - ها! زائداً امرأتي! هل ستأخذ أولادها أيضاً ؟

فتبسّم غريغوري وقال مازحاً :

أبق لنفسك شيئاً للنسل ، وإلا فسينقرض آل شامل .

في ساحة القرية تجمع القوزاق حول سور الكنيسة . وكان حارس الكنيسة يمسك إوزة فوق رأسه ويصيح : خمسون كوبيكا . هل من مزيد ؟ »

ومدت الإوزة عنقها وجعلت تجيل النظر حولها ، بينما حولت عينها الخرزية بازدراء .

وسط إحدى حلقات الناس كان ثمة عجوز أشيب يقف ملوحاً بذراعيه ، وصدره مغطى بالأوسمة والميداليات . فقال ميتكا مشيراً ناحية تلك الحلقة :

- إن غريشكا العجوز يروي إحدى حكاياته عن الحرب التركية . فلنذهب ونستمع إليه .

- وبينما نستمع إليه ، سيجيف الشبوط وينتفخ .

- إذا انتفخ ، ازداد وزنه وهذا من صالحنا .

في الساحة الواقعة وراء مأوى عربية الحديقة - حيث توجد براميل متشقة ذات مقابض مكسورة - كان السقف الأخضر لبيت موخوف يرتفع أمام البصر . حين حاذى غريغوري المأوى بصق وسد أنفه : برز عجوز من وراء برميل وهو يزرر سرواله ويمسك حزامه بين أسنانه .

فسأله ميتكا بسخرية :

- هل ضايقتك بطنك كثيراً ؟

فأتم العجوز تزرير سرواله ، وأخرج الحزام من بين أسنانه وقال :

- مادخلك أنت ؟

- يجب أن يدس به ذقنك ولحيتك ، فلا تستطيع امرأتك أن تنظفه حتى

لو قضت أسبوعاً في غسله .

فقال العجوز في حنق :

- سادستك أنت فيه !

فضيق ميتكا عينيه الشبيهتين بعيني القط ، وكأنما في وهج الشمس .

- يالرقتك! أغرب عني ياابن العاهرة . فيم تضايقني ؟ أترغب أن تتذوق
طعم حزامي ؟

تضحك غريغوري وتقدم صوب مدخل بيت موخوف . كان الدرايزين
تزينه صفائر غزيرة من أغصان الكروم البرية ، بينما تظلمت الدرجات بظلال
كسلى .

- انظر كيف يعيش بعض الناس ياميتكا!

- حتى مقبض الباب مذقّب...

وضحك ميتكا ضحكة قصيرة فيما كان يفتح الباب المؤدي الى الشرفة ،
واستطرد :

- تصوّر ذلك العجوز وهو يدخل هنا...

ونادى شخص من الجهة الاخرى للباب : « من هناك ؟ » فدخل غريغوري
بحياء ، بينما ترك ذيل الشبوط أثراً على ألواح الأرضية المطلية .
- من تريد ؟

كانت ثمة فتاة تجلس في كرسي هزاز مصنوع من خشب الصفصاف ،
ويدها صحن من الفراولة . وحملق غريغوري بصمت في الشفتين الممتلئتين
الورديتين المرسومتين على شكل قلب تحتضنان ثمرة . ونظرت الفتاة الى
الفتيين ورأسها مائل الى جانب .

أسرع ميتكا لنجدة غريغوري . فتنحنح وهو يسأل :

- أتريدون شراء شيء من السمك ؟

- سمك ؟ سأذهب لأستفسر .

وأرجحت كرسيها صعداً ، ثم نهضت وخرجت تصفق بخفيها
المطرزين . وتلألأت الشمس خلال ثوبها الأبيض ، ورأى ميتكا معالم باهتة
لساقين ممتلئتين ودانتلا قميصها الداخلي العريض المتموج . وأذهله البياض
الحريري لسمانتي ساقها العاريين . أمّا عند كعبيها المكورين الصغيرين ،
فقد كان الجلد أصفر بلون الحليب . وقال لاكراً غريغوري :

- انظر أي ثوب! مثل الزجاج تستطيع أن ترى كل شيء خلاله .
وعادت الفتاة من الباب المؤدي الى الممر ، وجلست برشاقة على
الكروسي .

- اذهب إلى المطبخ .

فسار غريغوري على رؤوس أصابعه داخل البيت . ووقف ميتكا يطرف
محملقاً في الخط الأبيض لمفرق شعر الفتاة المقسوم إلى نصفي حلقة ذهبية .
وتفحصته هي بعينين مرحتين لا يقر لهما قرار .

- أنت من القرية ؟

- نعم .

- ابن من أنت ؟

- ابن كورشونوف .

- وما اسمك ؟

- ميتري!

وتفحصت أظافرها الوردية بتمعن ، وبحركة رشيقة ثنت ساقها الى
أعلى .

- من منكما اصطاد السمكة ؟

- صديقي غريغوري .

- وهل تصيد السمك أنت أيضاً ؟

- عندما تحدوني الرغبة .

- بالخيط والصنارة ؟

- نعم .

بعد برهة ، قالت :

- أود لو أذهب للصيد يوماً ما .

- حسناً ، سأخذك إن رغبت .

- حقاً ؟ وكيف يمكننا ترتيب ذلك ؟

- يستوجب عليك أن تستيقظي مبكرة جداً .
- سوف أستيقظ مبكرة ، سوى أن عليك أن توقظني .
- بإمكانني أن أفعل هذا . ولكن ماذا عن أبيك ؟
- ماذا عن أبي ؟
- فتضحك ميتكا وقال :
- قد يحسبني لصاً ويطلق الكلاب عليّ .
- هراء ! فأنا أنام في الغرفة التي في الزاوية . تلك هي النافذة - وأشارت إليها ، واستطردت : - اذا جئت تطلبني ، دق على النافذة فأستيقظ .
- وبين حين وآخر كان يأتي من ناحية المطبخ صوت غريغوري متهيباً ، ونبرة الطباخة الغليظة المتشحمة . وصمت ميتكا وهو يتحسس فضة حزامه .
- ثم سأله بابتسامة خفية :
- أنت متزوج ؟
- لماذا ؟
- اوه ، مجرد فضول .
- كلا ، أنا أعزب .
- واحمر وجه ميتكا فجأة ، أما هي فعادت تسأله وهي تبتسم في غنج وتعاث غصناً من التوت الشتائي* المتناثر على الأرضية :
- وهل تحبّك الفتيات يا ميتيا ؟
- بعضهن يحببنني وبعضهن لا يحببنني .
- قل لي... ولماذا تشبه عيناك عيني القط ؟
- القط ؟
- وهنا بلغ ارتباك ميتكا أشده .
- أجل ، فهما بالضبط كذلك ، كعيني القط .

* التوت الشتائي : المزروع في المنابت الزجاجية . المترجمون .

- لابد أنني ورثتهما عن أمي . ليس لي حيلة في الأمر .
 - ولماذا لايزوجونك يا ميتيا ؟
 وأفاق ميتكا من اضطرابه العارض ، وقد أحس بالسخرية الخفية في
 كلماتها ، وراح صفار عينيه يومض وقال :
 - لابد لديك أن يشدد عوده قبل أن يبحث له عن دجاجة .
 فرفعت حاجبيها دهشة ، واحمر وجهها ، ونهضت عن كرسيها . وكان
 ثمة وقع أقدام ترتقي الدرجات من الشارع .
 لقد لسعت ابتسامتها العابرة ميتكا كالشوكة . ومرّ بميتكا رب البيت ،
 سيرغي بلاتونوفيتش موخوف ، حاملاً جسده البدين في اعتزاز ، وهو
 يجرجر برقة حذاءه الكبير المصنوع من جلد الجدي .
 وتساءل ، فيما كان يمر دونما التفاتة من رأسه :
 - أريدني هذا الشخص ؟
 - لقد جلبا شيئاً من السمك يا بابا .
 وظهر غريغوري بدون شبوطه .

٣

كان صياح أول ديك قد انطلق حينما عاد غريغوري من سهرته تلك
 الليلة . وانبعث من ناحية الردهة عبير الكروم الحامضة ونبات الكرنب
 الشوكي ذي الرائحة النفاذة .
 مشى على أطراف أصابعه إلى الغرفة ، خلع ملابسه ، وعلق سروال يوم
 الاحد بعناية ، ورسم إشارة الصليب واستلقى . كانت على أرضية الغرفة بركة
 ذهبية من ضوء القمر ، تتقاطع عليها ظلال النافذة . وفي الزاوية التمتع فضة
 الإيقونات باهتة تحت المناشف المطرزة ، وانبعث من الرف المثبت فوق
 السرير طنين متكاسل لذباب مستثار .

وكاد ينام لولا أن ابن أخيه شرع يبكي في المطبخ . وبدأ المهد يصر
كعجلة عربية غير مشحمة . وسمع داريا ، زوجة أخيه ، تتمتم بصوت
نعسان : « نم أيها الملعون الصغير! أنت لاتدعني أظفر بلحظة هدوء! »
وشرعت تترنم للطفل بركة :

اووه ، أين كنت إذن ؟
كنت أراقب الخيل
وما الذي رأيت ؟
رأيت حصاناً ذا سرج
مقصباً ، كله ، بالذهب...

وفيما غريغوري يغفو على صرير المهد المنتظم المريح ، تذكر :
« غداً ، سيرحل بيوتر إلى المعسكر ، تاركاً داريا مع الطفل... سيتوجب علينا
أن نقوم بالحش بدونه » .
ودفن رأسه في وسادته الحارة ، غير أن تنويمه داريا ظلت تنفذ إلى
إذنه بإصرار :

وأين هو حصانك ؟
خارج البوابة
وأين هي البوابة ؟
جرفها الفيضان بعيداً

وانبعث سهيل قوي أطار من عينيه النوم ، وأدرك من نبرته أنه حصان
بيوتر العسكري . وامتدت أصابعه الخدرة ليزرر قميصه بثاقل ، وكاد أن
يلفه النوم من جديد على وقع أغنية داريا المنساب :

وأين هو الإوز ؟

راح الى القصب
وأين هو القصب ؟
قطعته الصبايا
وأين هن الصبايا ؟
الصبايا تزوجن
وأين هم القوزاق ؟
ذهبوا الى الحرب

توجه غريغوري النعسان إلى الإسطنبول وقاد حصان بيوتر إلى الشارع .
وفارقه النعاس من غير ما توقع حينما دغدغ وجهه نسيج عنكبوت طائر .
عبر الدون ، انتشر ضوء القمر متراقصاً ، لا يطاله الموج أبداً . وتعلق
فوق النهر ضباب ، وفوق الضباب نجوم ، كحبات قمح متألئات . وفي حذر
شديد تهجس الحصان طريقه بحوافره ، فالمنحدر إلى النهر صعب الارتياح ،
ومن الجانب الأقصى للنهر تنهى صياح البط . وقفزت سمكة قرموط محدثة
رذاذاً على الشاطئ الطيني الضحل ، تبحث على غير هدى عن سميكات
أصفر .

وقف غريغوري وقتاً طويلاً إزاء النهر . كان الشاطئ ينضح برطوبة
وعفونة شديدين . سقطت من شفتي الحصان رذاذة ماء . كان ثمة فراغ
رقيق وبهيج في فؤاد غريغوري ، وغمره شعور بالطيبة وصفاء البال . وفيما
انثنى عائداً حديق صوب الشرق حيث شرعت عتمة الليل الزرقاء تنجاب
رويداً رويداً .

والتقى بأمه عند الاصطبل .
- أهذا أنت يا غريشا* ؟

* صيغة تحب لاسم غريغوري . المترجمون . .

- ومن عسى أن يكون ؟

- هل أوردت الحصان ؟

فأجابها باقتضاب أن : « نعم » . وألقت أمه رأسها إلى الوراء وهي تحمل
ملء صدريتها روئاً جافاً للموقد ، وقدمها الحافيتان المتيبستان تصطفقان
على الأرض .

- هلاً ذهب لإيقاظ آل استاخوف . فقد قال ستيبان أنه سيمضي مع
ولدنا بيوتر .

وأشاعت رطوبة الصباح قشعريرة باردة راعشة في غريغوري ، وسرت
في جسمه وخزات مخدرة . وجرى صاعداً الدرجات الثلاث ذات الصدى
المتجاوب الى دار استاخوف . كان الباب مرفوع المزلاج ، وكان ستيبان
نائماً على فرشة في المطبخ ورأس زوجته تحت إبطه .

وعلى ضوء الفجر الشاحب رأى غريغوري قميص نوم اكسينيا منحسراً
فوق ركبتها ، ونظر إلى ساقها المنفرجتين بلا حياء بيضاوين كالحاء نبات
البتولا . فوقف لحظة يحمق ، وهو يحس بجفاف يزحف في حلقه ودوي
حديدي يتفجر في رأسه . جعل يسترق النظر . ثم نادى بصوت أجش
غريب :

- هاي! هل من أحد هنا ؟ استيقظوا!

وتنهدت اكسينيا بعمق وهي تستيقظ .

- اوه ، من هذا ؟

ومدت يدها العارية وشرعت تتحسس قميصها باستعجال ، مسوية إياه
فوق ساقها . وكان لمة قطرة صغيرة من الرضاب على وسادتها : فنوم
النساء عميق عند الفجر .

- هوذا أنا . أرسلتني أمي لأوقظكما .

- سننهض بعد لحظة . إننا نائمان على الأرض بسبب من البراغيث . قم

يا ستيبان ، ألا تسمعي ؟

وَحَمَنَ غريغوري من صوتها أنها شعرت بالخرج ، فأسرع بالخروج .

ثَمَّة ثلاثون قوزاقياً سيذهبون الى معسكر ربيعي للتدريب ومكان اجتماعهم ساحة القرية . وقبيل الساعة السابعة بدأت تتوارد على ساحة القرية عربات ذات أغطية مشمعية ، وقوزاق مشاة وخيالة يرتدون قمصاناً خفيفة ويحملون عُددهم .

كان بيوتر واقفاً عند عتبة الدار وهو يخطط باستعجال عناناً مقطوعاً . وكان بانتلاي بروكوفيتش يظلع حول حصان بيوتر ، ويضع شوفاناً في مغلغه ، ويصيح من حين لآخر :

- دونيا ، ألم تضعي كسرات الخبز في الكيس بعد ؟ هل ملّحت شرائح لحم الخنزير ؟

وكانت دونيا تنطلق كالسنونو رائحة غادية ، متوردة الوجنتين ومتفتحة كالبرعم ، وهي ترد على صيحات أبيها بالضحك :

- عليك بما يخصّك يا أبتاه ، وأنا سأحزم متاع أخي بصورة متقنة بحيث لن يتحرك منه شيء حتى يصل تشركاسك .

وسأل بيوتر والده وهو يوميء برأسه الى الحصان ويبلل الخيط برضابه :

- ألم ينته من طعامه بعد ؟

فأجاب أبوه متأنياً : «لم ينته بعد» فيما كان يفحص مرشحة السرج بكفه الخشن ، فإن وجود عشبة أو كسرة خبز صغيرة عالقة بالمرشحة قمينة ، خلال مسيرة واحدة ، بحز ظهر الحصان وجعله يتقيح .

- حينما ينتهي من طعامه ، أوردّه ياأبي .

- سينزل به غريشا الى الدون . ياغريغوري قد الحصان الى النهر؟

أخذ غريغوري الحصان الطويل الضامر ، ذا الغرة البيضاء ، وقاده خلال البوابة ، ثم قفز إلى ظهره مسنداً يده اليسرى برفق على غاربه ، ومضى في

خبيب متمايل . وحاول أن يكبح جماح الحصان عند النزول الى النهر ، غير أن الحيوان أسرع الخطى وجرى نازلاً المنحدر . وفيما أرجع غريغوري ظهره إلى الوراء حتى كاد أن ينطبق على العمود الفقري للحصان ، رأى امرأة تحمل سطلين نازلة التل . فأنحرف بحدة عن الممشى وانطلق الى الماء مخلفاً وراءه مثاراً من النقع .

جاءت اكسينيا هابطة المنحدر وهي تتمايل ، وصاحت بصوت زاعق من بعيد :

- أيها الشيطان المجنون! كدت تدحرجني بحصانك . ألا انتظر ،
فلسوف أحكي لوالدك كيف تركب .

- لا ياجارتي ، لا تغضبي . فحينما تودعين زوجك الذاهب الى
المعسكر ، قد أكون ذا فائدة في بيتك .

- وكيف بحق الشيطان ستكون ذا فائدة لي ؟
وتضاحك غريغوري قائلاً :

- ستطلبيني حينما يحل موسم الحصاد .
وغرفت اكسينيا بمهارة سطلاً مليئاً بماء النهر ، وحبست تنورتها بين
ركبتيها لتحميها من الريح ونظرت إلى غريغوري .
سألها غريغوري :

- هل تهيأ ستيبان للرحيل ؟

- وما دخلك أنت ؟

- أية نارية أنت! ألا يجوز السؤال ؟

- حسناً ، لقد تهيأ . ثم ماذا ؟

- إذن ستصبحين امرأة بلا رجل ؟

- نعم .

رفع الحصان شفتيه من الماء ، صرّ بأسنانه وهو يحاول أن يلوك الماء
وضرب سطح الماء بحافره الأمامي شاخصاً عبر الدون . أما اكسينيا فقد

ملأت سطلها الثاني ، ورفعت النير الى كتفيها ، وبخطوات متمايلة جعلت ترتقي المنحدر ، فأدار غريغوري حصانه وتبعها في حين خفقت الريح بتنورتها وتعابثت بجعدات شعرها اللطيف الناعم على رقبتها السمراء . وتوهجت عصابتها المطرزة بالحرير الملون فوق عقصتها الغزيرة ، والتم قميصها الوردي في تنورتها عند الخصر ، والتصق في نعومة بظهرها المنتصب وكتفيها المرصوصين . وبينما كانت تتسلق المرتقى انحنت إلى الأمام ، فبان المنخفض مابين كتفيها واضحاً تحت قميصها ، ورأى غريغوري حلقات إبطنها السممر ، حيث تبّع قميصها بالعرق . وظل يراقبها في كل لحظة ، وألحّت عليه الرغبة في مواصلة الحديث معها .

- ستفتقدين زوجك ، أليس كذلك ؟

وبدون أن تتوقف ، التفتت اكسينيا وتبسمت .

- بالطبع سأفتقده . تزوّج أنت وسترى ما إذا كنت ستفتقد حبيبك أم لا .

قالت هذا بصوت متقطع وهي تتنفس بصعوبة .

واقترب غريغوري بحصانه منها حتى حاذاها ، ونظر في عينيها .

- ولكن ثمة زوجات أخريات يسعدن بذهاب أزواجهن . فهذه داريا

ستسمن في غياب بيوتر .

ارتجف منخرا اكسينيا من شدة تنفسها وسوت شعرها وقالت :

- ليس الزوج دودة علق ، مع أنه يمتص الدم .

ثم تساءلت :

- هل سنراك متزوجاً عما قريب ؟

- أنا لأدري ، فالموضوع يعتمد على والدي . ربّما بعد خدمتي

العسكرية .

- لازلت يافعاً ، فلا تتزوج .

- ولم لا ؟

- الزواج ضجر لاغير .

وتطلعت من تحت حاجبيها ، وابتسمت بكآبة دون أن تنفرج شفتها .
فلاحظ غريغوري لأول مرة أن لها شفتين شرهتين بلا حياء وممثلةتين نوعاً
ما . وأجاب وهو يمرر أصابعه على عرف الحصان :

- أنا لا أريد أن أتزوج . فثمة من ستحبني دونما زواج .

- هل لاحظت واحدة ، إذن ؟

- من عساي ألاحظ ؟ فها أنت الآن وأنت تودعين زوجك...

- لا تحاول أن تتعابث معي !

- وما الذي ستفعلين إن حاولت ؟

- سأخبر ستيبان .

- وأنا سألقن ستيبان هذا درساً...

- أنت معتد بنفسك كالديك ، ولكن إياك أن تكون أول من يصيح .

- لا تحاولي أن ترهيبيني يا اكسينيا !

- أنا لا أحاول إرهابك . تعابث مع الفتيات ، وليطرزن لك مناديلك ،

ولكن اصرف نظرك عني .

- سأنظر إليك أكثر الآن .

- حسناً ، فانظر إذن .

وأعطته اكسينيا ابتسامة مصالحة ، وحادت عن الممشى محاولة المرور

من جانب الحصان . فأدار غريغوري الحصان جانباً وسدّ عليها الطريق .

- دعني أمر يا غريشا .

- لن أدعك .

- لا تكن أحمق ، فيجب أن أعين زوجي .

فاستفز غريغوري الحصان مبتسماً ، وحاصر اكسينيا عند الضفة ،

فقالت :

- دعني أمر أيها الشيطان ! فثمة اناس فوقنا . ماذا عساهم يظنون

لوشاهدونا ؟

وتلفتت حولها في نظرة وجلة ، وتخطته مقبضة دون أن تلتفت الى الخلف .

كان بيوتر يودع عائلته عند درجات الباب . فأسرج غريغوري الحصان . وأسرع أخوه هابطاً الدرجات وهو يشد على سيفه إلى جانبه وأمسك بالأعنة . وراوح الحصان في اضطراب وهو يتحسس بالطريق الطويل ، وجعل يلوك اللجام . وقال بيوتر لأبيه وقد وضع قدماً في الركاب وأمسك بالسرج :
- لا ترهق الخيل ذوات الطرر البيض يا أبي ، فإننا سنبيعها في الخريف .
وسيحْتَاج غريغوري إلى حصان في الجيش ، كما تعلم . ولا تبع حشائش السهب . فأنت نفسك تعلم أي تبين قد نحصل عليه من المِرج هذا العام .
فأجاب العجوز راسماً إشارة الصليب :
- حسناً... ليكن الله معك . حظاً سعيداً .

فألقي بيوتر بجسمه الصلب على السرج بحركة معتادة ، وسوى طيات قميصه في نطاقه من الخلف . وتحرك الحصان صوب البوابة ، واهتز السيف بإيقاع فيما كانت رمانته تتلامع باهتة في ضوء الشمس .
وتبعته داريا والطفل على ذراعيها ، بينما وقفت أمه وسط الحوش تمسح عينيها بكُمها وأنفها بطرف صدريتها .

ومرقت دونيا الى البوابة تصيح :
- يا أخي! الفطائر! لقد نسيت الفطائر! فطائر البطاطة!
صاح بها غريغوري متضيقاً :
- فيم هذا الزعيق ، يا حمقاء ؟
- لقد ترك فطائره وراح - وانتحبت دونيا مستندة الى عمود البوابة ، وجرت الدموع على خديها الملتهبين وسالت على بلوزتها البسيطة .
وظللت داريا عينيها بكفها ، ووقفت تشخص إلى قميص زوجها الأبيض خلال ستار من التراب . وهز باتتلاي بروكوفيتش العجوز عمود البوابة المتهرى ، ونظر إلى غريغوري قائلاً :

- أصلح البوابة ، وضع عموداً جديداً لها . - ووقف لحظة يفكر ، ثم أعلن كما تعلن الأخبار : - رحل بيوتر .

ورأى غريغوري ستيبان ، عبر السياج المضفور ، يتهاى للرحيل ، بينما أخرجت اكسينيا حصانه ، وهي ترتدي تنورة صوفية خضراء جميلة . وقال لها ستيبان شيئاً وهو يبتسم ، ومن غير ما استعجال قبل زوجته باعتداد ، وترك ذراعه حول كتفها لوقت طويل . وبدت يده التي لفحتها الشمس والأشغال المرهقة سوداء كالفحم إزاء قميصها الأبيض . كان يقف وظهره صوب غريغوري ، ورقبته القائمة الحليقة ، وكتفاه العريضتان المتهدلتان بعض الشيء ، وذؤابة أحد شاربيه المفتولين ، تبدو عبر السياج كلما مال على زوجته .

وضحكت اكسينيا لشيء ما وهزت رأسها بالنفي . وتمايل الجواد الضخم الأدهم قليلاً حينما ألقى ستيبان جرمه الثقيل على السرج . ومضى بحصانه عبر البوابة مستعجلاً ، وقد بدا وكأنه مزروع على السرج ، وسارت اكسينيا إلى جانبه وهي تمسك بالركاب وتنظر كالكلبة في عينيه من أسفل إلى أعلى بوجد ونهم .

وظل غريغوري يراقبهما بنظرة طويلة لاتطرف حتى مرّا ببيت مجاور واختفيا وراء منعطف الطريق .

٤

قيل المساء بدأت عاصفة رعدية ، وامتدت طبقة من السحب الثقيلة فوق القرية . وأهاجت الريح نهر الدون فجعل يرسل أمواجاً كاسرة مزبدة صوب ضفتيه ، وأومضت السماء ببرق جاف ، وبين آونة وأخرى كانت الأرض تهتز بقصف الرعد . وحومت حدأة بجناحين منشورين تحت الغيوم ، وطاردها غربان ناعقة . وعبرت الغيمة نهر الدون من الغرب ، ناشرة

أنفاسها الباردة . وادلهمت السماء متوعة وراء المروج ، وامتد السهب في صمت وترقب . وفي القرية ، كان ثمة اصطفاق ينبعث من صفاقات النوافذ المغلقة ، وأسرعت العجائز عائدات الى بيوتهن من صلاة المغرب وهن يرسمن علامة الصليب ، ودوم عمود رمادي من الغبار فوق ساحة القرية ، وكانت أولى قطرات المطر تهبط على الأرض التي أرهقها الحر الربيعي .

جرت دونيا عبر الحوش ، هازة ضفائرها المجدولة ، وصفقت باب بيت الدجاج ، ووقفت وسط الحوش ومنخراها منتفخان كحصان يتهيا لطفر الموانع . وفي الشارع كان الأطفال يتقافزون هنا وهناك . وكان ميشكا ابن الجار ، ذو الثمانية أعوام ، يدور حول نفسه على رجل واحدة ، وقبعة أبيه الواسعة بشكل غير معقول تغطي رأسه حتى عينيه ، ويهزج بصوت حاد :

رُحْ ، رُحْ ، يامطر

فنحن خارجون

لنوفي ربنا النذر

ولننحني للمسيح

راقبت دونيا بغبطة قدمي ميشكا الحافيتين الخشتيتين تضربان الأرض . هي ، الأخرى ، ودّت لو ترقص في المطر وتبلل رأسها ، كي يغزر شعرها ويتجدد ، وهي ، الاخرى ، ودّت لو تقف على يديها فوق التراب على جانب الطريق ، كما يفعل صديق ميشكا ، مجازفة بالسقوط على الاعشاب الشوكية . لكن أمها كانت ترافقها وتحرك شفيتها مُغضبة من وراء الشباك . فتنهدت وجرت إلى الدار . وكان المطر آنذاك ينهمر بغزارة ، وقرقع رعد فوق سطح الدار تماماً ، ثم انحدر مبتعداً عبر الدون .

في الممر كان باتتلاي بروكوفيتش وغريغوري الناضح عرقاً ، يجرجران شبكة صيد ثقيلة ملفوفة من الغرفة الجانبية .

وصاح غريغوري على دونيا : «هاتي خيطاً غليظاً ومخيطة ، بسرعة!»
وأشعلوا المصباح في المطبخ . وقعدت داريا لتصلح الشبكة . وتأففت
حماتها فيما كانت تهزّهز الطفل :

- ماذا في دماغك يارجل! فلنذهب إلى الفراش . لقد زادت كلفة الكاز
أكثر وأكثر وأنت لاتبخل به . فما عساكم تصيدون الآن ؟ وأين تراكم
ذاهبون بحق الطاعون ؟ قد تغرقون ، انظروا إلى ما يجري في الحوش! فغضب
الله مسلط على رؤوسنا . ياللبرق الرهيب! ياسيدي عيسى المسيح ، يأم
السماوات...

ولبرهة ، كان كل شيء أزرق زاهياً وساكناً داخل المطبخ ، وكان
بالإمكان سماع المطر ينقر صفاقات النافذة . وتلا ذلك قصف الرعد . فندت
عن دونيا شهقة متكسرة وأخفت وجهها في الشبكة . ورسمت داريا علامة
الصليب إزاء النوافذ والباب . وحملت العجوز بعينين مخيفتين في القطة
المتمسحة برجليها :

- دونيا ، اطردي هذه الملعونة... يا أم السماوات ، اغفري لي ذنوبي...
دونيا ، أخرجي القطة إلى الحوش . بست ، ياروح الشر! فلتنزل عليك...
واهتز غريغوري في ضحك صامت وهو يلقي الشبكة .
- حسناً ، فيم ضجيجك هذا ؟ - صاح باتتلاي بروكوفيتش ، وأردف : -
أسرعن بعملكن يانسوة . لقد أخبرتكن ذاك اليوم أن تعنين بالشبكة .
فتجرات زوجته قائلة :

- ليس ثمة سمك في الوقت الحاضر .
- إن كنت لا تفهمين ، فأمسكي لسانك! سنصيد أسماك الحفش
الصغيرة في الأماكن الضحلة . ستجنح أسماك الحفش الصغيرة نحو الضفاف
الآن ، فهي تخاف العواصف . ولا بد أن يكون الماء طينياً الآن . دونيا ،
اخرجي لتسمعي إلى المجري فيما إذا كان سريعاً .
فتقدمت دونيا صوب الباب في تردد .

أما الأم فما كان لها إلا أن تسكت ، وألحّت قائلة :
- ومن الذي سيخوض معك ؟ داريا لا يجب أن تفعل ذلك ، فقد يصيب
البرد صدرها .
- أنا وغريغوري ، وأما بشأن الشبكة الاخرى... فسئنادي على اكسينيا
وامرأة أخرى .

وجرت دونيا الى الداخل منقطعة الانفاس ، وقد علقت بأهدابها قطرات
مطر متراقصة ، وفاحت منها رائحة التراب الأسود الرطب . وقالت لاهثة :
- إن المجري يهدر أيما هدير .
- هل تأتين أنت أيضاً ؟
- ومن غيري ذاهب ؟
- سنأخذ بعض النساء .
- حسن .
فقال لها أبوها :

- ضعي عليك معطفك واجري الى اكسينيا . فإن رغبت في المجيء
معنا ، اطلبي منها أن تحضر مالاشكا فرولوا أيضاً .
فقال غريغوري بابتسام :

- أمّا تلك ، فلن يجمدها البرد ، فهي سمينة كالخنزير .
أسدت أم غريغوري نصيحة إليه : - لم لا تأخذ شيئاً من القش ، غريشا
أيها العزيز ؟ احش بعضاً منه تحت قلبك ، وإلا ستصيبك نزلة في داخلك .
- أجل ياغريغوري ، اذهب وأحضر بعض القش ، فالعجوز على حق
بين .

عادت دونيا بسرعة مع المرأتين . وبدت اكسينيا بتنويرتها الزرقاء
وسترتها الممزقة والمحزومة بحبل ، أقصر وأكثر نحافة . وفيما كانت تتبادل
الضحكات مع داريا ، نزعت عصابة رأسها . ولفت شعرها في عقصة أكثر
إحكاماً ، وإذا كانت تلقي برأسها الى الوراء حين وضعت عصابتها على رأسها

من جديد ، شخصت ببصرها الى غريغوري في برود . وقالت مالاشكا البدينة
بصوت مبحوح وهي تشد جوربيها :
- هل أحضرتم الاكياس ؟ قسماً بالرب سنصطاد السمك عن آخره ،
اليوم .

وذهب الجميع الى الحوش . كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة على
الأرض المنقوعة ، تاركاً على البرك زيداً ، ومتدفقاً صوب الدون في
جداول .

قادم غريغوري في طريق النزول إلى النهر . ومن غير ما سبب ، أحس
فجأة بالمرح الشديد .

- حذار من الحفرة ، ياأبتي .

- ما أشد الظلمة!

وقالت مالاشكا متضاحكة بصوت خشن :

- تشبثي بي ، يااكسينيا . سنهلك معاً .

- أليس هذا هو مرسى ميدانيكوف ، ياغريغوري ؟

- هو بالذات .

وصاح باتتلاي بروكوفيتش فوق زئير الريح :

- ابدأوا من هنا .

وانطلق صوت مالاشكا الأجش :

- لا أستطيع أن أسمعك يااعم .

- ابدأوا بالخوض والله في عونكم ، وأنا سأخذ الجانب العميق...

العميق... أقول يامالاشكا ، أيتها الشيطانة الصماء ، الى أين تجرجرين
الشبكة ؟ ها أنا ذاهب نحو الجوانب العميقة... غريغوري ، غريشا ، دع
اكسينيا تأخذ جانب الضفة!

ويزأر الدون زئيراً مزمجراً ، والريح تمزق صفحة المطر المائل شذر

مذر .

خاض غريغوري ، متحسباً القاع بقدميه ، حتى بلغ الماء خصره .
وزحفت إلى صدره برودة ثقيلة ، حتى ضيقت الخناق على قلبه ، وكانت
الأمواج تضرب وجهه وعينييه المخاوصتين بإحكام ، كما يضرب السوط .
وتجوفت الشبكة وانجرفت نحو الاعماق وتزحلق قدمي غريغوري الملفوفتان
بجوارب صوفية فوق القاع الرملي . انفلتت الشبكة من يده ، أعمق فأعمق .
وهوى فجأة ، وانجرفت ساقاه . ثم انتشله التيار وحمله إلى وسط المجرى .
فراح يجذف بذراعه اليمنى بعنف عائداً إلى الضفة . لقد أخافته الأعماق
المدومة السوداء كما لم تخفه من قبل . وتحسست قدماءه ، فرحتين ، القاع
الطيني . واصطدمت سمكة بركبتيه .

- خذها إلى الأعماق! - هكذا تنهى إليه صوت أبيه من الظلمة
المخيفة .

ومرة أخرى غاصت الشبكة المائلة إلى الأعماق ، ومن جديد جرف
التيار قدمي غريغوري عن القاع ، وسبح نافثاً الماء رافعاً رأسه .
- اكسينيا ، هل أنت بخير ؟

- بخير ، حتى الآن .

- ألن يتوقف المطر ؟

- بلى ، سيتوقف الرذاذ ، ليبدأ فوقنا المطر الثقيل .

- تكلمي بهدوء . فلو سمعنا أبي ، فسيصب جام غضبه عليّ .

- خائف من أبيك . هه ؟

مرت لحظة ، وهما يجرجران الشبكة في صمت . ويحول الماء دون أي
حركة مثل عجين لزوج .

- غريشا ، ثمة شجرة غريقة إزاء الضفة ، كما أتصور! لابد لنا أن
نجنب الشبكة منها .

وطوّحت غريغوري موجة لاطمة فظيعة إلى بعد كبير عنها . بدا وكأن كتلة
هائلة من التراب قد انفصلت عن الجرف وهوت في الماء فأثارت موجة صاخبة .

- آه - آه - صاحت اكسينيا من مكان ما قرب الضفة . فشرع غريغوري يسبح ، باتجاه صياحها والرعب يملكه .
- اكسينيا!

ريح ، وزئير الماء الدفوق .

- اكسينيا! - صاح غريغوري ثانية ، ورعشة الخوف تغشاه .

- ايه ، غريغوري - تنأى إليه صوت أبيه من بعيد . وصار يضرب الماء بضراوة . تحسس شيئاً لزقاً تحت قدميه ، فأمسكه بيده : لقد كانت الشبكة .

وجاء صوتها مختنقاً بالدموع : « غريشا ، أين أنت ؟ » فزقق غاضباً فيما كان يحبو على يديه وركبتيه صاعداً الى الضفة :
- لم لم تجيبي ندائي ؟

وأخذا يسويان الشبكة الملتفة المشربكة ، جالسين القرفصاء على أعقابهما وهما يرتجفان . وأطل القمر خلال فرجة مشروخة لإحدى الغيمات . كان ثمة همهمة مكتومة للرعْد فيما وراء المروج ، وتلامعت الأرض بالبلبل ، وبدت السماء ، غب استحمامها بالمطر ، صاحية باردة .
وبينما كان غريغوري يفك الشبكة ، تفرّس في اكسينيا . كان وجهها أبيض كالطباشير ، لكنّ شفّتها الحمراءوين الغليظتين قليلاً كانتا تبتسمان . وكانت تقول بصوت منقطع لتستعيد أنفاسها :

- ليتك رأيت كيف ارتطمت بالضفة! كدت أفقد عقلي . كنت خائفة حتّى الموت . فقد ظننت أنك قد غرقت .

تلامست يدهما ، وحاولت اكسينيا أن تدس يدها في كم قميصه .
- ما أدفأ ذراعك - قالت ذلك متشكية وأضافت : - فأنا جمدانة! والقشعريرة تسري في جسمي .

- انظري كيف انفلت هذا النغل ، - وأطلعها غريغوري على ثقب في وسط الشبكة ، قطره أكثر من متر .

وجاء شخص راكضاً على الضفة . وخمن غريغوري أنها دونيا ، فصاح عليها من بعيد :

- هل جلبت الخيط ؟

أجابت دونيا وهي تقترب منهما لاهثة :

- أجل ، لماذا جالسان هنا ؟ لقد أرسلني أبي إليكما لتذهبا في الحال إلى رأس الضفة ، لقد صدنا ملء الكيس حفشاً صغيراً .

وكان في صوتها رنة انتصار جلي .

رتقت أكسينيا الثقب في الشبكة ، وأسنانها تصطك برداً . ولأجل أن يدفأوا ، قطعوا المسافة إلى رأس الضفة ركضاً .

كان بانتلاي بروكوفيتش يلف سيجارة بأصابع متشققة ، ومتورمة من الماء . وقال متفاخراً ، وهو يحرك قدميه كأنه يرقص :

- في المرة الأولى ، ثماني سمكات ولكن في المرة الثانية ... - وتوقف برهة يشعل سيجارته ، ثم أشار بقدمه إلى الكيس دون أن يقول شيئاً . فنظرت أكسينيا بفضول إلى داخل الكيس ، حيث انبعثت منه حسحسة السمك المضطرب ، يتزحلق بعضه فوق بعض .

- أين كنتما ؟

- لقد أحدثت سمكة قرموط ثقباً في شبكتنا .

- هل أصلحتماها ؟

- نعم ، بصورة ما .

- طيب . سوف نخوض مرة أخرى إلى ركبننا ، ومن ثم إلى الدار . انزل ياغريشا ، ماذا تنتظر ؟

وخطا غريغوري نحو النهر وساقاه خدرتان . وكانت أكسينيا ترتعش بشدة حتى أنه شعر بالشبكة تهتز معها .

- لا ترتعشي !

- بودي لو استطعت ، لكن ستختنق أنفاسي .

- أصغي إلي! فلنخرج ، وعلى السمك اللعنة!

وفي تلك اللحظة وثب فوق الشبكة شبوط كبير ، فضيق غريغوري دائرة الشبكة . وتحاملت أكسينيا على نفسها حتى بلغت الضفة . وعلى الرمال تناثرت المياه ثم كرت منحسرة ، بينما استلقى السمك مرتعشاً في الشبكة .

- هل سنعود عن طريق المرج ؟

- العودة أقرب عبر الغابة . هاي ، أتم ، يامن هناك . هل أنتم قادمون ؟

- اذهباً قبلنا . سنلحق بكما . فنحن نقوم بتنظيف الشبكة .

عصرت أكسينيا تنورتها ، عابسة الوجه ، وألقت كيس السمك على كتفها وانطلقت راكضة . التقط غريغوري الشبكة . وكانا قد قطعاً حوالي مائتي خطوة حين بدأت أكسينيا تنن :

- لم أعد أقوى على السير ، فساقاي خدرتان .

- انظري ، ثمة كومة قش عتيقة . لماذا لاتتدفأي فيها ؟

- شيء حسن! وإلا لن أصل بيتي .

فأزاح غريغوري ذروة الكومة وحفر حفرة ، فانبعثت من القش المتروك زمناً طويلاً رائحة دفء وعفونة .

- ازحفني إلى الوسط إنه كالفرن هنا . فألقت عنها الكيس ودفنت نفسها

بالقش حتى الرقبة .

واستلقى غريغوري إلى جانبها وهو يرتعش من البرد وانبعثت رائحة

لطيفة مثيرة من شعرها المبلل . كانت قد استلقت ورأسها ملقى إلى

الوراء وهي تتنفس بانتظام من فمها المنفرج . همس غريغوري مائلاً

نحوها :

- إن لشعرك رائحة كرائحة السيكران . أتعرفين تلك الزهرة البيضاء ؟

التزمت الصمت . كانت نظرتها غائمة وبعيدة ، ومثبتة على الهلال

الأفل .

أخرجَ غريغوري يده من جيبه ، وجذب رأسها إليه فجأة . فانتزعت نفسها منه بعنف . وقامت من القش .

- تخلّ عني !

- اهدأي .

- تخلّ عني ، وإلا صرخت !

- انتظري يا أكسينيا !

- يا عمي بانتلاي ! وانبعث بانتلاي بروكوفيتش قريباً جداً ، من وراء

أجمة من شجيرات الزعرور البري ،

- هل ضللت الطريق ؟

فقفز غريغوري من كومة القش وهو يصبر بأسنانه . وتساءل العجوز من

جديد وهو يتقدم نحوها ،

- فيمَ صراخك ؟ هل تهت ؟

فوقفت أكسينيا إزاء كومة القش تصلح من وضع عصابتها ، والبخار

يتصاعد من ملابسها .

- لم أنه ، ولكني أكاد أتجمد .

فقال لها العجوز :

- انظري يا امرأة ، ثمة كومة قش ، تدفأ فيها . وتبسمت أكسينيا

وهي تنحني لترفع الكيس .

٥

يبعد معسكر التدريب في قرية سيتراكوفو حوالي ٦٠ فرستا* . وقد ركب

بيوتر ميليوخوف وستيبان ستاخوف في عربة واحدة ، وكان برفقتهم ثلاث

* فرستا : مقياس طول روسي قديم ، يساوي ١,٠٦ كيلومتر . المترجمون .

آخرون من قريرتهم : فيدوت بودوفسكوف ، وهو قوزاقي شاب له وجه كالميكي مجدور ، وكريسائف توكين الذي يلعب بكريستونيا وهو جندي احتياط من الوجبة الثانية في كتيبة حرس الأتمان* ، وإيفان توميلين ، المدفعي الذي كان يتوجه الى قرية بريسيانوفكا . وبعد أن توقفوا لإطعام الأحصنة ، شدوا حصاني كريستونيا وأستاخوف إلى العربّة ، واقتيدت الخيول الأخرى وراءها ، وأمسك بالأعنة كريستونيا ، وهو قوي البنية ، غريب الأطوار نوعاً ما ، كأغلبية أفراد كتيبة الأتمان . فجلس في مقدمة العربّة ، محني الظهر كالعجلة ، حاجباً الضياء عن داخلها ، واستحثت الخيول بصوته ذي الجرس العميق ، الخفيض الهادر ، وتمدد بيوتر واستيبان وتوميلين يدخون تحت غطاء المشمع الجديد المشدود بإحكام . وسار بودوفيسكوف خلف العربّة ، وساقاه الكالميكتان الحنفاوان** تسرعان الخطو على الطريق المعفر .

كانت عربّة كريستونيا تتقدم الركب وتتقاطر خلفها سبع عربات أو ثمان آخر ، تجر وراءها خيولاً مسرجة وغير مسرجة . وضج الطريق بالضحك والصياح والأغاني وزنخرة الخيل وجلجلة الركائب الخالية . كان رأس بيوتر مسنداً على كيس فيه البقسماط ، وهو مضطجع بلا حراك ، يبرم شارييه الطويلين الأصفرين .

- ستيبان!

- ها ؟

- هيا نغني .

* الأتمان : كان الأتمانات يتخبون من القوزاق في روسيا القيصرية لإغفال مناصب القيادة على مستويات متعددة ، فقد كان قائد جيش الدون يسمى أتمان الجيش ورئيس القصة (ستانيتسا) وتعني منطقة أو مركز منطقة قوزاقية . - كان يسمى أتمان القصة ، وإذا ماخرجت مفرزة قوزاقية في حملة ما انتخبت المفرزة أتماناً لها . وتعني الكلمة بتعبير واسع الرئيس أو الزعيم . وحينما فقد القوزاق استقلالهم في النهاية أصبح (أتمان جميع القوات القوزاقية) لقباً وراثياً للقيصر ، وصارت قيادة جميع القطاعات القوزاقية في الواقع ، بيد أتمانين معينين .

** الحنفاوان : معوجتان إلى الداخل ، المترجمون...

- الحر شديد ، وحنجرتي جافة كالعظمة!

- سوف لاتجد حانات هنا ، فلا تنتظر ذلك!

- حسناً ، غنّ أنت . غير أنك لاتصلح للغناء . لكن غريشا ، أخاك ،
يمكنه أن يغني . فما صوته كالأصوات ، إنه وتر من الفضة الخالصة . كنا أنا
وهو نغني في السهرات .
وألقي ستيبان رأسه إلى الخلف ، وتنحنح ثم شرع يغني بصوت خفيض
متناغم :

أواه ثمة شرورق بديع وضاء .

قد تعالى مبكراً في السماء

وأسند توميلين خده على راحته ، كما تفعل النساء ، والتقط النغم في صوت
رفيع نواح . وراقب بيوتر ، مبتسماً ، وطرف شاربه في فمه ، العقد الصغيرة في
أوردة صدغي المدفعي العريض الصدر تزرق من الجهد الذي يبذله .

يافعة كانت ، تلك المرأة

التي درجت نحو الجدول الصغير .

واستدار ستيبان على مرفقه ، وكان مضطجعاً ورأسه إزاء كريستونيا
واحمرت رقبتة الجميلة الصلبة . وقال :
- هيا يا كريستونيا... اشترك في الغناء .

والولد لما أدرك مرماها .

أسرج فرسه الكستنائية

حول ستيبان نظرته الباسمة إلى بيوتر الذي أطلق طرفي شاربيه من فمه
وضم صوته إليهم . أما كريستونيا فقد زأر بصوت هز غطاء المشمع ، شاطراً
بفمه شاربيه العريضين :

أسرج فرسه الكستنائية

ليلحق بالمرأة الشابة

وثنى كريستونيا قدمه الحافية الضخمة وانتظر أن يستأنف ستيبان الغناء . وواصل ستيبان غناءه برقة مغمض العينين ، ووجهه المعروق في الظل ، وقد جعل صوته خفيضاً حتى الهمس تارة ، ورناناً كرنين المعادن تارة أخرى .

دعيني ، دعيني ، أيتها المرأة

أسقي كستنائيتي في الجدول

ومن جديد انطلق صوت كريستونيا الهادر العميق ليفرق أصوات الآخرين . وانبعثت أصوات من العربات المجاورة تردد الأغنية . وقرعت العجلات على حوافها الحديدية ، وزنخرت الخيل من الغبار ، وانسابت الأغنية فوق الطريق ، قوية عميقة كمياه الفيضان . وانطلق في الجو زقزاق أبيض الجناحين من السهب البني ذي الأشجار المتهدلة ، فطار مطلقاً صيحة باتجاه الوادي ، محولاً عيناً زمردية ليراقب سلسلة العربات ذوات الأغطية البيض ، وخيلاً تثير بحوافرها سحائب ترابية ، ورجالاً في قمصان بيض معفرة ، يسيرون على حافة الطريق . ولما هبط الزقزاق في الوادي واستقر صدره الأسود على الحشيش الرطب الذي سوته حيوانات هائمة ، فاته المشهد الذي كان يجري في الطريق . كانت العربات مازالت تدرج على الطريق كما في السابق ، والخيول العروقي مازالت تشق طريقها ، برمة ، خلال الغبار ، غير أن القوزاق صاروا الآن يركضون بقمصانهم المتربة من عرباتهم إلى عربة القيادة ، يدورون حولها ويزأرون بالضحك .

كان ستيبان منتصباً بطوله فوق العربة ، ماسكاً الغطاء بيد ، وموقعاً اللحن بأخرى ، وهو يهدر بنغم شائع في سرعة مضاعفة :

لاتتعد قربي
لاتتعد قربي
سيقول الناس أنك واقع في حبي
واقع في حبي
وأت على دربي
واقع في حبي
وأت على دربي
ولكنني لست من الصنف الوضيع...

وانطلقت حزمة من الأصوات الخشنة لتؤدي دور الجوقة في زئير ينفرش
على الغبار المثار على جانبي الطريق :

لكنني لست من الصنف الوضيع
لست من الصنف الوضيع
فقد ولدت ابنة لشيخ قطاع الطريق
وقد نشأت ابنة لشيخ قطاع الطريق
ولست من الصنف الوضيع
إنني حبيبة لابن الأمير...

صفر فيدوت بودوفسكوف ، واضطربت الخيل محاولة أن تحرر نفسها
من الأعنة ، ومال بيوتر جسمه خارج العربة وضحك ولوح بقبعته ، وهزّ
ستيبان كتفيه في مجون ، وابتسامة براقّة على وجهه ، وعلى امتداد الطريق
تدحرجت سحابة من غبار ، وقفز كريستونيا من العربة ، وهو في قميصه
الكبير الطويل من غير ما نطاق ، وشعره متلبّد ، ووجهه ينضح بالعرق ،
وأدى رقصة قوزاقية ، مدوماً كأنه عجلة ضخمة ، عابساً ومتأوهاً ، تاركاً على
التراب الحريري اللاهب أثراً مفلطحة لقدميه العاريتين .

توقفوا عند رابية ذات قمة رملية عريضة ، ليقضوا ليلتهم . زحفت سحب من الغرب ، وتساقط المطر من أجنحتها السود . وأوردت الخيل من بركة تمايلت فوق سدها ، على مهب الريح ، أشجار صفصاف موحشة . وعلى الماء الذي تغطيه طحالب راكدة وتزحف فوقه موجات يائسة ، كان ضوء البرق ينعكس مشوهاً . وكانت الريح تفتت قطرات المطر ، وكأنها تنثر الهبات على راحة الأرض السمراء .

واقتيدت الخيل المقيدة الى الكلا ، وأنيطت حراستها بثلاثة رجال ، فيما أشعل الآخرون النيران وعلقوا القدور على عرائش* العريان . وكان كريستونيا يطبخ الدخن . وبينما كان يحركه بملقعة شرع يروي قصة للقوزاق الجالسين حوله :

- كانت الرابية عالية ، كهذه . قلت لأبي الذي مات :

«ألن يعاقبنا الأتمان على حفرنا الرابية دونما إذن بذلك ؟»

فتساءل ستيبان فيما كان عائداً من موضع الخيل :

- فيم يهرف هذا ؟

- إنني أروي كيف نقبنا عن الكنز ، أنا وأبي ، رحمة الله على روحه .

- وأين بحثتم عنه ؟

- خلف الوادي أنت تعرف هذا المكان هو رابية مركولوف .

قال ستيبان : - هكذا إذن .

وجلس القرفصاء حذاء النار والتقط جمرة بكفه وجعل يتلاعب بها وقتاً طويلاً ، ثم أولع سيكارة بها .

- طيب ، وقال أبي : «هيا يا كريستونيا ، فسوف نحفر في رابية

* العريش ، المحور الذي تشد به الخيل . المترجمون .

مركولوف» . فقد سمع عن أبيه أن ذلك الكنز مدفون فيها . ولكن الكنز ليس شيئاً سهل المنال ولذا فإن أبي نذر لله بقوله : «هبني الكنز ، ولسوف أشيّد كنيسة بديعة» . وهكذا تم الاتفاق بيننا ومضيفنا ، كانت أرضاً مشاعة . ولهذا فلم يكن هناك من يستطيع منعنا غير الأتمان ، وصلنا عند العصر ، ولهذا انتظرنا حتى حلول الليل وقيدنا الخيول وتسلقنا مع مجارفنا حتى قمة الرابية . وشرعنا نحفر في القمة تماماً . وحفرنا حفرة عميقة ، وكانت الأرض مثل الصخر . وغمرني العرق من رأسي الى قدمي ، بينما ظل أبي يتمتم بصلواته ، ولكن صدقوني ، ياإخوان ، كانت بطني تقرر بشدة... فأنتم تعرفون ما نأكله في الصيف : لبن حامض وكفاس* وأشعر بالمغص حتى أكاد أموت! وأبي رحمة الله عليه يقول : «افايا كريستونيا ، إنك وغد . فما أنا أصلي وأنت لا تستطيع أن تضبط بطنك ، أنا لا أقدر أن أتنفس بسبب الرائحة الكريهة . تنح عن الرابية يا... وإلا فسأشج رأسك بالمجراف . إن وقاحتك كفيلة بجعل الكنز يغور في أعماق الأرض» . وهكذا استلقيت إلى جانب الرابية وأوجاع بطني قمينه بهلاكي ، وأبي - الذي كان رجلاً قوياً - يمضي ويمضي في التنقيب وحده . ويظل يحفر حتى يصل الى بلاطة صخرية ، فيناديني ، وأضع قضيباً تحتها . وأرفعها . صدقوني ، ياإخوان ، كانت ليلة قمراء ، وتحت تلك البلاطة انبعث بريق ، وأي بريق...

فقاطعه بيوتر مبتسماً ومعاثاً شاربيه :

- ها أنت ذا تكذب الآن ياكريستونيا .

- من الذي يكذب ؟ فلتذهب أنت الى الشيطان ، وإلى أم الشيطان!

وعقد كريستونيا بنطاله ذا المؤخرة العريضة وألقى نظرة خاطفة على

مستمعيه .

- كلا ، فما أنا بكاذب . إنها حقيقة الله .

- أكمل قصتك!

- ثمة بريق ينبعث يا إخوان . وأنا أنظر ، واذا به فحم خشبي . حوالي أربعين بوشلا* وأبي يقول : « ازحف يا كريستونيا داخلاً ، وأخرجه برمته » . وهكذا أخرجت كل تلك النفائات . مضيت أخرجها حتى طلوع النهار . وفي الصباح ، كان هو أمامنا .

- من ؟ - تساءل توميلين المضطجع على مشرحة السرج .

- من يكون غير الاثمان ؟ يصادف أن يمر من هناك بمركبته . « من أعطاكم الإذن ؟ » وما إلى ذلك . أمّا نحن فنصمت ويقبض علينا ويجرجرنا الى القرية . ثم استدعينا الى المحكمة في كامنسكيا في السنة ما قبل الأخيرة ، لكنّ أبي ، وقد خمن ما هو آتٍ عليه ، استطاع أن يموت قبل حلول الأوان . فكتبنا الى المحكمة نقول إنه ليس في عداد الأحياء .

وأخذ كريستونيا قدر الدخن المغلي من النار وذهب الى العربة لإحضار الملاعق . وحينما عاد سأله ستيبان :

- حسناً ، وماذا عن أبيك ؟ فقد نذر لله أن يبني كنيسة ، ألم يف بنذره ؟

- أنت أحق يا ستيبان . فماذا عساه يبني بقيمة الفحم الخشبي ؟

- مادام قد نذر ، كان عليه أن يف بنذره .

- لم يكن هناك اتفاق ، أيّاً كان شكله ، حول فحم الخشب ، أمّا الكنز... واهتزّت ألسنة النار من القهقهات التي انطلقت عالياً ، ورفع كريستونيا رأسه عن القدر ، ولما لم يفهم سبباً للضحك ، انطلق هو الآخر بزئيره المرعد وغطّى على ضحك الجميع .

* بوشلا : أربعة غالونات ، المترجمون .

كانت اكسينيا في السابعة عشرة من عمرها حينما زوجت من ستيفان استاخوف . لقد جاءت من قرية دوبروفكا ، من رمال الجانب الآخر للدون .

قبل الزواج بحوالي عام ، كانت اكسينيا ذات يوم خريفي تحرث في السهب الذي يبعد حوالي ثمانية فرسات عن القرية . وفي ذلك الليل قيّد يديها أبوها ، وهو في الخمسين من عمره ، واغتصبها . وتوعدها قائلاً :

سوف أقتلك إن تنفست بكلمة ، ولكن إذا بقيت هادئة فلسوف أشتري لك سترة فاخرة وطماقين وخفين ، تذكرني ، لسوف أقتلك إن أنت ...

وتحت جناح الليل جرت اكسينيا بتنورتها الداخلية الممزقة عائدة الى القرية . وارتمت على قدمي أمها ونشجت تروي القصة كاملة . فشدّ أخوها الأكبر الذي عاد منذ حين من الخدمة العسكرية وأمها حصانين الى العربّة وجعلا اكسينيا تجلس معهما ، وانطلقا الى الأب . أوشك أخوها أن يميّت الخيول في منطلقه عبر الفرستات الثمانية . ووجدوا العجوز بالقرب من خيمة الحقل . كان مستلقياً على معطفه في غيبوبة سكران وإلى جانبه زجاجة فودكا فارغة . وأمام عيني اكسينيا حل أخوها العريش من العربّة ، وبرفسة أقام أباه على قدميه ، ووجه إليه باقتضاب سؤالاً أو سؤالين ، ثم ضربه فيما بين عينيّه بالعريش ذي الرأس الحديدي . وطوال ساعة ونصف ، ظل وأمه يضربانه بدون توقّف . وجعلت الأم المسنة ، وهي التي كانت على الدوام زوجة مطيعة ، تمزّق بجنون شعر زوجها الغائب عن الوعي ، بينما استخدم الأخ قدميه . وتمددت اكسينيا تحت العربّة ، وقد غطت رأسها وهي ترتعش في صمت... وحملوا أباهما الى الدارقبيل الفجر . تمدد يثن بصوت ذبيح وعيناه تجولان في أرجاء الغرفة بحثاً عن اكسينيا

التي أخفت نفسها وجرى الدم من أذنه الممزقة على الوسادة ، إلى أن مات قبيل المساء . وأخبروا الجيران بأنه سقط سكراناً من العربة فمات . بعد عام من الزمن ، وصل خاطبون في عربة صغيرة زينت بصورة مرحة ، طالبين يد أكسينيا . فلقي ستيبان الطويل ، ذو الرقبة المنتصبة والجسم القوي ، قبولاً لدى زوجته المقبلة ، وحدد عيد الخريف ميعاداً للزفاف . كان النهار زمهريراً والجليد ذا وقع بهيج على الطرق يوم نصبت أكسينيا سيدة فتية لبيت استاخوف . وفي الصباح الباكر الذي تلا أفراح الزواج جاءت حماة أكسينيا ، وهي عجوز طويلة تقوّص ظهرها بسبب من مرض نسائي مؤلم ، وأيقظتها ، ثم أخذتها الى المطبخ وقالت لها وهي تنقل الأشياء بلا هدف :

- والآن يا عزيزتي ، نحن لم نأخذك لتمارسي الحب ، ولا لكي تضطجعي في الفراش . اذهبي واحلبي البقرات ، وبعد ذلك أعدي شيئاً من الطعام . إنني عجوز ومريضة . ويجب عليك أن تتعهدي شؤون الدار ، فكل ما فيها سيقع على عاتقك .

وفي اليوم نفسه ، أخذ ستيبان زوجته داخل المخزن ، وضربها عامداً وبشكل فظيع . ضربها على بطنها ونهديها وظهرها ، حريصاً ألا تكون آثار الضرب ظاهرة للعيان . وبعد ذلك ، أهملها ، وجعل يصاحب زوجات طائشات منفصلات عن أزواجهن الجنود ، ويترك داره كل ليلة تقريباً ، بعد أن يحبس أكسينيا في المخزن أو في الغرفة .

وطوال ثمانية عشر شهراً ، أي إلى أن رزقا بطفل ، لم يكن ليغفر لها العار الذي جلبته إليه . ثم صار أكثر هدوءاً ، ولكنه كان ضنيناً في ملاطفتها ، ونادراً ما كان يقضي ليلة في الدار .

أثقل الحقل الواسع بماشيته الكثيرة كاهل أكسينيا بالعمل . وكان ستيبان يعمل بلا حماسة ، ويزوغ للتدخين أو لعب الورق بعد أن يمشط شعره بعناية ، أو لتقصي آخر الأخبار ، وصار على أكسينيا أن تفعل كل

شيء . ولم تكن حماتها لتساعدوا إلا بالنزر اليسير . فما أن تنتقل هنا وهناك قليلاً حتى تهوي على الفراش ، وبشفتين مزمومتين صفراوين وعينين محمقتين في السقف بألم ، تستلقي متأوهة وتتكوم على شكل صرة . وفي مثل هذه الأوقات ، كان وجهها ، الذي تكسوه شامات كبيرة قبيحة ، ينضح بالعرق وتقطر دموعها على خديها ، قطرة إثر قطرة . وكانت أكسينيا تترك عملها وتنزوي في ركن من الغرفة وتحرق في وجه حماتها بخوف وإشفاق .

ماتت العجوز بعد عام ونصف عام . ففي الصباح بدأت أكسينيا تشعر بآلام المخاض ، وحوالي الظهر ، وقبل مجيء الطفل إلى العالم بساعة أو زهائها ، سقطت العجوز ميتة عند باب الاسطبل القديم وجرت القابلة لتحذر ستيبان السكران من دخول غرفة النوم ، فوجدت العجوز ممددة وقد انثنت رجليها تحت جسمها .

وبعد ولادة الطفل ، كرست أكسينيا نفسها لزوجها ، غير أنها لم تكن لتشعر نحوه بأية عاطفة غير الإشفاق الأنثوي المرووحكم العادة . وفي غضون عام مات الطفل ، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه . وحينما عبر غريشا ميلخوف درب أكسينيا ، أدركت ، والرعب يملكها ، أنها كانت منجذبة إلى ذلك الفتى الأسمر اللطيف ، وقد تصابر غريشا عليها في حب مؤمل عنيد ، وكان هذا الإصرار عين ما كانت تخشاه أكسينيا في غريشا . ووجدت أنه لا يخاف ستيبان ، أو يتراجع بسببه ، وعلى الرغم من مقاومة شعورها بكل قوتها ، فقد لاحظت على نفسها أنها كانت تعنى بزيبتها أيام الأحاد وفي أيام الأسبوع أكثر من أي وقت مضى . وكانت تعلق نفسها ، إزاء ضميرها ، بشتى المعاذير وهي تحاول أن تظهر أمامه كلما سنحت لها الفرصة . لقد كان مما يسعدها أن تتحسس عيني غريغوري السوداوين تلاففانها باصرار وهيام . وحينما كانت تستيقظ في الصباح قبل أن تمضي لتحلب البقرات ، كانت تبتسم لنفسها ، ومن غير أن تدرك لماذا ، تقول في دخيلتها : « اليوم يوم سعيد . ولكن لماذا ؟ أهواه يا غريغوري ...

ياغريشا» . كان يحيفها هذا الشعور الجديد الذي ملاحا ، وصارت تتلمس طريقها عبر أفكارها في حذر ، كما لو كانت تعبر الدون فوق جليد آذار الذائب . وبعد أن ودعت ستيبان الذهاب الى المعسكر ، قررت أن تتجنب غريغوري ما استطاعت . وقد ازداد قرارها تصميمأ بعد حادثة صيد السمك .

٨

قبل أحد الثالوث بحوالي يومين ، تم توزيع مروج القرية ، وكان بانتلاي بروكوفيتش حاضراً أثناء التوزيع . ثم عاد إلى داره عند موعد الغداء . فألقى جزمته متأففاً ، وأعلن وهو يهرش قدميه المتعبتين بتلذذ :
- حصتنا هي البقعة القريبة من الضفة الحمراء . ليست بذى حشائش أفضل بكثير من المعتاد . ويمتد جزؤها الأعلى حتى الغابة . وهي مجرد نجيل في بعض الأماكن وشيء من الثيل .

تساءل غريغوري :

- ومتى سنقوم بالحش ؟

- بعد العيد .

دمدمت العجوز مقطبة :

- وهل ستأخذون داريا معكم ؟

لوح بانتلاي بروكوفيتش بيده فأسكتها :

- دعيني وشأني ! سنأخذها إذا احتجنا إليها . هيا أعدي الغداء . فيم

وقوفك فاغرة الفم ؟

فتحت الزوجة العجوز باب الفرن بقرقعة وأخرجت حساء الكرنب المدفئ . وجلس بانتلاي بروكوفيتش إلى الطعام وقتاً طويلاً يروي أحداث التوزيع ويحكي عن الأتمان المخادع الذي كاد أن يغش مجمع القوزاق برمته . وعقبت داريا :

- لقد لجأ إلى حيلة في العام الماضي أيضاً . خصوصاً حينما حاول أن يغش مالاشكا أثناء توزيع الأرض .
فتمتم بانتلاي بروكوفيتش :
- لقد كان ابن عاهرة دائماً .
وتساءلت دونيا متهية ،
- ولكن من الذي سيجرف ويكوم يا بابا ؟
- ماذا عنك أنت ؟
- أنا لا أستطيع أن أقوم بكل ذلك لوحدي .
- سوف ندعو أكسينيا ستاخوفا ، فقد رجانا ستيبان أن نحش له .
علينا أن نلبي رجاءه .
في الصباح التالي ، جاء ميتكا كورشونوف راكباً جواده أبيض السيقان ودخل إلى حوش ميليخوف . كان ثمة مطر خفيف وضباب كثيف عالق فوق القرية . ومال ميتكا من على سرجه وفتح البوابة ودلف إلى الداخل ، فصاحت به العجوز من العتبة :
- هاي ، أنت ، أيها الوغد ، ماذا تريد ؟ - وكان النفور واضحاً في صوتها ، فلم تكن تميل إلى ميتكا المشاكس .
ومادخلك أنت يا ايلينيشنا ؟ - قال ميتكا ذلك في استغراب بينما كان يربط جواده إلى حاجز العتبة ، وأضاف :
- أريد غريشا ، أين هو ؟ .
- إنه نائم في السقيفة . ولكن هل أصابك مس ؟ أم تراك لم تعد قادراً على استعمال ساقيك حتى صار عليك أن تأتي راكباً ؟
فرد عليها ميتكا برماً :
- أنت دائماً تحشرين أنفك أيتها العمة .

وصقع جزمته الجلدية اللامعة بسوطه الأنيق ، وانطلق متمايلًا يبحث عن غريغوري فوجده نائماً في عربة صغيرة . فزر ميتكا عينه اليسرى كأنه

يصوب ، وهوى بسوطه على غريغوري .

- قم ، يا موجيك*!

كانت (موجيك) أسوأ كلمة وجدها ميتكا . فقفز غريغوري كما لو كان فوق نوابض .

- ماذا تريد ؟

- لقد نمت مافيه الكفاية .

- دعك عن العبث ياميتكا قبل أن يعصف بي الغضب .

- قم ، فلدي ماأحدثك به .

- حسناً ؟

فجلس ميتكا على جانب العربة وقال وهو يكشف بالسوط الوحل المتبیس من جزمته :

- لقد أهنتُ ، ياغريشا .

- أي ؟

- انظر ، إن القضية... .

وقذف من فمه سباباً كثيراً ، واستطرد :

- إنه ملازم أول ، ولهذا فإنه يريد أن يتباهى .

وكان يلفظ الكلمات بسرعة مغتاظاً دون أن يفتح فمه ، فيما كانت ساقاه ترتجفان .

ورفع غريغوري جسمه قليلاً متسائلاً :

- أي ملازم أول ؟

فقال ميتكا بهدوء أكثر وهو يمسك بكم غريغوري :

- أسرج حصانك في الحال ، وتعال إلى المروج . لسوف أريه! قلت له :

تعال ، يا صاحب السعادة ولسوف نرى . فقال - أجلب جميع أصدقائك

ورفاقك ، وسوف أهزمكم جميعاً ، فلقد حصلت أم فرسي على الجوائز في سباق قفز الموانع لخيّل الضباط في بطرسبورغ ، وما عسى أن تكون فرسه أو أمها بالنسبة لي ؟ عليهما اللعنة ! فلن أدعهما تسبقان جوادي !

فارتدى غريغوري ملابس مسرعة وتبعه ميتكا ، والغضب أخذ بخناق ، - لقد جاء لزيارة التاجر موخوف . اسمع ، ما كان اسمه ؟ ليستنتسكي ، على ما أظن . ضخم ، جدي المظهر ، ويضع عوينات . حسناً فليضع عوينات ، لكنها لن تساعد في شيء : فلن أدعه يلحق بجوادي . وأسرج غريغوري الفرس العجوز متضحكاً . ولكي يتحاشى لقاء أبيه انطلق إلى السهوب خلال بوابة ساحة درس الحبوب . وركب صوب المرج بمحاذاة سفح التل ، وكانت حوافر الخيل تعجن الوحل بفرقة . وبالقرب من شجرة حور جرداء كان عدد من الفرسان في انتظارهما : الضابط ليستنتسكي على فرس رشيقة جميلة ، وسبعة من صبيان القرية ممتطين جيادهم .

- من أين سنبداً ؟ - تساءل الضابط ملتفتاً إلى ميتكا ، وهو يسوي عويناته المعلقة على أنفه دون إطارات ، وينظر بإعجاب إلى عضلات الصدر القوية بجواد ميتكا .

- من شجرة الحور إلى بركة القيصر .

- وأين هي بركة القيصر ؟ -

- حاوص ليستنتسكي عينيه بصورة تنم عن قصر نظره .

- هناك ، يا صاحب السعادة . عند طرف الغابة واصطفت الخيل في خط واحد . ورفع الضابط سوطه فوق رأسه . فتلوت كتافته .

- نبدأ حينما أقول « ثلاثة » اتفقنا ؟ واحد : اثنان : ثلاثة !

وانطلق ليستنتسكي أولاً ، منحنيماً فوق قربوس* السرج ، ويده على

* القربوس : حنو السرج أو حديثه . المترجمون

قبعته . وبقي ، برهة ، يتقدم الجميع . ثم انتصب ميتكا على ركابه ، ووجهه شاحب قانط . وبدا لغريغوري أن ميتكا كان متباطئاً بشكل لا يحتمل في إنزال السوط على كفل الجواد .

كانت المسافة الى بركة القيصر حوالي ثلاثة فرسات . وحينما قطعوا نصف المسافة لحق جواد ميتكا الذي استقام جسمه كالسهم بفرس ليستنتسكي ، أما غريغوري الذي تخلف منذ البداية ، فقد كان يخب خاملاً وهو يراقب بفضول سلسلة الراكبين المتناثرة .

كان إلى جانب بركة القيصر تل رملي صغير ، غسلته فيضانات الربيع ، وقد كست حديثه أعشاب قليلة . ورأى غريغوري ميتكا والضابط ينطلقان صاعدين التل ثم يختفيان معاً عبر حافته ، يتبعهما الآخرون . وحينما بلغ البركة وجد الخيل العرقة متجمعة إلى جانب بينما كان الصبيان المترجلون يتحلقون حول ليستنتسكي ، وميتكا يتألق في حبور مكتوم ، وتنم كل حركة فيه عن الشعور بالانتصار . أما الضابط فلم يبد عليه الغم مطلقاً ، بخلاف ما كان متوقعاً ، إذ كان يقف وظهره مستند على شجرة ويدخن سيكارة . وقال مشيراً إلى فرسه المزبدة : « كنت قد قطعت عليها مائة وخمسين فرستا وجئت عليها من المحطة أمس ، فلو كانت مرتاحة لما استطعت أن تلحق بها ، يا كورشونوف » .

فقال ميتكا بأريحية : - ربما .

كان صبي أنمش الوجه ، قد وصل آخر الراكبين ، فصاح حاسداً :
- إن جواده أحسن ما في المقاطعة من خيل .
فقال ميتكا : « إنه حصان جيد » ، ومرر كفه على رقبة الجواد ، ويده تهتز انفعالاً . ونظر إلى غريغوري وابتسم ببلاهة .

ترك غريغوري وميتكا الآخرين وعادا إلى البيت بمحاذاة أطراف القرية . أما الضابط فقد ودعهما ببرود وحياهما تحية عسكرية رافعاً إصبعين إلى حافة قبعته ، واستدار مبتعداً .

وبينما كانا يقتربان من الدار ، رأى غريغوري أكسينيا قادمة
باتجاههما ، وهي تجرد غصناً أثناء سيرها . وحينما لاحظته طأطأت رأسها .
فصاح ميتكا قائلاً ،

- فيم تحمرين خجلاً ، هل نحن عاريان ؟ - وغمز بعينه - يافرحة
عيني !

وكاد غريغوري أن يحاذيها وهو يحدق أمامه في خط مستقيم ، ثم
ضرب فرسه المتبختر بسوطه ، على حين غرة ، فأقعت إلى الوراء على
ساقياها الخلفيتين ، وأرسلت رذاذاً من الوحل فوق أكسينيا .

- تباً لك من شيطان مخبول !

فأدار غريغوري فرسه الجامح بحدة وتقدم نحوها ، وتساءل :

- لم لا تقولين « مرحباً » ؟

- إنك لست أهلاً لها .

- ولهذا نعرت عليك الوحل . لاتغتري بنفسك كثيراً .

فصاحت أكسينيا ملوحة بذراعيها أمام أنف الفرس ،

- دعني أمر . فيم تدوسني بحصانك ؟

- إنها فرس وليست حصاناً .

- هذا لايهمني ، دعني أمر .

- فيم غضبك يا أكسينيا ؟ أبسبب ماحدث ذلك اليوم في المرج ؟

وحدجها غريغوري محدقاً في عينيها . فحاولت أكسينيا أن تنطق بشيء

ما ، لكن دمعة صغيرة ظهرت في زاوية عينيها السوداء ، وارتعشت شفاتها

بصورة تثير الشفقة . وهمست وهي تبتلع ريقها بصعوبة :

- اتركني ياغريغوري... لست غاضبة... فأنا ... ثم مضت .

لحق غريغوري بميتكا عند البوابة والاستغراب يتملكه .

سأله ميتكا ،

- هل ستخرج الليلة ؟

- لماذا؟ ما السبب؟ أم تراها دعتك لقضاء الليلة معها؟ فمست
يغوري جبينه براحتيه ، ولم يجب .

٩

لم يخلف عيد أحد الثالوث في بيوت القرية سوى زعتر جاف منشور ع
أرض ، ونثار أوراق مسحوقة ، وأغصان دردار وبلوط ذابلة معقودة ع
وابات والسلالم .

بدأ جمع القش مباشرة بعد أحد الثالوث . فمنذ الصباح الباكر ازدهر
مروج بتنورات النساء الزاهية ، والصديريات المطرزة اللامعة ، وعصاها
رأس الملوثة . وخرجت القرية عن بكرة أبيها للحش . وتزين الحاشية
لجارفون ، كما لو كانوا في عيد سنوي . هكذا جرت الأمور منذ القدم
من الدون الى أدغال الحور البعيدة ، تمللت أرض المروج المنه
أوهت .

أما أسرة ميليخوف فقد تأخرت عن العمل ، ولم ينطلقوا إلا بعد أن ك
سف القرية تقريباً قد بلغ المرج .

حيث جامعوا القش رب الأسرة والعرق يتصبب منهم :

- أنت تستيقظ متأخراً ، يابانتلاي بروكوفيتش .

- ليست غلطتي ، إنهن النساء مرة أخرى - وتضاحك العجوز ، واستح

ييران بسوطه المصنوع من الجلد الخام .

- طاب يومك ، يا جارا! أنت متأخر قليلاً ، أليس كذلك؟ - قالها قوزا

ويل يعتمر قبعة من القش ، هازاً رأسه وهو واقف على جانب الطريق يشه

- اذا لم تسرع خطاك سيجفّ عما قريب . أين حصّك ؟

- بالقرب من الضفّة الحمراء .

- استعجل إذن وإلا فاتك الأوان .

وفي مؤخرة العربّة جلست اكسينيا وقد غطّت وجهها كلياً لتتقي الشمس ومن الفتحات الضيقة التي تركتها لعينيها ، جعلت تحدّق بهدوء وصرامة في غريغوري الذي جلس إزاءها . وكانت داريا متلفعة أيضاً وقد ارتدت أحسن ثياب يوم الأحد ، وقد تدلت ساقاها بين عوارض جانب العربّة ، وأعطت ثديها الطويل ذا العروق الزرق للطفل الراقد بين ذراعيها . وتململت دونيا على حافة العربّة وعيناها السعيدتان تتفرسان في المرج والناس السائرين على امتداد الطريق ، وقد بدا على وجهها المرح الذي لفحته الشمس ، وأنفها الذي انتشرت عليه رشة من النمش ، وكأنه يقول بلسانها « إنني أشعر بالمرح والسعادة لأن اليوم ، بسمائه الزرقاء الصافية ، هو الآخر سعيد ، ولأن روحي يملؤها الهدوء الأزرق الصافي ذاته . إنني سعيدة ، ولدي كل ما أريد » . وجذب بانتلاي بروكوفيتش كمي قميصه القطني فوق قبضتيه ، ليمسح العرق المنساب من تحت ذؤابة قبعة . والتصق قميصه التصاقاً محكماً على ظهره المقوّس ، وقد قتم لونه ببقع العرق . ونفذت الشمس قويّة خلال غيمة رمادية منفوشة ، وأسالت مجرى من الأشعة المتكسّرة السديمية فوق المرج والقرية والسهب وتلال الدون الفضية البعيدة .

كان النهار قانظاً . والغيّات الصغيرة تزحف متكاسلة ، حتّى أنها لم تسبق ثيران بانتلاي بروكوفيتش في سيرها المكدود على الطريق . وكان بانتلاي بروكوفيتش العجوز نفسه يرفع ويلوّح بسوطه متثاقلاً ، كما لو كان متردّداً في ضرب جوانبها الهزيلة . ويبدو أن الثيران نفسها أدركت ذلك ، فلم تسرع خطاها ، وواصلت سيرها إلى الأمام متباطئة متكاسلة تهز ذيولها بلا انقطاع . حوّمت فوقها ذبابة خيل غبراء ذات لون ذهبي وبرتقالي .

وبدت أرض المروج ، حيثما قطعت الحشائش على مقربة من بيوت القرية ، تتألق في بقع خضراء شاحبة ، وفي المناطق التي لم تقطع فيها الأعشاب ، انبعث من الحرير الحشيشي ، الأخضر المشوب بالسواد ، حفيف كلما داعبة النسيم .

لوح بانتلاي بروكوفيتش بسوطه قائلاً :

- تلك هي قطعتنا .

سأله غريغوري :

- نبدأ من الغابة ؟

- من الممكن أن نبدأ من هذا الطرف أيضاً ، تركت العلامة هناك .

حل غريغوري الثيران المتعبة . وراح العجوز ، والقرط يتلامع في أذنه ، يبحث عن العلامة التي وضعها عند نهاية القطعة . وبعد دقيقة صاح ملوحاً بيده : « هات المناجل » .

فذهب غريغوري إليه وهو يدوس الحشيش ، مخلفاً وراءه أثراً متماوجاً . ويمم بانتلاي بروكوفيتش وجهه صوب برج الناقوس البعيد ورسم علامة الصليب وتناول المنجل . وشع أنفه المعقوف وكأنه قد لمع بالدهان لتوه ، وتلكأ العرق في تجاويف خديه الاسمرين . وابتمس ، فكشف عن صف مرصوص من الأسنان البيض اللامعة وراء لحيته السوداء بلون الغراب ، ومال برقبته المتغضنة الى اليمين ، وهوى بمنجله الكبير على الحشيش ، فاذا بنصف دائرة ، قطرها متران ، من الحشيش تتكوّم عند قدميه .

وحذا غريغوري حذو أبيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وهو يلقي الحشيش أرضاً بمنجله . وأمامه ازدهت صدريات النساء كقوس قزح مبعثر ، لكنّ عينيّه كانتا تبحثان عن صدرية واحدة ، بيضاء مطرزة الحاشية ، واختلس نظرة إلى اكسينيا واستأنف الحش من جديد ، متساوqاً مع خطى أبيه .

لقد شغلت اكسينيا ذهنه طوال الوقت . وفيما كانت عيناه نصف مغمضتين قبلها في الخيال وناجاها بكلمات ملتبهة رقيقة تدفقت على لسانه

من حيث لا يدري . ثم أزاح عنه تلك الأخيلة وواصل الخطى من جديد بصورة منتظمة... واحد... اثنان... ثلاثة ، وانصرف ذهنه الى شذرات من الماضي . « كنت جالساً معها تحت كومة القش الرطب... القمر فوق المرج... وبين حين وآخر تتساقط قطرة من الشجيرات في البركة... واحد... اثنان... ثلاثة... بديع! آه ، لكم كان هذا بديعاً! »

وتناهد إليه ضحكة من ورائه ، فتطلع إلى الخلف ، كانت داريا مستلقية تحت العربة واكسينيا منحنية عليها تسر لها شيئاً ما . ولوحت داريا بذراعيها ، وعادتا تضحكان من جديد . وكانت دونيا جالسة على محور العربة تغني بصوت زاعق .

قال غريغوري لنفسه : « سأبلغ تلك الشجيرة ، ثم أشحذ منجلي » . وفي تلك اللحظة شعر بمنجله يمر خلال شيء ناعم ومستكين . فانحنى غريغوري ، فاذا ببطة برية صغيرة تمرق داخل الحشيش وهي تصيح . وإلى جانب الحفرة التي ضمت عشها تكومت بطة أخرى وقد شقها المنجل نصفين ، بينما تفرقت بقية الفراخ مذعورة واختفت في الحشيش . فوضع غريغوري الطائر الميت على راحته . لقد كان واضحاً أنه خرج من البيضة قبل بضعة أيام ، فقد كان ثمة دفء باقياً في زغبه . وعلى منقاره المسطح نصف المفتوح ، كانت فقاعة وردية من الدم ، وانكمشت عيناه الخرزيتان ، بينما ظلت رجلاه الصغيرتان دافنتين ترتعشان . وجعل غريغوري يحدق في الكرة الصغيرة الهامدة في يده ، وقد انتابه شعور حاد مفاجئ بالرتاء له .

- ماذا وجدت يا غريشا ؟ - وجاءت دونيا ناطة خلل الممر المحشوش وضميرتاها تتواثبان على صدرها . فألقى غريغوري البطة ، متجهماً الوجه ، وأعمل بمنجله مغضباً .

تناولوا غداءهم بسرعة . وكان قوام وجبتهم ، التي كانوا قد جلبوها من البيت في كيس ، شحم الخنزير واللبن الرائب .

سرح الشيران لترعى في الغابة ، وفي الغد ، حالما يزول الندى من العشب
نعم الحش » .
بعد الغداء ، شرعت النساء في جرف القش ، وانكمش الحشيش
فصوص وتيبس فصار يبعث رائحة قوية مخدرة .
كان الغسق قد حل حينما توقفوا عن عمل اليوم . وجمعت اكسي
قفوف الأخيرة من الحشيش معاً ، ومضت الى العربة لتطبخ شيئاً من هريس
خن ، لقد سخرت متخابثة من غريغوري طوال اليوم ، وظلّت تتابعه بنظرة
ض كراهية ، كما لو كانت تقتص منه لذنوب عظيم لا يغتفر . ساق غريغور
بران ليوردها من الدون ، وهو مكتئب خائر العزيمة . ظل أبوه يراقبه
سينيا طوال النهار . وقال ناظراً الى غريغوري في كدر : « تناول عشاءك
ذهب لحراسة الشيران . واحرص ألا تدخل المرج . وخذ فروتي » .
وأرقدت داريا طفلها تحت العربة ومضت إلى الغابة بصحبة دونيا لجل
طلب .
وفوق المرج ، تعالى القمر الشاحب في السماء المنيرة المظلمة
ومت زوبعة من الفراشات حول ألسنة اللهب ، وإلى جانبها وضع العشب
قطعة قماش خشنة . وغلى الدخن في إناء الحقل الأسخ . وصاح
يا على غريغوري ، وهي تمسح ملاعق بطرف تنورتها الداخلية :
- تعال تناول عشاءك .
فظهر غريغوري من الظلمة ، وفروة أبيه ملقاة على كتفيه ، واقترب
ر . سألته داريا مبتسمة : « ما الذي يثقلك بالهموم . بهذا القدر ؟ » ف
ها مازحاً : « أحس بالهم في ظهري . يبدو أنها ستمطر » .
وقالت دونيا متضحكة : - إنه لا يريد أن يحرس الشيران . وحاولت

المستوي . وكانت اكسينيا تأكل دون أن ترفع عينيها ، وهي تبسم لفكاهات داريا من غير ما حماسة كثيرة في حين اشتعلت وجنتاها باحمرار شديد .
نهض غريغوري قبل الآخرين ، ومضى إلى الثيران .
فصاح أبوه وراءه : « احرص على ألا تدوس الثيران حشيش الآخرين » ،
ثم غص بلعومه بفتات الدخن فجعل يسعل سعالاً جافاً لوقت طويل .
وانتفخت وجنتا دونيا فيما كانت تحاول أن تكتم ضحكاتها . تضاءلت النار . ولف الجماعة رائحة حلوة انبعثت من الأوراق المحترقة في الحطب المتوهج .

عند منتصف الليل تسلل غريغوري إلى المضرب ، وتوقف على مبعدة عشر خطوات . كان أبوه يشخر شخيراً مرناً في العربة . والجمر غير المطفاً يتألق من خلل الرماد كأته عيون طاووس ذهبية .
وانتزع شبح رمادي ملثم نفسه من العربة واقترب ويبدأ من غريغوري . وعلى مبعدة خطوتين أو ثلاث ، توقف الشبح . اكسينيا ! ودق قلب غريغوري سريعاً وعنيفاً ، وتقدم إلى الامام حبواً ، وقد نحى طرف فروته الى الوراء ، وضغط إليه جسدها الملهب المستسلم . وانغنت ساقاها عند الركبتين ، وارتعشت واصطكت أسنانها . فرفعها غريغوري فجأة وألقاها على ذراعيه ، كما يلقي ذئب شاة ذبيحة على ظهره ، ومضى متعشراً بأطراف معطفه المفتوح مبهور النفس .

- اوها غريشا ، غريشا! أبوك... .

- اهدئي!

وانتزعَت نفسها منه ، لاهثة تنشد الهواء في ثنايا صوف الفروة الحامض ، والندم يأخذ بخناقها ، وندت عنها صيحة متأوّهة خفيضة هي إلى العياط أقرب :

- أنزلني ، مافي اليد حيلة سأذهب بنفسني .

١٠

ليس لازوردياً ولا أحمر فاتحاً كلون الخشخاش ، حب المرأة المتأخر ، لكنه مسعور كعشب السيكران النبات على جانب الطريق .
بعد انتهاء الحش ، أمست اكسينيا امرأة أخرى : وكان أحداً قد وسم وجهها بميسم من نار . وإذا صادفتها النساء تبسمن بخبث ، وهززن رؤوسهن وراءها . أما الفتيات فقد حسدنّها ، لكنها شمخت عالياً برأسها الهائىء المجلل بالعار .

وسرعان ما عرف الجميع حكايتها مع غريغوري ميلخوف . في البدء ، كان الحديث يدور همساً ، والناس بين الشك واليقين ، ولكن بعد أن رآهما راعي القرية في بكرة الفجر مستلقيين في الذرة اليانعة تحت ضياء القمر الآفل بالقرب من طاحونة الهواء ، انتشرت الشائعات كموجة عكرة تتكسر مضطربة على الشاطئ .

ثم بلغت الشائعة سمع بانتلاي بروكوفيتش أيضاً . فقد حدث ذات يوم أحد ، أن ذهب الى حانوت مخوف ، وكان الازدحام على الباب شديداً الى درجة لاحتتمل المزيد . فدخل بانتلاي بروكوفيتش ، وبدأ الجميع يوسعون له الطريق ، وهم يبتسمون وراءه . واتجه صوب الطاولة حيث تباع الأقمشة . وجاء صاحب الحانوت ، سيرغي بلاتونوفيتش مخوف ، ليلبي طلب العجوز بنفسه . وسأله : « أين كنت طوال هذه المدة يا بروكوفيتش ؟ »
- لدي عمل كثير ومتاعب في الحقل .

- حقاً ؟ متاعب وعندك مثل هذين الولدين ؟

- أي ولدين ؟ لقد ودّعت بيوتر الى المعسكر ، وليس ثمة سواي

وغريشا لنعمل كل شيء .

وفرق مخوف لحيته الحمراء الناشفة بأصابعه إلى نصفين ، وألقى من زاوية عينه نظرة ذات معنى على جمع القوزاق .

- لم لم تحك لنا شيئاً عنه ؟

- عن أي شيء ؟

- ماذا تعني بقولك عن أي شيء ؟ تفكر بتزويج ابنك ، دون أن تقول كلمة ما لأي انسان ؟

- أي ابن ؟

- غريغوري ابنك غير متزوج .

- أنا لم أفكر بتزويجه ، بعد .

- لكنني سمعت أنك بصدد اتخاذ كنة لك . اكسينيا ، زوجة ستيبان استاخوف .

- ماذا ؟ وزوجها على قيد الحياة... كيف يا بلاتونوفيتش... لا بد أنك تمرح . أليس كذلك ؟

- أمزح ؟ ولكنني سمعت الخبر من الآخرين .

فمسح بانتلاي بروكوفيتش بيده على قطعة القماش المبسوطة على الطاولة ، ثم استدار بحدّة ومضى يعرج قاصداً الباب . واتجه الى داره مباشرة ، مطأطأ الرأس كالثور وقد ضمّ قبضة أصابعه المعروقة ، وصار يحجل على ساقه العرجاء بصورة أوضح . وحين مرّ بدار استاخوف ألقى نظرة عجلية عبر سياج الصفصاف . كانت اكسينيا في ثوب جميل تدلف إلى الدار تحمل سطلاً فارغاً وقد بدت يافعة ، وهي تهزّز رديفها اللدين .

صاح بانتلاي بروكوفيتش : « ياهذي ، انتظري » ومرت إلى الداخل خلال البوابة . فتوقفت اكسينيا تنتظره . ثم دخلت الى المطبخ . كانت القاع الترايبية المكنوسة يتلألأ عليها رمل أحمر ، وكان ثمة على المصطبة في الزاوية الأمامية فطائر طازجة أخرجت توأ من الفرن . وانبعثت من الغرفة رائحة ملابس زنخة وتفاح حلو .

هرت قطعة رقطاء ذات جرس كبير حول رجلي بانتلاي بروكوفيتش .
وقوتست ظهرها والتصقت بجزمته . فركلها ركلة ضارية قذفت بها إلى
المصطبة . صاح وهو يسمّر نظره في عيني اكسينيا :

- ما هذا الذي أسمعه ؟ ها ؟ لم يكد زوجك يغيب ، حتى عمدت الى
غواية رجال آخرين! لسوف أجعل دم غريشا يسيل لأجل ذلك ، وسأكتب الى
زوجك ستيبان! فليسمع بهذا! يا عاهرة ، لم تنالي كفايتك من الضرب على ما
يبدو ؟ إياك أن تضعي قدماً داخل حوشي من الآن فصاعداً . تتعابشين مع
شاب . وعندما يأتي ستيبان ، هو سيقول لي...

أنصت إليه اكسينيا وقد حاوشت عينيها . وفجأة رفعت طرف تنورتها
بلا حياء وغمرت بانتلاي بروكوفيتش برائحة ملابس النساء وتقدمت نحوه
متلعة بصدرها وقد التوت شفتاها وتعرّت أسنانها .

- من أنت ؟ حماي ها ؟ من أنت كي تعلمني ؟ رح وعلم امرأتك ذات
المؤخرة السمينة . اضبط من في دارك أنت ، لن أعيرك اهتماماً أيها
الشیطان الاعرج ذو القدم البتراء! اخرج من هنا ، فأنت لا تخيفني!
- انتظري ، أيتها السفیة المخبولة!

- ليس ثمة ما أنتظره! عد من حيث أتيت! وإذا أردت ابنك غريشا ،
فلسوف آكله ، بعظامه وكل ما فيه ، دون أن يحاسبني أحد! ماذا لو أحببت
غريشا ؟ اضربني ، هلاً فعلت ؟ تريد أن تكتب إلى زوجي ؟ اكتب إلى الاتمان
لوشنت ، ولكن غريشا يعود لي! فهو لي! إنه ملكي ، وسأبقى ملكاً لي!

وضغطت اكسينيا على بانتلاي بروكوفيتش الواهن بنهدا الذي كان
يترجرج خلف قميصها الرقيق الضيق كطير حباري واقف في فخ ، وألهبته
بشعلة عينيها السوداوين ، وأغرقتة بمزيد من الكلمات البذيئة الفظيعة .
فتراجع العجوز نحو الباب ، وحاجباه يرتعشان ، وتلمس العصا حيث تركها
في الزاوية ، ودفع الباب بمؤخرته وهو يلوح بيده . وظلّت اكسينيا تضغط
عليه حتى أخرجه من الممر ، وهي تصيح لاهثة هائجة :

- سوف أنعم بحبي ، وسوف أعوض عن كل ما قاسيته من مظالم!
وآنذاك ، لك أن تقتلني إن شئت! فغريشا ملكي ، ملكي!
ومضى بانتلاي بروكوفيتش يعرج إلى بيته ، مدمماً بشيء خلل
لحيته . فوجد غريغوري في الغرفة ، ومن غير أن يقول شيئاً هوى بعصاه على
ظهر ابنه ، فتقوس غريغوري وأمسك بذراع أبيه ،
- فيم هذا ، يا أبي ؟

- جزاء أفعالك المشينة ، يا ابن العاهرة!

- أية أفعال ؟

- لا تلوث جارك! لا تجلب العار لأبيك! لا تجر وراء النساء ، أيها
التيس الحقيراً!

وطفق بانتلاي بروكوفيتش يزمجر وهو يجرجر غريغوري في أرجاء
الغرفة محاولاً انتزاع العصا التي كان غريغوري يمسك بها .

- لن أدعك تضربني - صاح غريغوري في صوت مبحوح وهو يصبر على
أسنانه ، ووضع العصا على ركبته ، ثم... طاق... كسرهما!

فهوى بانتلاي بروكوفيتش بقبضته القاسية على رقبة غريغوري ،
مزمجراً : سأجلدك علناً يا ابن الشيطان الرجيم! سوف أزوجك من بلهاء
القرية! سوف أخصيك! - راوح في مكانه مستعداً ليوجه ضربة جديدة .

وجلب الصباح الأم العجوز فجاءت إلى الغرفة مهرولة .

- بروكوفتش . بروكوفتش! اهدأ قليلاً . مهلاً!

لكن الرجل العجوز كان قد استشاط غضباً عن جد ، فدفع زوجته
بعنف ، وقلب المنضدة وعليها ماكينة الخياطة وانطلق إلى الحوش . ولم يكن
غريغوري قد أتم نزع قميصه الذي تمزق كمنه خلال العراك ، حين دفع أبوه
الباب وظهر من جديد على العتبة كأنه سحابة عاصفة .

- لسوف أزوجه وأتخلص منه ، ابن العاهرة هذا - وضرب الأرض بقدمه
كما تفعل الخيل ، وثبت نظره على غريغوري القوي ، واستطرد : - سأذهب

غداً وأدبر الزيجة . ما كنت أعتقد أنني سأعيش لأرى الناس يتصاحكون عليّ بسبب ابني .

- دعني أرتدي قميصي أولاً ، ثم زوجني!

- سأزوجك من بلهاء القرية! سأزوجك حتماً!

وانصفق الباب ، وطققت أقدام العجوز هابطة السلم وهذأت .

١١

على مبعدة من قرية سيتراكوفو ، كانت صفوف العربات ذات الأغشية المشمعية تمتد عبر السهب . كانت ثمة بلدة صغيرة نظيفة ذات سقوف بيضاء ، تتنامى بسرعة لا تصدق ، وامتدت خلالها شوارع مستقيمة ، وتوسطتها ساحة صغيرة حيث يمشي جندي للحراسة ذهاباً وإياباً .

كان الرجال يحيون حياة معسكر التدريب الاعتيادية الرتيبة . ففي الصباح تقوم مفرزة من القوزاق الذين يتولون حراسة الخيل السارحة بسوقها إلى المعسكر . ثم يتبع ذلك الحس* وسرج الخيول وقراءة الأسماء ، والاستعراض . وكان ضابط الركن آمر المعسكر ، العقيد بوبوف ، ينطق بصوت جهوري ، والعرفاء الذين يدرّبون القوزاق الشباب يصرخون بأوامرهم . وقد اشتركوا في الاشتباكات خلف التل ، وحاصروا « العدو » بمهارة وصوبوا النار إلى الأهداف . وتحمس فتیان القوزاق في مباريات المبارزة بالسيف ، بينما تملّص كبارهم من التدريب قدر ما استطاعوا .

وبينما كانت الأصوات تخشوشن من الحر والفودكا ، هبت رياح منعشة معطرة فوق صفوف العربات الطويلة المغطاة ، وصفرت السوالق من بعيد وأوما السهب يدعوهم إليه ليخلفوا وراءهم دخان الأكواخ البيضاء .

قبل ارفضاض المعسكر بحوالي اسبوع ، جاءت زوجته أندري توميلين (وهو أخو المدفعي ايفان) لزيارته ، وقد جلبت له شيئاً من الفطائر المصنوعة في البيت ، ومجموعة من الأطعمة اللذيذة ، وقبضة من أخبار القرية .

وقفلت عائدة في الصباح الباكر ، حاملة تحيات القوزاق وتوصياتهم إلى عوائلهم وأقربائهم في القرية ، إلا ستيبان استأخوف الذي لم يحملها أية رسالة . فقد ألمّ به مرض في الليلة السابقة ، وشرب الفودكا ليشفي نفسه ، فكانت النتيجة أن أمسى عاجزاً عن رؤية أي شيء في عالمنا الفسيح هذا ، بما في ذلك زوجة توميلين . ولم يخرج إلى الاستعراض ، ورجا مساعد الطبيب أن يفصد له دمه ، فاستجاب الأخير لرجائه واضعاً مجموعة من ديدان العلق على صدره ، وجلس ستيبان بقميصه الداخلي مستنداً إلى عجلة عربته وقد تلطّخ غطاء قبعته الكتاني الأبيض بشحم العربية ، أرخى شفته السفلى ، وراح ينظر الى ديدان العلق وهي تمتص من صدره الذي يشبه البرميل فتنتفخ بالدم القاتم .

وكان مساعد الطبيب يقف الى جانبه مدخناً ، ينفث الدخان خلال الفجوات الواسعة بين أسنانه .

- أشعر بأي تحسّن ؟

- إنها تمتص الدم بصورة حسنة . هذا أخف على القلب نوعاً ما .

- ديدان العلق شيء عظيم !

واقترب توميلين وغمز لستيبان قائلاً :

- ستيبان ، لدي معك كلمة .

- تكلم .

- تعال لحظة .

فنهض ستيبان متأففاً وابتعد مع توميلين .

- قل مالدك .

- كانت امرأتي هنا في زيارة . وقد رحلت هذا الصباح .

- حسناً ؟

- ثمة لفظ كثير حول زوجتك في القرية .

- ماذا ؟

- لفظ لايسر .

- أي ؟

- إنها تتعابث مع غريغوري ميلخوف . وبصورة مكشوفة تماماً .

فشحب وجه ستيبان وانتزع الديدان من صدره وسحقها بقدمه . وحين أتم سحق آخر واحدة منها ، زرر ياقة قميصه ، ثم ، كما لو انتابه الخوف على حين غرة ، عاد ففك أزرار قميصه ، فيما كانت شفتاه الطباشيريتان تتحركان بدون توقف ، ارتجفتا ، ثم انزلقتا في ابتسامة بلهاء ، ثم ارتعشتا وتجمعتا في ثنية دكناء . وظنّ توميلين أن ستيبان لا بد ماخض شيئاً قوياً وصلباً . ثم ، شيئاً فشيئاً ، عاد اللون إلى وجهه ، وتجمدت شفتاه ، اللتان ضغطت عليهما أسنانه ، وغدتا هامدتين بلا حراك . نزع قبعته ، وفرش بكمه بقعة الشحم على غطائها الأبيض ، وقال بصوت رنان : « شكراً للأخبار » .

- لم أرد سوى تحذيرك . معذرة... هذه هي أخبار البيت...

وخبط توميلين يديه على بنطاله في أسف ، ومضى إلى حصانه غير المسرج . وانبعث عن المعسكر لفظ وصيّا ح . فقد عاد القوزاق من تمارين المباراة . ووقف ستيبان برهة يحدّق بثبات وتجهّم في اللطخة السوداء في قبعته . كانت ثمة علة نصف مسحوقة ، ومحتضرة ، تزحف صاعدة على جزمته .

بعد عشرة أيام سيكون القوزاق في طريق عودتهم من المعسكر . وفي تلك الأثناء عاشت اكسينيا في جنون حب مريّر لم تظفر به إلا

متأخرة . وكان غريغوري ينسل إليها في الليل ، على الرغم من وعيد أبيه ، ويعود عند الفجر .

وفي ظرف أسبوعين استنزف قواه ، كحصان يجهد نفسه بما يفوق طاقته . وبسبب من قلة نومه ، تشرب وجهه الأسمر ذو الوجنتين البارزتين بلون أزرق ، ولمعت عيناه المتعبتان من محجريهما الغائرين لمعاناً محمومًا . أما اكسينيا فصارت تمضي سافرة الوجه تماماً ، وقد اسودّت التجاويف العميقة تحت عينيها في سواد كلي ، وابتسمت شفاتها الشرهتان المتورمتان في تحدّ قلق .

وقد بلغت علاقتهما المجنونة حدًا من الغرابة والعلانية ، واحترقا هائمين في شعلة واحدة لاتعرف الخزي ، ولم يردعهما ضمير ولا أخفيا حبهما عن العالم ، وتضاء أمام أعين الناس واسودّت صورتاهما ، وصار الناس يخلطون من النظر إليهما أثناء التقائهما في الشارع . حتى رفاق غريغوري الذين كانوا يمازحونه حول اكسينيا ، غدوا الآن يلزمون الصمت ويشعرون بالتثاقل والضيق في صحبته . أما النساء ، فقد غبطن اكسينيا في قلوبهن ، ومع ذلك ذممنها ، وانتظرن بشماتة عودة ستيبان ، يلوعهن الفضول لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور .

ولو أن غريغوري تظاهر وبذل أي جهد لإخفاء علاقته مع اكسينيا زوجة الجندي ولو أن اكسينيا أبقت علاقتها بغريغوري خفية نسبيًا ، دون الإعراض عن الآخرين ، لما كان العالم قد وجد في علاقتهما شيئاً غير عادي ، ولربما كانت القرية قد ثرثرت بعض الشيء ثم نسيتهما . لكنهما تعاشرنا فيما يشبه العلن . وكانت تربطهما علاقة قوية لاتشبه أيه عشرة عارضة ، ولهذا السبب اعتبرها القرويون منافية للأخلاق ، وأمسكوا أنفاسهم في ترقب متلصص . فسيعود ستيبان ويحل العقدة .

في حجرة نوم آل استاخوف ، كان خيط يمتد فوق السرير لُصمت فيه بكرات خياطة ، بيضاء وسوداء ، كان القصد من تعليقها تزيين الغرفة .

وكان الذباب يقضي ليلاليه على البكرات ، وقد امتدت منها أنسجة العنكبوت حتى بلغت السقف . كان غريغوري متمدداً على ذراع اكسينيا البارد العاري ، يحدق في سلسلة البكرات . وكانت اكسينيا تعابث خصلات شعره الخشنة بيدها الأخرى ذات الأصابع التي اخشوشنت في العمل الشاق . وكانت ثمّة رائحة لبن دافئ تنبعث من أصابعها ، وحينما أدار غريغوري رأسه غارزاً أنفه في إبطها ، أفعمته رائحة العرق الأنعوي الحلوة النفاذة .

إلى جانب السرير الخشبي المطلي المزّين ببكرات صغيرة ، ضمت الحجرة صندوقاً واسعاً ، ذا أطر حديدية ، كان موضعه قرب الباب ، وقد احتوى على ملابس زفاف اكسينيا وحليها . وفي ركن من الغرفة ، كانت منضدة ، وصورة زيتية للجنرال سكوبوليف على صهوة حصان منطلق صوب صف من الأعلام المنحنية أمامه ، وكرسيان ، فوقهما أيقونات ذوات هالات ورقية مزخرفة ، وعلى الحائط الجانبي ، تدلت صور نقطها براز الذباب . وكانت واحدة منها تضم عدداً من القوزاق بخصل شعرهم المجعدة ، وصدورهم المنتفخة تزيينها سلاسل الساعات ، وسيوفهم المشهرة ، وكانت الصورة لستييان ورفاقه أثناء الخدمة العسكرية الفعلية . وعلى مشجب علقت بزة ستييان العسكرية التي لم تغادر مكانها ذاك . وأطل القمر خلال النافذة وحط متردداً على خيطي نائب العريف الأبيضين فوق كتف البزة .

قبلت اكسينيا ، متأوّهة ، غريغوري على منبت أنفه فيما بين حاجبيه .

- غريشا ، يا حبيبي .

- ماذا ؟

- لم يبق غير تسعة أيام .

- ليس هذا بالأجل القصير .

- ماذا عساي أن أفعل ، يا غريشا ؟

- وكيف لي أن أعرف ؟

وكتمت اكسينيا آهة ، وعادت من جديد تسوي شعره الملبّد وتفرقه .

قالت بلهجة اختلط فيها التساؤل بالإفصاح : « سيقتلني ستيبان » .
لم ينبس غريغوري ببنت شفة . لقد أراد أن ينام . وبذل جهداً كي
يفتح جفنيه الملتصقين ، فرأى فوقه سواد عيني اكسينيا المزرق المتلألئ .
- حينما يعود زوجي ، ستتخلى عني ، أليس كذلك ؟ ستخاف ؟
- لم أخاف منه ؟ أنت زوجته ، ويفترض فيك أن تكوني الخائفة .
- حينما أكون الى جانبك لا يتشابني خوف ، ولكنني حينما أفكر في
الأمر أثناء النهار أجدني خائفة .

ثناء غريغوري وغير من وضع رأسه وقال ،
- ليست لعودة ستيبان أهمية كبيرة . إن أبي يتحدث عن تزويجي .
وابتسم ، وكان على وشك أن يضيف شيئاً ، إلا أنه أحس بيد اكسينيا
تحت رأسه ترتخي فجأة ، وتلين وتدفن نفسها في الوسادة ، وترتعش وبعد
لحظة تعود فتتصلب من جديد . ثم تساءلت والغصة تخنق صوتها :
- ممن يفكر في تزويجك ؟
- إنه يتحدث في الأمر ، لاغير . أمي تقول إنه يفكر في ناتاليا بنت
كروشنوف .

- ناتاليا... إنها فتاة جميلة . جميلة جداً . حسناً ، امض وتزوج منها .
رايتها في الكنيسة قبل مدة . كانت أنيقة الملبس...
كانت اكسينيا تتكلم بسرعة ، لكنه لم يكذب يسمعها ، فقد كان صوتها
خالياً من الحياة وكثيراً الى درجة كبيرة .
- إنني لا أعير جمالها قدر دبوسين من اهتمامي ، بودي أن أتزوجك
أنت .

فسحبت اكسينيا ذراعها من تحت رأسه ، وأخذت تحدق في النافذة
بعينين جافتين . كان في الحوش ضباب ليلي أصفر ، وألقت السقيفة ظلاً
ثقيلاً . وكانت الصراصير تصر ، وعلى الدون تهدر طيور الواق ، وتنساب
نغماتها الأسبانية خلال نافذة حجرة النوم .

- غريشا!

- خطر لك شيء ما ؟

فأمسكت اكسينيا بيدي غريغوري الخشنيتين الصلبتين ، وضغطتهما على صدرها وعلى خديها الباردين شبه الميتين ، وأعولت :

- فيم أقمت علاقتك بي ، عليك اللعنة! ما الذي سأفعله ؟ لقد أخذت قلبي... غريشا ، لقد انتهى أمري... ستيبان سيرجع ، وماذا عساي أقول له ؟... من ذا الذي سيكون في عوئي ؟

لم يجب غريغوري بشيء . وحدقت اكسينيا بأسى في أنفه الجميل الذي يحاكي منقار النسر ، وعينييه المظلمتين ، وشفتيه الخرساوين... وفجأة اجتاح فيضان طاغ من الشعور السد الذي كان يكبح جماح عواطفها ، فجعلت تقبله بجنون في وجهه ورقبته وذراعيه والشعر الأسود الخشن المجعد على صدره ، وأحس غريغوري بجسدها يرتعش حين التقطت أنفاسها وهمست :

- غريشا... يا أعز من عندي... يا حبيبي... لنهرب بعيداً . يا حبيبي . لنترك كل شيء ، ونمضي . سأهجر زوجي وكل شيء مادمت أنت معي... سنرحل بعيداً ، إلى المناجم . سأظل أحبك وأرعاك . لي عم يعمل حارساً في مناجم بارامونوف سوف يساعدنا... غريشا... قل شيئاً!

التوى حاجب غريغوري الأيسر . وظلّ يفكر لحظة ، ثم فتح فجأة عينييه التركيتين الملتهبتين ، وكان فيهما استخفاف هازئ متلاعب .

- حمقاء أنت يا اكسينيا ، حمقاء! تثرثرين ، وليس في كلامك ما يستحق الإنصات . كيف أستطيع أن أرحل عن القرية ؟ عليّ أن أؤدي الخدمة العسكرية في العام القادم... لا جدوى من الرحيل... لن أتزحزح مطلقاً عن أرضنا . هنا ، يوجد السهب ، وثمة شيء أستنشقه - أما هناك ؟ في الشتاء الماضي ، ذهبت مع أبي إلى المحطة . كدت أموت . آلات تزأر ، والهواء خائق ومثقل بالفحم المحترق . كيف يعيش الناس هناك ، لا أدري . ربّما اعتادوا ذلك!

- لن أرحل عن القرية .

اشتدت عتمة الليل خارج النافذة ، ومرت سحابة أمام القمر . وتلاها باب الأصفر من الحوش ، واختفت الظلال ، وصار من العسير أن يتبين ما إذا كانت أحطاب العام الماضي أم أعشاب جافة ، تلك التي لاحقتهم ، وراء السياج .

واشتدت العتمة في الغرفة أيضاً . اختفى لمعان الخيطين على بزة ستيبان ، وكسرت المعلقة إلى جانب النافذة ، وفي الظلام الرمادي الهامد لم يلمح غوري الارتعاش الخفيف في كتفي اكسينيا ، ولا رأسها المدفون في الفراش ، وهي تهتز في صمت على الوسادة .

١٣

بعد زيارة زوجة توميلين ، تغيرت ملامح ستيبان بشكل واضح ، فتدبّر بابه فوق عينيه ، وتجمّد جبينه في تقطيب قاس عميق . صار مقلداً له مع رفاقه ، وجعل يغضب لأتفه الأسباب ، وتخاصم مع رئيس العرفاء يعد يطبق النظر إلى بيوتر ميليخوف . لقد انقطعت عرى الصداقة التي تربطهما في السابق . وفي حومة هياجه الفوار المغتاض ، انحدر منه إلى الحضيض وكأأنه حصان شמוש . وهكذا ، رجعا إلى القصر .

وكان لابد من حدوث شيء يوصل العداء الغامض بينهما إلى حافة الانفجار . انطلقا إلى قريتهما مع الجماعة نفسها كما كان الحال في السابق . نزل حصان بيوتر وستيبان مشدودين إلى العربة ، وكان كريستونيا

يقود العربية ، فأمسك ببيوتر بالأعنة . وسار ستيبان الى جانب العربية ، لافحاً بضربات من سوطه الرؤوس القرمزية للأشواك النامية على جانب الطريق . كان المطر يتساقط ، وجعل التراب الأسود الثر يلتصق بالعجلات كالقطران . وكانت السماء خريفية تضيئ عليها السحب لوناً رمادياً . وجاء الليل . ولم تكن أنوار أية قرية تلوح في مدى الرؤية . فأخذ بيوتر يستحث الخيل بسوطه بلا رادع . وفجأة صاح ستيبان في الظلمة :

- أنت... يا... أنت! تترك حصانك ، وتهوي بالسوط على فرسي طول الوقت!

- افتح عينيك! أنا أضرب الحصان الذي لا يسحب .
- اخشأ ألا أربطك أنت الى عريش العربية . ذاك هو المكان اللائق بالأثراك .

فألقي بيوتر بالأعنة وقال :

- ماذا تقصد ؟

- اوه ، ابق في مكانك .

- اخرس!

وتساءل كريستونيا وهو يقترب من ستيبان على حصانه : « فيم هياجك عليه ؟ »

لم يجبه ستيبان ، وكان الظلام يخفي وجهه . ومضوا صامتين طوال نصف ساعة أخرى . كان الطين ينسحق تحت العجلات ، والمطر يتساقط برتابة فوق الأغطية المشمعة . أرخى بيوتر الأعنة ، ودخّن وهو يسترجع في ذهنه كل كلمات الإهانة التي قد يستعملها في عراكه القادم مع ستيبان . فار الحنق في قلبه واستبدت به الرغبة في أن يقول لستيبان السافل كلمات لاذعة ويستهزئ به .

- تنح عن طريقي . أريد أن أدخل تحت الغطاء .

قال ستيبان ذلك وهو يدفع بيوتر جانباً ووثب الى مدوس العربية .

ارتجّت العربّة فجأة ووقفت ، فقد تزلزلت الخيل في الوحل ، وتتابعت
خوافرها ، وأنّ العريش . فصرخ بيوتر :
- هوه! - وقفز الى الأرض .
فتساءل ستيبان قلقاً : «ماذا حدث ؟ » اقترب كريستونيا على حصانه
قائلاً :

- ماذا حدث يا شياطين ؟
- هات ضوءاً .
- أين الكبريت ؟
- يا ستيبان هات الكبريت .
في المقدّمة ، كانت الفرس تنافح وتزنجر . وأشعل أحدهم عود ثقاب ،
فتكوّنت دائرة برتقالية صغيرة من الضياء ، ثمّ خيّم الظلام من جديد .
وبيدين مرتعشتين تحسس بيوتر العمود الفقري للفرس المنكفئة ، ثم جر
العنان «هاي!»
أنّت الفرس وانقلبت ، فانكسر العريش الأوسط نصفين . وأشعل
ستيبان جملة من عيدان العقاب . كانت فرسه متمددة وهي تشرئب
برقبته ، وقد انغرست إحدى قادمتيها حتّى الركبة في حفرة مرموط في
الأرض .

فك كريستونيا السيور ، في عجلة . وتبادل بعضهم البعض بالكلام ،
- اسحب قادمتها!
- فك العنان عن حصان بيوتر بسرعة!
- هوه! على مهلك! على مهلك!
- إنها ترفس! اللعنة عليها! احترس!
وأخيراً ، أوقفت فرس ستيبان على أقدامها بعد لأي . وفيما أمسك بها
بيوتر من عنانها ، زحف كريستونيا على ركبتيه في الوحل ، متحسّساً ساقيها
المتدلية باستكانة .

- يبدوانها كسرت .

وضرب فيدوت براحة يده على ظهر الفرس المرتعش :
- لنر فيما اذا كانت تستطيع السير .

وسحب بيوتر العنان ، فحجلت الفرس خطوة أو خطوتين دون أن ت
رض بقائمتها اليسرى ، وصهلت . راح توميلين في قلق وهو يرتدي معص
سميك ، ويقول :

- كُسرت ، اللعنة! فقدنا فرساً .

وبدا على ستيبان الذي ظلّ صامتاً حتى الآن ، كأنه ينتظر مثل ه
ملاحظة . فهجم على بيوتر منحياً كريستونيا عن طريقه . كان يستهد
سه ، إلا أنه أخطأ ، وهوى بضربته على كتفه . وتماسك الاثنان ، وسق
الوحد . وانبعث صوت قميص يتمزق . واستطاع ستيبان أن يطرح بيو
ته ، ضاغطاً بركبته على رأس بيوتر . وراح يكيل له الضربات بقبضت
ستطاع كريستونيا أن يجره عن بيوتر وهو يصرخ بالشتائم البدئية .
صاح بيوتر وهو يبصق دماً ،
- فيم ذلك ؟

- افتح عينيك حين تسوق ، يا أفعى! سر في الطريق!
وحاول بيوتر أن ينتزع نفسه من قبضة كريستونيا ، فزار الأخير لاص
تر بيد واحدة على العربة ،
- كفاية! حذار أن تعاركني!

شدوا حصان بودوفسكوف الصغير القوي إلى جانب حصان بيوتر
عطى كريستونيا حصانه لستيبان ليمتطيه ، وزحف هو إلى داخل العربة
وتر .

يخوض في الوحل صوب الشباك ، غير مكترث بالكلب الذي كان يعض أطراف معطفه . فتح شيش الشباك ، وجعل يخمش على لوح الزجاج بأظفر متقرن .
- يارب البيت!

ولم يجبه سوى همس المطر ، وهدير النباح .
- يارب البيت! أيها الأخيار ، سلاماً! دعونا نقضي الليلة عندكم ، إكراماً للمسيح ، ها ؟ نحن قادمون من معسكر التدريب ، كم عددنا ؟ خمسة . بديع ، فليحفظكم المسيح .

ثم استدار إلى ناحية البوابة وصاح : «ادخلوا!»
فقاد بودوفسكوف الخيل الى الداخل ، وتعثّر بمعلف خنزير ملقى في وسط الحوش ، فانحدر من فمه سيل من السباب المقذع . وقادوا الخيل إلى الحظيرة . ومضى توميلين الى البيت وأسنانه تصطك ، بينما بقي كريستونيا ويوتر في العربة .

عند الفجر ، تهيأوا لمواصلة الرحلة ثانية . فخرج ستيبان من البيت ، تطلع وراءه عجوز حذاء . وصاح كريستونيا ، الذي كان يشد الخيل ، بلهجة مشفقة :

- هو هو ، يا جدتي! ياله من سنام هذا الذي حطّوه عليك! لكنه ذو فائدة لك عند الركوع في الكنيسة . فلست بحاجة إلى الإنحناء الكثير للوصول الى الأرض!

- لئن كنت أصلح للركوع ، فأنت يا عزيزي تصلح لتعليق الكلاب عليك . فثمة شيء ما لكل واحد منا!

وابتسمت العجوز بصرامة ، مثيرة استغراب كريستونيا بما كشفتته من صف كامل لأسنان صغيرة سليمة .

- وأسنانك ، يالها من أسنان ، كسمك الكراكي! ألا تعطيني بعضاً منها ؟ ها أنذا في ريعان الشباب ، وليس لدي ما ألوك به .
- وماذا سيتبقى لدي ، يا عزيزي ؟

- لسوف نعطيك طقماً من أسنان الخيل ، يا حَبّوبة . ستموتين يوماً ما ، ولن يلقوا نظرة الى أسنانك في الآخرة . فليس القديسون تجّار خيل ، كما تعلمين .

فقال توميلين مبتسماً : «استمر في ذلك يا كريستونيا » ، وتسَلّق الى داخل العربة .

ومشت العجوز وراء ستيبان إلى الحظيرة ، وتساءلت : «أي منها ؟ » فتهد ستيبان قائلاً : «الدهماء » فوضعت العجوز عصاها على الأرض . وبحركة رجولية قويّة واثقة ، رفعت ساق الفرس المصابة . وتحسست بأصابعها الهزيلة المعقوفة رضفة الركبة بعناية ، فتحرّكت أذنا الفرس وجعلها الألم تتراجع على ساقها الخلفيتين . وكشفت عن صف أسنانها البنية .
- لا لا ، ليس هناك كسر ، أيها القوزاقي . اتركها هنا وسأشفيها .
- متأكّدة يا جدتي ؟

- أنا متأكّدة ؟ لا أدري يا عزيزي . سأحاول أن أشفيها .
فلوَح ستيبان بيده ومضى الى العربة . فارتفع صوت العجوز وهي تراقبه بعينين ضيقتين : «هل ستتركها أم لا ؟ »
فأجاب :

- فلتبق هنا .
وقال كريستونيا هادراً بالضحك :
- ستشفيها لك . وحين تعود إليها لن تجد لديها أيّة ساق باقية ، فالبيطاراة نفسها حذباء .

١٤

- آه ، لكم اتحرّق شوقاً إليه ، يا جدتي العزيزة! ها أنا أرى نفسي تذوب . لم أعد أستطيع خياطة ثنيات لتنورتني بالسرعة الكافية . وجسمي

يزداد نحافة . كلما يمر بجانب البيت أحس بقلبي يحترق . بودي لو أرتمي على الأرض وألثم آثار أقدامه . لربما استعمل شيئاً ما ليسحرنني ؟ ساعديني ياعزيزتي . إنهم بصدد تزويجه... ساعديني ياعزيزتي... مهما يكن الثمن... سوف أعطيك كل ما أملك ، فقط ساعديني!

ونظرت العجوز دروزديخا الى اكسينيا بعينين صافيتين داخل شبكة وجهها المجعد ، هaze رأسها لدى سماعها القصة المريعة .

- ومن هو هذا ؟

- ابن بانتلاي ميليخوف .

- التركي ، أليس كذلك ؟

- بلى .

وتمضت العجوز لثمتها عديمة الأسنان ، وترددت في جوابها ،

- تعالي إليّ في بكرة الغد ، ياطفلتي ، حالما يطلع الفجر . سوف ننزل إلى الدون ، إلى الماء ، سوف نغسل عنك حنينك . وأحضري قليلاً من الملح معك... هكذا...

وتلفعت اكسينيا بشالها الأصفر ، ومضت ، وكثفاها متهدلتان ، خارجة خلال البوابة . وابتلع الليل هيكلها الداكن ، وكان الصوت الوحيد في الشارع صوت صندلها الذي تخط به على الأرض . ثم تلاشت خطواتها . ومن مكان ما في طرف القرية ، انبعثت جلبة عراك وغناء .

عند الفجر ، وقفت اكسينيا ، التي لم تعرف النوم طوال الليل ، تحت نافذة دروزديخا :

- جدتي!

- من هناك ؟

- أنا اكسينيا . انهضني .

- سأرتدي ملابسني حالاً .

واتخذتا طريقهما خلل الدروب الخلفية إلى النهر . وعلى مقربة من

المرسى كانت محاور عربية مهجورة ملقاة وقد تشرّبت بالماء . وعند حافة الماء كان الرمل يحز أقدامهما ببرودة . وزحفت ، صاعدة من الدون ، ضبابية باردة رطبة .

وأخذت دروزديخا يد اكسينيا بيدها الهزيلة وقادتھا الى الماء .
- أعطني الملح . ارسمي علامة الصليب باتجاه المشرق . فرسمت اكسينيا الصليب على نفسها ، وهي تحدّق في حنق باتجاه المشرق الوردي البهيج .

- خذي شيئاً من الماء براحتك واشربي .
وشربت اكسينيا ، مبللة كمّي قميصها ، وكعنكبوت أسود فجّت العجوز الأمواج المتلاطمة في تكاسل ، وجلست القرفصاء ، وجلست تهمس ،
- أيتها التيارات القادمة من الأعماق... جسد محزون... وحش في القلب... حمى وحنين... باسم الصليب المقدّس ، باسم الأم الطاهرة المقدسة...
عبد الرب... غريغوري .

تناهت هذه الكلمات إلى مسمع اكسينيا .
ونثرت دروزديخا بعض الملح على الرمل الندي عند قدميها وبعضاً منه في الماء ، ووضعت الباقي في صدر اكسينيا .
- رشّي بعض الماء على كتفك . أسرعي!
فعلت اكسينيا ذلك ، وحملت بحزن وغضب في خدي دروزديخا النحاسيين .

- أهذا كل شيء ؟
- نعم ، هذا كل شيء . اذهبي ونامي .
جرت اكسينيا ، مبهورة الأنفاس إلى الدار ، كانت الأبقار تخور في الفناء . وكانت داريا تسوق أبقارها لتلحق بقطيع القرية ، وعيناها نعستان متوردان ، وحاجباها مقوسان . فابتسمت حين رأت اكسينيا تجري مارة بها وقالت :

- هل نمت جيداً ، يا جارتى ؟

- الحمد لله...

- وأين كنت في هذا الوقت الباكر ؟

- كنت في زيارة في القرية .

كانت نواقيس الكنيسة تدق داعية لصلاة الصبح ، وكان وقعها النحاسي يتكسر إلى نثار من الأصوات . وفرق مساعد راعي القرية بسوطه في الطريق الجانبي . فسأقت اكسينيا بقراءتها مسرعة إلى الخارج ، ثم حملت اللبن إلى الدار لتخضه . وشمرت كمّيتها ومسحت يديها بصدريتها ، وصبت اللبن في المخضّة ، وهي شاردة الذهن .

كان ثمّة ضجيج عجلات صاخب وزنخرة خيل في الشارع . فوضعت اكسينيا السطل ، وذهبت لتستطلع الأمر من الشباك الأمامي . كان ستيبان قادماً خلال البوابة ، ويده على رمانة سيفه ، وكان القوزاق الآخرون يجرون على خيلهم صوب ساحة القرية . جعدت اكسينيا صدريتها بأصابعها ، وجلست على المصطبة . ثمّة خطوات في السلم... خطوات في الممر... خطوات عند الباب مباشرة...

وقف ستيبان على العتبة ، ضامراً نفوراً ، وقال :
- حسناً ؟

فتقدمت نحوه اكسينيا ، وجسمها الممتلىء يترنح برمته . وقالت ببطء : «اضربني» وأدارت إليه كتفها .
- حسناً ، يا اكسينيا ؟

- لن أكتمك . لقد أثمت . اضربني ، يا ستيبان !

وضمت رأسها بين كتفيها ، وانحنت الى الأسفل لتحمي بذراعيها بطنها فقط ، وصارت وجهاً لوجه معه . وحملت عيناها دون أن تطرفا من محجريهما الداكنين في وجهها الأبكم الذي شوّهه الخوف . ترنح ستيبان وتخطأها ، فانبعثت من قميصه غير المغسول رائحة العرق الرجولي ، وروائح

الطريق الحريفة ، ثم هوى على السرير دون أن ينتزع قبعته . واستلقى لحظة هناك ، ثم هز كتفيه ، وألقى عنه نطاق سيفه . وتدلى شاربه الأشقر ، البارز المبروم في العادة ، وارتخت ذؤابتاه . فحدجته اكسينيا بطرف عينها ، دون أن تدبر رأسها نحوه ، وكانت القشعريرة تجتاح بدنهما بين لحظة وأخرى . ثم وضع ستيبان قدميه على طرف السرير ، فانزلق الوحل من جزمته . حدق في السقف ، ولعب شرابة سيفه الجلدية .

- الفطور جاهز ؟

- لا...

- هاتي شيئاً أكله .

رشف شيئاً من اللبن مبللاً شاربه . ومضغ الخبز متباطئاً . وكانت عضلات وجنتيه الوردية تتحرك بانتظام . وقفت اكسينيا قرب الموقد تراقب بفرع لاهب أذني زوجها الغضروفيتين الصغيرتين ترتفعان وتنخفضان وهو يأكل .

نهض ستيبان من المائدة ورسم علامة الصليب عليه ، وطلب إليها باقتضاب :

- هيا ياعزيزتي ، أخبريني بالأمر .

وبرأس منكس ، نظفت اكسينيا المائدة ، ولم تنبس بشيء .

- أخبريني كيف انتظرت زوجك ، كيف صنت شرفه ، ها ؟

وهوت ضربة مريعة على رأسها ، فانتزعته من الأرض ، وقذفتها شطر الباب . وارتطم ظهرها بعمود الباب ، فندّ عنها أنين بانس .

إن النساء ضعيفات الجسم ناعماته ، ولكن ستيبان بوسعه أن يصرع حتى رؤوس رجال الحرس الأقوياء الأشداء ، بضربة محكمة على الرأس ، فلعل الخوف هو الذي أنهض اكسينيا ، أو ربّما رغبة المرأة في الحياة - فأفاقت من الضربة ، واستراحت لحظة مستلقية ، ثم حبت زاحفة على الأربع . كان ستيبان يشعل سيكارة وسط الغرفة ، فلم يرها تنهض على قدميها .

ألقى كيس تبغفه على المنضدة ، غير أن أكسينيا كانت آنذاك قد صفقت الباب وراءها ، فاندفع خلفها يطاردها .

ركضت أكسينيا ، والدم يسيل من رأسها ، متجهة صوب السياج الذي يفصل فناءهما عن فناء آل ميليخوف . وأدركها ستيبان عند السياج ، فأهوى بيده السوداء على رأسها كالصقر ، ولفّت شعرها بأصابعه ، وجعل يجذبها ، حتى طرحها أرضاً ، على رماد الفحم الذي كانت أكسينيا ترميه كل يوم بجانب السياج .

مر اليكسي شامل الأقطع بالسياج ، وألقى نظره رلى الداخل ، فطرفت عينه ، وانفرجت لحيته الكثّة الصغيرة عن ابتسامة :

ليس في الأمر غرابة أن زوجاً يسحق زوجته بجزمته بالفعل ، ويداه وراء ظهره ، إنه لشيء طبيعي جداً أن يعاقب ستيبان زوجته الشرعية . وساور شامل الفضول في أن يتوقف ، ليرى ما إذا كان سيضربها حتى الموت أو لا ، لكن ضميره أبى عليه ذلك . فهو ، على كل حال ، ليس بامرأة .

لو كنت تراقب ستيبان عن بعد ، لظننت أنه يؤدي رقصة قوزاقية . وكان هذا ما حسبه غريغوري بالفعل ، حينما شاهد ستيبان ، خلال النافذة ، يتوالت ، صاعداً هابطاً ، لكنه أعاد النظر مرة أخرى ، ومرق خارج الدار ، راكضاً صوب السياج على أصابع قدميه ، وهو يضم قبضتيه القويتين الخدرتين إلى صدره ، وتبعه بيوتر في جزمته الثقيلتين .

انطلق غريغوري ، كالطائر ، عبر السياج العالي ، وهجم على ستيبان من الخلف فترنّح ستيبان ، ثم استدار وتقدّم صوب غريغوري كالدب .

قاتل الأخوان ميليخوف باستبسال ، وانقضّا على ستيبان كما تنقض غربان الرمم على جثة متفسخة . وحدث عدة مرات أن هوى غريغوري تحت قبضة ستيبان الصخرية ، فهو لم يكن نذاً متكافئاً لعراك شديد المراس كستيبان ، لكن بيوتر القوي البنيان ، والخفيف الحركة استطاع أن يقف بثبات على قدميه ، وإن كان ينحني تحت ضربات ستيبان مثل قصبه في مهب الريح .

تراجع ستيبان إلى درجات الباب ، وإحدى عينيه تومض لهباً والأخرى تكتسي لون الخوخ الفج .

في تلك الأثناء ، حدث أن جاء كريستونيا ليستعير رباط خيل من بيوتر ، ففرقهم .

- كفوا عن ذلك - ولوح بذراعيه ، - تفرقوا ، وإلا أبلغت الأتمان .
بصق بيوتر بحذر دماً ونصف سن في راحة يده ، ثم قال بصوت مبحوح : - تعال يا غريشا . سنظفر به في وقت آخر .

وجاء صوت ستيبان متوعداً من الدرج : - احرص على أن لا أظفر أنا بك!

- طيب ، طيب!

- لا «طيب» ولا هم يحزنون ، لسوف أقلع مصارينك!

- أجاد أنت أم هازل؟

وجرى ستيبان نازلاً الدرجات ، فانطلق غريغوري لمواجهته ، لكن كريستونيا دفعه نحو البوابة ، وقال متوعداً :
- جرب ، سوف أسلخ عنك جلدك!

منذ ذلك اليوم ، تطورت الكراهية بين آل ميليخوف وستيبان استاخوف حتى صارت عقدة مستحكمة . لكن غريغوري ميليخوف كتب له أن يحل تلك العقدة بعد عامين في بروسيا الشرقية قرب بلدة ستوليبين .

١٥

- قل لبيوتر أن يشد الفرس على العربة ويعد حصانه أيضاً .
فخرج غريغوري إلى الحوش . كان بيوتر يدفع عربة صغيرة من تحت طنف الحظيرة .

- يقول أبي أن عليك أن تشد الفرس على عربة وتعد حصانك أيضاً .

فقال بيوتر وهو يثبت العريش :

- أعرف ذلك دون أن يقول لي هو . لا حاجة إلى نصائحه .

كان بانتلاي بروكوفيتش جالساً يتم تناول حسائه وهو ينضح بالعرق ، وقد بدا وقوراً ، مثل راعي كنيسة أثناء القداس .

وكانت دونيا تراقب غريغوري بتيقظ ، وهي تكتم تلالؤاً صبيانياً في موضع ما تحت الظلال المنعشة لأهدابها المقوسة الطويلة . وبدت ايلينشنا ضخمة مهيبة في شال يوم الأحد الليموني ، ولاح في طرفي شفتيها قلق أمومي ، ألقت نظرة إلى غريغوري وقالت لزوجها العجوز :

- كفاك حشو بطنك ، يا بروكوفيتش . من يراك يخال أنك كنت تموت جوعاً .

- حتى الطعام تمنعينه عني ! يالك من امرأة نقوق !

ثم ظهر شارب بيوتر القمحي الطويل عند الباب .

- عربتك جاهزة ، لو سمحت !

فانفجرت دونيا ضاحكة وأخفت وجهها في كمها ، ومرت داريا عبر المطبخ متفحصة عريس المستقبل ، وحاجباها الرقيقان يتراقصان .

وكانت الخالة فاسيليسا الأرملة ابنة عم ايلينشنا ، ذاهبة معهم للخطبة . وكانت صاحبة همّة خبرت الحياة ، وعركت تجاربها ، وكانت أول من حطّ على العربية الصغيرة ، مديرة رأسها المدور ، متضاحكة وكاشفة عن أسنانها السود المعوجة تحت ثنيات شفتيها .

فقال بانتلاي بروكوفيتش محذراً :

- لا تعرضي أسنانك ، يا فاسيليسا ، سوف تفسدين كل شيء . فأسنانك تبدو كمن أمضت سهرة صاخبة ، فليست بينها سن تستطيع أن تقف معتدلة .

- آه يا ابن العم ، أنا لست بالعروس المرتقبة .

- ربّما لا تكونين ، ومع ذلك فلا تضحكي . يا لها من أسنان... لونها

وحده يبعث في المرء الغثيان .

أصاب فاسيليسا الاستياء ، على أن بيوتر كان ، في تلك الأثناء ، قد فتح البوابة ، وسوى غريغوري الأعنة الجلدية ، وقفز الى مقعد السائق . وجلس بانتلاي بروكوفيتش وايلينشنا الى الخلف ، وكأنهما عروسان جديدان .

وصاح بيوتر ، مرخياً الرسن :

- ألهبهما بالسوط!

فعض غريغوري شفتيه وانهاه بالسوط على الحصان الذي تتحرك أذناه : « إياك أن تتشربك! » فشدت الخيل على الأعنة ثم انطلقت بسرعة . وزعقت داريا : « حذار! سوف تنقلب! » ولكن العربة انحرفت بحدة ، ومضت تتوَّج مفرقة على عثرات الطريق .

ومال غريغوري جانباً ليستحث حصان بيوتر المتخلف بسوطه . وأمسك أبوه لحيته بيده ، وكأنه يخشى أن تنتشها الريح منه . وصاح بصوت مبحوح ، منحياً فوق كتف غريغوري : « اضرب الفرس! » وألقى نظرات إلى الجانبين .

ومسحت ايلينشنا بكم قميصها المخرم عينيها اللتين أدمعتهما الريح ، وطرفت إلى قميص غريغوري الأطلس الأزرق الذي كان يخنق ويتموج على ظهره . وكان القوزاق يتنحون عن الطريق ، ويقفون طويلاً محملقين وراءهم . وجرت الكلاب من البيوت تنبح بين حوافر الخيل ، على أن نباحها ضاع في قرقة العجلات المؤطرة حديثاً .

لم يرحم غريغوري الخيل ولا بخل بالسوط ، ولم تمض عشر دقائق حتى خلفوا القرية وراءهم . وامتد على جانبي الطريق الطوق الأخضر للبساتين الأخيرة . وسرعان ما لاح لهم بيت كورشونوف الكبير بسياجه الخشبي . جذب غريغوري الأعنة ، فقطعت العربة نشيدها الحديدي في منتصفه ، وتوقفت عند البوابة المطلية والمنقوشة بحفر دقيق .

لبث غريغوري مع الخيل ، بينما مضى بانتلاي بروكوفتش يعرج صوب درجات الباب . ومخرت وراءه ايلينشنا حمراء الوجه وفاسيليسا المزمومة الشفتين تحف بهما خشخشة تنورتيهما . وتعجل العجوز نفسه خشية أن يفقد الشجاعة التي استجمعها خلال الطريق ، وتعثر بالعتبة العالية ، وصادم ساقه العرجاء ، فاستبد به الغيظ ، وتجهّم وجهه من الألم ، وضرب بقدمه مغتاظاً درجات العتبة المكنوسة جيداً .

دخل المطبخ هو وايلينشنا معاً تقريباً . كان يكره الوقوف إلى جانب زوجته ، إذ كانت أطول منه ، ولهذا تقدّمها خطوة ، ورسم علامة الصليب أمام أيقونة دكناء ، فيما كان ينزع قبعته .

— صحة طيبة!

فأجاب رب البيت وهو ينهض من على المصطبة : «لله الحمد» كان عجوزاً أنمش قصير القامة .

واستطرد بانتلاي بروكوفتش :

— جنّناك ضيوفاً ، يا ميرون غريغورييفتش .

— الضيوف على الرحب والسعة دائماً . ماريا ، هاتي شيئاً يقعد عليه الزوار .

فمسحت زوجته العجوز ، ضامرة الصدر ، غباراً وهمياً من على ثلاثة مقاعد ، ودفعتها إلى الضيوف . فجلس بانتلاي بروكوفتش على طرف أحدها مجففاً عرق جبينه بمنديله .

وابتدر قائلاً دون مقدمات : «جنّناكم بمهمة» وهنا جلست ايلينشنا وفاسيليسا أيضاً ، وهما تلملمان تنورتيهما .

وابتسم رب البيت : «على الرحب والسعة . أية مهمة هي ؟»

ودخل غريغوري ، ونظر حوله ثم قال :

— صحة طيبة . — لله الحمد — أجابت زوجة رب البيت بصوت ممطوط .

وحياّه رب البيت بنفس التحيّة . وكست وجه ميرون غريغورييفتش الأنمش

موجة من احمرار نحاسي ، فقد أدرك الآن موضوع الزيارة ، فأصدر إلى زوجته أمراً : « أدخلوا الخيل إلى الفناء ، وألقوا لها شيئاً من التبن » . فخرجت زوجته .

استأنف بانتلاي بروكوفتش كلامه ، فاتلاً لحيته الجعداء وشاداً قرط أذنه في سورة انفعاله :

- ليس لدينا سوى القليل مما نتحدث به . لديك فتاة غير متزوجة ، ولدينا ابن . ألا نستطيع أن نصل الى ترتيب ما ؟ بودنا أن نعرف ، أنعطئها لنا أم لا ؟ فلربما نصبح أنسباء ؟

- من يدري ؟ - وحكّ ميرون غريغوريتش موضع الصلع في رأسه ، واستطرد : - يتعيّن عليّ أن أقول أننا لم نفكر في تزويجها هذا الخريف . فتمّة عمل ملء ايدينا ، وهي ليست كبيرة السن . لقد سلخت في التوربيعتها الثامن عشر . هذا صحيح ، أليس كذلك ياماريا ؟
- صحيح .

فتدخلت فاسيليسا : « هذا أوان الزواج تماماً . فما أسرع ما تشيخ الفتاة » ، وتلملت على مقعدها ، وقد وخزتها المكنسة التي سرقتها من الممر ، وحشرتها تحت سترتها . فقد جرت التقاليد على أن الخاطبين الذين يسرقون مكنسة الفتاة لا يرد لهم طلب .

وأجابت زوجة كورشونوف : « لقد جاءت عروض أخرى لابنتنا منذ بداية الربيع . لن توضع ابنتنا على الرف . لا نستطيع أن نشكو إلى الله الكريم... فابنتنا تستطيع القيام بكل شيء... سواء في الحقل أو في البيت » . فقاطع بانتلاي بروكوفتش ثرثرة المرأة قائلاً : « لو جاء رجل طيب ، يمكن أن تزوجها » .

فحك رب البيت رأسه : « الزواج ليس بمشكلة . فباستطاعتنا أن نزوجها في أي وقت كان » .

فظن بانتلاي بروكوفتش أن طلبه سيرفض ، وتملكه الكدر .

- طيب ، إن هذا يعود لك وحدك ، بالطبع . فللمرء حق الاختيار ، وفي
مستطاعه أن يسعى حيث يشاء . إن كنت تبغي الحصول على ابن تاجر ، أو
رجل من هذا القبيل ، فهذا بحث آخر ، ونحن نعذرك .

واذ كانت المفاوضات على وشك أن تنهار ، انفعل بانتلاي بروكوفيتش
وصار وجهه أحمر كالبنجر ، بينما كانت أم الفتاة تقوق كدجاجة راقدة تحوم
فوقها حداة . غير أن فاسيليسا تدخلت في الوقت المناسب ، فصبت فيضاً
من الكلمات الهادئة الملطفة ، كما يُصب الملح على الحروق ، وأفلحت في
سد الثغرة :

- مهلاً ، مهلاً يا أعزائي! اذا أثير موضوع كهذا وجب أن يسوى كما
ينبغي من أجل سعادة طفلتكم . فنتاليا - لن تجدوا مثيلة لها ولو بحثتم في
وضح النهار! العمل يلتهب في يديها! أية شابة مجتهدة! آية ربة بيت! أما
جمالها ، فلكم أن تنظروا بأعينكم ، أيها الناس الطيبون... - وفتحت ذراعيها
في تلويحة معطاء ، متلفتة إلى بانتلاي بروكوفتش وإيلينشنا العابسة ،
واستطردت : - أما هو فزوج أهل لكل فتاة . كلما أنظر إليه ، أحس بقلبي
يدق حنيئاً ، فما أشد شبهه بزوجي الراحل ، أما أسرته فهي مجدة في
العمل . سلوا أي إنسان في هذه الديار عن بروكوفتش ، فكل العالم يعرفه
رجلاً شريفاً كريماً... بالله عليكم ، هل نحن نريد ضرراً لأطفالنا ؟

وانساب صوتهما الناعم في أذني بانتلاي بروكوفتش مثل الشراب
الحلو . كان يستمع إليها ويفكر في نفسه معجباً بما تقول : « آه ، هذه
الشيطانة ذلقة اللسان ، لها أسلوب في الكلام عجيب! من يقدر أن يبزها!
باستطاعة بعض النساء أن يصعقن قوزاقياً بكلماتهن... كل ذلك من امرأة! »
واستغرق في إعجابه بفاسيليسا التي جعلت الآن تصب المديح على الفتاة
وعائلتها ، متوغلة في نسبها حتى الجد الخامس .

- لا ريب ، أننا لا نريد ضرراً بابنتنا .

وقال رب البيت ملطفاً ، وهو يبتسم :

- كل مافي الأمر هو أن الوقت لم يحن لتزويجها .
- فاستأنف بانتتلاي بروكوفتش كلامه ملحاً ،
- ليس الوقت مبكراً ، وحق الله ليس الوقت مبكراً .
- ونشجت ربة البيت ، بين منافقة ومخلصة ،
- عاجلاً أو آجلاً ، سيتعين علينا أن نفارقها .
- ادع ابنتك يا ميرون غريغوريفتش . لنراها .
- ناتاليا!

فظهرت الفتاة خجلى عند الباب ، تتشاغل أصابعها السمر بكشكش منزرها . فشجعته الأم مبتسمة خلال دموعها ،

- ادخلي... ادخلي... إنها خجلى .

كان غريغوري جالساً بجانب صندوق كبير مزين برسوم زرقاء باهتة اللون فنظر إليها .

عينان رماديتان جريئتان تحت وشاح أسود مخرم . وغمّازة وردية صغيرة في الخد الأسيل ، وابتسامة مكتومة خجلى على الشفتين . ثم حول غريغوري عينيه إلى يديها ، كانتا كبيرتين . ترك العمل الشاق عليهما أثره . تحت البلوزة القصيرة الخضراء التي ضمّت جسدها الممتلىء ، برز نهداها الصغيران الصلبان صلابة نهود الصبايا ، بسداجة واستكائة ، وبدت حلمتاها الصغيرتان الناتنتان كزرين .

وما هي إلا لحظة ، حتى استوعبها غريغوري كلها بنظره ، من الرأس حتى الساقين الطويلتين البديعتين . تأملها كما يفحص تاجر فرساً قبل الشراء ، وقال لنفسه : «لابأس بها» ، ثم ترك عينيه تلتقيان بعينيها . فبدت نظرتها الساذجة المخلصة ، والمرتبكة قليلاً ، كأنها تقول : «ها أنا ذا ، بكل ما أنا عليه . فاحكم عليّ كما تشاء» . فأجاب غريغوري بعينه وابتسامته : «رائعة!»

- حسناً ، حسبك هذا - وأشار لها أبوها أن تخرج . فيما كانت ناتاليا

ولها .

استأنف كورشونوف كلامه من جديد ، بعد أن تبادل النظرات
جته ، قائلاً :

- اسمع يا بانتلاي بروكوفتش . ابحثوا الأمر مجدداً ، وسنبجته نحن
ثلة . وبعد ذلك سنقرر ما إذا كنا سنعتبره إتفاقاً على الزواج أو لا .
وبينما كان بانتلاي بروكوفتش يهبط الدرج دس هذه الجملة :
- سنزوركم مرة أخرى يوم الأحد القادم .
وتعمد كورشونوف أن يظل صامتاً ، متظاهراً بأنه لم يسمع .

١٦

لم يدرك ستيبان ، وهو يداري الألم والحقد في نفسه ، أنه كان ي
ينيا حباً بانساً مقيتاً ، على الرغم من ماضيها والحياة التلسة التي يح
ها ، إلا بعد ما علم عن سلوكها من توميلين . كان يقضي لياليه
مسكر مستلقياً في العربة ، يغطيه معطفه السميك ، وذراعه معقود
رأسه ، يفكر بالصورة التي ستلقاه بها زوجته لدى عودته . كان يح
عقرباً قد حلت في صدره في محل قلبه . واذا رقد يفكر بألف وس
تقام منها ، أحسن بأسنانه كما لو رصت بينها ذرات رمل ثقيلة .
عراكه مع بيوتر من غلواء غضبه . وحينما وصل إلى داره كان مت
، فلم يصب اكسينيا منه سوى عقاب يسير .

ومنذ يوم عودته ، حوّم شبح خفي على دار استاخوف ، فاكسي
سي على أطراف أصابعها ، وتتكلم همساً ، لكن ثمة في عينيها ، الك

فيقاسي العذاب . وفي الليل ، وحينما كانت أسراب الذباب تنام في المطبخ على عوارض السقف ، واكسينيا قد سوت الفراش وشفتها ترتعشان ، كان ستيبان يطبق على فمها بكفه ذات العقد ويضربها ، ويطالبها بتفاصيل مخجلة عن علاقتها بغريغوري . فتتلوى اكسينيا ، وتشهق متلمسة الهواء فوق السرير الصلب الذي تنبعث منه رائحة جلد الخروف . فإذا أتعبه تعذيب جسمها الناعم اللدن كالعجين ، يمر يده على وجهها باحثاً عن الدموع ، فلا يجد سوى الجفاف في خديها المشتعلين ، وفكيها يختلجان تحت أصابعه .

- هل ستخبريني ؟

- كلا !

- سأقتلك !

- اقتلني ، اقتلني ، بحق المسيح . ستنتهي آلامي . هذه ليست حياة .
ويطحن ستيبان أسنانه ، ويلوي جلد ثديها الرقيق المبلل بالعرق ، فترتعد اكسينيا وتن .

ويتساءل ستيبان هاللاً : « يؤلمك هذا ؟ »

- أجل ، يؤلمني .

- وهل تعتقدين أن ذلك الأمر لم يؤلمني ؟

ويتقدم الليل قبل أن يغلبه النعاس ، فينام متكوراً وأصابعه السوداء المتورمة تتحرك بلا انقطاع . وتنهض اكسينيا متكئة على مرفقها ، فتأمل وجه زوجها وقد جعله النوم وسيماً ، ثم تلقي برأسها على الوسادة من جديد ، وتهمس مع نفسها .

لم تعد ترى غريغوري إلا اماماً . وقد حدث مرة أن التقت به قرب الدون ، وكان قد أورد الثيران ، وهم بصعود المنحدر وهو يلوح بغصن في يده ويتأمل قدميه . وكانت اكسينيا نازلة الى الدون حين رآته فأحست بنير الدلاء يبرد في يديها ، والدم الحار ينبض في صدغيها .

وحينما استعادت ذكرى ذلك اللقاء فيما بعد ، وجدت من الصعب عليها

إقناع نفسها بأن ذلك قد حدث فعلاً . لم يلحظها غريغوري إلا بعد أن كادت تعبره ، فرفع رأسه على صرير السطل الموصول ، وارتعش حاجباه ، وابتسم في غباء . فشخصت اكسينيا ببصرها عبر رأسه الى أمواج الدون الخضراء ، وإلى أبعد منها حيث حافة الرأس الرملي المتوغل في النهر . واجتاحها انفعال ملتهب اعتصر الدموع من عينيها .

- اكسينيا!

مشيت بضع خطوات ثم توقفت منكسة الرأس كمن يتوقع صفعه ، فقال غريغوري دون أن يدير رأسه ، وهو يضرب بغصنه في حلق ثوراً متلكناً :

- متى سيحش ستيان الجويدار ؟

- إنه يتهياً لذلك الآن .

- حين تودعيه ، اذهبي الى حديقة عبّاد الشمس العائدة لنا ، وسأوافيك هناك .

نزلت اكسينيا الى الدون ودلواها يصران . كان الزبد يتلوى كالأفعى على امتداد الشاطئ ، مثل شريط أصفر يومض على طرف الموجة الاخضر . وكانت ثمة طيور بيض تصيد الأسماك تحوم وتصيح فوق النهر ، وعلى سطح الماء تألقت سمكات صغيرات تألق مطر فضي . وفي الجانب الآخر ، وراء بياض الرأس الرملي ، شمخت ذروات رمادية لشجرات حور معمرات ، بعجرفة وتجهّم . وبينما كانت اكسينيا تغرف الماء ، أسقطت دلوها في النهر ، فرفعت تنورتها ، وخاضت في الماء الى ركبتها ، وراح الماء يدغدغ سمائتيها ، وللمرة الأولى منذ عودة ستيان ضحكت اكسينيا بهدوء وتردد . والتفتت لتنظر إلى غريغوري . كان لم يزل يلوح بغصنه كأنه يطرد الذباب ، وهو يرتقي المرتفع ببطء .

وبعينين تغشاهما الدموع ، رنت إلى ساقيه القويتين بحنان وهما تخطوان باعتداد . وكان سرواله الفضفاض المحشور في جوارب صوفية بيضاء ، يزهو بأشرطته القرمزية . وقد رفرت على ظهره ، فوق عظم اللوح ،

قصاصة قميص مزق حديثاً ، وبدا من الشق مثلث من بشرته السمراء .
فقبلت اكسينيا بعينيها هذه البقعة الصغيرة من الجسد الحبيب الذي كان لها
ذات مرة . وتساقطت الدموع على شفتيها الشاحبتين الباسمتين .

وضعت دلويها على الرمل لتعلقهما على النير ، ولاحظت آثار حذاء
غريغوري . فنظرت خلسة حولها ، لم يكن ثمة أحد على مرمى البصر سوى
بعض الأولاد يستحمون على مقربة من الرصيف البعيد . فجلست القرفصاء
وغطت أثر القدم براحتها ، ثم قامت ، وعلقت النير على كتفيها ، وأسرعت
الى الدار مبتسمة لنفسها .

كانت الشمس تعبر السماء فوق القرية ، وقد أحاط بها ضباب خفيف .
وامتد ، وراء القطيع المتجعد من السحب البيضاء الصغيرة ، مرعى لازوردي ،
بارد عميق . والحرارة خانقة مميتة فوق السقوف الحديدية المحرقة ،
والشوارع المغبرة المهجورة ، وعلى الأفنية ذات العشب الأصفر اليابس .

كانت اكسينيا تمشي متمايلة والماء يطرطش من الدلوين متساقطاً
على الأرض المتشققة . حينما اقتربت اكسينيا من درجات الباب ، كان
ستيبان يشد الخيل الى آلة الحصاد ، وقد وضع على رأسه قبعة قش عريضة .
نظر الى اكسينيا وهو يعدل مشد الصدر على الفرس الناعسة وقال : « صبي
شيئاً من الماء في الإبريق » . فصبت اكسينيا سطلاً من الماء في الإبريق
فاكتوت أصابعها بالحافة الحديدية الحارة .

وقالت وهي تنظر الى ظهر زوجها العرق : « عليك أن تأخذ شيئاً من
الثلج وإلا فيصبح الماء دافئاً بعد قليل » . - اذهبي واطلبي شيئاً من الثلج
من آل ميليخوف » - ثم صرخ ستيبان مستدركاً : « لا ، لا تذهبي » .
ومضت اكسينيا لتسد البوابة . وأخفض ستيبان عينيه واختطف
السوط .

- أين ذاهبة ؟

- لأسد البوابة .

- ارجعي ، يا عاهرة . قلت لك لا تذهبي .

واسرعت عائدة الى الدرجات ، وحاولت أن تعلق النير على الحاجز غير أن يديها كانت ترتعشان بشدة ، فسقط النير مقعقعا على الدرجات .
نشر ستيبان معطفه المشمّع على المقعد الأمامي ، ثم جلس وأمسك بالأعنة .

- افتحي البوابة .

وبينما كانت تفعل ذلك ، غامرت بالسؤال : « متى ستعود ؟ »

- عند المساء . لقد اتفقت مع انيكوشكا على الحصاد . خذي الطعام إليه . سيخرج إلى الحقل بعد أن ينهي شغله عند الحداد .

وصرت عجالات الحاصدة فيما كانت تحفر بساط التراب الرمادي . ومضت اكسينيا إلى داخل الدار ، ووقفت لحظة وهي تضع يديها على قلبها ، ثم ألقت عصاها على رأسها ، وجرت نازلة إلى النهر .

والتهبت الفكرة فجأة في ذهنها : « ولكن ، لنفرض أنه عاد ؟ ما العمل إذن ؟ » وتوقفت كما لو رأت حفرة عميقة عند قدميها ، ونظرت إلى الخلف ثم أسرعت ، تكاد تركض على امتداد ضفة النهر صوب المروج .

أسيجة . بقاع من الأرض مزروعة خضاراً . بحر أصفر من عبّاد الشمس يتحدّى الشمس بنظراته . اخضرار شاحب لنبات البطاطة . نساء آل شامل يعزقن حقل البطاطة ، مقوسات الظهر في ثياب وردية ، ومعازقهن ترتفع وتنخفض بحدّة على الأرض الرمادية . وحينما وصلت اكسينيا إلى بستان ميليوخوف ، تلفتت حولها ، ثم رفعت السقّاطة الخشبية وفتحت البوابة . وتتبع الممشى صوب الدغل الأخضر لسيقان عبّاد الشمس . وحشرت نفسها في وسط الدغل ، محنيّة الظهر ، وقد علق على وجهها لقاح النبات الذهبي ، ثم لملمت تنورتها واقتعدت الأرض الدغلاء .

راحت تنصت : ورن السكون في أذنيها . وانبعث من مكان ما فوقها طنين نحلة وحيدة . إن سيقان عبّاد الشمس تمتص الأرض في صمت .

ظَلَّتْ جالسة على هذه الحال حوالي نصف ساعة ، يعذبها الشك . هل سيأتي ؟ كانت على وشك أن تذهب ، وهي تسوي عصابتها ، حينما صرت البوابة صريراً ثقيلاً . وقع خطوات .
- اكسينيا!

- تعال من هنا .

- ها قد جئت إذن!

واقترب غريغوري ، والأوراق تخشخش عند مروره ، وجلس إلى جانبها . صمتا لحظة .

- ما هذا الذي على خدك ؟

فمسحت اكسينيا بكمها الغبار الذهبي العطر .

- لا بد أنه من عباد الشمس .

- هناك ، تحت عينك . أيضاً .

ومسحته عنها . التقت عيونهما . فأجهشت اكسينيا بالبكاء ، إجابة على تساؤل غريغوري الصامت .

- ماعدت أحتمل . فأنا ضائعة ياغريشا .

- ماذا يفعل بك ؟

فسحبت ياقة بلوزتها بعنف . وبدا نهذاها الورديان ، الممئلان كنهود الفتيات ، تغطيهما كدمات زرقاء محمرة .

- ألا تعلم ؟ إنه يضربني كل يوم . إنه يمتص دمي... وأنت أيضاً...
لوئتنني كالكلبة ، ثم تركتني... إنكم جميعاً...

وزررت بلوزتها بأصابع مرتعشة ، ثم غشيها الخوف من أن يكون قد تكدر ، فتطلعت إلى وجهه المشيح عنها .

قال غريغوري ببطء ، وهو يقضم نصلاً من الحشيش :

- اذن فأنت تحاولين إلقاء اللوم عليّ ؟

أثار صوته الهادي، غيظ اكسينيا فصرخت بضراوة :

- ألا تستحق اللوم ؟

- الكلب لا يواقع كلبة تُمانع .

أخفت اكسينيا وجهها في يديها ، إذ هوت عليها الإهانة مثل لكمة قوية سديدة .

تجهّم غريغوري واختلس النظر إليها مخاوصاً . كانت ثمة دمعة تتألق بين السبابة والوسطى من أصابعها . وتلألاً شعاع متكسّر من الشمس مغبرّ على الدمعة الشفافة ، وجفف أثرها الرطب على بشرتها .

لم يكن غريغوري ليحتمل الدموع ، فتململ نافذ الصبر ، ونفض نملة بنية عن سرواله بقسوة ، ونظر إلى اكسينيا من جديد . لم تكن قد تحرّكت ، ولكن ثلاثة مسایل من الدموع كانت تتسابق هابطة على ظهر يدها .

- ماذا حدث ؟ هل جرحت شعورك ؟ اكسينيا ! اسمعي ! كفى... أريد أن أقول شيئاً .

انتزعت يديها من وجهها ، وقالت :

- لقد جئت إلى هنا لألتمس النصيحة . فلماذا تقول هذا الكلام ؟ إن الحال مريرة بما فيه الكفاية ، وأنت...

احمر وجه غريغوري وهو يفكّر : « لا تستحق هذه الإهانة » .

- اكسينيا... أنا لم أقصد ذلك ، فلا تتكذري .

- أنا لم أجئك لأكون عالة عليك ، فلا تخف .

وفي تلك اللحظة ، كانت تعتقد حقاً أنها لم تأت لتكون عالة على غريغوري ، ولكنها كانت قد حدثت نفسها بغموض وهي تعدو بمحاذاة الدون : « سوف أقنعه بالكلام . لن يتزوج . فمع من أعيش إذا لم أعش معه ؟ » ثم تذكّرت ستيبان ، فهزّت رأسها بعناد لتطرد عنها الفكرة المباغطة .

وتساءل غريغوري : « إذن ، فحبّنا انتهى ؟ » وانبطح على بطنه ، متكناً

على مرفقه وهو يبصق أوراق زهرة وردية لدغل متسلق ، كان يعضها .
فقالت اكسينيا فزعة :

- أ تقول : انتهى ؟ - وكررت القول بإصرار وهي تحاول النظر في عينيه ،
- ماذا تعني ؟

كان فيها بصيص أبيض مزرق حينما أشاحهما عنها .

فاحت الأرض الجافة المتعبة بالغبار والشمس . وحفت الريح بين
الأوراق الكبيرة الخضراء . وغابت الشمس لحظة ، وقد غلفتها سحابة عابرة
وسقط ظل أغبش متموج على السهب ، على القرية ، على رأس اكسينيا
الأسيان ، وعلى الكأس الوردي لزهرة الدغل المتسلق .

أطلق غريغوري تأوهاً برماً ، وتمدد على ظهره ، ضاعطاً عظمي اللوح
على التربة الحارة .

وشرع يتكلم متباطئاً :

- اسمعي يا اكسينيا . هذه ورطة عفنة بصورة ما... لقد كنت أفكر...
وانبعث صرير عربية فوق بقعة الخضار مصحوباً بصوت امرأة
تستحث : « هو...و...وه... امضوا ياثيراني ! »

وبدا النداء لاكسينيا قريباً جداً فانبطحت على الأرض . ورفع غريغوري
رأسه وهمس :

- انزعي عصابة رأسك . إنها ظاهرة... وقد يرونا .

أزاحت عصابتها ، فلاعب النسيم اللاهب المتسلل خلال عباد الشمس
خصلات الشعر على رقبة اكسينيا . وشيناً فشيناً تلاشى ضجيج العربية .
فاستأنف غريغوري كلامه من جديد : « حسناً ، إليك ما كنت أفكر به »
ثم أضاف متشجعاً :

- مافات فات . فيم نحاول إلقاء اللوم على أحدهنا ؟ علينا أن نحيا
بشكل من الأشكال .

واستمعت إليه اكسينيا في قلق وترقب ، وهي تكسر ساقاً من النبات

بيدها فيما كانت تنتظر . ثم نظرت إلى وجه غريغوري ، وتعقبت في عينيه لمعاناً صارماً جداً .

- كنت أفكر في أن نضع نهاية لـ...

ترنحت اكسينيا . وانشبت أصابعها في الدغلة المتسلقة الخشنة ونفخت منخريها وهي تترقب نهاية الجملة . ولسعت وجهها نار ضاربة من الرعب ونفاذ الصبر ، وجفّ حلقها . ظنّت أنّه سيقول «نضع نهاية لستييان» ، ولكنه لحس شفثيه اليابستين اللتين كانتا تعتملان بصعوبة ، وقال برماً :
... أن نضع نهاية لهذه العلاقة . ها ؟

انتصبت اكسينيا ، ومضت صوب البوابة شاقة طريقها خلل رؤوس عباد الشمس الصفرة المتمايلة . وصاح غريغوري بصوت مختنق : «اكسينيا!»
وأجاب نداءه صرير البوابة الثقيل .

١٧

ما أن تمّ حصاد الجويدار ، وقبل أن يتيسر نقله الى المخازن ، نضج القمح . ففي الحقول الخصيبة وعلى السفوح ، حال لون الأوراق الجافة أصفر ، وتثنت حتى صارت أنابيب ، ويبست النسيقان بعد أن أدت ماعليها .

وانتشى الجميع بالحصاد الوفير ، فقد جاءت السنابل ممتلئة والحبّات ثقيلة كبيرة .

قرر بانتلاي بروكوفتش - بعد أن بحث الموضوع مع ايلينشنا - أن الزفاف سيتم ، إذا ما وافق آل كورشونوف على الخطبة ، في عيد المخلص الخريفي . ولم يكن قد زار آل كورشونوف بعد لمعرفة جوابهم ، فقبل كل شيء يجب أن يتم الحصاد ، ثم ينتظر حلول عطلة ما .

بدأ آل ميليوخوف الحصاد ذات جمعة . جرت الحاصدة ثلاثة خيول .

أعد بانتتلاي بروكوفتش العربى لنقل الحصيد . ومضى بيوتر وريغوري إلى الحقول للحصاد .

سار ريغوري واضعاً يده على المقعد الأمامي الذي جلس عليه أخوه . كان ريغوري مكتئباً ، واختلجت العضلات ما بين فكّه الأسفل وعظام وجنتيه فاستشف منها بيوتر علامة أكيدة على أن أخاه يتميز غضباً وأنه على استعداد للعراك ، ولكنه شرع مع ذلك في معاينة أخيه وهو يبتسم من تحت شاربه القمحي .
- وحق الرب ، لقد أخبرتني بنفسها!

فتمتم ريغوري ، وهو يمزغ شعره من شاربه :
- حسناً ، وماذا لو أخبرتك ؟

- قالت : «بينما كنت عائدة من بستان الخضار ، سمعت أصواتاً من بقعة عباد الشمس في حدائق ميليوخوف» .

- بيوتر ، كفّ عن هذا!

- أجل ، أصوات . «وتطلعت خلال السياج...»

وارتعش جفنا ريغوري :

- هل ستكف عن هذا ، أم لا ؟

- أنت صبي غريب الأطوار! دعني أكمل .

فتوعده ريغوري ، وهو يتراجع إلى الخلف :

- إنني أحذرك يا بيوتر ، فسوف نتعارك بعد لحظة .

فرفع بيوتر حاجبيه ، واستدار في مقعده ليواجه ريغوري .

- «تطلعت خلال السياج ، وهناك رأيتهما ، العاشقين ، مستلقين

متعانقين!» هذا ما قالت . قلت : «من ؟» فأجابت : «عجباً! هما اكسينيا وأخوك» . فقلت...

فالتقط ريغوري مذرة من قبضتها ، كانت ملقاة في مؤخرة الحاصدة ، وهجم على أخيه . فقذف بيوتر بالأعنة ووثب عن مقعده . وجعل يزورغ أمام الخيل . وقال صائحاً :

- باه! يالللشيطان! لقد جن! باه! حسبكم أن تنظروا إليه...

فقدف غريغوري المذراة باتجاه أخيه ، وهو يكشّر عن أسنانه ، فجثا بيوتر على يديه وركبتيه ، وطارت المذراة فوقه ثم انغrust من أسفلها في الأرض الجافة الصلبة ، وهي تتذبذب رنّاة .

تجهّم وجه بيوتر وأمسك بأعنة الخيل المستفضة ، وأخذ يلعن ثائراً ،

- كدت تقتلني ، ياخنزير!

- أجل ، وددت لو قتلتك!

- أنت أحمق ، شيطان مخبول . أنت ابن أبيك حقّاً : تركي ابن تركي .

انتزع غريغوري المذراة من الأرض ، وجعل يمشي وراء الحاصدة . ثم أشار إليه بيوتر باصبعه قائلاً :

- تعال هنا . أعطني المذراة .

وحول الأعنة إلى يده اليسرى ، وأمسك بالمذراة من أسنانها ، ثم سدّد بمقبضها ضربة على ظهر غريغوري الذي لم يتوقع شيئاً . وقال في أسف ، وهو يراقب غريغوري الذي كان قد قفز بعيداً : « تستحق ضربة أشدّ » .

بعد لحظة أو لحظتين ، أشعلا سيكارتين ، ونظر الواحد إلى الآخر ، ثم انفجرا ضاحكين .

حينما هجم غريغوري على أخيه ، كانت زوجة كريستونيا تقود عربتها عائدة إلى البيت ، فرأتهما في تلك الحال . انتصبت على عربتها ، غير أنّها لم تتبين ماكان يحدث . إذ أن الحاصدة والخيل حجبتهما عنها . وما أن وصلت إلى شارع القرية حتّى صرخت منادية إحدى جاراتها :

- يا كليموفا! اجري وأخبري بروكوفتش التركي بأن ولديه يتقاتلان بالمداري على مقربة من رابية التتار . قلّلي له إن غريغوري - يالللشيطان! طعن بيوتر في جنبه بأسنان المذراة . فما كان من بيوتر إلا أن سدّد إليه... فسال دم كثير .

بدأ صوت بيوتر يبحّ من الصياح وراء الخيل المتعبة . فجعل يصفر بدلاً

من ذلك . وكان غريغوري يذري الحزم عن الحاصدة مسنداً قدمه التي سودها
التراب على عارضة الحاصدة . وكانت الخيل ، والذباب ينهشها بضراوة ،
تهزّ ذيولها وتجرجر الماكنة متثاقلة .

كان الناس يعملون على امتداد السهب كله حتّى خط الأفق الازرق
وشفرات الماكينات تصلصل وتنز والسهب ترقطه حزم القمح ، وأخذت
السناجب البريّة تقلّد السواق في صفيهم ، فراحت تصفر من على الأكمام .
صاح بيوتر فوق ضجيج الماكنة وهو يلتفت إلى غريغوري : « شيطان
آخران ، ثمّ نتوقّف لندخّن ! » . فأوماً غريغوري برأسه اذ لم يكن بمستطاعه
أن يفتح شفتيه اليابستين إلّا بمشقة . وقرب قبضته من أسنان المذراة ليوفّر
لنفسه سيطرة أفضل على الحزم الثقيلة ، وتنفس بما يشبه التشنج . وصار
صدره المبلل بالعرق يحكّه ، وسال العرق من تحت قبعته على وجهه وأحرق
عينيه كالصابون . وبعد أن أوقفا الخيل ، شربا ودخنا .

قال بيوتر مظللاً عينه براحته : « ثمة شخص ما راكب حصاناً يجري
بسرعة كبيرة على الطريق » .

فحدّق غريغوري ، ورفع حاجبيه مستغرباً .

- يبدو وكأنّه أبي .

- أنت مجنون . أي حصان يمكن أن يركب ، اذا كانت كل الخيل هنا ؟

- إنّهُ هو .

- أنت مخطيء .

- إنّهُ هو ، وحقّ الله . أبي .

وبعد لحظة صار بالإمكان رؤية الحصان الجاري بسرعة والراكب ،

فراوح بيوتر في دهشة قلقة :

- حقّاً ، إنّهُ أبي !

- لا بد أن شيئاً ما وقع في الدار - عبّر بذلك غريغوري عن فكرة

أقلقتهما معاً .

كبح بانتلاي بروكوفيتش حصانه ، وهو لم يزل على مبعدة مائة خطوة ، وصاح ملوحاً بسوطه الجلدي فوق رأسه : « سأجلد كما يولدي العاهرة ! »

— ماذا هناك ؟ — واستبدت ببيوتر دهشة طاغية ، ودس نصف شاربه في فمه .

وقال غريغوري مبتسماً ، ومنتقلاً إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوطاً .

— تعال إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوطاً ! والله ، سوف يجلدنا بذلك السوط . وإلى أن نصل إلى صلب الموضوع ، يكون قد انتزع مصاريننا من بطوننا !

وجاء الحصان المزبد يخب فوق القمح المحصود . وهز بانتلاي بروكوفيتش سوطه ، وقدماه تصطكان على جنبي الحصان (فقد كان يركبه بلا سرج) وصاح :

— ماذا كنتما تفعلان هنا ، يا أبناء الشيطان ؟

فلوح ببيوتر بذراعيه ، وعيناه ترمقان السوط في خشية :
— كنا نحصد .

— من الضارب بالمذراة ومن المضروب ؟ وفيم كان عراككما ؟

أدار غريغوري ظهره لأبيه ، وشرع يعد الغيمات همساً .

راوح ببيوتر وتساءل وهو ينظر إلى أبيه من أسفل إلى أعلى وهو يطرف بعينه :

— مابالك ؟ أيّه مذراة ؟ من كان يتعارك ؟

— كيف ؟ لقد جاءني ، راکضة بنت الدجاجة تلك ، وهي تزعق : « لقد

تضارب ولدك بالمذارى » . فما رأيك بهذا ؟

ها ؟ — هز بانتلاي بروكوفيتش رأسه منفعلاً ، ثم أرخى الأعنة وقفز عن

الحصان اللاهث .

- اختطفت حصاناً من فيدكا سميّشكين وجئت أجري . حسناً ؟

- من أخبرك بكل هذا ؟

- امرأة!

- كذبت يا أبي . لابد أنها كانت نائمة في عربتها وحملت بهذه

الحكاية .

فقال بانتلاي بروكوفتش بين صائح وصافر ، وهو يهز بلحيته :

- امرأة عاهرة كليموف تلك! يا إلهي! سأجلد تلك المومس!

وأخذ يضرب الأرض بقدميه وهو يعرج بقدمه اليسرى .

ظل غريغوري يحدج في الأرض وهو يختلج في ضحك مكتوم . ومسح

بيوتر رأسه العرق ، وعيناه مثبتتان على أبيه .

لبث بانتلاي بروكوفتش يهتز انفعالاً الى أن برد قلبه ثم هدأ . فجلس

على مقعد ماكينة الحصاد ، وحصد صفين أو ثلاثة ثم امتطى حصانه ، وهو

يشتم ، وركب عانداً إلى القرية في الطريق المغبر ولحق عربتين محمليتين

بالقمح وسبقهما . نسي سوطه على الأرض ، فالتقطه بيوتر وقلّبه بين يديه

وهز رأسه قائلاً لأخيه :

- لقد تحاشينا مصيبة ، يافتى . فمع هذا السوط! كان بالإمكان أن

يجعل منك عاجزاً ، أيها الأخ . فبوسع هذا أن يقطع رأسك عن بدنك كلياً .

١٨

اشتهر آل كورشونوف بأنهم أغنى أسرة في قرية تتارسكي ، فلديهم

أربعة عشر زوجاً من الثيران ، بالإضافة إلى الخيل والأفراس التي جيء بها من

مزرعة جياذ بروفالسك ، وخمس عشرة بقرة ، وماشية أخرى لاحصر لها ،

وقطيع مكوّن من عدة مئات من رؤوس الغنم . عدا ذلك كان ثمة مايلفت

النظر : كان بيتهم بغرفه الست وسقفه الحديدي يضاهي بيت التاجر

مؤخوف ، وقد سقفت مرافقه الخارجية بقرميد جديد زاه ، وبلغت مساحة
حديقته ومرجه حوالي هكتارين . فما عسى المرء أن يطلب أكثر من ذلك ؟
ولهذا كان بانتلاي بروكوفتش خجلاً نوعاً ما ومتردداً في سره أثناء
زيارته الأولى لآل كورشونوف خاطباً . كان باستطاعة آل كورشونوف أن
يجدوا لابنتهم زوجاً أغنى بكثير من غريغوري . كان بانتلاي بروكوفتش يعلم
هذا فيتوجس خيفة من أن يقابل عرضه بالرفض ، فلم يكن يود أن يذهب
سائلاً لدى كورشونوف المغرور . إلا أن ايلينشنا ظلت تنخر فيه كما ينخر
الصدأ بالحديد ، حتى استطاعت أن تتغلب على عناد الشيخ . وأخيراً ، قام
بزيارة آل كورشونوف ، لاعناً في أعماقه غريغوري وايلينشنا والدنيا برمتها .
والآن ، حان الوقت للذهاب إليهم لاستجلاء جوابهم ، سوى أنهم كانوا
ينتظرون حلول يوم الأحد . وفي الوقت ذاته ، ثار تحت السقف الحديدي
المطلي لبيت كورشونوف خلاف حاد . فقد صرخت ناتاليا لأمتها ، بعد رحيل
آل ميليخوف ، قائلة :

- أنا أميل الى غريشا ، ولن أزف إلى سواء .

فرد عليها أبوها : - وجدت لنفسها عريساً ، هذه البلهاء . ميزته
الوحيدة هي أنه أسود كالغجر . ياوردتي العزيزة ، إنني أستطيع أن أجد لك
زوجاً أفضل بكثير .

- أنا لا أريد سواء ، ياأبتي ، - وتوردت وجنتاها وشرعت تنتحب : -

والا فيمكنك أن تأخذني إلى الدير .

فألقي أبوها بورقته الأخيرة :

- إنه زير نساء يجري وراء زوجات الجنود . كل القرية تعرف ذلك .

- حسناً ، ليكن ذلك!

- حسناً ، فإذا كان رأيك «ليكن كذلك» ، فهو كذلك بالنسبة لي .

كانت ناتاليا ، وهي كبرى البنات ، أثيرة لدى أبيها ، فلم يجبرها على
الزواج . وقد جاءتها عروض كثيرة للزواج ، بعضها من قرى بعيدة ، من

قوزاق أثرياء ، لكنّ ناتاليا لم تبد ميلاً لأي من الخاطبين المتقدمين ، ولم تجد جهودهم نفعاً .

على أن ميرون غريغوريتش كان يميل إلى غريغوري في أعماق قلبه ، لهمة القوزاقية ولحبه الزراعة والعمل الدؤوب . وكان قد جلب انتباهه من بين شباب القرية حينما فاز بالجائزة في سباق الخيل ، لكنه اعتقد أن من المهانة أن يزوّج ابنته إلى رجل غير غني ، وذو سمعة سيئة .

وفي الليل ، راحت زوجته تهمس له ملاطفة يده النمشاء المشعرة : «إنه فتى وسيم . وناتاليا مقيمة به فعلاً . فتن قلبها» .

فأدار ميرون غريغوريتش ظهره إلى صدر زوجته الذواوي البارد ، ودمد غاضباً :

- تنحّي عني ، أيتها الثرثرة! زوجيها من أبله ، ماذا يهتمني ؟ لقد أخذ الله منك عقلك . «وسيم»

قالها مقلّداً لهجة زوجته ، واستطرد :

- هل تجنّين من وجهه محصولاً ؟

- ليست المحاصيل كل شيء في الدنيا...

- ما قيمة وسامته ؟ لو أن له مركزاً حسناً! يجب أن أعترف أنّه مما

يحط من قدري أن أزوج ابنتي من الأتراك . يجب أن يكون الخطيب ندّاً لنا -

وتململ ميرون غريغوريتش على السرير في اعتزاز .

وهمست زوجته وهي تتقرّب إلى ظهره وتلاطف يده بتودد :

- إنهم عائلة دؤوب وميسورة الحال .

- ايه ، الشيطان! تنحّي عني ، ألا تستطيعين ؟ أفسحي لي مجالاً

صغيراً . فيم تتحسسين يدي كما لو كنت بقرة حبلى ؟ اعملي ماشنت

بخصوص ناتاليا . زوجيها من فتاة قصيرة الشعر إن كان هذا يلائمك!

فتمتمت في أذنه الغزيرة الشعر :

- كان عليك أن تولي ابنتك بعض العطف! لا وزن للثروة في هذا المجال...

لكن ميرون غريغوريتش جعل يلبط برجله ، والصق نفسه بالحائط وبدأ يشخر وكأنه قد نام فعلاً .

حين جاء آل ميليخوف ليستطلعوا الرد ، وقع آل كورشونوف في حيرة . فقد وصلوا بعيد صلاة الصباح . وحينما وضعت الينيشنا قدمها على درجة العربة اوشكت أن تقلبها ، لكن بانتلاي بروكوفتش وثب نازلاً من مقعده مثل ديك صغير . رغم أنه تعثر ومشى ومشى الفتى إلى البيت .

تأفف ميرون غريغوريتش وهو يتطلع من النافذة :

- ها هم... أي شيطان جاء بهم إلينا اليوم .

- يا إلهي ، لم أكد أخرج من المطبخ ، ولم أجد الفرصة حتى لاستبدال تنورتي اليومية .

- مظهرك حسن كما أنت . ليس ثمة من يفكر في الزواج منك . من عساه يريدك ، يا جرب الخيل!

- أنت وغد منذ ولدت! وها قد فقدت عقلك في كهولتك هذه!

- أمسكي لسانك يا امرأة!

فعنفته زوجته وهي تتفحصه أثناء مرور الزوار عبر الحوش :

- كنت تستطيع أن ترتدي قميصاً نظيفاً ، عظام ظهرك بارزة خلال هذا

الذي ترتديه . عيب ، أيها الشيطان الهرم!

- لا عليك ، فهم سيعرفونني كما أنا . ولن يمانعوا حتى لو ارتديت

الجفاف!

صاح بانتلاي بروكوفتش وهو يتعثر فوق عتبة الباب : « صحة طيبة! »

وما لبث أن خجل لارتفاع صوته ، وحاول أن يصلح الأمر فرسم علامة

الصليب على نفسه مرتين أمام الأيقونة .

وأجاب ميرون غريغوريتش ، ناظراً إليه بعبوس : « طاب يومك! » .

- وهبنا الله طقساً حسناً .

- الحمد لله ، وسيستمر كذلك .

- ولهذا سيفقدو الناس أيسر حالاً .

- صحيح .

- نعم .

- أحم .

- وهكذا جننا يامبيرون غريغوريتش لنعرف ما استقرّ عليه الرأي فيما

بينكم... ما اذا كنا سنعقد الزيجة أم لا ؟

وتقدّمت ربة الدار مرحبة بهم ، وماسحة الأرضية بطرف تنورتها المثنية

الطويلة « ادخلوا ، من فضلكم . اجلسوا ، رجاء » . فأجابت ايلينشنا : « لا

تهتمّوا بنا أرجوكم » .

فجلست وثوبها يحف حولها . وأراح ميرون غريغوريتش مرفقيه على

مشمع المائدة الجديد ، ولاذ بالصمت . وانبعثت رائحة مزعجة من المطّاط

الرطب ومن شيء آخر من المشمع ، الذي كان مزيتاً في زواياه بصور القيصر

والقيصرة السابقين ، وفي وسطه الأميرات الامبراطوريات الجليلات وعلى

رؤوسهن قبعات بيض ، والقيصر نيقولاي الثاني ، منقطاً ببراز الذباب .

قطع ميرون غريغوريتش حبل الصمت :

- حسناً... لقد قرّرنا أن نعطيكم ابنتنا . وهكذا سنصبح أقرباء إن

استطعنا الاتفاق على الصداق .

وهنا ، اخرجت الينشنا من موضع ما في الأعماق المجهولة لسترتها اللماعة

ذات الكمّين المنتفخين ، رغيفاً كبيراً من الخبز الأبيض ووضعتة على المائدة .

ولسبب خفي أراد باتتلاي بروكوفتش أن يرسم علامة الصليب على

نفسه ، الا أن أصابعه المخليية المعقوفة ، وان اتخذت الوضع المناسب للعلامة

وارتفعت الى نصف المسافة المطلوبة ، الا أن وضعها تغيّر على حين غرة .

وانزلق ابهامه الأسود الضخم ، خلافاً لرغبة صاحبه ، بين سبابته ووسطاه ،

ومرق هذا العنقود الصفيق من الأصابع ، خلسته ، وراء ذيل معطفه الأزرق

المفتوح ، وأخرج قنينة حمراء الفم .

نظر بانتلاي بروكوفتش ، وهو يطرف عينه بانفعال ، الى القنينة براحته الحافرية العريضة . واقترح :
- والآن ، يا اصدقائي الاعزاء ، سنقدم صلاة لله ، ونشرب ونتحدث عن طفلينا ، وعن اتفاق الزواج .

بعد ساعة من الزمن ، كان الرجلان يجلسان متقاربين بحيث اختلطت حلقات لحية ميليوخوف السوداء كالقطران بخيوط لحية كورشونوف المنتصبه الحمراء . وانبعثت مع زفير بانتلاي بروكوفتش رائحة الخيار المخلل فيما كان يتناقش حول الشؤون المالية لاتفاقية الزواج . وشرع في همس مبحوح : « يا نسيبي العزيز » وكرّر : « يا نسيبي الأعز » رافعاً صوته الى درجة الصياح . ثم زار : « يا نسيبي » مكشراً عن أنيابه الكبيرة المسطحة . « إن مطالبك أثقل بكثير مما أستطيع تحملها . تأمل ، يانسيبي العزيز ، تأمل كيف تحاول سلمي ، أولاً طماق وأخفاف . ثانياً ، معطف من الفراء . ثالثاً ، ثوبان صوفيان ، رابعاً ، عصابة رأس حريرية . إن هذا يعني خراب بيتي ! » ..

وبسط بانتلاي بروكوفتش ذراعيه على اتساعهما حتى تفتقت دروز معطفه . واحنى ميرون غريغوريتش رأسه وحدق في المشمع الطافح بالفودكا المراقبة والمخللات . وقرأ في النقوش المزركشة في الرأس « العائلة الملكية الروسية » . وخفض عينيه مسافة أخرى : « صاحب الجلالة الامبراطورية والملك ، الامبراطور نيقولاي... » ، وكانت ثمّة قشرة بطاطا تغطي بقية الكتابة . ولم تكن قسمات الامبراطور واضحة من تحت قنينة الفودكا الفارغة . وحاول ميرون غريغوريتش وعيناه تطرفان بجلال ، أن يتبين بزة الامبراطور الفاخرة ذات النطاق الأبيض ، لكنها كانت مغطاة بطبقة كثيفة من بذور الخيار اللزجة . أما الامبراطورة فكانت تشمخ في نظرتها بغرور ، وعلى رأسها قبعة عريضة الاطراف ، وقد احاطت بها حلقة من بناتها الباهتات . وأحسن ميرون غريغوريتش أنه قد أهين حتى كادت الدموع تطفر الى عينيه ، وقال في سرّه

مخاطباً الامبراطورة : « أنت تبهدين فخورة الآن ، كأوزة تطل من سلة ، لكن حين سيتعين عليك تزويج بناتك ، سأطل أنا عليك ، وأرى كيف تتخبطين أنت » .

وطن بانتلاي بروكوفتش في أذنيه طنين نحلة سوداء كبيرة فرفع كورشونوف عينين تغشاهما الدموع ، وأنصت .

- لكي نقدم هدية كهذه مقابل ابنتك - والآن نستطيع أن نقول ابنتنا - هذه الطماق والاختاف ومعاطف الفراء ، سنضطر الى أن نسوق بقرة الى السوق ونبيعها .

فضرب ميرون غريغوريتش المائدة بقبضته وصاح :

- وهل تضن بها ؟

- ليس الأمر أن أضن بها...

- هل تضن بها ؟

- مهلاً ، أيها النسيب!

- اذا كنت تضن بها... فليأخذك الشيطان!

ولوح ميرون غريغوريتش بيده العرقة على المائدة فاسقط الاقداح على الأرض .

- إن ابنتك هي التي ستكد لقاءها .

- فليكن! ولكن عليك أن تقدم الهدايا اللائقة ، والآ فلن يكون هناك زواج!

فhez بانتلاي بروكوفتش رأسه : « بقرة تباع من حظيرتي! » وهز قرطه في اذنه لامعاً لمعاناً باهتاً .

- الصداق لا بد منه . إن لها صندوقاً من الملابس ، ولكن عليك أن

تظهر الاحترام لي إن كنت قد وضعت عينك عليها . تلك هي عادتنا

القوزاقية . تلك هي منذ القدم ، ونحن متمسكون بالتقاليد القديمة .

- سوف أظهر لك احترامي!

- أظهر احترامك!

- سأظهره!

- ثم دع الصبيين يعملان ويشريان . لقد عملنا ، وها نحن نعيش
ميسورين كأى فرد من الناس ، فليفعلا الشيء نفسه!
وتشابكت لحيتا الرجلين فى إيقاع ملون ، وقبلا بعضهما ، شرع
باتتلاي بروكوفتش يأكل خيارة منكمشة جف ماؤها ، وانتحب وقد جاشت
نفسه بمشاعر متداخلة متضاربة .

كانت المرأتان جالستين على الصندوق وقد تشابكتا متعانقتين ، وكل
منهما تصم أذن الأخرى بوقوقة صوتها . وقد التهب وجه إيلينشنا بحمرة
كرزية ، بينما حال لون لوكينشنا أخضر بسبب الفودكا ، وصارت كالثمرة
التي أذبلها الصقيع . قالت لوكينشنا :
- لن تجدي طفلة مثلها فى أى مكان آخر فى أرجاء العالم . ستكون
مجدة ومطبعة ، ولن تتفوه بكلمة تعارضك .

فقاطعتها إيلينشنا ، مسندة خدها بيدها اليسرى ، وواضعة مرفقها
الايسر فى يدها اليمنى :

- يا عزيزتي ، هذا ماقلته له ، لا أدري كم من المرات ، ابن العاهرة هذا ،
كان يستعد للخروج ، مساء ذلك الأحد ، واضعاً شيئاً من التبغ فى كيسه ، قلت
له : « متى ستتركها ، أيها الكافر الملعون ؟ إلام سأظل أتحمّل هذا العار فى
شيخوختي ؟ سيضع ستيبان حداً لعبثك الصبياني ، ذات يوم جميل ! » .

فى هذه الأثناء ، تطلع ميتكا الى الغرفة خلال خصاص الباب ، وأوطأ منه
تهامست أختا ناتاليا الصغريان ، بينما كانت ناتاليا نفسها جالسة فى الغرفة
الأبعد ، تمسح دموعها بكم قميصها الضيق . كانت تخشى الحياة الجديدة
التي تتفتح أمامها ، ويضنيها المجهول .

وفى الغرفة ، أفرغت قنينة فودكا ثالثة ، واتفق على لم شمل العروس
والعريس فى عيد المخلص الأول .

ظل بيت كورشونوف يطن كخلية نحل بجلبة الاستعدادات للزفاف ،
فكانت الملابس الداخلية تخاط للعروس على عجل ، وناتاليا تجلس كل
مساء لتحوك لعريسها القفازين ولفاف الرقبة التقليدي من شعر الماعز ،
وتظل أمها منكبة على ماكنة الخياطة حتى الغسق تساعد الخياطة المأجورة .
حين وصل ميتكا يصحبه أبوه وعمال الحقل ، عاندين من الحقل ، لم
يتوقف ليغتسل أو ينزع جزمة الحقل الثقيلة ، بل مضى ليجالس ناتاليا فقد
كان يجد لذة كبيرة في إغاطة أخته .

كان يتساءل باقتضاب وهو يشير الى اللفاف :
- تحوكين ؟

- نعم ، وماذا في ذلك ؟

- اقتلي نفسك بالحياسة ، بلهاء . إنه سيحطم فكك ، بدلاً من الإعراب
عن امتنانه لك .

- لماذا ؟

- اوه ، أنا أعرف غريشا ، فهو صديقي . هذا دأبه ، فهو يعض دونما
سبب .

- لا تهرف بالأكاذيب . تظن أنني لا أعرفه .

- لكنني أدرى به منك . فقد كنا نذهب الى المدرسة سوياً .

ويفتعل ميتكا حسرة عميقة ، ويخفض نظره الى يديه المخمرشتين
ويحني ظهره المديد .

- سوف تضيعين يا ناتاليا ، لو تزوجته . خير لك أن تبقي عانساً . ما
الذي تجدينه فيه ، على أيه حال ! إنه قبيح الخلقة بما يكفي لإشاعة الذعر في
حصان . وبليد أيضاً . حسبك أن تمعني النظر فيه قليلاً ، إنه شخص قذر .
فتغضب ناتاليا ، وتحبس دموعها ، وتحني وجهها بانساً فوق اللفاف .

ويستطرد ميتكا دونما رحمة : « والأدهى من ذلك أنه مغرم ، ففيم تحرقين شبابك ؟ أنت حمقاء يا ناتاليا ! أعرضي عنه ! سأسرج الحصان وأذهب الى دارهم لأخبرهم... » .

ويأتي الجد غريشাকা لينقذ ناتاليا من ميتكا ، وهو يخط على الأرض بعصاه المعقدة ، ويمسّد لحيته الصفراء الكالحة . ويفرز العصا في جنب ميتكا ويسأل : « ما تفعل هنا ، يا عديم النفع ، ها ؟ » فيجيب ميتكا معذراً : « جئت للزيارة ، يا جدي » .

- جئت للزيارة ؟ حسناً ، وأنا آمرك بأن تخرج من هنا . الى الورا عد ! ويرفع العجوز عصاه ويتقدم صوب ميتكا على ساقيه الهزيلتين المرتعشتين .

لقد درج الجد غريشাকা على الأرض تسعة وستين عاماً . اشترك في الحملة ضد الأتراك عام ١٨٧٧ ، وكان مراسلاً تابعاً للجنرال كوركو ، لكنه فقد حظوته لدى سيده فأعيد الى كتيبته . ومنح وسامي القديس غيورغي ومداية القديس غيورغي لاستبساله في ميادين القتال في بليفنا وروشيتش . وهو يعيش الآن مع ابنه ، متمتعاً باحترام القرية الشامل لصفاء ذهنه وأمانته التي لا يرقى اليها الشك ، ولأريحيته ، وهو يقضي سنواته الباقيات في استعادة ذكرياته .

كان يجلس في الصيف من الفجر حتى الغسق على المصطبة بالجنب من البيت ، محني الرأس ، يخط بعصاه على الأرض ، فيما تطوف في ذهنه صور غامضة وفتات من الأفكار ، وتتلاها ومضات واهنة من الذكرى بين ظلال النسيان .

وكان رفرف قبعته المكسور يلقي ظلاً داكناً على عينيه المغمضتين مما يزيد الغضون على خديه عمقاً وكانت لحيته شيباء رمادية . والدم الأسود يجري مثقالاً خلال أصابعه المقوسة فوق عصاه وعروق يديه المنتفخة .

ومن عام الى عام كان دمه يبرد فيروح يتشكّى الى ناتاليا ، حفيدته الأثيرة ،

- هذه الجوارب صوفية ، لكنها لا تفي بالدفء . ويحسن بك أن تحوكي من الجوارب زوجاً لي ، يا طفلي .

فتتصاحك ناتاليا قائلة : « لكننا في الصيف يا جدي! » ، وتجلس الى جانبه على المصطبة ، وتنظر إلى أذنه المعقدة الصفراء الكبيرة .

- ثم ماذا ، يا طفلي ؟ نحن في الصيف ، ولكن دمي بارد كبرودة الأرض العميقة تحتنا!

نظرت ناتاليا الى شبكة العروق على يده ، والتمعت في ذهنها ذكرى يوم من أيام طفولتها . كانوا يحفرون بنراً في حوشهم ، وكانت ، وهي لما تزل صبيّة صغيرة ، تغرف الطين الرطب من الدلو وتصنع دمي ثقيلة وبقرات ذوات قرون مهشّمة . واستعادت بوضوح ذكرى ملمس الطين الثلجي الجامد ، المرفوع من عمق كبير . وجعلت ناتاليا تحدّق الآن خائفة في يدي جدها المغطّاة بنمش الكهولة الاسمر طيني اللون . فقد بدا لها أن ما كان يسري في شرايينه كان تراباً طينياً أسود وليس دماً قرمزيّاً ناصعاً .
وتتساءل ناتاليا : « أخائف أنت من الموت ، يا جدي ؟ » .

فيلوي الشيخ رقبته الرقيقة المعقدة كأنّه يخلّصها من الياقة الصلبة لسترة بزته العسكرية البالية ويهز شارييه الاشهبين المخضوضرين ويجيبها ، والابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء ، وترتعش غضون صغيرة حول عينيه : « إنني أنتظر الموت كما أنتظر ضيفاً عزيزاً . لقد آن الآوان ، فقد عشت أيامي ، وخدمت قياصرتي ، وشربت كفايتي من الفودكا » .

فتمسّد ناتاليا على يد جدها وتتركه ، وهو لم يزل منحنيّاً ، محدودباً ، جالساً على المصطبة في بزته الرمادية المرقعة في مواضع كثيرة ، مخرمشاً الأرض بعصاه ، بينما تتلألأ شاراته الحمر اللامعة ، في حبور وفتور ، على ياقته الصلبة المنتصبة .

وقد استقبل نبأ زواج ناتاليا المقبل بهدوء ظاهر ، ولكنه حزن في دخيلته وغضب . فقد كانت ناتاليا تنتقي له أفضل اللقم من المائدة وتعطيها له ، وكانت

تغسل أفرشته ، وتصلح وتحك جواربه وبنطاله وقمصانه . وهكذا ، حينما سمع الشيخ بالنبا ، ظل يوجه اليها نظرات عابسة صارمة طوال يومين .
وجه السؤال الى ميرون غريغوريتش :
- آل ميليخوف قوزاق طيبون ، الراحل بروكوفي كان قوزاقياً طيباً . لكن كيف حال أحفاده ؟ ها ؟

فأجابه ميرون غريغوريتش متملصاً : « لا بأس بهم » .
- غريغوري هذا فتى لا يحترم الآخرين . كنت قادماً من الكنيسة ، قبل أيام ، ومر بي دون تحية . لا يجد الشيوخ احتراماً كبيراً هذه الأيام...
فتسهم لو كينشنا بكلمة في صالح صهرها المقبل : « إنه فتى طيب » .
- « طيب » ما تقولين ؟ اوه حسناً ، مادامت ناتاليا ميالة اليه...
ولم يسهم غريشكا في مفاوضات الزواج بشيء ذي بال ، فقد جاء من المطبخ ، وجلس الى المائدة لحظة أو لحظتين ، وبجهد جهيد شرب قدحاً من الفودكا ، وحينما شعر بها تلعب برأسه وأحس بدفء يسري في جسمه ، مضى خارجاً من جديد .

وطوال يومين ظل يراقب ناتاليا السعيدة المنفعلة ، في صمت ، ويمضغ طرفي شاربيه المخضوضرين ، ثم بدا أكثر لطفاً في موقفه ، وناداه : « ناتاليا . حسناً ، يا حفيدتي الصغيرة ، اذن فأنت سعيدة جداً ، ها ؟ » فاعترفت له : « أنا لا أدرك كنه شعوري جيداً ، يا جدي » .
- حسناً ، حسناً ، فليكن المسيح معك ، وليمنحك الرب بركته...
ثم سألهَا بمرارة :

- ألم يكن في مقدورك أن تنتظري حتى أموت ، أيتها الملعونة الصغيرة ، ستكون حياتي مريرة بدونك .
كان ميتكا يتسمع لحديثهما في المطبخ ، فقال معقّباً :
- من المحتمل أن تعيش مائة سنة أخرى ، يا جدي . فهل عليها أن تنتظر طيلة ذلك الوقت ؟ يا للماكر!

واستحال لون الشيخ أرجوانياً من الغضب ، فجعل يقرع الأرض بعصاه
وقدميه صائحاً : « اخرج ، ابن القحبة ! قلت اخرج ! يا عفريت الشيطان ! من
طلب إليك أن تتسمع ؟ » .

فجرى ميتكا الى الحوش متضاحكاً . ظل العجوز منفعلاً مدة طويلة بعد
ذلك ، لاعناً ميتكا ، وكانت ساقاه ترتجفان عند الركبتين في جوربيه
الصوفيين القصيرين .

كانت شقيقتا ناتاليا الصغيرتان ، ماريشا وهي في الثانية عشرة
وكريبا ، وهي عفريته في الثامنة من عمرها ، تنتظران الزفاف بنفاد صبر .
وشمل السرور المكتوم الأجراء الزراعيين الذين كان كورشونوف
يستخدمهم على الدوام متوقعين وليمة فاخرة من سيدهم وعطلة لبضعة أيام .
كان أحدهم وهو أوكراني طويل ، كالرافعة ، له اسم غريب « هت - بابا » ،
يغرق في نوبة سكر وعريضة مرة كل ستة أشهر تقريباً ، فيسكر بكل ما لديه
من ملابس وأجور . وبالرغم من أنه أحس ببوادر تأجيل النوبة المألوفة منذ
وقت مضى ، إلا أنه أجبر نفسه على تأجيل الشروع بالسكر حتى يوم
الزفاف .

ولم يكن الأجير الزراعي الثاني ، وهو قوزاقي أسمر نحيف يسمّى
ميخي ، قد اشتغل لدى كورشونوف إلا منذ مدة قصيرة . وقد عمل أجيراً
بعد أن أصابته كارثة حريق . وبسبب من صداقته لهت - بابا ، صار شيئاً
فشيئاً مدمناً على الشراب . وكان ذا ولع كبير بالخيول . وحينما يكون
سكراناً ، يشرع بالبكاء ، ويتبلل وجهه حاد القسمات عديم الحاجبين ،
بالدموع ، فيسبب الازعاج لميرون غريغوريتش :

- سيدي ! يا سيدي العزيز ! حينما تزوج ابنتك دعني أشارك في سباق
الخيول لمناسبة الزفاف . سأريهم مهارتي في السوق . سأقودها خلال النار
ولن تشتعل شعره واحدة من الخيل . فقد كانت لي خيل ذات يوم . آه...
وأمسى هت - بابا العابس المتجهّم متعلقاً بميخي ، لسبب أو لآخر ،

وجعل يسميه العذاب على الدوام بنفس النكتة القديمة حول اسم قريته الأصلية ، فيظل يضحك بلا انقطاع ، وبصوت أجش ، من نكته التافهة المبتذلة ، ويضرب على ساقيه الطويلتين اليابستين . فينظر ميخي باشمنزاز الى وجه هت - بابا الحليق والى جوزة عنقه المرتجفة ويلعنه .

تحدّد موعد الزفاف في أول يوم بعد الصوم الكبير . لم تبق سوى ثلاثة أسابيع . وفي عيد صعود العذراء جاء غريغوري لزيارة عروسه المقبلة ، فجلس الى المائدة المستديرة في غرفة الاستقبال ، يتناول بذور عبّاد الشمس والبندق مع صويحبات العروس ، ثمّ همّ بالعودة الى داره ، فخرجت ناتاليا لتوديعه . وفي الحظيرة المسقفة ، حيث كان حصانه مربوطاً ، وقد أسرج بسرّج جديد أنيق ، دسّت يدها في صدرها ، وقد احمرت خجلًا ، وهي تتطلّع إليه بعينين تنطقان بالحب ، ثم دسّت في يده لفّة صغيرة تشع بدفء صدرها . وبهرها غريغوري ، وهو يأخذ الهدية ، ببياض أسنانه الذئبية ، وتساءل ،

- ما هذا ؟

- ستري... طرزت لك كيساً للتبغ .

فجذبها غريغوري إليه متردداً يريد أن يقبلها ، لكنّها دفعته بقوة في صدره بيديها ، وألقت رأسها الى الوراء ، وأدارت عينيها ، وجلة ، نحو نوافذ البيت .

- سيروننا!

- دعيهم!...

- انني خجلة!

فشرح غريغوري لها الأمر : « يحدث هذا في البداية حسباً » . أمسكت ناتاليا بالأعنة بينما امتطى حصانه ، فوضع قدمه في الركاب ، مقطّب الوجه ، جلس بارتياح على السرج ، ومضى خارجاً من الحوش . ففتحت له البوابة ، ووقفت تتبعه بنظرها مظلمة عينيها براحة يدها . مال

غريغوري على سرجه الى اليسار ، على الطريقة الكالميكية ، ملوحاً بسوطه
في زهو . « لم يبق سوى أحد عشر يوماً آخر » ، حدثت ناتاليا نفسها ،
وتنهدت وضحكت .

٢٠

تشق الحنطة لخضرء ذات الأوراق الحادة الأرض ، وتنمو ، وما أن
تمضي بضعة أسابيع حتى يصبح بمستطاع زاع أن يحط فيها دون أن يلوح
منه شيء . ويمتص القمح السوائل من التربة ويصعد النسغ الى السنبله ،
فتزهر ، وتتلفع السنابل بغبار ذهبي وتمتلئ الحبة بعصير حليبي ، حلو ،
معتار . ويخرج الفلاح الى السهب ، ويقف متأملاً ، فتمتلئ جوانحه
بالفرح . وقد يأتي قطع من الماشية ، ويدوس على القمح ، ويسحق الحبة
المثقلة فوق التراب . وتخلف الماشية ، حيثما تترقد ، بقعاً مستديرة من
الحنطة المسحوقه ، فيملأ المشهد قلب الفلاح بالمرارة واليأس .

كذلك الحال مع اكسينيا . فقد داس غريغوري بصندله الخشن الثقيل ،
على مشاعرها التي تنامت حتى نضجت وغدت مثل حبة ممثلة . لقد لوثها ،
وسحقها ، واضرم فيها النار حتى أمست رماداً - وكان هذا كل ما في الأمر .

بعد عودتها من حديقة عباد الشمس في بستان ميلخوف ، كان ثمة
فراغ ووحشة يتناميان في أعماقها ، مثل حقل مهجور غطته أعشاب الازر
والنجيل . فمضت تلوك أطراف عصابتها ، وقد غصّ بلعومها بالبكاء . دخلت
دارها ، وتهاوت على الأرض ، يخنقها الدمع والعذاب ، والفراغ الموحش
الذي ألهب رأسها... ثم مرت الأزمة فقد غار الألم في قعر فؤادها وتعشش
هناك .

وتعود الحنطة التي داستها الماشية فتسوى من جديد . وبالندى
والشمس ، تستفيق السيقان المسحوقة ، منحنية ، في البدء ، كرجل ينوء

بحمل ثقيل جسيم ، ثم تنتصب رافعة رؤوسها وتتمايل في مهب الريح ، ويعود النهار نهاراً من جديد...

وحينما كانت اكسينيا تلاطف زوجها بعاطفة مشبوبة في الليل ، كان ثمة رجل آخر يملك زمام أفكارها ، وتختلط الكراهية بحب عظيم في قلبها . كانت المرأة ترسم الخطط للإتيان بمنكر جديد وعار جديد . لقد عقدت العزم على انتزاع غريغوري من ناتاليا السعيدة ، التي لم تعرف طعماً لمرارة الحب أو حلاوته . واستلقت تفكر في خططها ليلاً ، وعيناها الجافتان تطرفان في العتمات ، ورأس ستيبان الوسيم يرقد ، ثقيلًا ، على ذراعها اليمنى ، وقد مالت خصلته على جبينه . كان يتنفس خلال شفثيه المواربتين ، وأصابعه السوداء الخشنة تستكن على صدر زوجته في إغفائه .

واستلقت اكسينيا تعمل فكرها وخطتها ، لكن شيئاً واحداً قد عقدت عليه العزم الراسخ : ستنزع غريغوري من أي إنسان آخر ، ستغمره بالحب ، وتمتلكه كما امتلكته في السابق . على أن في أعماق قلبها ألماً عميقاً ، مافتئ يلسعها ، كلسع النحلة .

وفي النهار ، كانت أكسينيا تفرق نفسها بالأعمال والواجبات المنزلية . وقد تصادف غريغوري من حين لآخر ، فيشحب وجهها ، ثم تشد باعتزاز جسدها الجميل الذي يتحرق إليه بلهفة عارمة ، وتحقق بتحد ومن غير ما حياء في متاهات عينيه السوداءوين .

وبعد كل لقاء كان الحنين إليها يستبد بغريغوري . وصار يغضب بلا سبب ، وجعل يصب غيظه على دونيا وأمه ، على أنه غالباً ما كان يستل حسامه ، ويخرج الى الفناء الخلفي ، ويهوي به على الأغصان القوية النابتة في الأرض ، حتى يسبح في عرقه . وخلال أسبوع قطع منها كومة كبيرة . وأثار ذلك حنق بانتلاي بروكوفتش ، فراح يلعن ،

- هذا الشيطان الخسيس ، لقد قطع ما يكفي لعمل سياجين . يالفارس الملعون! رح الى الغابة ، إن كان عليك أن تهلك نفسك بالتقطيع . صبراً ، يا

فتاي! فستحين لك الفرصة ، حينما سيدعونك للخدمة العسكرية . وأنذاك ،
سرعان ما تستنفد قواك!

٢١

أربع عربات مزينات في بهرج بهيج ، يجر كلاً منها زوج من الخيل ،
ستذهب لإحضار العروس . ويتزاحم حشد من أهالي القرية في ملابس العيد
حولها ، وهي واقفة في فناء آل ميلخوف .

كان بيوتراشيين العريس ، وقد ارتدى سترة رسمية سوداء وبنطلوناً أزرق
بأشرطة ، وربط ذراعه اليسرى بمنديلين أبيضين ، وثبتت تحت عذاريه القمحيين
ابتسامة مزدرية . كان يقف دائماً الى جانب العريس . وقال لأخيه :

- لا تكن خجولاً ، يا غريغوري! ارفع رأسك مثل ديك ، ولا تعبس!

تتعالى أصوات في الحشد بالقرب من العربات :

- أين الاشبيين ؟ حان الوقت لنذهب الى العريس!

- يا نسيب!

- ها ؟

- اجلس في العربة الثانية! هل تسمع ؟

- هي مريحة بلا مقاعد!

وكانت داريا ، الرشيقة اللدنة مثل غصن صفصاف ، ترتدي تنورة
صوفية حمراء ، كلون توت العليق . واهتز قوسا حاجبيها المزججين ،
ولكزت بيوتر :

- قل لأبيك أن الوقت قد حان لذهابنا ، فهم هناك في انتظارنا .

فتشاور بيوتر مع أبيه همساً ، ثم أصدر أمره :

- خذوا أماكنكم . في عربتي ، خمسة والعريس . يا انيكاي اجلس في

مقعد الحودي .

فتسلقوا الى العربات . وفتحت ايلينشنا البوابات ، متوردة الوجه مزهوه ، وتسابت العربات الأربع ، واحدة إثر الأخرى ، في الشارع .
جلس بيوتر الى جانب غريغوري وراحت داريا تلوح ازاءهما بمنديل من الدانتيل . وجعلت حفر الطريق وتواءمه تقطع الأصوات التي انطلقت تردد إحدى الأغاني ، وتشكلت صورة ملونة من الشرائط القرمزية لقبعات القوزاق ، والبزات والسترات الرسمية السوداء والزرقاء ، والأكمام المربوطة بالمناديل البيض ، وقوس قزح متناثر لعصابات النساء ، والتنورات الزاهية ، ومثار الغبار الرقيق .

كان أنيكاي ، جار ميليوخوف وأحد اقربائهم ، يقود عربة العريس ، وقد مال الى الأمام فوق ذيول الخيل حتى كاد أن يقع من على مقعده ، وفرق سوطه وصفر ، فجعلت الخيل العرقى تشد بمزيد من الجهد على الأعنة المتوترة .

وزأر بيوتر ،

- هيا ، ازجرها ، ازجرها!

فغمز انيكاي الأمر ، الشبيه بالخصي ، لغريغوري ، وجعد وجهه الانثوي الأملط في ابتسامة خافتة ، وأطلق صفيراً واستحث الخيل بسوطه .
وهدر ايليا اوجوكين ، خال العريس ، وهو يحاول أن يسبقهم بالعربة الثانية : « افسح لي الطريق! » وتبين غريغوري وجهه دونيا السعيد وراء ظهر خاله .

فصاح أنيكاي وهو يثب على قدميه ويطلق صفيراً نفاذاً : « لا ، لن تسبقني! » ولفح الخيل حتى انطلقت في جنون فصاحت داريا : « سوف تقع! » واحتضنت بذراعيها جزمة أنيكاي الجلدية الطويلة اللامعة . وصاح الخال ايليا من جانبهم : « حذار! » لكن صوته ضاع في هدير العجلات وقرقتها .

أما العربتان الأخريان ، فقد سارتا جنباً الى جنب مثقلتين بنساء ورجال

يتصايحون . وكانت الخيل المزينة على ظهورها بأجلة حمرة وزرق ووردية ،
وأزهار من ورق وشرائط مصفورة في نواصيها وأعرافها ، وأجراس بأعنتها ،
تنهب الأرض على الطريق العائر ، نائرة ندفاً من الزيت ، والأجلة المبيلة
ترفرف وتخفق في مهب الريح .

عند بوابة آل كورشونوف كان جمع من صبيان القرية في انتظار
الموكب . فما أن رأوا الغبار المتصاعد من الطريق حتى ركضوا الى الحوش
زاعقين : «إنهم قادمون!» و«ها قد وصلوا!» ، وأحاطوا بهت - بابا الذي
خرج تواء .

- فيم الزحام ؟ اغربوا ، أيها الشياطين الصغار . أي ضجيج هذا! أنا لا
أقدر أن اسمع نفسي .

وتواثب الصغار حول سروال هت - بابا الفضفاض صارخين وهازنين به .
فنظر هت - بابا الى الأطفال الهائجين ، ورأسه منحني كما لو كان يحدق في
بئر عميقة ، وحك بطنه المشدودة المستطيلة وعلى وجهه ابتسامة سمحة .

وبلغت العربات البوابة وهي تقرقع ، فقاد بيوتر غريغوري الى درجات
الباب ، وتبعهما الآخرون .

أغلق الباب مابين الممر والمطبخ . فطرقه بيوتر ، وترنم : «يا سيدنا
عيسى المسيح ، ارحمنا!» .

وجاء صوت من الجانب الآخر للباب : «آمين!» .
وكرر بيوتر الكلمات والطرق ثلاثة مرات ، وفي كل مرة كان يتلقى
نفس الجواب .

- هل لنا أن ندخل ؟

- على الرحب والسعة .

وفتح الباب على مصراعيه . وحيّت بيوتر اشبينة ناتاليا ، ممثلة
والديها ، وهي أرملة جميلة ، بانحناءة وابتسامة من شفيتين رقيقتين حمراوين
كتوت العليق ، وقالت له : «اشرب هذا في صحّتك ، أيها الاشبين» ، وناولته

قدحاً من كفاس جديد عكر . فسوى بيوتر عذاريه ، وكرع القدح عن آخره ، ثم حمحم وسط ضحك الجميع المكتوم : « يا له من شراباً فانتظري يا توتتي السوداء ، انتظري حتى أرد اليك الفضل . لسوف أجعلك تدفعين ثمن هذا » .

قالت الاشبيينة وهي تنحني وتبتسم في مكر : « معذرة » . وبينما كان اشبين العريس واشبيينة ناتاليا يتنافسان في مباراة من الملح ، جيء بثلاثة كؤوس لكل واحد من أقرباء العريس ، طبقاً لاتفاق الزواج . أما ناتاليا ، التي ارتدت ثوب زفافها والخمار ، فقد جلست الى المائدة تحرستها شقيقتها . وامسكت ماريشكا في يدها الممتدة ، بشوبك* ، ولوحت كرييا ، وفي عينيها حماس وتحد ، بسلة تستعمل أثناء البذر . وانحنى بيوتر ، وقد بلله العرق وأسكرته الفودكا قليلاً ، وعرض عليهما في قدحه قطعة من ذات الخمسين كوبيكاً . غمرت الاشبيينة لماريشكا فضربت المائدة بشوبكها :

- قليل! لن نبيع العروس!

وكرة أخرى ، قدّم لهما شيئاً من القطع الفضية في قدحه . فزمجرت الشقيقتان : « لن ندعك تأخذها! » وأحاطتا بمرفقيهما ناتاليا منكسة الرأس .

- والآن ، ما معنى هذا ؟ ها نحن قد دفعنا المزيد .

فأمر ميرون غريغوريتش الفتاتين مبتسماً : « أقبلأ أيتها البنتان! » وتقدّم من المائدة . وكان شعره الأحمر الملطّخ بالزبدة الذائبة تنبعث منه رائحة العرق والروث .

نهض أقارب العروس وأصدقاؤها من مقاعدهم حول المائدة ، وأفسحوا المكان للقادمين الجدد .

* الشوبك أو الشوبق : خشبة الخبّاز التي يسوي بها الرغبة قبل الخبز . المترجمون

دفع بيوتر طرف منديل في يد غريغوري ، وقفز على مصطبة ، ثم قاده الى العروس حيث جلست تحت الأيقونات ، فأخذت ناتاليا المنديل من طرفها الآخر في يدها الرطبة المضطربة .

وطقطقت الاسنان حول المائدة ، وجعل الضيوف يمزقون الدجاجات المسلوقة بأيديهم إرباً إرباً ليمسحوها بعدئذ بشعورهم . وبينما كان انيكاي يلوك عظمة صدر ، جرى الدسم الاصفر على ذقنه الأمرد الى ياقته .

ورثى غريغوري لنفسه ، وهو يرى الى ملعقته وملعقة ناتاليا المعقودتين معاً بمنديل ، أولاً ، ثم الى الشعرية التي يتصاعد بخارها من الإناء . كان جانعاً الى حد كبير ، وأحس بمعدته تتضوّر .

أما داريا فقد كانت تأكل بشهية ، بينما بدا على الخال ايليا ، الذي جلس الى جانبها يمصمص ضلع خروف بتمهل ، أنه يهمس في أذنها بأشياء غير لائقة ، ذلك لأنها خاوصت عينيها ورفعت حاجبيها ، متوردة الوجه مقهقهة .

أكل الضيوف كثيراً وبشهية ، واختلط بخار العرق الرجالي النفاذ برائحة النساء المعطرة الأكثر نفاذاً . وانبعثت من التنورات والسترات السود والشالات المحفوظة في صناديقها زمناً طويلاً ، رائحة النفطالين ورائحة أخرى ، ثقيلة وخائقة ، مثلما ينبعث من ملابس العجائز البالية .

نظر غريغوري من طرف عينه الى ناتاليا ، ولاحظ لأول مرة أن شفتها العليا كانت منتفخة ومتدلية على الشفة السفلى كما يتدلّى رفر القبة . ولاحظ أيضاً شامة بنية على خدها الأيمن تحت عظم الوجنة ، وقد نبئت من الشامة شعرتان ذهبيتان ، ولسبب ما أثار ذلك نفوره . وتذكر رقبة أكسينيا الهيفاء بخصلاتها الجعد الوبرية ، وانتابه شعور بأن أحداً ما ألقي في داخل ياقته حفنة من الأعشاب الشوكية التي تخز ظهره العرق . فارتعش جسمه ، وجعل يراقب الآخرين يمضغون ويلوكون ويتلمظون شفاههم ، وقد استبد به شعور خائق بالتعاسة .

وحينما انفضّوا عن المائدة جاء أحدهم ، ورائحة عصير الفاكهة المختمرة وحموضة خبز القمح تفوح من أنفاسه ، وصب قبضة من الدخن في ساق جزمته لكي تحميه من العين الشريرة .
وطوال طريق العودة الى بيته ظل الدخن يؤلم قدمه . كما ضايقته ياقة القميص الضيقة حد الاختناق . وجعل غريغوري يتمتم باللعنات مع نفسه في غضب يائس بارد ناجم عن مراسيم الزواج المقبضة للنفس .

٢٢

حينما وصلت الخيل إلى فناء آل ميليخوف ، كان التعب قد هدها ، بالرغم من أنها استراحت قليلاً لدى آل كورشونوف . وكانت أعتتها ملطخة بالزبد ، لكن السواق السكارى ظلّوا يستحقّونها بلا روية .
واستقبل العجوز ميليخوف وزوجته الموكب . كان بانتلاي بروكوفتش يمسك بأيقونة ولحيته السوداء المشوبة بلون فضي تتلأأ ، بينما وقفت زوجته الى جانبه ، وقد تصلبت شفتاها الرفيعتان .
وتحت وابل من ثمار حشيش الدينار وحبّات القمح ، تقدّم غريغوري وناتاليا نحوهما ليتقبّلا بركاتهما . وسالت دمعة على وجه بانتلاي بروكوفتش وهو يباركهما ، ثم عبس وتملّل ، وقد ضايقه أن يشهد الآخرون ضعفه .

دخل العروسان إلى الدار . وانقضّت دارياً على دونيا الراكضة من المطبخ عند درجات العربة ، وقد احمرّت من الفودكا والرحلة والشمس ، تسألها :
- أين بيوتر ؟
- لم أره .

- عليه أن يذهب إلى القس في حين ليس له أثر ، عليه اللعنة !
وأخيراً عثرت على بيوتر متمدداً في عربة ، يئن ، بعد أن كرع من

الفودكا أكثر مما ينبغي ، فانقضت عليه كالحدأة : « لقد شربت أكثر مما ينبغي ، يا كافر! قم واجر إلى القس! »

فاحتج بيوتر ، وهو يمد يديه نحو القش وذرق الدجاج : « أغربي عني! أنا لا أعرفك . من أنت حتى تتأمرني ؟ »

فدفعت داريًا اصبعين في فمه ، والدموع في عينيها . وأمسكت بلسانه الهادي ، وأعانتة على أن يفيق ، فأربكه ذلك . ثم صبت على رأسه دلوًا من ماء البئر البارد ، ونشفتة ببطانية خيل وأخذته الى القس .

وبعد ساعة وقف غريغوري إلى جانب ناتاليا (التي جعل ضوء الشموع وجهها جميلاً) في الكنيسة ، ممسكاً شمعته بيده ، وعيناه تجولان في سهوم فوق جدار من الناس المتهماسين حوله ، ومردداً في نفسه هذه الكلمات التي لم تكن لتناى عن ذهنه : « ها إنك قد انتهيت » . ومن خلفه ، سعل بيوتر ذو الوجه المنتفخ . وفي مكان ما بين الرهط ، لحظ عيني دونيا متلألئتين ، وخيل إليه أنه مَيّز وجوهاً أخرى . وسمع أصوات الجوقة المتنافرة وغناء الشماس الطنان . كان تبلد أحاسيسه يشله . ومشى وراء الأب فيساريون حول كرسي الكتاب ، متعثراً بكعبي جزمة القس المتأكلة ، وتوقف حينما جذبته بيوتر برفق من طرفي سترته الرسمية . وجعل يحدث في السنة لهب الشموع الصغيرة المتألئة ، ويقاوم رغبة في الإغفاء تملكته .

وقال الأب فيساريون لغريغوري وهو يحدث في عينيه بلطف : « تبادلا الخاتمين! » فأطاعاه . وتساءل غريغوري في صمت حينما التقى نظره ببيوتر : « هل سنفرغ من هذا عما قريب ؟ » ، ورقّت زاويتا فم بيوتر وهو يكتّم ابتسامته : « عما قريب » . ثم قبل غريغوري شفتي زوجته المبللتين ، عديمتي الطعم ، ثلاث مرات ، واخذت تنبعث من الكنيسة رائحة الشموع المطفأة الكريهة ، وتزاحم الجمع نحو الباب .

خرج غريغوري ماسكاً يد ناتاليا الخشنة الكبيرة ، وخبط أحدهم قبعته على رأسه . وحملت نسمة دافئة من الجنوب رائحة نبات الشيح إلى

منخريه ، وانحدرت البرودة من السهب . تلوي البرق الأزرق وراء الدون ،
وقدم المطر ، وتناهى إلى الأسماع عبر سور الكنيسة الأبيض وفوق همهمة
الأصوات ، الرنين الرقيق الحفي للأجراس المدلاة من الخيل الجامحة .

٢٣

لم يصل آل كورشونوف الى دار آل ميليخوف إلا بعد مبارحة العروسين
إلى الكنيسة . وكان بانتلاي بروكوفتش ، قبل ذلك ، قد خرج إلى البوابة
عدة مرات ليستطلع قدومهم ، لكن الطريق الرمادي المحدد بخطوط من
النباتات الشوكية كان مهجوراً تماماً .

وحول عينييه ناحية شاطئ الدون الآخر . كانت الغابة تكتسي لوناً
ذهبياً وعيدان القصب الناضج تميل ، تعبى ، فوق البحيرة الصغيرة .
وئمة خمول الخريف الباكر ، المتشبح بالغسق ، يلف القرية والدون
وحافة التلال الكلسية والغابة الكامنة في سديم ليلكي وراء النهر ، والسهب .
وعند مفترق الطرق ، كانت الحدود الحادة للمصلى القائم على جانب الطريق
بارزة إزاء صفحة السماء الزرقاء .

التقطت أذنا بانتلاي بروكوفتش صوتاً لا يكاد يسمع لعجلات تدور
وكلاب تنبح . ثم دارت عربتان صغيرتان من ساحة القرية عبر الشارع ،
وقد جلس في الأولى ميرون غريغوريتش وإلى جانبه زوجته يواجهها الجد
غريشاك في بزة رسمية جديدة وقد علق على صدره وسام القديس غيورغي
ومدالياته . وكان ميتكا يقود العربة ، جالساً باسترخاء على المقعد الأمامي
دون أن يكلف نفسه عناء التلويح بسوطه للخيل القوية . وكان ميخي في
العربة الثانية مائلاً إلى الخلف ، يجبر الأعنة محاولاً تقليل سرعة الخيل
المندفة . وكان وجهه الهزيل ، عديم الحاجبين ، قرمزيّاً ، والعرق يتصبب
من تحت رفرف قبعته المكسور .

فتح بانتلاي بروكوفتش البوابة ، واندفعت العربتان إلى داخل الفناء .
وانسابت ايلينشنا نازلة على درجات المدخل وطرف ثوبها يكتس بقايا
الوحد من الدرجات .

- مرحباً ، أيها الأقرباء الأعزاء! امنحوا دارنا المتواضعة شرف
دخولكم ... وثنت خصرها السمين في انحناءة .

وفتح بانتلاي بروكوفتش ذراعيه ، ورأسه مائل الى جانب ، ورحب
بهم : - نحن ندعوكم الى الدخول!

وأمر أن تحل الخيل ، اتجه نحو والد كنته . ومسح ميرون غريغوريتش
سرواله بيده ليزيل عنه الغبار . سلم أحدهما على الآخر واتجها الى مدخل
الدار . وتباطأ غريشاكا العجوز خلفهما ، وقد خضت رحلة العربة غير المعتادة .

والحت ايلينشنا : «تفضلوا ، تفضلوا ، أيها الأعزاء!»

- نشكرك ، هانحن قادمون .

- كنا ننتظركم . تفضلوا . سأتي بمنفضة لتنظف بها بزتك . ما أكثر
الغبار هذه الأيام ، حتى لقد صرنا لا نتنفس إلا بصعوبة .

- أجل ، حقاً ، إنها جافة جداً ... وهذا هو سبب الغبار... لاتزعجي نفسك
يا عزيزتي ، سوف آتي بعد أن

وتراجع العجوز غريشاكا إلى مخزن الحبوب فالتجأ وراء ماكنة درس
مطلية .

فغمغم بانتلاي بروكوفتش ، موقفاً زوجته عند درجات العتبة :

- ألا تستطيعين أن تتركي العجوز وشأنه ، يا حرماء . هو يريد أن
يقضي حاجته وأنت تظلين... أين عقلك ، يا امرأة!

فاحتجت ايلينشنا في ارتباك :

- أتى لي أن أعرف .

- كان ينبغي لك أنت أن تخمّني ذلك . لا بأس خذي الضيوف إلى
المائدة .

وأخذت أسرة العروس الى غرفة كبيرة ، حيث جلس إلى المائدة رهط من الضيوف نصف مخمورين . وسرعان ما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة . وقد ملأ بانتلاي بروكوفتش الأقداح من قينة هائلة ، والدموع تتفرق في عينيه .

- حسناً يا أقرباءنا الأعزاء ، فلنشرب نخب طفلينا! لتمتلي، حياتهما بالطيبات ، كما امتلأت حياتنا . وليعيشا سعيدين متمتعين بأحسن عافية... . وصَبَّوا قدحاً كبيراً من الفودكا للجد غريشاك وأفلحوا في إفراغ نصفه في فمه ذي اللحية المتصوفة والنصف الآخر على ياقة بزّته الصلبة . وقرعت الأقداح . وجعل القوم يشربون دون أي نخب ، وهم يشيرون جلبة كجلبة السوق . وقام نيكيفور كولوايدين ، وهو يمت إلى آل كورشونوف بصلة بعيدة وكان يجلس عند طرف المائدة الأقصى ، فرفع قدحه وزأر بالكلمات التقليدية : «مُر الطعم ، مُر!»* .

فتصايح الضيوف الجالسون حول المائدة وراءه : «مُر! مُر!» . وجاء الجواب من المطبخ المزدهم : «أوه ، مُر!» . فقبل غريغوري بعبوس شفطي زوجته عديمي الطعم ، وأجال في الغرفة نظرة طريفة ، لم ير سوى وجوه قرمزية محمومة ، ونظرات وابتسامات فظة كدرة بفعل السكر ، وأفواه تلوك بشرهة ، ولعابها يسيل على خوان المائدة المطرّز حين بلغت الحفلة ذروتها .

وفتح كولوايدين فمه متباعد الأسنان ، على سعته ، وقال :

- «مُر!» وانكمشت شارات خدمته الطويلة على كم بزة الحرس

الزرقاء ، حين رفع قدحه .

-«مُر!» ، التقط الجميع الصرخة من جديد .

ونظر غريغوري الى فم كولوايدين بكراهية ، ولاحظ لسانه القرمزي بين أسنانه حينما صرخ : «مُر!» .

* حسب التقاليد يتبادل العروسان القبلات حين يسمعان هذه الجملة . الناشر .

وتتمتع بيوتر ، وقد رف شاربه المبلل بالفودكا : «تبادلا القبل ، أيها العروسان البليدان» . ومن المطبخ ، شرعت داريا تغني وقد تورّد وجهها من السكر ، فالتقط الأغنية الآخرون ، وانتقل الغناء إلى الغرفة الكبيرة . واختلطت الأصوات ، لكن إرعاد كريستونيا علا فوق الجميع هازأ زجاجات النوافذ .

- يا للزفاف ، ايها الناس الطيبون!...

- ذق لحم الضأن هذا!

- أبعد مخلبك عني ، فزوجي ينظر إلينا!

- مُر! مُر!

- لا لا لا أريد لحم ضأنك هذا . أفضل شيئاً من السمك السلمون . أجل ،

أحب ذلك... . إنّه دسم .

- بروشكا يا ابن العم ، لنشرب نخباً آخر!

- آه ، إن هذا يبعث الدفء في عصافير قلبك!

- يا سيمين غوردبيتش!

- ها ؟

- ليأخذك الشيطان!

وفي المطبخ ، أنت الأرض واهتزّت ، واصطكّت الكعوب ، وسقط

قدح على الأرض ، ولكن صوت تحطّمه ضاع في الضجيج العام . ونظر

غريغوري إلى المطبخ عبر رؤوس الجالسين إلى المائدة . وشرعت النساء

يرقصن بمصاحبة الصيحات والصفير ، ورحن يهززن مؤخراتهن الضخمة ،

فلم تكن بينهن نحيفة واحدة ، إذ كانت كل واحدة قد لبست خمس أو

سبع تنورات معاً ، وجعلن يلوّحن بمناديلهن ، ويحرّكن مرافقهن أثناء

الرقص .

وصل إلى المسامع صوت الاوكورديون . وشرع العازف يعزف لحن

رقصة قوزاقية . وانطلقت صيحة : «حلقة! شكلوا حلقة!» .

وتوسل بيوتر ، دافعاً بطون النساء ، « تراصفن قليلاً » .

وأيقظ غريغوري نفسه ، وغمز لئالتاليا :

- سيرقص بيوتر رقصة القوزاق . راقبيه .

- مع من ؟

- ألا ترين ؟ مع أمك .

تحصّرت ماريّا لوكينيشنا ، مسندة يديها إلى ردفها ، ومندليها بيدها اليسرى ، وتقدّم بيوتر بخطوات متبخترة ، وقفز بخفة ومهارة ، ثم تراجع إلى مكانه . رفعت لوكينيشنا تنورتها ، كما لو أرادت أن تعبر بركة ماء ، والتقطت الإيقاع بأصابع قدمها ، ورقصت وسط هدير من الاستحسان ، مشمّرة ساقها كما يفعل الرجال .

نغر عازف الاوكورديون رقرقة من النغمات الناعمة دفعت بيوتر الى الحركة ، ثم هبط صائحاً في وضع قرفصي ، وجعل يرقص بشكل دائري ، ضارباً رقبتي جزمته براحتي يديه ، وقاضماً طرف شاربه في زاوية فمه . وراح يحرك قدميه إلى الداخل والخارج ، بسرعة كبيرة ، وتواثبت خصلته على جبينه ، إلا أنها لم تستطع أن تلتحق بوثبات قدميه .

وكان الحشد عند الباب قد حجب الرؤية عن غريغوري . فلم يعد يسمع سوى صيحات الضيوف السكارى وضربات الكعوب الحديدية ، مثل طقطقة لوح صنوبر محترق .

ثم رقص ميرون غريغوريتش مع ايلينشنا . كان يرقص بطريقة جدية رزينة على عادته في أداء كل شيء . ووقف بانتلاي بروكوفتش فوق مقعد يراقبهما ، مدلياً ساقه العرجاء ومقطقاً بلسانه . وتراقصت شفتاه وقرطه بدلاً من ساقيه .

والتقط الرقصة خبراؤها ، كما التقطها من لم يستطع أن يثني ساقيه بصورة لائقة . وانطلقت صيحات صوب الجميع :

- الههوها !

- خطوات أقصر! آه ، يا!...

- ساقاه خفيفتان بما فيه الكفاية ، لكن مؤخرته تعيق حركته .

- آه ، امضي بها!

- إن جانبنا يريح .

- هيتا!

- تعبان ، أليس كذلك ؟ لسوف أكسر قنينة على رأسك إن لم ترقص!

كان الجد غريشاكا قد استبد به السكر كلياً فاحتضن ظهر جاره

العريض على المصطبة ، وطن في أذنه طنين البعوض :

- أية سنة ذهبت للخدمة العسكرية لأول مرة ؟

فأجابه جاره ، وهو عجوز منحني الظهر كشجرة بلوط عتيقة :

- ١٨٣٩ ، يابني!

فأصاخ غريشاكا السمع وهو يمسك بطرف أذنه : « متى ؟ »

- قلت لك ١٨٣٩ .

- ما اسمك ؟ في أي كتيبة خدمت ؟

- مكسيم بوكاتير يوف . كنت نائب عريف في كتيبة باكلانوف . أنا

من قرية «الوهدة الحمراء» .

- أنت قريب لآل ميليخوف ؟

- ماذا ؟

- سألتك ، هل أنت قريب للعائلة ؟

- أي أي! أنا جد العريس ، من ناحية أمه .

- قلت في كتيبة باكلانوف ؟

فنظر الشيخ إلى غريشاكا بعينين ذابلتين ، وهو يحاول عبثاً أن يمضغ

قطعة من الخبز بلثته عديمة الأسنان ، وهز رأسه بالإيجاب .

- إذن ، فلا بد أنك كنت في الحملة القفقاسية ؟

- أنا خدمت تحت أمرة باكلانوف نفسه ، رحمة الله عليه ، وساهمت

في غزو القفقاس . كان في كتيبتنا قوزاق بارزون . كانوا طوالاً كالحرش ، وإن لم يكونوا منتصبين القامة مثلهم . رجال ضخام ، طوال الأذرع ، عراض المناكب ، ليسوا كقوزاق هذه الأيام . هكذا كان رجالنا ، يا بني ! كان فخامة الجنرال الراحل يجلدني بنفسه...

- أما أنا فقد شهدت الحملة التركية ، هه ؟ أجل شهدتا .

ونفخ غريشكا صدره الهزيل مجلجلاً بالميداليات .

- استولينا على قرية عند الفجر ، وعند الظهر أطلق البوقي الإنذار .

- نحن أيضاً تستنى لنا أن نخدم قيصرنا . كنّا نقاتل بالقرب من روشييتش وكانت كتيبتنا ، كتيبة قوزاق الدون العانية عشرة ، ملتحمة مع الأتراك .

- أطلق البوقي الإنذار... - استطرد بوكاتيريوف العجوز دون أن يصغي الى غريشكا .

وقد بدأ غريشكا يشعر بالضيق وهو يلوح بيده مغضباً ،

- أي نعم . يخدم الانكشاريون الأتراك قيصرهم ويضعون على رؤوسهم أكياساً بيضاء . ها ؟ أكياساً بيضاء على رؤوسهم .

- وأطلق البوقي الإنذار ، وقلت لرفيقي : علينا أن نتراجع يا تيموفي ، ولكن علينا أن ننتزع تلك السجادة من الحائط أولاً سنلقها لفة... .

- لقد كوفئت بوسامين من أوسمة القديس غيورغي تقديراً لبطولتي في القتال . أسرت مقدماً تركياً وهو حي .

وشرع الجد غريشكا يبكي ويضرب بقبضته الذابلة على العمود الفقري لجاره . لكن الأخير غمس قطعة من الدجاج في مربى الكرز بدلاً من الخردل ، وحدق ببلاهة في خوان المائدة المتسخ ، ودمدم والطعام في فمه الخاسف : « حسبك أن تتأمل أية خطيئة ساقنتني إليها الروح الشريرة ، يا بني ! » وحدقت عينا الشيخ بثبات على ثنيات الخوان البيضاء ، وكأنهما لا تنظران الى خوان غارق بالفودكا والحساء ، ولكن إلى الشعاب الثلجية في جبال القفقاس . « أنا

لم آخذ في حياتي شيئاً لا يخصني ، استولينا على القرى الشركسية في كل بيت ثروة ، ولكنني لم أرد أن آخذ شيئاً لأن السرقة من أفعال الشيطان وهذه المرة ما أن رأيت تلك السجادة ، حتى قلت في نفسي : تصلح هذه مرشحة سرج جيدة .

لقد رأيت تلك البقاع بنفسي . ورحلت الى بلاد عبر البحار أيضاً . - وحاول غريشاكَا أن ينظر في عيني جاره ، لكن المقلتين العميقتين كانتا مغلقتين بطبقة كثيفة شعشاء من شعر الحاجبين واللحية . كان يريد أن يستأثر باهتمام جاره لسماع ذروة قصته ، فلجأ إلى المكر واندفع إلى وسطها دونما مقدمات :

«يصدر الرئيس الأمر : «الى الأمام خبياً!» .

رفع قوزاقي كتيبة باكلانوف العجوز رأسه ، كما يفعل حصان الهجوم على صوت النفير ، وأسقط قبضته على المائدة هامساً : «أعدوا الرماح! استلوا السيوف ، يارجال باكلانوف!» واشتد صوته على حين غرة ، وتلامعت عيناه الذابلتان وأومضتا : «يارجال باكلانوف! يالللشطار!» ، وزأر فاغراً فكّيه الأصفرين عديمي الأسنان : «اهجموا... الى الأمام!» .

وصوب الى غريشاكَا نظرة فتية ذكية ، وترك الدموع متألثة على لحيته تتساقط دون أن يمسحها بكفه المتسخ .

وتحمس غريشاكَا هو الآخر :

- أعطانا هذا الأمر ، ولوح بسيفه . فاندفعنا مسرعين إلى الأمام وكان الأتراك متجمعين بهذه الصورة - ، ورسم مربعاً على خوان المائدة بإصبع مرتعشة ، - وكانوا يطلقون ناراً علينا . غرنا عليهم مرتين . وفي كل مرة كانوا يردوننا إلى موضعنا . كلما حاولنا ، انطلق فرسانهم من غابة صغيرة لتحمي جناحهم . ولهذا أصدر أمر رعيّنا الأمر وتحولنا باتجاههم ومضينا . سحقناهم بخيلنا . هزمناهم . أي فرسان في العالم يستطيعون الصمود أمام القوزاق ؟ فرّوا الى الغابة صائحين . رأيت ضابطهم أمامي مباشرة راكباً

حصاناً كميتاً . ضابط وسيم الطلعة ، كان له شاربان أسودان . نظر إليّ ملتفتاً إلى الورا وسحب مسدّسه من جراب مربوط بسرجه . طاق! لكنّه أخطأني . همزت حصاني ولحقت به . كنت على وشك أن أشرطه نصفين ، لكنني فكّرت فيما هو أفضل . فقد كان ، على أية حال ، إنساناً مثلي . فطوّقت خصره بذراعي الأيمن . فطار عن سرجه . ثم عض ذراعي ، لكنني أسرته رغم ذلك .

نظر غريشاكا في زهو المنتصر الى جاره ، لكن رأس الشيخ الكبير المدبب كان قد هوى على صدره ، وكان يشخر في دعة .

الجزء الثاني

١

يستطيع سيرغي بلاتونوفتش موخوف أن يتتبع سلالته إلى مدى بعيد . أثناء حكم بطرس الأول ، كانت جنيبة شحن حكومية تمخر في الدون متجهة الى بحر آزوف بحمولة من البقسماط والبارود ، فهاجمها ليلاً قوزاق بلدة تشكوناكي القائمة على ضفة الدون الاعلى ، وقتلوا حراسها الناعسين ، ونهبوا البقسماط والبارود وأغرقوا الجنيبة .

فأرسل القيصر جنوداً من فورونيج ، وأحرقوا بلدة تشكوناكي عن آخرها ، وهزموا القوزاق المذبذبين بلا رحمة ، وعلّقوا ضابطهم وأربعين آخرين على مشانق عائمة أرسلت بجثثها المعلقة حذر الدون عبرة للقوى العاصية .

وبعد زهاء عشر سنوات بدأت البقعة ، التي شهدت بالأمس دخان المواقد يتصاعد من أكواخ تشكوناكي ، تعمّر من جديد بالمستوطنين القوزاق وبأولئك الذين نجوا من المذبحة ، بدأت القصة تتنامى من جديد وقد أحيطت بالأسوار . وفي الوقت نفسه أرسل من فورونيج الى تشيكوناكي مخبر سري من وكلاء القيصر ، كان فلاحاً روسياً يدعى موخوف . واتجر هذا بمقابض السكاكين ، والتبغ ، وأحجار الصوان والمتفرقات الأخرى اللازمة في

حياة القوزاق اليومية . وكان يشتري ويبيع الحاجات المسروقة ، ويسافر مرتين في العام إلى فورونيچ ، متظاهراً بالسعي إلى استكمال بضائعه ، وهو يرمي إلى إبلاغ السلطات بأن القصة كانت ، آنئذ ، هادئة وبأن القوزاق لم يكونوا بصدد تدبير أي اعتداء جديد .

من هذا الفلاح الروسي ، نيكيتا موخوف ، انحدرت عائلة التجار آل موخوف ، عمقت جذورهم في أرض القوزاق ، وتكاثروا وانتشروا في المنطقة مثل الدغل البري الصلب ، محافظين بإجلال على أوراق الاعتماد نصف المتعفنة التي منحها حاكم فورونيچ الى سلفهم . وكان يمكن أن تكون هذه الأوراق محفوظة حتى يومنا هذا لولا أن نارا أتت عليها في حقتها الخشبية وراء الأيقونة أثناء حريق كبير وقع في حياة جد سيرغي موخوف . وقد سبق لهذا الموخوف أن ألقى بنفسه في هاوية الإفلاس بلعب الورق ، لكنه شرع ينهض من كبوته مرة أخرى حينما أتت النار على كل شيء . وصار على سيرغي أن يبدأ من جديد وهو يملك القليل من المال . بعد أن دفن أباه المشلول ، بدأ شراء الريش وشعر الخنزير . وظل خمسة أعوام يعيش في بؤس ، يغش قوزاق المنطقة ويعتصر منهم كل كوبك . ثم قفز اسمه على حين غره من «سيريوچكا البائع المتجول» إلى «سيرغي بلاتونوفتش» وفتح حانوتاً صغيراً لبيع الخردوات ، وتزوج من ابنة قس نصف مجنون ، وتلقى معها صداقاً كبيراً ، وأصبح صاحباً لمتجر الأقمشة . وقد شرع سيرغي بلاتونوفتش في تجارة الأقمشة في الوقت المناسب ، إذ كان القوزاق يهاجرون في ذلك الحين ، بناء على تعليمات من سلطات الجيش ، بكامل قراهم من الضفة اليسرى للدون ، حيث الأرض رملية جدهاء ، إلى الضفة اليمنى ، وظهرت إلى الوجود أبنية حول قصبة كراسنوكتسكايا الفتية ، وانبعثت قرى جديدة على حدود الاقطاعات السابقة ، وعلى ضفاف أنهر «تشير» و«تشورنايا» و«فرولوفكا» ، وفوق وديان السهب وشعابه ، بجانب القرى الأوكرانية . وهكذا وجد هؤلاء القوزاق أن باستطاعتهم أن

يتبضعوا من حانوت سيرغي موخوف ، حيث تمتلئ رفوفه بأقمشة جذابة في متناول أيديهم ، بدلاً من أن يقطعوا خمسين فرستا أو أكثر . ووسع سيرغي بلاتونوفتش أعماله ، كما يتوسع أو كورديون كبير ، وجعل يتاجر بكل ماهو ضروري من حياة القرية البسيطة . كجلود الحيوانات ، والملح ، والنفط ، وشتى السلع الرخيصة حتى أنه شرع بتجهيز الماكينات الزراعية ، فعرضت خارج الحانوت حاصدات ، وباذرات ، ومحاريث ، ودارسات ، في صف واحد ، تحفظها من قيظ الصيف حجب الحانوت الخضر باردة الظلال . من الصعب أن يعد المرء ما في حافظة نقود امرئ آخر ، ولكن يبدو أن تجارة سيرغي الماهر درت عليه ربحاً كبيراً ، فأقام صومعة لخزن الحبوب في غضون ثلاث سنوات ، وبدأ في العام الذي تلا وفاة زوجته الأولى ببناء طاحونة بخارية . ووقعت القرية تتارسكي والقرى المجاورة شرقة في قبضته السمراء ذات الشعر الأسود الأملس المتباعد . ولم يعد ثمة بيت غير مدين لسيرغي بلاتونوفتش فهذه قصاصة خضراء اللون ذات حافة برتقالية تفيد أن حاصدة قد بيعت بالدين إلى فلان ، وهذا جهاز عرس لابنة شخص آخر يشتريه من موخوف بالدين ، فقد حان ميعاد زواج البنت ، بيد أن الأسعار التي تدفعها صومعة الحبوب في بارومونوفو قد هبطت ، فيلجأ أبو العروس الى سيرغي بلاتونوفتش قائلاً : « ضع ثمن جهاز العروس على حسابي ، ياسيرغي بلاتونوفتش » وهكذا مضت الحال على هذا المنوال . واستخدم موخوف تسعة عمال في الطاحونة ، وسبعة في الحانوت ، وأربعة خدم في البيت : أي كان ثمة عشرون فماً يأكل خبز التاجر . وكان لديه طفلان من زوجته الأولى : البنت ليزا ، وولد أصغر منها بعامين ، هو فلاديمير الفاتر المزاج المصاب بسل الغدة اللمفية . أما زوجته الثانية ، أنا ، المخلوقة اليابسة ذات الأنف المدب ، فكانت عاقراً ، وصبت على الطفلين مزيجاً من حنان العاقر للأطفال وحقد العانس المتراكم (فهي لم تتزوج إلا في الرابعة والثلاثين) وظهر الأثر السيئ لمزاجها العصبي عليهما ، ولم يعد أبوهما يعيرهما من الاهتمام أكثر

مما يعيره لعامل الاصطبل أو الطباخ ، فقد شغلته أعماله التجارية طيلة الوقت ، ونشأ الطفلان بلا رادع يردعهما ، ولم تبذل زوجته القاسية أي مسعى لتفهم الطفلين وإدراك حاجاتهما النفسية ، فقد أخذت أشغال المنزل الكثير من وقتها ، فترعرع الأخ والأخت غريبين عن بعضهما ، متباينين في الأخلاق ، وكأنما لم تجمع بينهما أية رابطة فشب فلاديمير كنيباً ، خاملاً ، ذا نظرة خبيثة ونزوع إلى الجد ليس من سمات عمره . وعاشت ليزا في مجمع الخادمة والطاهية ، وكانت الأخيرة امرأة ماجنة ذات تجارب كثيرة جداً ولهذا أطلعت ليزا على الجانب الخفي من الحياة ، وهي لما تزل صغيرة . وأثارت فيها المرأتان فضولاً سيئاً فشبت ليزا وحشية ، كما تشب زهرة الحب الصافي في الغابة ، بالرغم من أنها لم تزل مراهقة خجولاً نحيلة .

مضت السنون المتباطئات .

وصار الكبير أكبر . وأينع الصغير .

و ذات مساء نظر سيرغي مخوف إلى ابنته على مائدة الشاي . فأصابته الدهشة . ها قد أصبحت ليزا فتاة هيفاء وسيمة ، وكانت قد أتمت في التو دراستها الثانوية . نظر إليها ، وارتجف في يده الصحن المملوء شايّاً بلون العنبر . « ما أشد شبهها بأمها الراحلة يا إلهي ، صورة طبق الأصل » « ليزا أديري رأسك جانباً » لم يكن قد لاحظ في أي يوم مضى ذلك الشبه المذهل بين ابنته وأمها .

كان فلاديمير مخوف يتمشى في فناء الطاحونة ، وهو الآن صبي في الصف الخامس ، نحيف الصدر ، يعلوه اصفرار المرض . وكان هو وأخته قد عادا مؤخراً لقضاء عطلتهما الصيفية ، فذهب هو كعادته ليلقي نظرة على الطاحونة ، ويتدافع بين المتزاحمين الذين يعلوهم الطحين ، وليستمع إلى الإرعاد الرتيب للدواليب المسننة ، وإلى فحيح الأحزمة الدوارة . كان مما يشبع غروره أن يستمع الى همهمة الاحترام من الزبائن القوزاق :

- هو ذا وريث السيد .

وصل فلاديمير إلى البوابة متمسكاً بطريقة يحذر بين العربات واكوام
الروث . ثم تذكر أنه لم يذهب الى غرفة الماكنة ، فقفل راجعاً .
وعلى مقربة من صهريج الزيت المطلي باللون الأحمر ، عند مدخل
غرفة الماكنة ، كان عامل الطاحونة تيموفي ، وقباني يكتئب « الولد »
ومساعدهم دافيد ذو أسنان بيضاء يعجنون قرصاً كبيراً من الطين بأقدامهم
العارية ، وقد طويت سراويلهم الى مافوق الركبة .
وحياة القباني هازناً : « آه ! ... السيد ! » .

- مرحباً !

- مرحباً يا فلاديمير سيرغيفتش !

- ما الذي تفعلان ؟

فقال دافيد بابتسامة خبيثة جاراً قدميه من الكتلة المتماسكة التي فاحت
منها رائحة الروث :

- نحن نعجن الطين . إن أباك ضنين بالروبلات ، فهو لا يستأجر النساء
ليقمن بهذا العمل . ويجبرنا على العمل - وأضاف وهو ينقل قدميه مبقبقاً :-
إن أباك بخيل ، أجل فهذه حقيقته .

فاحمر وجه فلاديمير مفضباً . وشعر بكراهية عارمة لدافيد ذي
الابتسامة المستديمة واللهجة الساخرة ، وكره حتى أسنانه البيض .

- ماذا تعني بـ« بخيل » ؟

فأوضح دافيد مبتسماً :

- إنّه حقير بصورة فظيعة ، مستعد لأن يأكل غائطه لو كان ذلك يدر
عليه مالاً .

فضحك « الولد » وتيموفي مستحسنين . وأحس فلاديمير بكل ما في
الإهانة من قساوة . فحملق في دافيد ببرود وقال :

- أنت إذن ... غير راض ؟

فأجاب دافيد :

- تعال إلى هذا الطين ، واعجنه بنفسك وستعرف أي أحقق يمكن أن
يرضى به ؟ إن عملاً كهذا قد يفيد أباك نوعاً ما ويخلصه من بعض شحمه .
ومضى دافيد متميلاً يدوس بقوة قرص الطين وهو يرفع قدميه عالياً ،
وقد علت وجهه الآن ابتسامة مرحة . أما فلاديمير فقد نقّب مسبقاً في ذهنه
من رد مناسب ، وهو يتحسس منذ الآن حلاوة الانتقام . فقال متباطئاً :
- طيباً سأخبر بابا بأنك غير راضٍ عن عملك .

ونظر من زاوية عينه إلى وجه الرجل ، وأدهشه الأثر الذي سببه فيه . اذ
تفتت شفتا دافيد بابتسامة مغتصبة ، وغامت وجوه الآخرين . وواصل الثلاثة
جنهم بصمت بعض الوقت ، ثم انتزع دافيد عينيه من قدميه الموحلتين وقال
لهجة حائقة متملقة :

- كنت أمزح لا غير يا فولوديا .

- سأخبر بابا بما قلت .

ثم مضى فلاديمير مبتعداً ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الألم من أجل
يه ومن أجله ، وبسبب ابتسامة دافيد البائسة .

فصاح دافيد فزعاً : « فولوديا ! فلاديمير سيرغيفتش ! » وخطا خارجاً من
طين ، تاركاً سرواله ينزل على ساقيه الموحلتين .

توقف فلاديمير وركض دافيد نحوه مبهور النفس .

- لا تخبر أباك . سامحني ، فأنا أحقق . صدقني والله ، أنا لم أقل ذلك
من نيّة مبيتة ، عن قصد .

فأجاب فلاديمير مقتطباً : « حسناً لن أخبره » ومضى نحو البوابة .
تتصرت الشفقة في قلبه من أجل دافيد . وراح يمشي إلى جانب السور
أبيض متنفساً الصعداء . وتناهى إلى سمعه قرع المطرقة المرح من الكورة
في زاوية فناء الطاحونة ، تارة ناعماً خفيضاً حين تضرب الحديد ، وتارة رناناً
يائياً ، حين تنزل في ضربة مزدوجة على السندان .

ثم تناهى إلى سمعه صوت « الولد » العميق ،

- لم أردت أن تقول ذلك ؟ لاتثر الروث حتى لاتفوح رائحته الكريهة .
فقال فلاديمير في نفسه ساخطاً : «الخنزير! إذن فهو يجروء على الكلام... هل سأخبر أبي أم لا ؟» .

ونظر خلفه فرأى دافيد قد ارتسمت على وجهه ابتسامته المستديمة
فقر قرار فلاديمير : «لسوف أخبره» .

كائنات ثمة عربية ربط حصانها الى عمود خارج الحانوت ، وأطفال
يهشون سرياً رمادياً من العصافير الخفافة من على اطفائية حريق . وانبعث
من الشرفة الصوت الجهير الطنان للتلميذ بوياريشكين ، وصوت آخر
مشروخ أجش .

ارتقى فلاديمير درجات العتبة إلى البيت . وكانت أوراق الكروم البرية
تتمايل فوقه ، مرصعة الدرجات والشرفة ، متدلّية طرّات مزبدة خضراً من
رفارف السطح المنحوتة ذات الطلاء الأزرق .

كان بوياريشكين يهز رأسه الحليق ويخاطب المعلم بالاندا ، وهو شاب
ملتج رغم صغر سنّة :

- حينما أقرأ كتاباته أشعر بالعطف الشديد إزاء ذلك القطاع المتلاشي
من المجتمع على الرغم من حقيقة كوني ابناً لقوزاقي كادح ، أي كارهاً ،
بالسليقة ، لكل الطبقات المميّزة ، وحسبك أن تتصوّر ذلك . وأكاد أصبح ،
أنا نفسي نبيلاً ومالكاً للأرض ، وإذ أفكر في امرأتهم النموذجية . أشعر
باللهفة إليها ، حتّى أنني احتضن مصالحهم في طيات قلبي ، اللعنة! أجل
ياصديقي ، ذلك ما يستطيع عبقري أن يفعله . إنّه يستطيع حتّى أن يبدّل
عقيدتك .

فعبث بالاندا بشرابة حزامه الحريري ، وتفحص التطريز الأحمر في
طرف قميصه ، وهو يبتسم متهكماً ، وتمددت ليزا إلى الوراء على الكرسي
الهازأز ، إذ كان واضحاً أن الحديث لم يكن يلاقى أي هوى في نفسها .
وجعلت عينها ، اللتان تبدوان وكأنهما تبحثان أبداً عن شيء ما قد ضيعته ،

تحملقان ساهمتين في رأس بوياريشكين الأزرق المصاب بجرح من الموس .
أدى فلاديمير انحناء التحية لهم ومضى الى غرفة أبيه الخاصة ودق على
الباب . كان سيرغي بلاتونوفتش جالساً على مقعد جلدي بارد ، يقلّب
صفحات عدد حزيران لمجلة «روسكويه بوكاتستفو» . وكانت ثمة مقطاعة
ورق عظمية مصفرة ، ملقاة عند قدميه .

ـ حسناً ، ماذا تريد ؟

فرغ فلاديمير كتفيه قليلاً وقوم طيّات قميصه في عصبية ، وطفق يتكلّم
متردداً : «بينما كنت عائداً من الطاحونة» ، ثم تذكر ابتسامة دافيد
المتلامعة الساخرة ، فاستطرد بعزم ، شاخصاً الى كرش أبيه المنتفخ داخل
صدريته المصنوعة من الحرير الهندي : «سمعت دافيد عامل الطاحونة
يقول...» .

وأصغى سيرغي بلاتونوفتش بانتباه الى قصة ابنه ، ثم قال :
«سأطرده . يمكنك أن تذهب» . ثم انحنى متأوهاً ليلتقط مقطاعة الورق .

في الأماسي ، اعتاد مثقفو القرية أن يجتمعوا في بيت سيرغي
بلاتونوفتش . كان هناك بوياريشكين ، التلميذ في مدرسة موسكو
التكنيكية ، وبالاندا ، المعلم القومي الذي أكله الغرور والسل ، وخيلته
المعلمة مارفا غيراسيموفنا ، ذات الوجه المستدير والقميص الداخلي الظاهر
للعيان على الدوام بلا حياء ، والتي لا يبدو عليها الكبر قط ، وهناك مأمور
البريد ، وهو أعزب ، غريب الأطوار يفوح منه عطر رخيص ورائحة شمع
الأختام ، ومن حين لآخر ، كان يأتي إليهم الملازم الأول الشاب يفغيني
ليستنتسكي الذي أمضى عطلته في ضيعة أبيه . فتجلس الجماعة مساء
تشرب الشاي في الشرفة ، وتتبادل حديثاً لاهدف له ، وحينما تسود فترة
صمت يقوم أحد الضيوف فيدير حاكي رب البيت الثمين المطعم .

وفي مناسبات نادرة ، أثناء الأعياد الكبرى ، كان سيرغي بلاتونوفتش
تحدوه الرغبة في أن يبهز أبصار الآخرين فيدعو الضيوف ليتحفهم بالأنبذة

الغالية ، والكافيار الطازج المستورد من مدينة باتايسك لتلك المناسبة ، وأفخر المقبلات . وفيما عدا ذلك ، كان يعيش عيشة اعتدال واقتصاد . إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يقتصر فيه كان شراء الكتب ، فقد أحب القراءة ، وأراد أن يسبر غور الأشياء بعقله الذي كان سريع الالتقاط ، مثل نبات متسلق .

أما شريكه ، يميلان كونستانتينوفتش اتيوبين ، وهو رجل أشقر الشعر ذو لحية مدببة وعينين غائرتين ، فإنه لم يكن يزور مخوف إلا لماماً . إذ كان متزوجاً من راهبة سابقة ، أنجبت له ثمانية أطفال في خمس عشرة سنة من عمر زواجهما ، ويقضي أغلب الوقت في بيته . وكان قد بدأ عمله كاتباً في الجيش ، فتفشت روح التعلق والتذلل التي جلبها من هناك في عائلته أيضاً . فكان أطفاله يمشون على رؤوس أصابعهم في حضوره ، ويتكلمون همساً ، وكانوا يصطفون ، كل صباح بعد الاغتسال ، تحت صندوق الساعة الكبيرة الأسود المعلق في غرفة الطعام ، وتقف أمهم وراءهم ، وما أن تطرق أسماعهم السعلة الجافة المنبعثة من غرفة النوم حتى يسرعوا في أصوات متنافرة بتلاوة « أبانا الذي » وصلوات آخر .

آنذاك ، يكون يميلان كونستانتينوفتش قد أنهى ارتداء ملابسه فيبرز من غرفة النوم لحظة انتهاء الصلوات . ويضيق عينيه الخضراوين الضئيلتين ويمد يده اللحيمة ، كما لو كان أسقفاً ، بينما يتقدم صوبه الأطفال في صف واحد لتقبيلها ، ثم يقبل كونستانتينوفتش زوجته في خدها ، ويسألها لاثفاً :
- بوليا ، هل الشاي جاهز ؟

- أجل ، يا يميلان كونستانتينوفتش .

- صبي لي شيئاً من الشاي القوي .

كان يميلان محاسب الحانوت . وكان يملأ الصفحات تحت العناوين البارزين « الدائن » و « المدين » ، بخط زخرفي . وكان يقرأ نشرة « أخبار البورصة » ، مزيناً أنفه الضخم بعوينات ذهبية الإطار معلقة عليه دون أن يكون في حاجة إليها . وكان يعامل مستخدميه بأدب :

.. إيفان بتروفتش ، من فضلك أَر الزبون قماش توريدا .

أما قسيسا القرية ، الأب فيساريون والأب الفضيل بانكراتي ، فإنهما لم يكونا على وفاق مع سيرغي بلاتونوفتش . إذ كان لهما خصام طويل الأمد معه . ولم يكونا على وفاق مع بعضهما أيضاً .

فكان الأب بانكراتي الشكس الدساس ماهراً في خلق المتاعب لجيرانه . أما الأب الأرمل فيساريون ، ذو الخنة السفلسية التي تنم عن طبيعته الماجنة ، والذي عاش مع مدبرة منزل أوكرائية ، فقد نأى بنفسه عن الآخرين ، ولم يكن يحب الأب بانكراتي لغروره المفرط وطبعه الدساس .

كان للجميع ، فيما عدا بالاندا ، دور يمتلكونها . ويقع بيت موخوف ، ذو الجدران المصنوعة من ألواح الخشب المعقودة والطلاء الأزرق ، في ساحة القرية ، ويقرفص إزاءه تماماً ، في وسط الساحة ، حانوته ذو الباب الزجاجي واللافتة الباهتة : « متجر موخوف واتيوبين »

وتمتد لصق الحانوت سقيفة طويلة منخفضة ذات قبو ، وعلى مبعدة مائة خطوة يرتفع الحائط الطابوقي لفناء الكنيسة ، ثم الكنيسة نفسها بقببتها التي تشبه بصلة خضراء ناضجة . وتأتي بعد الكنيسة حيطان المدرسة ، بيضاء نظيفة ، وذات جهامة رسمية ، ثم منزلان أنيقان ، أحدهما أزرق اللون ، صبغت أسيجته بطلاء أزرق ، يعود للأب بانكراتي ، والآخر بني اللون (لتفادي أي تشابه مع المنزل الأول) وله سياج حفرت عليه نقوش ، وشرفة واسعة ، ويشغله الأب فيساريون . يليه بيت اتيوبين الغريب المظهر والمؤلف من طابقين ، ثم دائرة البريد ، ودور القوزاق المغطاة بالقش والمسقوفة بالحديد ، وأخيراً تأتي مؤخرة الطاحونة المنحدرة وعلى سطحها ديوك من الصفيح الصدى .

ويعيش سكان القرية خلف نوافذهم بصفاقات خارجية وداخلية مغلقة بالمزالج ، منقطعين عن بقية العالم ، وفي كل مساء ، إن لم تكن ثمة زيارة

حدث ذات يوم ، في أواخر آب ، أن التقى ميتكا كورشونوف بليزا ابنة خوف عند النهر . وكان قد جذف لتوه عبر النهر من الجانب الآخر .
يرع يربط قاربه حينما رأى زورقاً ذا لون بهيج يكشط سطح التيار .
وجه صوب المرسى من ناحية الجبل . وكان الذي يجذفه هو التلميذ
ماريشكين ، وقد تلاً رأسه الحليق بالعرق ، وبرزت عروق جبهته
دغية .

في البدء ، لم يتبين ميتكا ليذا في الزورق فقد كانت على رأسها قبعة
القش ، ووجهها في الظل ، وكانت يداها الملفوحتان تضيئان الى صدر
من زنابق الماء الصفر .

صاحت ، هازة رأسها صوب ميتكا :

- كورشونوف! لقد خدعتني .

- خدعتك ؟

- ألا تذكر ، فقد وعدت أن تأخذني لصيد السمك ؟

ألقى بويار يشكين المجذافين ، وأقام ظهره . وغرز الزورق مقدمته
إلى شاطئه محدثاً خشخشة .

- ألا تذكر ؟ - وتضاحت ليذا وقفزت الى الشاطئ ، فقال ميتكا

ذراً وتقاطعت أنفاسه فيما تقدمت الفتاة منه :

- لم يكن لي متسع من الوقت ، لكثرة أشغالي .

القيام بهذه الخدمة! تصوّري مدى المسافة التي قطعناها فوق هذا الماء اللعين! امتلأت يداي نفطاً* . هاتي أرضاً يابسة .

وغرس بوياريشكين قدماً حافية طويلة على الشاطئ، الحصباء، ومسح جبهته برفرف قبعته المدرسية المدعوكّة . ومن غير أن تجيبه ليزا مضت نحو ميتكا الذي صافح بحركة خرقاء يدها التي مدتها إليه .
وسألته وهي تلقي برأسها إلى الوراء وتضيّق حدقتها :
- حسناً ، إذن متى نذهب للصيد ؟

- غداً ، إن شئت . لقد أنهينا درس الحبوب ، وصار لدي متسع من الوقت .

- لعلك لاتخذعني هذه المرة ؟

- لا ، لا ، لا أخدعك .

- هل ستأتي مبكراً ؟

- عند الفجر .

- سأكون بانتظارك .

- سأتيك ، بشرفي سأتيك .

- لعلك لم تنس النافذة ؟

- سأجد طريقي إليها . - وابتسم ميتكا .

- أتوقع أنني سأرحل عما قريب . وبودي أن أذهب إلى الصيد قبل ذلك .

وعبث ميتكا وهو صامت بمفتاح قفل القارب الصدئ ، وحدّق مباشرة في شفّتها .

تساءل بوياريشكين وهو يتفحص قوقعة في راحته : « هل ستنتهين عما قريب ؟ » .

* مفرداً نفطة وهي بثور ملأى بالماء تظهر على اليد بسبب العمل اليدوي . المترجمون .

- لحظة واحدة .

ولبثت ساكنة بعضاً من الوقت ، ثم تساءلت وهي تبتسم لسبب ما .

- لقد احتفلتم بزفاف أحد أفراد عائلتكم ، أليس كذلك ؟

- أجل ، زفاف أختي .

- ممن تزوجت ؟

ودون أن تنتظر إجابته ، تبسمت من جديد في غموض وعجالة ،

وقالت : « تعال ، بالله عليك ، لاتنس ! »

ومرة أخرى ، لسعته ابتسامتها ، كالشوكة ، تماماً كما لسعته في شرفة

منزل موخوف .

ظل يراقبها حتى بلغت الزورق . فدفعه بوياريشكين الى الماء مباعداً

قدميه ، بينما تبسمت ليزا عبر رأسه الى ميتكا ، الذي كان لا يزال يعبث

بالمفتاح ، وهزت رأسها مودعة .

وحينما ابتعد الزورق ، سمع ميتكا بوياريشكين يسألها بصوت

خفيض : « من هذا الفتى ؟ » .

- أحد معارفي .

- ليس شأناً من شؤون القلب ؟

ولم تبلغ إجابتها أذني ميتكا خلال صرير حلقتي المجذاف . ورأى

بوياريشكين يرتمي الى الخلف ضاحكاً وهو يجذف ، لكنه لم يستطع أن يرى

وجه ليزا ، إذ كانت جالسة مديرة ظهرها له . وكان شريط قبعاتها

البنفسجي يتطاير خفيفاً مع النسيم ويلطف منحدر كتفها العاري برقة متناهية

أثارت نظرة ميتكا الغائمة .

لم يحدث أن استعد ميتكا لمناسبة صيد بمثل حماسة ذلك المساء وهو

الذي نادراً ما كان يخرج للصيد بالعصا والخيوط . فأعد قطعاً من الجل ، وغلى

الذرة على النار في مزرعة الخضار ، ثم جدد الخيوط المهترئة بسرعة .

سأله ميخي الذي كان يراقبه :

- خذني معك ، يا ميتكا . لن تقدر أن تدبّر الصيد لوحداك .

- سأدبره .

فتأوه ميخي :

- لقد مضى زمن طويل منذ أن خرجنا معاً آخر مرة . كم تحدوني الرغبة في التمتع بسحب شتوط يزن نصف بود* .

فقطب ميتكا وهو ينحني فوق عمود البخار الحار المتصاعد من القدر ، ولم يجب بشيء . وحينما انتهى من ذلك مضى الى البيت . كان الجد غريشكا جالسا الى جانب النافذة ، وعلى أنفه عوينات مستديرة ذات إطار نحاسي ، وهو يقرأ في الانجيل .

وقال ميتكا متكئاً بظهره على اطار الباب : «جدي!» .

فنظر اليه الشيخ من فوق عويناته :

- ها ؟

- أيقظني مع صياح الديك الأول .

- أين تقصد في هذا الوقت المبكر ؟

- لصيد السمك .

كان الشيخ محباً للسمك ، لكنّه تظاهر بمعارضة مشروع ميتكا .

- قال أبوك يجب أن يُضرب القنب في الغد . وليس هناك مجال للتسكّع

ولصيد السمك!

فتحرّك ميتكا عن الباب ولجأ الى المناورة .

- يستوي الأمر عندي . لقد أردت أن أقدم لك وجبة فاخرة ، ولكن

طالما كان علينا أن نضرب القنب ، فلن أذهب .

فجفل الشيخ ونزع عويناته :

- قف . أين تراك ذاهباً ؟ سوف أكلّم والدك بالأمر . تستطيع أن

* بود مقياس وزن روسي قديم يساوي ١٦,٨ كغ . الناشر .

تذهب . غداً الأربعاء ، وستكون قطعة من السمك المملح مناسبة . طيب ، سأوقظك . امض ، أيها الأحق ، ما الذي يجعلك تبتسم ؟

وعند منتصف الليل ، هبط الشيخ ممسكاً بسريره الكئاني بيد وعصاه بالأخرى درجات المدخل متلمساً الطريق . وسرى مثل شبح مرتعش ، عبر الحوش صوب مخزن الحبوب ، فدلف إليه وراح يغرز عكازته في جسم ميتكا النائم . كانت رائحة الحبوب المدروسة حديثاً وذرق الفران تختلط بالهواء العفن المفعم بنسيج العنكبوت لغرفة متروكة .

كان ميتكا نائماً على بساط بجانب مستودع القمح ، فلكزه غريشاك بعصاه ، دون أن يستطيع إيقاظه لفترة من الوقت . شرع في البدء يلكزه برفق ، هامساً «ميتكا . ميتكا . هي ، ميتكا ! هي يا سافل !» .

لكن ميتكا لم يزد على أن شخر وعقف ساقيه الى الأعلى . فأمسى غريشاك أقل تحفظاً ، وراح يغرز العصا في بطن ميتكا . فأمسك ميتكا بطرف العصا وهو يتأوه واستيقظ فجأة .

استاء الشيخ : « ياله من نوم ! نوم الحجر حقاً ! » .

فتمتم ميتكا وسان وهو يتلمس جزمته : « هدوء ، يا جدي . لا تطنطن ! » .

اتخذ الفتى طريقه الى ساحة القرية . كانت الديوك قد شرعت بصياحها للمرة الثانية . وبينما كان يمر بمنزل الأب فيساريون سمع ديكاً يخفق بجناحيه في خم الدجاج ، ويطلق صيحة قوية جديدة برئيس شمامسة الكنيسة ، بينما قوأت الدجاجات مذعورات .

كان هناك حارس ليلي نائم على درجات عتبة الحانوت ، وأنفه مدسوس في دفء ياقته المصنوعة من جلد الغنم .

وصل ميتكا الى سور بيت موهوب ، فوضع عدة الصيد والسلة على الأرض ، وصعد درجات الشرفة على أطراف أصابعه كي لا يوقظ الكلاب . وراح يعالج سقاية الباب الحديدية . كان الباب محكم الإغلاق . فتسلق

سياج الشرفة ومضى الى النافذة . كانت نصف مغلقة . ومن خلل الفرجة السوداء انبعثت رائحة عذبة لجسد فتاة نائم دافئ ، وفاح عطر ذكي غريب .
- يليزافيتا سيرغيفنا!

وخيل لميتكا أن نداه كان عالياً جداً . فانتظر . صمت سادر . فكّر ميتكا في نفسه وهو يمسك بإطار النافذة : «ماذا لو انني قد أخطأت النافذة ؟ ماذا لو أن موخوف نائم هنا ؟ ياللورطة! سيقتلني ببندقيته! » .
- يليزافيتا سيرغيفنا ، أتأتين للصيد ؟

وفكّر في نفسه من جديد : «إذا أخطأت النافذة حصلت على جزائي! » .

وقال متضايقاً :

- أترك تنهضين ؟

ودس رأسه خلال فتحة النافذة .

فرن صوت خفيض مذعور في الظلام : «من هناك ؟ » .

- هذا أنا ، كورشونوف . أتأتين للصيد ؟

- آه! لحظة فقط!

كانت هناك حركة في الداخل . بدا صوتها النعسان الدافئ كأنه يفوح برائحة النعناع . ورأى ميتكا أن شينا أبيض ذا حفيف يتحرك في أرجاء الغرفة .

وقال لنفسه ورائحة غرفة النوم في منخريه : «انني أفضل أن أنام معها على الخروج الى الصيد والجلوس في البرد » .

وبعد فترة ، ظهر وجهها الباسم عند النافذة مؤطراً بعصابة رأس بيضاء .
- سأخرج من هنا . اعطني يدك .

وبينما كان يساعدها على النزول ، نظرت في عينيه عن كثب .

- لم أتأخر عليك ، أليس كذلك ؟

- لا ضير ، فسنبصل في الوقت المناسب .

وراحا ينزلان حذر الدون . دعت عينيها المتورمتين من أثر النعاس
بيد وردية .

- كنت نائمة نوماً بديعاً . وكان في مقدوري أن أظل نائمة . الوقت
مبكر للذهاب .

- سنصل في الوقت المناسب بالضبط .

ومضيا في أول زقاق يتفرع من الساحة متجهاً صوب النهر . وكان ماء
النهر قد ارتفع خلال الليل فرفع القارب من موضعه العالي اليابس حيث ترك في
المساء السابق ، وصار الآن يتمايل في الماء على مبعدة قليلة من الشاطئ .

فقال متنهدة وهي تقيس المسافة الى القارب بعينيها :

- سيتعين علي أن أخلع حذائي .

فاقترح عليها ميتكا ،

- دعيني أحملك .

- لا ، أفضل أن أخلع حذائي .

- حملك أسهل .

فأجابت ، وكان ثمة حرج في صوتها :

- أفضل ألا تفعل ذلك .

فاحتضن ميتكا ساقها فيما فوق الركبتين ، بذراعه اليسرى ، ورفعها في
يسر وخوض في الماء . فتشبّثت ، بحركة لاإرادية ، بعمود رقبتة الراسخ
الأسمر ، وتضاحكت بنعومة عذبة .

لو لم يتعثّر ميتكا بحجر كانت نساء القرية يستعملنه عند غسل
الملابس ، لما كان هناك مجال لقبلة وجيزة عابرة . فأصدرت آهة وضغطت
وجهها على شفّتي ميتكا الصلبتين المتشققتين ، فتوقّف قبل القارب
بخطوتين . وراح الماء يدوم فوق رقبتى جزمته مشيعاً البرودة في قدميه .

حل القارب ، ودفعة بقوة عن الشاطئ ، ثم قفز اليه . وصار يجذب وهو
واقف . وجعل الماء يحف تحت المؤخرة وينوح . ومضى القارب يناحر التيار

برقة ، ميمماً صوب الضفة المقابلة . وتقاظت عصي الصيد وطققت في قعر القارب .

وتساءلت وهي تلقي نظرة سريعة الى الخلف ؛

- أين تراك تأخذني ؟

- الى الجانب الآخر .

احتك بريم القارب بالشاطئ الرملی . وبلا استئذان ، التقط ميتكا الفتاة بذراعيه ، وحملها الى دغل من نبات الزعرور البري فجعلت تعض وجهه ، وتخمشه ، ثم ندت عنها صرخة مكتومة أو صرختان ، ولما شعرت بقواها تخور ، بكت مغضبة ، ولكن بلا دموع...

عادا حوالي التاسعة . كانت السماء ملفعة بغشاوة مخضبة صفراء ، وثمة نسيم قوي يتراقص فوق النهر ، معابثاً الأمواج . ومضى القارب يتراقص على الأمواج ، والرذاذ المزيد البارد يتلألأ على وجه ليزا الشاحب ويعلق بأهدابها وخصلات شعرها .

خاوصت عينيها الخابيتين بإعياء ، وهي تدعك بأصابعها وردة كانت قد سقطت في القارب . وكان ميتكا يجذف دون أن ينظر اليها . وعند قدميه استلقى شبوط صغير وشلبة تفتّح فمها الجامد وتبخلق بعينين ارجوانيتين . ارتسم على وجه ميتكا تعبير اختلط فيه الاثم بالرضا والقلق .

قال لها وهو يدير القارب مع التيار ؛

- سأخذك الى مرسى سيمونوف . سيكون ذلك أقرب لك .

فهمست ؛

- لا بأس .

وعلى امتداد الشاطئ المهجور ، كانت الاسيجة الصفصافية تتأوه مع الريح الحارة ، مضمخة الهواء برائحة الدغل المحروق ، وتيجان عباد الشمس

الناضجة الثقيلة التي نقرتها العصافير ، قد تقوّست سيقانها كثيراً وصارت
تنثر بذوراً وبرية على الأرض . وبدت أرض المروج زمردية بالحشيش
الجديد النابت في أعقاب الحصاد . ومن بعيد كانت مهار الخيل تتواثب
مرحة والريح الجنوبية الحارة تحمل صدى ضحك الأجراس المعقودة حول
رقابها .

وبينما كانت ليزا تترك القارب ، التقط ميتكا سمكة ومدّها اليها قائلاً :
« هاك ، خذي الصيد » .

فرّقت أهدابها في دعر ، لكنّها أخذت السمكة .
- حسناً ، انني ذاهبة .
- طيب .

وامسكت بغصن اسفندان علق ميتكا عليه السمكة من خياشيمها
وتولّت عنه مبتنسة . لقد خلفت وراءها عند دغل الزعرور البري كل اعتدادها
ومرحها السابقين .

- ليزا!

واستدارت ، وقطبت حاجبيها في ضيق واستغراب .
- ارجعي ، لحظة .

وحين اقتربت ، قال وقد ضاق ذرعاً بارتباكهِ :

- كنّا مهملين قليلاً . ثوبك من الخلف... عليه بقعة . صغيرة جداً .

وغمر وجهها ورقبتها احمرار حار . وبعد لحظة صمت ، نصحتها ميتكا :
- عودي من الطريق الخلفية .

فقالتم همساً وهي تنظر الى ميتكا في ندم وكراهية مفاجئة :

- سيتعيّن عليّ أن أعبر الساحة ، على أية حال... كم وددت أن أرثدي
تنورتي السوداء .

فاقترح ميتكا ببساطة وقد دهش لمرأى الدموع تشرق في عينيها :
- دعيني أخضرها قليلاً بورقة شجرة .

... كحفيف نسمة صيفية هامسة ، طار النبا في القرية : « قضى ميتكا كورشونوف ليلة بكاملها في الخارج مع ابنة سيرغي بلاتونوفتش » . تحدثت عنه النساء وهن يسقن ماشيتهن للالتحاق بقطيع القرية في الصباح ، أو هن واقفات في الظل اليسير لرافعة البئر والغبار يدوم حولهن والماء يقطر من دلائهن ، أو هن يضربن غسيلهن على الصخور المستوية بجانب النهر .
- السبب هو أن أمها متوفاة .

- وليس لأبيها لحظة فراغ ، أما زوجة أبيها فلا تبالي .
- يقول الحارس أنه رأى رجلاً ينقر على الشباك الاخير في منتصف الليل . ظن بادئ الأمر أن شخصاً ما يحاول الانسلال الى البيت . وهرع ليتبين من هو ، ولينادي الشرطي ، فوجد أنه ميتكا .
- بنات هذه الأيام ، لأدري الى أي مصير يسرن . ليأخذهن الشيطان!
- قال ميتكا لابني نيكيتا انه سيتزوجها .
- خير له أن يمسح مخاطه أولاً .
- يقولون أنه أكرهها على ذلك .
- يا...

وانسابت الشائعات في شوارع القرية ، ملطخة اسم الفتاة كما يلطخ قطران كثيف بوابة نظيفة...

ونزلت الشائعات على رأس موخوف الاشيب نفسه وسحقته على الأرض . ظل يومين لا يذهب الى الحانوت أو الى الطاحونة . ولم يصعد الى خدمه ، الذين يعيشون في الطابق الأسفل ، الا وقت الطعام . وفي اليوم الثالث ، أمر سيرغي بلاتونوفتش أن يشد جواده الرمادي الأرقط الى عربته الخفيفة ، ومضى بها الى القصة ، وهو ينحني ، ساهماً ، للقوزاق الذين صادفوه في الطريق . ومضت وراءه عربة حديثة الدهان مرقت خارجة من الفناء يجرها حصانان ادهمان متوثبان ، وهز يميليان ، الحوذي ، حرير الأعنة الأزرق ، وهو يمصمص غليونه ، الذي أصبح ملازماً على الدوام

للحيته الشائبة ، وانطلق الحصانان الأدهمان يتواثبان في الشارع . وكان بالإمكان أن يرى المرء ليذا تجلس ، شاحبة الوجه ، أمام ظهر يميليان الجلمودي ، وحقيبة خفيفة بين يديها ، وابتسامة حزينة على فمها ، لوحت بقفازها لفلاديمير وزوجة أبيها الواقفين عند البوابة . وصادف أن كان بانتلاي بروكوفتش يعرج خارجاً من الحانوت في تلك اللحظة ، فتوقف وسأل البواب نيكيتا : « أين تذهب ابنة السيد ؟ » فأجاب نيكيتا ، وهو يرضخ لإرادة الضعف الإنساني الساذج : « الى موسكو ، للدراسة » .

وفي اليوم التالي ، وقع حادث ظل زمناً طويلاً مدار الحديث عند النهر وتحت ظل رافعة البئر ، وحين تساق الماشية للرعي.....

فقبيل حلول الليل (وكان قطع القرية قد عاد من السهب توّاً) ذهب ميتكا لرؤية سيرغي بلاتونوفتش . وقد انتظر حتى المساء لكي يتجنب ملاقة أي إنسان ، لأنه لم يأت لمجرد زيارة ، بل ليطلب يد ابنة مخوف ، ليذا .

لقد التقى بها أربع مرّات ، لأكثر . وفي اللقاء الأخير جرى الحديث بينهما على هذه الصورة :

- ليذا هل تتزوجيني ؟

- هراء ؟

- سأرعاك ، سأحبك . لدينا أناس يعملون بدلاً عنا ، وستجلسين الى الشباك وتقرأين كتبك .

- أنت أحمق !

- فاستاء ميتكا ولم يزد . وعاد الى البيت مبكراً ذلك المساء ، وفي الصباح اذهل أباه قائلاً :

- أبي ، أعد العدة لزواجي .

- لاتكن أحمق .

- صدقني ياأبي ، لست مازحاً .

- مستعجل ، أليس كذلك ؟

- حان الوقت .

- بمن ابتليت... بمارفا المجنونة ؟

- ابعث بالخاطبين الى سيرغي بلاتونوفتش .

فوضع ميرون غريغوريتش بهدوء أدوات السكافة التي كان يصلح بها عناناً ، وزأر بالضحك .

- إنك ذو مزاج مرح اليوم ، يا ولدي .

لكن ميتكا أصر على رأيه ، فانفجر أبوه غاضباً :

- أيها الأحمق! إن لدى سيرغي بلاتونوفتش رأس مال يبلغ أكثر من مائة ألف روبل . إنه تاجر ، فمن أنت ؟ اغرب عن وجهي ، والا جلدتك بهذا العنان .

- ونحن أيضاً لدينا أربعة عشر زوجاً من الثيران ، ولنا أرض انظر ما أكبرها . ثم أنه ليس من أصل رفيع بينما نحن قوزاق .

فقال ميرون غريغوريتش باقتضاب ، اذ لم يكن يميل الى النقاش الطويل ، « اغرب عن وجهي! » .

لم يجد ميتكا له مستمعاً متعاطفاً معه غير جده . واتجه العجوز الى ولده وهو يعرج وينقر بعصاه الارض .

- ها ؟

- لم تعارض ؟ مادام الولد مصراً على مانوى عليه...

- يا أبني ، أنت طفل كبير ، وحق الله أنك كذلك . إن ميتكا غبي بما فيه الكفاية ، أما أنت ف...

- امسك لسانك! - وضرب العجوز الأرض بعصاه . - ألسنا أنداداً لهم ؟

ينبغي أن يعتبر زواج ابن قوزاقي من ابنته شرفاً له . إنه سيرضخ ، وعن طيب خاطر أيضاً . فنحن معروفون في كل أنحاء الريف . لسنا فقراء بل نملك ثروة . اذهب واطلب يد ابنته يامبيرون . ما الذي يمنعك ؟ وليعطنا طاحونته صداقاً . اطلب منه .

فرنخر ميرون غريغوريتش وخرج الى الفناء . وهكذا انتظر ميتكا حتى حلول المساء ، ثم ذهب الى موخوف نفسه . كان يعلم بأن عناد أبيه مثل شجرة دردار راسخة الجذور قد تستطيع أن تحنيها ، ولكنك لن تقدر أن تكسرها أبداً . فلا جدوى من المحاولة .

مضى يصفر الى أن وصل باب بيت موخوف الامامي ، ثم صار يتهيب . تلكاً قليلاً ، وأخيراً مضى عبر الفناء الى الباب الجانبي . وعلى درجات العتبة ، سأل خادمة تخشع بمنزرها المنشئ : « هل السيد في البيت ؟ » فأجابت : « يشرب الشاي . انتظر » .

وجلس ميتكا وراح ينتظر . أشعل سيكارة ، دخنها ، وأطفأها بأصابعه المبللة باللعب ، ثم سحق عقبها على الأرض .

خرج موخوف وهو يزيل فتات البسكويت من على صدريته . وحين رأى ميتكا ، تجهّم وجهه ، ولكنه قال له : « ادخل » .

فدخل ميتكا الى غرفة موخوف الخاصة الباردة ، التي تنبعث منها رائحة التبغ والكتب ، وهو يشعر بأن الشجاعة التي أبقاها حتى ذلك الحين لم تكن إلا بالقدر الذي يتلاشى عند باب المكتب . مضى التاجر الى منصدته ، واستدار على عقبه بصريح : « حسناً ؟ » . كانت أصابعه تخريش سطح المنصدة وراء ظهره .

- لقد جئت لأعرف... - وغاص ميتكا على الدبق البارد في عيني موخوف النفاذتين ، فاقشعر بدنه : - ربما ستعطيني ليذا ؟

وتحالف اليأس ، والغضب ، والخوف ليملاً وجه ميتكا بحبات العرق الصغيرة كالندى أيام الجذب .

ارتعش حاجب موخوف الأيسر ، وانشنت شفته العليا عن اللثة . واشربأب بعنقه وأمال جسمه برمته الى الأمام .

- ماذا ؟ ماذا... ذ... ذ... ذ... ؟ أيها الوغد! اخرج! سأجرك الى الاتمان! يا ابن العاهرة! ياوغد!

وبعث صياح مخوف الشجاعة في ميتكا ، فجعل يراقب الدم الرمادي المزرق يفيض من وجنتي مخوف .

- لا تعتبر ذلك إهانة . أنا لم أرد سوى أن أعوض عما فعلت .

فرفع مخوف الى أعلى عينيه المنتفختين بالدمع والدم ، وألقى منفضة سكاثر معدنية عند قدمي ميتكا ، قفزت من على الأرض وارتطمت بركبته . لكنه تحمّل الألم برباطة جأش ، وفتح الباب بقوة ، وصاح مكشراً عن أسنانه بغيظ وألم :

- كما تشاء ياسيرغي بلاتونوفتش ، كما تشاء ، لكنني عنيت ماقلت... لعمرى من ذا يريدّها الآن ؟ ظننت أنني سأستر عارها . أمّا الآن... . فحتّى الكلب لن يمس عظمة مقضومة .

انطلق مخوف في أعقاب ميتكا وهو يضغط مندبلاً مدعوكاً على شفتيه ، وسد عليه الطريق الى الباب الرئيسي فجرى ميتكا صوب الفناء . وهنا لم يكن من السيد سوى أن غمز للحدودي يميليان ، وبينما كان ميتكا يعالج مزلاج البوابة الضخم ، انطلقت أربعة كلاب مطلقة الاسار تنبح من وراء زاوية مخزن الحبوب . وحينما وقع نظرها على الغريب ، اسرعت نحوه رأساً متوتبة عبر الفناء المكنوس .

في عام ١٩١٠ ، عاد سيرغي بلاتونوفتش بزوج من الجراء السود ذات الشعر المجعد ، من المعرض في نيجنى نوفغورود . وخلال عام من الزمن شبّه هذان الجروان الاسودان الأجعدان ذوا الفم الكبير ، كما تشبّه العجول لحولية . كانا في البدء ، يتخاطفان تنورات النساء اللواتي يمررن بفناء مخوف ، ثم تعلّما جر النساء الى الأرض وعض سيقانهن ، ولم يأمر سيرغي بلاتونوفتش بتقييدهما بالسلاسل الا بعد أن قتلا عجل الأب بانكراتي وزوجاً من خنازير اتيوبين . أمّا الآن فلم يطلق الكلبين من قيودهما إلا أثناء الليل ، مرة كل ربيع للتناسل .

قبل أن يستطيع الالتفات كان أول الكلاب قد قفز الى كتفيه ، واسنانه

مغروسة في سترته . وتناهشته الكلاب السود المهتاجة وراحت تمزقه ، فجعل ميتكا يصدّها عنه بضراوة محاولاً الحفاظ على توازنه . ورأى يميلان يختفي داخل المطبخ ، وغليونه ينثر الشرر ، وسمع الباب ينصفق وراءه . وعند الدرجات ، وقف سيرغي بلاتونوفتش ، وظهر مسند على انبوب تصريف الماء ، وقد تقلّصت قبضته البيضاء البيضاء المشعرتان . أمّا ميتكا فقد ظل يتمايل ويترنّح حتى استطاع أن يفتح البوابة ، جاراً خلفه ثلة الكلاب المزمجرة لاهبة الأنفاس وهي تتدافع على ساقيه النازفتين . فأمسك أحدها من بلعومه وخنقه . واستطاع قوزاق عابرون أن يطردوا البقية بشق الأنفس .

٣

انسجمت ناتاليا مع أهل زوجها خير انسجام . فقد ربّى أبوها أبناء على العمل ، بالرغم من أنّه كان موسراً ويستخدم عمالاً . وسرعان ما كسبت ناتاليا المجتهدة قلب والدي زوجها ، ومالت إليها لينيشنا منذ البداية ، وهي التي كانت في دخيلتها لا تحب كنتها الكبرى ، داريا الشغوفة بالملابس . وقد تدمدم على ناتاليا برقة ، وهي تشاغل نفسها في المطبخ واقفة على ساقيهما الضخمتين : « نامي ، نامي أيتها الصغيرة ! فيم تخرجين في هذا الوقت المبكر ؟ عودي الى الى الفراش ، وسندبر الأمور بدونك » . وتعود ناتاليا ، التي استيقظت منذ الفجر لتعين الآخرين في المطبخ ، فتمضي الى حجرتها لتستأنف نومها . حتى بانتلاي بروكوفتش ، الصارم عادة فيما يتعلق بشؤون المنزل ، كان يقول لزوجته : « اسمعي ، يا امرأة ، لا توظي ناتاليا . فهي بدون ذلك تكدح بما فيه الكفاية وستذهب اليوم مع غريشا للحراثة . ولكن استعجلي داريا تلك . فهي امرأة كسول وسينة ، تطلي وجهها وتزجج حاجبيها ، العاهرة » .

- لنجعل أعباءها خفيفة خلال العام الأول - وتنهدت ايلينشنا متذكّرة حياتها التي قصمت ظهرها بالعمل المرهق .
بدأ غريغوري يألّف وضع الزواج الجديد ، لكن ما أن مضى اسبوعان أو ثلاثة حتّى أدرك ، بخوف وحقد ، أنّه لم يبرأ تماماً من حب اكسينيا . كان ثمة شيء قد تخلف في قلبه ، كالشوكة ، وما كان للألم أن يزول بسرعة ، والشعور ، الذي أزاحه في فورة الزواج بتلوّيحة لامبالية من يده ، كان شعوراً عميق الجذور . لقد ظن أنّه قادر على نسيانه ، لكنّه أبى أن يغيّبه النسيان ، وظل الجرح ينزف دماً . وحتّى قبل الزفاف ، سأله بيوتر وهما يدرسان الحبوب سوّيّة :

- ولكن ، ياغريشا ، ماذا عن اكسينيا ؟

- حسناً ، ماذا عنها ؟

- ألن تأسف لهجرها ؟

فأجاب غريغوري ضاحكاً : « سيلتقطها رجل آخر » .

فقال بيوتر وهو يقضم ذؤابة شاربه التي كان يلوكها : « طيب ، أنت أحسن العارفين » وأضاف : « قد تندم بعد زواجك » .

فأجاب غريغوري مازحاً : « يشيخ الغرام وتبرد الأجسام » .

لكن الأمور لم تجر على هذا النهج . فبينما كان يلاطف في الليالي زوجته كما يجب على زوج ، محاولاً أن يلهبها بحيويته الفتية هو ، لم يكن يلقى الا بروداً واستسلاماً مرتبكاً من جانبها . كانت ناتاليا تنفر من الملمذات الجسدية ، فقد ورثت بعضاً من دم أمّها البارد البطيء ، وكان غريغوري يتنهد كلّما يتذكّر شبق اكسينيا اللهب .

- لا بد أن اباك ياناتاليا أحبل بك أمك على الثلج . إنّ في جسمك من البرودة ما يكفي ويزيد .

واذا التقى باكسينيا ، تبسمت له بغموض وادلهمّ بؤبؤ عينها ، وعلقت كلماتها به كما يعلق الطين في قاع جدول .

- مرحباً ، غريشا! كيف هو الحب مع زوجتك الشابة ؟
فيجيبها غريغوري متملصاً : «لابأس» ، ويهرب من نظرتها المغالطة
بأسرع ما يستطيع .

صار واضحاً أن ستيبان قد سوى خلافه مع زوجته ، فقد قلّ تردده على
الحانة ، واقترح ذات مساء ، وهو يذري الحبوب على ساحة الدرس ، وذلك
لأول مرة منذ بدأت المشاكل : «لنغن أغنية ، يا اكسينيا!» فجلسا ،
وظهراهما الى كومة من القمح المدروس المغبر ، وبدأ ستيبان نشيداً
عسكرياً ، واشتركت معه اكسينيا بملء صوتها الخفيض . غنيا معاً بصورة
حسنة ، كما كانا يفعلان في السنين الأولى لحياتهما الزوجية ، حينما
اعتادا أن يرجعا من الحقول ، تحت الذؤابة القرمزية لوهج الغروب ،
فيجلس ستيبان على الحمولة يغني أغنية قديمة ، طويلة حزينة كذلك
الطريق الموحش المهجور عبر السهب . فتلتقط اكسينيا اللحن ، ورأسها
مستكين على الثنيات المنتفخة في صدر زوجها . وتمضي الخيل تجر العربّة
الصارة ، ويتراقص العريش صاعداً هابطاً . ومن بعيد يصغي شيوخ القرية
الى الأغنية .

- إن لها صوتاً بديعاً ، زوجة ستيبان تلك .

- أي نعم ، غناء جميل .

- أي صوت هو صوت ستيبان ، صافٍ كالجرس .

وبينما كان الشيوخ يجلسون على المصطبات بالقرب من بيوتهم
مراقبين الغروب القرمزي المغبر ، مضوا يتبادلون عبر الشارع تعليقاتهم حول
الأغنية ، وأصلها وأولئك الذين أحبّوها من قبل .

سمع غريغوري الزوجين استأخوف يغنيان ، وبينما كان يدرس الحبوب
(وساحتاً درس الحبوب متلاصقتان) استطاع أن يرى اكسينيا معتدة بنفسها
كما كانت في السابق ، متظاهرة بالسعادة ، أو هكذا بدت الحال له .
لم يكن ستيبان يتبادل التحية مع آل ميليخوف . فظل يعمل في ساحة

الدرس مؤرجحاً كتفيه الجسيمين المتهدلين ، ملقياً لزوجته أحياناً تعليقاً هزلياً ، فتستجيب له مبتسمة وعيناها السوداوان تومضان . وما فتئت تنورتها الخضراء تحوم أمام عيني غريغوري المغمضتين ، ورقبته تنثني بفعل قوة غريبة تدير رأسه في اتجاه فناء ستيبان . ولم يلاحظ أن ناتاليا ، التي كانت آنذاك تساعد باتتلاي بروكوفتش في نشر الحزم تمهيداً لدرسها ، كانت تقتنص كل رمقة نظر لإرادية بنظرتها المتشوقة الغيور ، ولم ير بيوتر ، الذي كان يقود الخيل في ساحة الدرس وقد تجعد وجهه بابتسامة صغيرة فيما كان يراقب أخاه .

وتأوهت الأرض تحت العقل المرهق للدراسات الحجرية ، وحاول غريغوري ، أثناء هذا الضجيج أن يتلمس ، في عقله تتف الأفكار التي انزلقت ، زائفة ، من مجال وعيه ، لكنه لم يفلح .

من ساحات الدرس القريبة أو البعيدة انبعثت جلبة الدرس : صيحات سائقي الخيل ، صفير السياط ، وخشخشة الغرابيل ، واستلقت القرية تتشمس في دفء أيلول المعتدل ، وقد أسمنها الحصاد ، وارتخت على امتداد الدون ، مثل ثعبان ملقى عبر الطريق . وفي كل فناء ، بسياجه المصنوع من أغصان الاسفندان ، وتحت كل سقف قوزاقي دارت حياة ، حافلة بالحلاوة والمرارة تدوم وتدوم منفردة ومنعزلة عن الآخرين . غريشكا العجوز أصابه برد وكان يعاني من أسنانه ، ومخوف ينشب أظفاره في لحيته ، وقد سحقه عاره ، يبكي في وحدته ويصرف بأسنانه ، وستيبان يهدد في قلبه حقه على غريغوري ويمزق في نومه لحافه بأصابعه الحديدية ، وتجري ناتاليا الى السقيفة ، وترمي نفسها على كومة جل البقر تهتز وتتكور ، وهي تبكي سعادتها المدنسة ، وكريستونيا الذي كان قد باع عجلأ في المعرض ، وصرف ثمنه على الشراب يعذبه ضميره ، وغريغوري يتأوه تحت عبء توجس وألم متجدد ، واكسينيا تغرق كراهيتها الأبدية لزوجها في دموعها كلما لاطفته .

وكان دافيد قد فصل من الطاحونة وصار يجلس ، ليلة تلو ليلة ، مع «الولد» في مأوى سائقي العربات ، فيما كان «الولد» يعلن ، وعينه الغاضبتان تومضان بالشرر :

- حسبك أن تنتظر! ستقطع رقابهم عما قريب . إن ثورة واحدة لم تكن كافية . انتظر حتى تكون لنا ١٩٠٥ أخرى ، وأنذ سنسوي الحساب! - ويهز أصبعه الالذنب متوعداً ، وبهزة من كتفيه يصلح من وضع سترته الملقاة عليهما . وتمر الأيام سراعاً على القرية ، والليالي ، وتنساب الاسابيع ، وتزحف الشهور ، وتولول الريح فوق التل منذرة بأنواء سيئة قادمة ، وينساب الدون ، الى البحر من غير ما اكتراث وقد صقلته زرقة الخريف المخضوضرة الرائقة .

٤

ذات أحد في أواخر تشرين الاول ، ركب فيدوت بودوفوسكوف عربته الى القصبة .

وأخذ معه ثمانين من البط السمين وباعها في السوق ، فابتاع لزوجته شيئاً من القماش القطني المطبوع ، واذ هم بالعودة (وكان يشد مقود الرقبة وقد وضع قدماً على العجلة) تقدّم اليه غريب يبدو عليه أنه ليس من تلك الديار . حياً فيدوت واضعاً يداً ملفوحة على حافة قبعته السوداء قائلاً : «مرحباً» .

فقال فيدوت : «مرحباً» وتمهل مستفهماً وهو يضيق عينيه الكالميكيتين .

- من أين أنت ؟

- من قرية من القرى .

- وأي قرية تراها قريتك ؟

- تاتارسكي .

أخرج الغريب علبة سكانر فضية من جيبه (وعلى غطائها نقش زورق)
وقدم سيكارة لفيدوت واستطرد يلقي أسئلته :

- وهل قرينتك كبيرة ؟

- لا ، شكراً ، دَخَنْت واحدة تَوّاً . قرينتنا كبيرة جداً ثلاثمائة عائلة ، أو
حوالي ذلك .

- وهل توجد فيها كنيسة ؟

- بلا ريب .

- وهل ثمة حدادون فيها ؟

- نعم ، يوجد محل حدادة .

- وهل هناك ورشة في الطاحونة ؟

شد فيدوت العنان الى لجام الحصان ، ونظر بريية الى قبعة الرجل
لسوداء والى تجاعيد وجهه الأبيض العريض تحف به لحية سوداء قصيرة .

- ماذا تريد أن تعرف ؟

- أنا قادم للعيش في قرينتك . كنت للتو عند أتمان المنطقة . أعائد

نت لقرينتك فارغ العربة ؟

- أي .

- هل تأخذني معك ؟ لست وحدي . فلي زوجتي وصندوقان كبيران .

- بوسعي أن آخذك .

وبعد أن اتفقا على الأجرة . ركبا الى فروسكا الخباز حيث نزل المسافر
عنده ، واخذوا زوجة الرجل الشقراء النحيفة ، ووضعوا الصندوقين في
الخلف ، وانطلقوا في رحلة العودة . وجعل فيدوت يلوي رأسه النحيل
مستديراً من حين لآخر ، وهويطقطع بلسانه للحصان ويلسع بالأعنة
للمضفورة ، كان الفضول يمزقه . أما المسافران فقد جلسا وراءه هادئين ،
وفي البدء طلب فيدوت سيكارة ، ثم تساءل :

- من أين أنت ؟

- من روستوف .

- واحد منهم .

- ماذا قلت ؟

- هل ولدت هناك ؟

- م... م... نعم .

وجعد فيدوت خذيه البرونزيين وشخص ببصره الى الأجسام البعيدة
لحشيش السهب . وبدأ الطريق يرتفع ، وعلى مبعده نصف فرست منه ، وفي
الدغل الرمادي الاشمر عند قمة المرتفع ، شخصت عينا فيدوت المجربتان
الى حركات رؤوس طيور الجباري التي لاتكاد ترى .

فتنهذ مؤشراً باصبعه : «وا أسفاه ، ليست معي بندقية ، وإلا لمضيت
لصيد الجباري . هاهي تتحرك » .

فأجاب مسافره وهو يطرف بعينه عن قصر نظر : «أنا لا أرى شيئاً» .
راقب فيدوت الجباري تهبط في وهدة ، ثم ثنى نفسه مستديراً ليتفحص
مسافريه عن كذب أكثر . كان الرجل متوسط الطول ، إلا أنه نحيل ، وكان في
عينيه المتقاربتين بريق دهاء ، وكثيراً ما كان يبتسم أثناء كلامه . أما زوجته
فقد تلفعت بشال محاك وغلبها النعاس فلم يستطع فيدوت أن يرى وجهها .

- ما الذي يدعوك الى الإقامة في قريتنا ؟

- انني ميكانيكي . وأنا أنوي فتح ورشة . واستطيع أن أقوم بأعمال
النجارة أيضاً .

فحملق فيدوت مرتاباً في كفي الرجل الضخمتين ، وأضاف الغريب لما
لحظ نظرته : «أنا وكيل شركة «سنجر» لماكينات الخياطة ، أيضاً» .

فسأله فيدوت : «وما اسمك ؟»

- شتوكمان .

- لست روسياً ، اذن ؟

- بلى ، أنا روسي . لكن جدي كان لتوانياً بالمولد .

وسرعان ما عرف فيدوت أن أوسيب دافيدوفتش شتوكمان قد اشتغل في السابق في مصنع ، ثم في مكان ما في الكوبان* ، ثم في معامل سكة الحديد الجنوبية الشرقية . واستدر فيدوت الفضولي عدداً كبيراً من الحقائق تتعلق بحياة الغريب .

وبعد فترة من الزمن ، فتر الحديث . ثم أورد فيدوت حصانه العرق من نبع على جانب الطريق ، وبدأ ينعس من أثر الرحلة وخضات العرب . ولم تبق إلا مسافة قصيرة حتى يصلوا القرية . فلف فيدوت الأعنة حول يده ، واضطجع وقدماء متدليتان . لكنه لم يجد فرصة للنوم إذ سأله شتوكمان ، وهو يرتج ويتمايل مع حركة العرب :

- كيف هي الحياة في دياركم ؟

- ليست رديئة جداً . لا بأس .

- والقوزاق عموماً ، هل هم راضون عن حياتهم ؟

- بعضهم راض ، وبعضهم غير راض . لن تستطيع أن ترضي كل الناس .

- فقال الرجل موافقاً : « هذا صحيح » واستأنف اسئلته الماكرة المكنونة .

- تقول إنكم تعيشون عيشة طيبة ؟

- عيشة طيبة .

- لابد أن التدريب العسكري السنوي يزعجكم ؟ هه ؟

- التدريب العسكري ؟ لقد اعتدنا عليه . لا شيء يقلقك حينما تكون في

الجيش .

- ولكن من الصعب عليكم ، وأنتم القوزاق ، أن تجهزوا كل عدتكم .

- صحيح ، أولاد الخنازير .

قال ذلك فيدوت بحماس مفاجيء ، ونظر قلقاً في زاوية عينيه الى

المرأة ، فحولت عينيها عنه .

* الكوبان : إحدى المناطق القوزاقية . المترجمون

- إن سلطانتنا شرذمة دنيئة... . حينما ذهبت لأداء خدمتي العسكرية
بعث ثيراني واشتريت حصاناً ، ولكنهم رفضوه .

فقال الغريب في دهشة مفتعلة : «رفضوه ؟»

- رفضوه بالمرّة . قالوا أن سيقانه غير صالحة . ناقشتهم وحاولت كل
ما في وسعي . قلت لهم : «إن له سيقان جواد سباق لكن مشيته تشبه
مشية الديك» . إلا أنهم لم يقبلوا به . إن هذا كفيل بخراب بيتك .

واستمر الحديث حاراً . وقفز فيدوت من العربية وشرع يتحدث عن حياة
القرية بانطلاق . فلعن أتمان القرية لطريقة تقسيمه الضيزى لأرض المروج ،
وامتدح مجرى الأمور في بولنده حيث عسكرت كتيبته . ومضى شتوكمان يدخن
سكائر خفيفة التبغ بمبسم سكائر عظمي ذي حلقات ، وهو يلقي نظرات سريعة
حادة الى فيدوت من عينيه الضيقتين ويبتسم مراراً ، لكن اخدود التقطيب في
جبهته المائلة البيضاء كان يتحرك ببطء وثقل ، وكأن أفكاراً خفية تحركه .

وصلوا القرية في المساء المبكر . وبناء على نصيحة من فيدوت ذهب
شتوكمان الى الأرملة لوكيشكا واستأجر منها غرفتين .

وسألت النساء فيدوت فيما كان يصل بعربته الى بوابته : «من ذا الذي
جئت به ؟»

- وكيل .

- أي نوع من الوكلاء ؟

- أتنن حمقاوات ، هذه لعمرى حقيقتكن ، قلت ، وكيل ، يبيع
الماكينات . إنّه يهبها الى الجميلات ، أما لمن كان على شاكلتك ، أيتها
العمة ماريا ، فإنّه يبيعها بثمان .

- انظر الى نفسك ، أيها الشيطان . إن خرطومك الكالميكى قبيح بما
يكفي لبث الرعب في حصان!

فتملّص فيدوت قائلاً : «الكالميكون والتتار كانوا أول من قدم الى
السهب ، فلا تستهزئي بهم» . نزل الميكانيكي شتوكمان عند لوكيشكا

الحواء ذات اللسان الطويل . ولم تكن الليلة تمضي حتى كانت جميع السنة النساء في القرية تتلَمَّظ بالنبا .

- هل سمعت الخبر ، يا جارتى ؟

- أي خبر ؟

- فيدوت الكالميكى جاء بأجنبى الى القرية .

- حقاً ؟

- فليعننى الله . إنه يرتدى قبة ، واسمه شتوبل أو شتوكال

- لعله من رجال الشرطة ؟

- لا ، إنه جابى ضرائب .

- كلها أكاذيب ، يا عزيزتى . إنه كاتب حسابات ، مثل ابن الأب

بانكراتى تماماً .

- باشكا ، يا حمامتى ، اجري الى لوكيشكا واسألها بهدوء «من ذا الذى

ينزل لديك يا عمّتى ؟»

- اجري سريعاً ، يا عزيزتى !

في اليوم التالى ذهب شتوكمان الى اتمان القرية . فقلب فيدور

مانيتسكوف ، الذى كان أتماً للعام الثالث ، جواز مرور القادم الجديد مرة

أخرى ، ثم سلمه الى الكاتب الذى جعل يقلبه ، هو الآخر ، مرة أخرى ،

تبادلاً النظرات ، ثم هز الأتمان ، الذى كان رئيساً للعرفاء ذات يوم ، يده

في حركة متعالية .

- بوسعك أن تقيم .

فانحنى القادم الجديد وغادر الغرفة . وبقي اسبوعاً لا يطل بأنفه خارج

منزل لوكيشكا ، مثلما ينزوي سنجاب برى في جحره . وكان بالإمكان

سماع ضربات فأسه وهو يعد ورشة في المطبخ الخارجى الصيفى المتداعى .

ثم تلاشى اهتمام النساء به ، الا الأطفال ، فقد كانوا يقضون النهار بطوله

يسترقون النظر من على السياج ويراقبون الغريب بفضول غير متهيب .

قبل عيد الشفاعة بثلاثة أيام خرج غريغوري وزوجته في العربة الى السهب للحرثة . كان بانتلاي بروكوفتش متوكل الصحة ، فناء بكلكله على عصاه في الحوش ليودعهما وهو ينن من جراء ألم في ظهره .
- احرث الرقعتين الواقعتين على الجانب الآخر من الأرض المشاعة ، قرب «الأخدود الاحمر» ، ياغريشا .

فتساءل غريغوري في همس مبحوح ، إذ أصابه برد أثناء الصيد ، وقد لف بلعومة بقطعة قماش :

- طيب وماذا عن الرقعة الواقعة الى جانب «ضفة الصفصاف» ؟
- يمكن لهذه أن تنتظر الى مابعد العيد . سيكون لك ما يكفيك من العمل في الوقت الحاضر ، فلا تكن طماعاً .
- وهل سيأتي بيوتر لمساعدتي ؟
- إنه ذاهب الى الطاحونة مع داريا . نريد أن ننتهي من الطحن قبل أن تتزاحم الجموع .

وهمست ايلينشنا وهي تضع الفطائر الطازجة في سترة ناتاليا :
- ربّما تريدان أن تصحبي دونيا معكما لتقود الثيران ؟
- اثنان يكفيان .

- طيب ياعزيزتي . ليكن المسيح في عونكما .
ومرت دونيا في طريقها الى الدون لشطف الملابس . وقوامها النحيف ينوء تحت الحمل الثقيل للغسيل المبلل ، وبينما كانت تمر صاحت على ناتاليا :

- ناتاليا ياعزيزتي ، هناك الكثير من نبات الحمّيض في «الأخدود الأحمر» . اقلعي بعضاً منه ، واجلبيه لنا .
- بالطبع .

فقال بانتلاي بروكوفتش وهو يهز عصاه نحو دونيا :

- هيا ، امضي من هنا ، ياثرثارة!

سحبت ستة ثيران المحراث المقلوب خارج الفناء ، وهي تحفر الأرض التي تصلبت من الجذب الخريفي . ومضى غريغوري يسير على امتداد جانب الطريق وهو يسعل ، ومافتىء يعدل منديل رقبته . ومشت ناتاليا الى جانبه ، وعلى ظهرها يتأرجح كيس وضع فيه طعام .

تلفع السهب بسكون بلوري . وكانت التربة ، وراء الأرض المشاعة ، على الجانب الآخر من التل المحدود ، لقد مشطتها المحاريث ، وكان السواك يصفرون ، ولكن على امتداد الطريق لم يكن ثمة سوى زرقة شهباء لنبات شيح قمىء ، وبرسيم بري قضمته الأغنام ، تعلوه سماء باردة صافية مرناة ، تتقاطع عليها خيوط متطايرة لنسيج عنكبوت متلامع .

وحين ابتعد الحارثان الماضيان الى السهب ، استعد بيوتر وداريا للذهاب الى الطاحونة . فغربل بيوتر الحنطة في مخزن الغلال ، وعبأها داريا في زكائب حملتها الى العربة . وشد بانتلاي بروكوفتش الخيل مسوياً الاعنة باعتناء .

- هل ستبطن كثيراً ؟

فأجاب بيوتر من المخزن : « ها أنا قادم » .

حينما وصلا الطاحونة وجدا الفناء مزدحماً بالعربات وكان القبان محاطاً بجمع حاشد . فألقى بيوتر الأعنة الى داريا وقفز من العربة . وسأل الولد ، القبانى :

- هل سيأتي دوري عما قريب ؟

- سيأتي .

- دور من ، الآن ؟

- رقم ثمانية وثلاثين .

واستدار بيوتر ليأتي بركائبه . وبينما كان يفعل ذلك سمع سباباً وراءه . ونبح صوت أجش مغضب : « أنت تستغرق في النوم أكثر مما يجب ، ثم تريد أن تسبق دورك . تنح ، ياخوخول* ، والا سألقنك درساً » .

وتبين بيوتر صوت ياكوف نعل الحصان** فتوقف لينصت . علا الصياح في غرفة القبان . ثم انبعثت طقة لطمة حادة ، وإذا بأوكراني كهل ملتج يطير الى الخارج من خلال المدخل ، وقد خبطت قبعته على مؤخرة رأسه .
وصاح ممسكاً بخذه : « لم هذا ؟ »

- سألوي رقبته!

- لكن ، اسمع ...

- ميكيفور ، النجدة!

أما ياكوف نعل الحصان ، وهو مدفعي قوي البنية . اكتسب كنيته هذه لما تركته رفسة حصان من أثر على وجهه ، فقد اندفع خارجاً من غرفة القبان وهو يثني أكمامه الى الأعلى . وتبعه أوكراني طويل ، يرتدي قميصاً وردياً ، وهوى بضربة ثقيلة عليه . لكن ياكوف صمد على قدميه ، وصرخ :

- ايها الاخوان ، إنهم يضربون القوزاق!

فجاء عدد ضخم من القوزاق والاوكرانيين من الطاحونة يركضون من كل صوب الى الفناء المزدهم بالعربات . وبدأت معركة قرب المدخل الرئيسي ، فأنخلع الباب تحت ضغط الأجسام المتقاتلة . وألقى بيوتر زكيته عنه وانطلق بخفة صوب الطاحونة . ورأته داريا ، وهي منتصبة على العربة ، يندفع الى وسط المعركة ، دافعاً الآخرين جانباً . وتأوهت حين رآته يُحمل الى حائط

* خوخول ، اصطلاح يقال للأوكراني يراد بها الإهانة . المترجمون

** نعل الحصان ، كنية ياكوف ، كما أن « الولد » كنية دافيد . المترجمون

الطاحونة ويطرح أرضاً ويداس تحت الأقدام . وجاء ميتكا من حجرة الماكنة متوثباً حول الزاوية ملوحاً بقضيب حديدي . وانطلق الاوكراني ، الذي ضرب ياكوف من الخلف خارجاً من الحشد المقاتل ، وكمه الوردي الممزق يخفق وراءه كجناح طير مهيف . فانشنى على نفسه حتى لامست يده الأرض وجرى الى أقرب العربات وانتزع محوراً منها كما لو كان عود ثقاب . وجلجلت صرخات مبحوحة فوق الفناء . صوت تهشيم . ضربات . أنين . زئير صياح مستديم .

وجاء الأخوان شوميلين الثلاثة راكضين من دارهم . وتعشرت قدم اليكسي الأقطع بزوج من الأعنة كان ملقى على الأرض ، فوقع أرضاً بالقرب من البوابة . ثم قفز واقفاً . ومضى ينط عبر محاور العربات المصفوفة ، ضاغطاً كمه الأيسر الخالي من الذراع على معدته . وانحنى أخوه مارتن ليدس ساق بنطلونه الذي خرج من جوريه الأبيض . وارتفع الصياح في الطاحونة بالغاً أوجه... وأطلق أحدهم صرخة علت فوق سقف الطاحونة مثل خيط عنكبوت في مهب الريح ، واستقام مارتن وراء أخيه .

وقفت داريا تراقب المعركة من العربة ، وهي تلهث وتعصر يديها ، ومن حولها كانت نسوة ينحن ويزعقن ، والخيل تنصب آذانها مضطربة ، والثيران تخور وتتدافع على العربات . ومر مخوف وهو يمشي الهويماً زاماً شفتيه ، شاحب الوجه ، وكرشه يتأرجح ، صاعداً هابطاً ، وكان بيضة وضعت فوق صديريته . ورأت داريا الاوكراني ذا القميص الممزق يهوي بالمحور على ميتكا كورشونوف بضربة قاصرة ، وفي اللحظات التالية كان هو نفسه قد تلقى لكمة مسددة من قبضة اليكسي الحديدية طرحته أرضاً . ومَرّت المشاهد أمام عيني داريا مثل تنف من سجادة ملوثة . ثم رأت ميتكا الجائي ، دون أن تأخذها الدهشة ، يحصد ساقي مخوف من تحته بالقضيب الحديدي ، ففرد مخوف ذراعيه وزحف ، مثل السرطان ، الى سقيفة القبان حيث رفسته الأقدام وداست عليه... فضحكت داريا بصورة

هستيرية حتى تشرخ القوسان الأسودان لحاجبيها المزججين . لكنها توقفت فجأة حينما وقع نظرها على بيوتر . كان قد أفلح في الخروج مترنحاً من بين الغوغاء المتدافعين الزاعقين ، وكان مستلقياً تحت عربة ييصق دماً . فهرعت اليه داريا صارخة . ومن القرية جاء القوزاق مسرعين يحملون العصي ، وكان أحدهم يلوح بعتلة في يده واتسع القتال الى حد يفوق التصور ، فلم يعد مجرد مشاجرة في حانة أو نزال القبضات الذي يقام في عيد المرفع بين القرى . فعند باب سقيفة القبان تمدد أوكراني يافع برأس مكسور في بركة من الدم ، تحركت قدماءه ، وتدلت على وجهه خصلات مدماة . لقد انتهى كما يبدو طريقه في هذه الأرض الزرقاء المرحية...

دفعوا الاوكرانيين مثل قطيع الأغنام الى سقيفة التفريغ . وكان ممكناً أن تتخذ الأمور شكلاً اسوأ لولا أن أوكرائياً عجوزاً خطرت له فكرة فمرق الى داخل السقيفة ، وجرّ عموداً ملتهباً من الأتون وجرى ناحية السقيفة حيث خزنت الحبوب : الف بود واكثر من الطحين . وانساب الدخان فوق كتفه مثل قماش الموسلين ، وشرر يكسفه ضوء النهار ، يتطاير حوله . وصرخ ، وهو يرفع الشعلة المقطقة صوب السقف المغطى بالقش : « سأحرقه! » .

تلكا القوزاق ثم توقفوا . كانت ثمة ريح عاصفة جافة تهب من الشرق حاملة الدخان بعيدا عن سطح السقيفة صوب رهط الاوكرانيين . كان يكفي ان تندلع شرارة مناسبة واحدة في حلفاء السقف لتلتهم النار القرية عن آخرها... ندت مهمة خفيضة عن القوزاق . وبدأ بعضهم يتراجع ناحية الطاحونة بينما صاح العجوز وهو يلوح بالشعلة فوق رأسه ويرسل نثارة من النار : « سأحرقه! سأحرقه اخرجو من الفناء! » .

كان ياكوف نعل الحصان ، الرجل الذي بدأ المعركة ، اول من غادر الفناء وعلى وجهه النديب رضات حمر مزرقّة . وجرى القوزاق الآخرون وراءه

مسرعين . فأسرع الاوكرانيون بالقاء زكائبهم على عرباتهم وشدوا خيلهم وانطلقوا ينهبون أرض الفناء مبتعدين عن القرية وهم واقفون في عرباتهم ويلوحون بذوائب اعنتهم الجلدية حول رؤوسهم ويلفحون خيلهم بسياطهم في جنون .

انتصب اليكسي الاقطع وسط الفناء ، وكمه الفارغ المعقود يتوثب فوق بطنه الخاسف ، وعينه وخده يختلجان كعادتهما ،

- الى الخيل ، أيها القوزاق!

- في أعقابهم!

- لن يبتعدوا!

وتهياً ميتكا كورشونوف ، ليندفع خارج الفناء . وسرت موجة اضطراب جديدة فوق حشد القوزاق المتجمعين حول الطاحونة . على ان شخصاً غير مألوف يرتدي قبعة سوداء ظهر في تلك اللحظة من غرفة الماكنة وتقدم بخطى عجل من الحشد ، ولم يلحظه أحد من قبل وقد ضاقت عيناه النفاذتان حتى غدتا خطين طويلين مرقا فوق الحشد فيما رفع يده وصاح :

- قفوا!

فتسائل ياكوف مقطبا حاجبيه ،

- من أنت ؟

- من أين ظهر ؟

- اضربوه!

- قفوا ، أيها القرويون!

- من أنت حتى تدعونا قرويين ، يا ذليلاً أبتراً!

- يا للسافل!

- هذا الريفي القذر!

- لقنه درساً ، يا ياكوف .

- صحيح ، سود له عينه!

فابتسم الرجل بتواضع ، دون أن تبدو عليه بادرة خوف . خلع قبعته
ومسح جبينه بحركة تنم عن منتهى البساطة . وجردت ابتسامة الآخرين من
سلاحهم كلياً .

وتساءل وهو يشير بقبعته المطوية الى الدماء عند باب سقيفة القبان :
« ماذا حدث ؟ » .

فاجاب اليكسي ذو الذراع الواحدة بلهجة مسالمة ، وعينه وخده
يختلجان : « كنا نضربهم » .

- ولكن لم ؟

فأوضح ياكوف نعل الحصان وهو يتقدم ماسحاً بذراعه كتلة من الدم عن
أنفه :

- أرادوا تجاوز دورهم .

- أعطيناهم ما سوف يتذكروننا به .

- من المؤسف أننا لم نطاردهم... فليس في السهب ما يستطيعون إضرار
النار فيه .

- أصابنا الذعر ، فما كان ليجرؤ على إضرار النار في السقف .

- بل كان سيفعل ذلك ، إذ كان متهوراً .

وقال افونكا اوزيروف مبتسماً : « ان الخوخول قوم سيئو الطبع جداً » .

فلوح الرجل بقبعته في اتجاه اوزيروف : « ومن أنت ؟ » .

بصق اوزيروف باحتقار من بين اسنانه المتباعدة ، وهو يراقب طيران

البصاق ، وركز قدميه مباعداً بينهما :

- أنا قوزاقي . ولكن... من انت ، عجري ؟

- أنا وأنت كلانا روسيان .

فقال افونكا مقطعاً كلماته :

- أنت تكذب .

- ينحدر القوزاق من أصل روسي . أتعرف هذا ؟

- وأنا أقول لك إن القوزاق هم أبناء القوزاق .

فأوضح الرجل :

- منذ زمن بعيد ، هرب الاقنان من مالكي الارض واستوطنوا على

امتداد الدون . ثم عرفوا باسم القوزاق .

فقال اليكسي في غيظ مكظوم وهو يشد على قبضته الثقيلة ويطرف

تباعا : « اذهب الى حال سبيلك ، يا رجل ! » .

- هذا الخنزير يريد أن يجعل منا فلاحين !

- من هو يا افاناسي ؟

- انه القادم الجديد الذي يسكن عند لو كيشكا الحولاء .

وهكذا مرت فرصة تعقب أثر الأوكرانيين . وتفرق القوزاق ، وهم

يتناقشون حول المعركة بحماس .

* * *

وفي تلك الليلة . في السهب ، وعلى مبعدة حوالي ثمانية فرسات من

القرية ، قال غريغوري لناتاليا بكآبة وهو يلف نفسه بفروته الشائكة المخينة :

- أنت غريبة ، نوعاً ما ! أنت كذلك القمر ، لا تبعثين البرودة ولا

الدفء في الرجل . انا لا أحبك يا ناتاليا ، ويجب ألا تغضبني . أنا لم أرد

إثارة الموضوع ، لكن هو ذا يطرح نفسه . نحن لا نستطيع ان نستمر على

هذه الحال . انني حزين عليك . لقد بدا في الايام الأخيرة كما لو كنا نقرب

من بعضنا أكثر من ذي قبل ، لكنني لا أستطيع تحسس اي شيء في قلبي .

إنه فارغ تماماً . مثل هذا السهب...

تطلعت ناتاليا الى النجوم السارحة المنيعة ، والى عباءة الغيوم السارية

فوقها والظليلة كالاشباح ، ولم تنبس بشيء . ومن مكان ما في الفلاة

السوداء المائلة الى الزرقة ، في الأعالي ، تنادى سرب متأخر من طيور

الغرائيق بأصوات مثل أجراس فضية صغيرة .

كان للعشب الداوي رائحة كئيبة موات . وعلى رابية هناك خفق وهج خضيب من نار احد مضارب الحارثين...

استيقظ غريغوري قبيل الفجر . كانت فروته مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج . وكان السهب مخفياً تحت الزرقة العذراء باهتة الألق للثلج الجديد . وارتسمت ، على مقربة من الموضع الذي استلقى فيه غريغوري ، آثار واضحة لأقدام أرنب بري كان قد قفز على أول نثرة ثلج .

٦

عندما كان القوزاقي يسافر بمفرده في الطريق الى ميليروفو ويلتقي بالاوكرانيين ، (وكانت القرى الأوكرانية تبدأ في قرية يابلونوفسكي السفلى وتمتد مسافة خمسة وسبعين فرستا حتى ميليروفو) ، كان عليه ان يفسح لهم الطريق وإلا هاجموه . هكذا جرت الحال منذ زمن بعيد . ولذلك اعتاد القوزاق أن يذهبوا بالعربات الى محطة القطار جماعات ، فلا يخشون عندئذ ملاقاته الاوكرانيين في السهب وتبادل السباب :

- أنت يا خوخول! افسح لنا الطريق! أظن أنك تستطيع أن تحيا على أرض القوزاق ، ياخنزير ، ولا تدعهم يمرون!

ولم يكن الاوكرانيون ، الذين كانوا يضطرون لنقل حبوبهم بالعربات الى سايلو الحبوب في بارامونوفو على الدون ، في حال يحسدون عليها . اذ كانت المعارك تنشب لا لشيء إلا لأنهم «خوخول» ، ومتى ماكان الرجل «خوخول» صار من الواجب إشباعه ضرباً .

فمنذ عدة قرون ، بذرت يد ماهرة بذور الحقد الطائفي في أرض القوزاق ، وتعهدها بعناية ، وأنتجت البذرة ثماراً كبيرة . وسالت الأرض بالدم المسفوك في هذه المعارك بين القوزاق والقادمين الجدد من أوكرانيا وروسيا .

بعد حوالي أسبوعين من معركة الطاجونة وصل الى القرية ضابط شرطة المنطقة يصحبه مفتش . كان شتوكمان أول من استجوب . فسأله المفتش ، وهو موظف شاب من نبلاء القوزاق ، فيما كان ينبش في حقيبته اليدوية ،
- اين كنت تعيش قبل مجيئك هنا ؟

- في روستوف .

- لماذا سجنك عام ١٩٠٧ ؟

فانحدرت عينا شتوكمان عبر حقيبة المفتش ورأسه المنحني ذي مفرق الشعر المتقشر .

- للإخلال بالنظام .

- ههم... اين كنت تعمل آنذاك ؟

- في ورشة السكة الحديد .

- أي عمل ؟

- ميكانيكي .

- لست يهودياً ، أليس كذلك ؟ أم يهودي متنصر ؟

- كلا . فأنا أعتقد...

- لا يهمني ما تعتقد . هل كنت في المنفى ؟

- نعم كنت .

رفع المفتش رأسه ، وعرض شفتيه عديمتي الشارب كثيرتي البثور وقال :

- أنصحك بمغادرة هذه المنطقة - ثم أضاف قائلاً لنفسه : - سأقوم بهذه

المهمة أنا نفسي على كل حال .

- لماذا ، أيها المفتش ؟

وكان الجواب سؤالاً آخر :

- ماذا قلت للقوزاق يوم معركة الطاحونة ؟

- حسناً...

- طيب ، يمكنك ان تذهب .

خرج شتوكممان الى شرفة بيت مخوف (اذ كانت السلطات تتخذ من بيت مخوف مقراً لها على الدوام) والقى نظرة سريعة على الأبواب المزدوجة المطلية ، وهز كتفيه .

٧

جاء الشتاء وثيداً . وذاب الثلج بعد عيد الشفاعة وأخرجت القطعان الى المراعي من جديد . وظلت ريح جنوبية تهب طوال أسبوع ، فأشاعت الدفء في الأرض ، وانبعث من خضرة متأخرة قمينة آخر وميض لامع في السهب . واستمر الذوبان حتى عيد القديس ميخائيل ، ثم عاد الصقيع ، وسقط ثلج غزير ، وصار الصقيع يزداد قوة ، وطبقة الثلج سماكة يوماً بعد يوم وتركت أقدام الأرانب آثاراً متقاطعة على حقول الخضار الفارغة الى جانب الدون حيث تكوم الثلج حتى أعالي الأسيجة . وأصبحت الشوارع مقفرة . علق الدخان ، المنبعث من الجبل ، خفيضاً فوق القرية ، ومضت طيور الزاغ تنقر في كومات الرماد المبعثرة على جانب الطريق . وتلوى خلال القرية أثر الزحافات الناعم على شكل شريط أزرق رمادي باهت . كان هناك اجتماع عقدته القرية لتنظيم توزيع الدغل وقطعه . فاحتشد القوزاق حول درجات عتبة إدارة القرية وهم في فرواتهم ومعاطفهم الثقيلة وجزماتهم اللبادية تصر في الثلج ، الى أن دفعهم البرد الى الداخل . وتجمع شيوخ القرية الوجهاء بلحاهم الفضية خلف المنضدة ، والى جانب الايمان والكاتب . أما القوزاق الشبان ، ذوو اللحى المخالفة الألوان ، والحليقون ، فقد تحلقوا جماعات ، وجعل الواحد يتمتم للآخر من وراء ياقات معاطفهم الدافئة . وكان الكاتب يملأ الصفحة تلو الصفحة بكتابة متلاصقة ، فيما كان الايمان يراقبه عبر كتفه ، وثمة طنين مكتوم يملأ الغرفة الباردة .

- كان العشب هذا العام...

- اي نعم ، عشب المروج جيد ، لكن عشب السهب كله برسيم .

- في الأيام الخوالي كانوا يرعون في السهب حتى حلول عيد الميلاد .

- كان ذلك حسناً بالنسبة للكالميكيين .

نذّ سعال مبحوح .

- إن للأتمان رقبة كرقبة الذئب ، سميئة بحيث لا يستطيع أن يدير

رأسه .

- يطعم نفسه كالخنزير ، هذا الشيطان!

- أيها الجد ، تحاول أن تهزم الشتاء عنك ؟ يالها من فروة هذه التي

عليك!

- آن الأوان لكي يبيع الغجري معطفه عما قريب .

- هل سمعت بحكاية الصبي الغجري الذي قضى ليلة في السهب دون أن

يكون عليه غطاء سوى شبكة صيد ؟ وحينما بدأ البرد يزحف حول

مصارينه ، استيقظ ، ودفع أصبعه في ثقب الشبكة وقال لأمه - « اذن فمن هنا

يأتي التيار . ظننت أن الدنيا باردة » .

- أخشى أن تحل علينا بضعة أيام زلقة عما قريب .

- يحسن أن أنعل الثيران .

- كنت أقطع أشجار الصفصاف في « أخدود الشيطان » . شيء نفيس .

هناك .

- زرر سروالك ، يا زاخار . لئن أصاب الصقيع... ما خلفه ، فستقذف بك

زوجتك خارج الدار .

- ما هذا الذي أسمعه ، يا افدييتش ، من انك ستضع يدك على واحد من

الثيران المشاعة ؟ *

* الثيران المشاعة : لعل المقصود بذلك ثيران السفاد وهي الثيران الأكثر فعولة التي تربي للتناسل . المترجمون

ي : « انني أرملته ، وكلما كثرت الشيران كثر المرح » . وأنا قلت لها
(حسناً ، لعله يضيف فرداً جديداً الى العائلة)...

- ها - ها - ها!

- والآن ، أيها السادة الشيوخ! ماذا عن قطع الخشب ؟ هدوء! يا من
سناك!

- قلت لها نعم ، لكن أضفته الى عائلتك فستحتاجين الى اشبين...

- قليلاً من الهدوء ، رجاء!

وبدا الاجتماع . تلا الأتمان الأسماء ، وهو يعبث بعصاه الرسمية
يقطف خيوط الجليد المدلاة من لحيته بإصبعه الصغير ويتصاعد البخار منه
ومن حين لآخر كان الباب يصفق في مؤخرة الغرفة فينحشر الناس وسط
سحائب من الهواء البارد . وتتناهى أصوات تمخط الأنوف .

وقال إيفان توميلين محاولاً أن يطغى بصياحه على صوت الاتمان : « لا
يمكنك أن تحدد يوم الخميس لقطع الأخشاب! » ودعك أذنيه الأرجوانيتين
مائلأ رأسه الذي انداحت عنه قبعة المدفعية الزرقاء .

- لم لا ؟

فصاح أحدهم :

- ستخلع أذنك ، أيها المدفعي!

- سنخيظ له أذني ثور!

- يوم الخميس سيخرج نصف القرية لجلب التبغ . إن هذا لعمرى

سلوب طيب لتنظيم الأمور...

- يمكنك أن تؤجل ذلك الى يوم الأحد!

- أيها السادة الشيوخ!

- ماذا ، الآن ؟

وارتفعت صيحة استهزاء من الجمع .

فانحنى العجوز ماتفي كاشولين عبر المنضدة المتداعية ، ونعق هائجاً وهو يشير ناحية توميلين بعصاه الملساء المقطعة من شجرة الردار .

- يستطيع التبن أن ينتظر! القرار لمجتمع القرية . إنك دائماً ضد جميع الآخرين . أنت أحمق صغير ، يا ولدي! وهذا هو كل ما هناك!

فتدخل أليكسي الأقطع وخذه المشوه يختلج وطرف بعينه ورفع رأسه بين الصفوف الخلفية ، قائلاً : « لا عقل لك تتباهى به ، على أية حال ، وأنت عجوز » . منذ ست سنوات وهو يتخاصم مع كاشولين على قطعة من أرض ، وفي كل ربيع كان يضربه ضرباً موجعاً ، بالرغم من أن القطعة لم تكن بأية حال لتتسع الأرجحة قطرة .

- صه ، يا ذا الوجه الهلامي!

فتهدده أليكسي :

- من المؤسف أنك أبعد من متناول يدي ، والا أدميت لك أنفك!

- آه ، يا أرعص الوجه يا أبتري!

- والآن ، كفى تناهزاً .

تعالوا الى الخارج إن كنتم تريدون تجربة قوتكم .

- كفى يا أليكسي . ألا ترى العجوز قد انتصب شعر رأسه ذعراً ،

ستسقط عنه قبعته بعد دقيقة .

- ضعهما في زنزانة البوليس إن لم يسلكا سلوكاً حسناً .

وأنت المنضدة حينما هوى عليها الأتمان بقبضته .

- صه! سأنادي الحارس في الحال إن لم يعم السكوت . وبعد أن عادت

الأمر الى نصابها ، أضاف :

- البدء في قطع الأخشاب فجر يوم الخميس .

- حسناً ، ما قولكم ، أيها السادة الشيوخ ؟

- حظاً سعيداً!

- على بركة الله!

- إنهم لا يصغون الى الشيوخ ، هذه الأيام!

- سوف يصغون ، على أية حال . أیظنون أنهم قادرون على اتيان ما يريدون ؟ فهذا الكساندر ، ابني ، حينما أعطيته حصته أراد أن يشرع بالعراك عليها ، وتجاسر عليّ بالضرب ، أي نعم . لكنني أعدت إليه صوابه . قلت له «سوف أذهب الى الاتمان والشيوخ في الحال ، وأجعلهم يجلدونك» . كان هذا كفيلاً بتهدئته .

ورفع أتمان القرية صوته ولوى رقبتة ، إذ كانت ياقة بزته الصلبة تحز دقنه .

- لقد حصلنا أيها السادة الشيوخ على أمر أتمان المنطقة ، على الشباب أن يذهبوا يوم السبت القادم الى دائرة أتمان المنطقة ، لأداء القسم . عليهم أن يكونوا هناك بعد الظهر .

كان بانئتلاي بروكوفتش يقف عند أقرب نافذة الى الباب ، رافعاً ساقه العرجاء كطير الغرائيق ، والى جانبه كان ميرون غريغوريتش قاعداً على إفريز النافذة وهو يبتسم تحت لحيته الحمراء ، وكانت فروته مفتوحة . وأهدابه الشقر القصيرة يشوبها صقيع أبيض ، ونمشه الأسمر الكبير قد حال لونه رمادياً من أثر البرد . وتجمع قربهما شباب القوزاق يتغامزون ويبتسمون فيما بينهم ووقف وسط الجمع افدييتش سينيلين متمائلاً على أصابع قدميه . وكانت قبعته ، ذات السطح الأزرق وشرائط فضية مسرحة الى الوراء فوق رأسه الأصلع الأملس ، ووجهه الذي لا يشيخ متورداً أبداً . كأنه تفاحة شتوية حمراء . كان افدييتش وبانئتلاي بروكوفتش في سن واحدة .

كان افدييتش قد خدم في حرس الاتمان الخاص ، وعاد يحمل كنية «الكذوب» . وكان أول من اختير من القرية لكتيبة الاتمان* . كان في فتوته لا

* وهو الحرس القيصري . إذ كان الاتمان من ألقاب القيصر . المترجمون

يتميز عن الفتيان الآخرين سوى أن عقله كان غريب الأطوار نوعاً ما ، فقد وقع له شيء غريب أثناء الخدمة الفعلية . ومنذ يوم عودته شرع في رواية قصص مذهلة عن خدمته في البلاط ومغامراته العجيبة في بطرسبرغ . وقد صدقه سامعوه المندهشون في البداية ، وهم يكرعون حكاياته بأفواه فاغرة ، ثم اكتشفوا أن افديتش كان أكبر كذاب ولدته القرية في تاريخها ، وصاروا يضحكون منه صراحة . لكنه لم يكن ليستحيي (وإن كان أحمر الوجه دائماً بحيث لا يستطيع المرء أن يتبين إن كان أحمر خجلاً أم لا) ولم يتخل عن الكذب . وحينما تقدمت به السن صار يتضايق إذا ما انفضحت كذبة له ، فيلجأ الى استعمال قبضتيه . أما إذا ضحك سامعوه ولم يقولوا شيئاً توسع أكثر فأكثر في رواية قصصه .

أما من ناحية عمله في الحقل ، فقد كان قوزاقياً نشطاً مجداً ، يتصرف في كل الأمور بصورة معقولة ، وأحياناً بدهاء ، ولكن ما إن يعرج الموضوع على خدمته في الحرس حتى ينشر كل إمري ذراعيه ويقعد القرفصاء من الضحك .

وقف افديتش وسط الجماعة متمائلاً وعلق ، وهو يجيل بصره في القوزاق المجتمعين ، بصوته الخفيض الغليظ قائلاً :

- بالمناسبة ، القوزاق في هذه الأيام ليسوا كما كانوا من قبل قط . ليسوا سوى روبيان قميء لا تكاد العين تراه . تستطيع أن تشق أياً منهم الى نصفين بمجرد أن تعطس عليه . لكنني... - بصق على الأرض وابتسم بازدراء - رأيت بعض هياكل عظمية لقوزاق ، ذات مرة . آه! كان القوزاق قوزاقاً في تلك الأيام!

فسأله انيكوشكا ذو الوجه الناعم وهو يلکز جاره :

- وأين نبشت تلك الهياكل العظمية ، يا افديتش ؟

وقال بانتلاي بروكوفتش ، مجعداً أنفه وشاداً على قرطه :

« لا تبدأ برواية إحدى أكاذيبك ، يا افديتش ويوم العيد المقدس على

الأبواب » ، إذ لم يكن يحب عادة افديتش في المبالغة .

فأجاب افديتتش برزانة ، وهو يحملق مستغربا في انيكوشكا الذي كان يرتعش كما لو أصابته حمى :

- ليس من طبيعتي الكذب ، أيها الأخ . رأيت تلك الهياكل حينما كنا نبني داراً لزوج أختي . اذ بينما كنا نحفر الأساس وصلنا الى قبر . لا بد ان مقبرة كانت هناك في الأيام الغواير ، بجانب الكنيسة ، على ضفة الدون . فتساءل بانتلاي بروكوفتش بلهجة تنم عن عدم رضى وهو يتهياً للذهاب : « طيب وكيف كانت الهياكل ؟ » .

فقال افديتتش ناشراً كل ذراعيه الشبيهتين بالمجرقة : « الاذرع ، بهذا الطول . الرأس بحجم القزان . كلامي صحيح كحقيقة وجودي حياً ! » . فاقترح ميرون وهو يقوم من افريز النافذة ويزرر فروته : « خير لك أن تخبر الشباب كيف قبضت على لص في سانت بطرسبرغ » . فأجاب افديتتش وقد اعترته موجة مفاجئة من التواضع : « ليس هناك ما يستحق الرواية » .

- أخبرنا يا افديتتش!

- نرجوك يا افديتتش!

- شرفنا بحكايتك!

- حسناً ، كان الأمر كالاتي ، - ونظف افديتتش بلعومه وأخرج كيس تبغه من جيب بنطلونه . وأعاد قطعتي النقود النحاسيتين اللتين سقطتا من الكيس ، وصب قبضة من التبغ في راحته ، وأجال عيناً متألقة في سامعيه . - كان أحد الأوغاد قد فر من السجن . بحثوا عنه في كل أرجاء المنطقة . ولكن أظنون أنهم استطاعوا أن يجدوه ؟ لا ، لم يقدروا . وباءت السلطات جميعاً بالفشل . حسناً ، ذات ليلة ، يدعوني ضابط الحرس بقتة ويقول : « اذهب الى القصر الامبراطوري . فالقيصر نفسه يدعوك » . فذهبت متهياً . وقفت للامبراطور وقفة استعداد ، فإذا به يربت على كتفي ويقول : « اسمع يا إيفان افديتتش ، لقد فر وغد من مملكتنا . اعثر عليه ، حتى لو اضطررت

الى الوقوف على رأسك في سبيل ذلك . ولا تدعني أراك حتى تكون قد أنجزت مهمتك!» فقلت له : «سمعاً وطاعة ، يا صاحب الجلالة الامبراطور!» اجل ، يا أولاد ، تلك كانت قضية عسيرة... وعلى ذلك أخذت ثلاثة من أحسن ما في اصطبلات القيصر من خيل ، وانطلقت . - تفحص افدييتش رؤوس مستمعيه المطأطة وهو يشعل سيكارة ، وانطلق هادراً وسط سحابة الدخان التي كانت تغلف وجهه وقد ازداد حماسه : - مضيت على صهوة الجواد طوال النهار ، طوال الليل ، حتى التقيت في اليوم الثالث بالوغد على مقربة من موسكو . اقتنصت ذلك الطير وقذفت به داخل عريتي ، وجررتة عائداً الى سانت بطرسبرغ . وصلت في منتصف الليل ، وأنا مغمور بالوحل ، ذهبت مباشرة الى صاحب الجلالة الامبراطور نفسه . حاول كل أصناف الأمراء والكونتات أن يمنعوني ، لكنني مضيت ، أي نعم... طيب ، طرقت الباب . «هل لي أن أدخل يا صاحب الجلالة الامبراطور؟» . «من أنت؟» . «هو أنا ، إيفان افدييتش سينيلين» فسمعت ضجة في الغرفة ، وسمعت جلالته نفسه يصرخ : «ماريا فيودوروفنا! ماريا فيودوروفنا! انهضي بسرعة وأعدي سماورا ، فقد وصل إيفان افدييتش» .

انبعث زئير من الضحك من القوزاق السامعين ، وتوقف الكاتب في منتصف جملة ، وكان يقرأ آنذاك إعلاناً عن الماشية السائبة ، ومد الايمان رقبته كأوزة ، وحملق مغضباً في المجمع المقهقه . غام وجه افدييتش ، وسحب بطرف قبعته ، وجالت عيناه بحيرة في الوجوه المائلة أمامه ، وقال : «انتظروا لحظة!» .

- ها - ها - ها!

- أوه ، إنه سيميتنا!

- اواه يا افدييتش! اواه يا ابن الكلب!

- «أعدي سماوراً ، فقد وصل افدييتش!» ها - ها - ها!

بدأ الاجتماع ينفض . وارتفع صرير مستديم من الدرجات المتجمدة

لمنزل الإدارة . وعلى الثلج الذي وطأته الأقدام في الخارج ، كان ستيبان استاخوف وقوزاقي طويل القامة والساقين ، وهو صاحب الطاحونة الهوائية ، يتصارعان ليدفنا نفسيهما . فتحلق القوزاق حولهما يسدون لهما الإرشادات بجلبة وصياح .

- اطرحه أرضاً ، هذا الزنديق! اقلع أحشاءه ، ياستيبان!
وصاح كاشولين العجوز وهو يتوانب هنا وهناك كالعصفور : « لا تمسكه من هناك! أظن أنك فطين! » وفي غمرة حماسة ، فاته ان يلحظ قطرة كبيرة لامعة ، تتدلى باستحياء من ذؤابة أنفه المزرق .

٨

حينما عاد بانتلاي بروكوفتش من الاجتماع ذهب في الحال الى الغرفة التي يشغلها هو وزوجته ، فايلينشنا متوعدة منذ بضعة أيام ، ويعكس وجهها المتورم كلالها وألمها . كانت مستلقية على فراش ريشي سميك وقد أسند ظهرها بوسادة لينتصب مستقيماً . وحينما سمعت وقع أقدام بنتلاي بروكوفتش أدارت رأسها نحوه ، فاستقرت عيناها على لحيته التي رطبها أنفاسه ، وعلى شاربيه المتلبدين ، وغشيت نظرها قساوة صارت عادة ملازمة لها ، واختلج منخراها . لكن الشيخ لم تنبعث منه سوى رائحة الصقيع والفروة الحامزة ، فقالت لنفسها : « انه صاح اليوم » ، وهي تستشعر الرضا ووضعت على بطنها السمين إبرة الحياكة والجورب الذي لم تنجز حياكته .

- حسناً ، ماذا عن قطع الأخشاب ؟

- قررروا أن يبدأ يوم الخميس - ومسد شاربه ، وكرر وهو يجلس فوق صندوق الى جانب السرير : « في يوم الخميس صباحاً » ثم أضاف : « أتشعرين بأي تحسن ؟ » .

غام وجه ايلينشنا وقالت :

- كالسابق . آلام قاتلة في كل مفاصلي .

استاء بانتلاي بروكوفتش وهو يرسم بعصاه دوائر واسعة على الأرض :
- قلت لك ألا تدخل في الماء يا حمقاء . وفي الخريف أيضاً! كنت
تعرفين ما سيصيبك . كان هناك العديد من النساء بوسعهن أن ينقعن ذلك
القنب عليه اللعنة... على جميعه اللعنة! أواه يا رب!
- لم يكن بوسعي أن أدع القنب يتلف . لم يكن هناك نساء . فغريشا
كان يحرق مع امرأته ، وبيوتر وداريا خرجا الى مكان ما .
فنفخ العجوز في كفيه المضمومتين على شكل قدح ، ومال على
السريـر .

- وكيف حال ناتاليا ؟

وحين أجابت ايلينشنا كان ثمة نبرة قلق في صوتها :
- لا أدري ما العمل . عادت تبكي من جديد قبل أيام . خرجت الى
الفناء فوجدت أن أحدهم ترك باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه . مضيت
لأغلقه ، فوجدتها واقفة الى جانب مستودع الدخن . سألتها عما حدث ، بيد
أنها قالت إنها تشعر بالصداع وحسب . أنا لا أستطيع أن أقف على الحقيقة
منها .

- لعلها مريضة ؟

- كلا . سألتها . إما أنها أصيبت بالعين . أو اختلفت مع غريشا...

- لعله لم يستأنف علاقته بتلك المرأة بشكل من الأشكال ؟

فهمت ايلينشنا وهي تلوح بذراعيها في ذعر :

- يا إلهي ، لا! ما هذا الذي تقول ؟ ماذا تظن ستيبان... أحرق ؟ كلا ،

أنا لم ألاحظ شيئاً من هذا القبيل .

جلس العجوز الى زوجته قليلاً ، ثم خرج .

كان غريغوري في غرفته يسن صنارات الصيد بمبرد . وكانت ناتاليا
تدهنها بشحم الخنزير وتلف كل واحدة منها في خرقة بعناية . وحينما مر

بانتلاي بروكوفتش بها وهو يعرج ، حدجها متفحصاً . كان خذاها الشاحبان متوردين كورقة خريفية . لقد أمست أكثر نحولاً ، بصورة جلية ، خلال الشهر الأخير ، وكانت في عينيها نظرة بانسة لم يألّفها من قبل ، فتمهل العجوز عند الباب ، وقال لنفسه فيما نظر وراءه الى رأس ناتاليا الناعم المنحني فوق المصطبة : «إنه يقتل البنت!» .

كان غريغوري جالساً على مقربة من الشباك ، وكانت ناصية شعره الشعثاء السوداء تهتز لكل شحذة مبرد .

صاح العجوز وقد قتم وجهه بسورة غضب مفاجيء : «دع هذا ، ليأخذ الشيطان روحك!» وشد على عصاه لكي لا يضرب ابنه فاهتز غريغوري ورفع نظره مندهشاً .

- لدي سنّان آخران أشحذهما ، يا أبتاه .

- دعه ، قلت لك! استعد لقطع الأخشاب .

- حالاً .

ثم أضاف العجوز بلهجة أهدأ :

- الزحافات غير معدة مطلقاً ، وأنت جالس تسن الصنارات . - وتلكا

عند الباب إذ كان واضحاً أنه يريد أن يقول شيئاً آخر . لكنه خرج . وسمعه غريغوري ينفث بقية غضبه على بيوتر .

بينما غريغوري يرتدي معطفه سمع أباه يصيح في الحوش :

- ألم تروى الماشية بعد ، أيتها الكسول! ومن عبث بكومة التبن بجانب

السياج ؟ ألم أقل ألا تمسوها ؟ ستأتون على كل التبن الجديد ، لعنة الله

عليكم ، فماذا ستطعمون الثيران في الربيع أثناء الحراثة ؟

في يوم الخميس ، وقبل ساعتين من بزوغ الفجر ، أيقظت ايلينشنا

داريا : «انهضي! حان وقت إشعال النار!» .

فجرت داريا في قميص نومها الى الموقد ، ووجدت بعض عيدان

الثقاب ، وأشعلت واحدة .

استحث بيوتر زوجته ساعلاً وهو يشعل سيكارة : « تحركي ! »
فمحمت داريا بامتعاظ وهي لما تزل نصف مستيقظة : « لا يذهبون لإيقاظ
ناتاليا تلك . يشفقون عليها بينما هي نائمة بلا حياء . هل ينبغي علي أن
أقطع نفسي نصفين ؟ » فنصحها بيوتر : « اذهبي وأيقظيها بنفسك » . لكن
النصيحة كانت غير ضرورية ، إذ أن ناتاليا قد استيقظت سلفاً ، وخرجت
لتحضر الوقود للنار وهي ترتدي بلوزتها .

فقالت عديلتها أمرة : « اجلبي بعض الحطيبات » .

وصاحت ايلينشنا بصوت مبحوح وهي تمشي في المطبخ ذهاباً وإياباً
بمشقة : « أخبري دونيا أن تجلب الماء ، يا داريا ، أسمعين ؟ » .

وانبعثت من المطبخ رائحة حشائش الدينار الجديدة ، وعدة الخيل
ودفء الأجسام البشرية . وتنقلت داريا هنا وهناك بجزمته اللبادية . وهي
نقططق بالأواني ، ونهداها الصغيران يرتعشان تحت قميصها الوردى بأكمامه
المشمرة ، إذ لم تفسد جسمها الحياة الزوجية ولا أذبلته . وكانت تبدو
كفتاة يافعة ، طويلة ، هيفاء ، لدنة كعود الصفصاف . كانت تمشي هازة
كتفيتها ، وتضحك من صياح زوجها ، فيتكشف صف راسخ من الأسنان
لمتراصة تحت الحافة الرقيقة لشفتيها الشرهتين .

ودمدت ايلينشنا بامتعاظ : « كان عليك أن تجلبي خشباً للوقود قبل
ليلة ، إذن لكنت قد جفت في الموقد » .

فأجابت داريا : « نسيت يا أماء . لا حيلة لي في ذلك » .

تنفس الفجر أثناء إعداد الطعام ، فأسرع بانتلاي بروكوفتش في إفطاره
وهو ينفخ في العصيدة . وأكل غريغوري العابس ببطء واكتئاب ، وعضلات
كيه تختلج صاعدة هابطة ، وتسلى بيوتر ، دون أن يلاحظه أبوه ، بإغاظة
ونيا التي كانت تعاني من وجع الأسنان وقد ربطت وجهها برباط .

كان صوت مزلق الزحافات يصل من الشارع . وكانت زحافات الثيران
مضبي نازلة الى النهر في الفجر الرمادي . خرج غريغوري وبيوتر لشد الخيل

الى زحافتيهما . وفيما كان غريغوري خارجاً لف حول رقبتة لفاحاً ناعماً ، وهو هدية عروسته قبل الزواج ، وكان يتنفس بنهم في الهواء الزمهرير الجاف . وطار غراب فوق الفناء مطلقاً صرخة قوية . وكان بالامكان سماع حفيف جناحيه الخافقين على مهل ، بصورة واضحة خلل السكون الصقيعي . راقب بيوتر طيرانه وعلق قائلاً : « يطير الى الجنوب ، الى الدفء » .

ومن وراء غيمة وردية صغيرة ، مرحة كابتسامة صبية ، تلالأت بخفوت شقفة صغيرة من القمر . وارتفع الدخان من المداخل ، أعمدة مستقيمة منطلقاً من صوب النصل الذهبي المدبب ، النائي المنيع ، للقمر الأفل .

لم يكن النهر متجمداً تماماً قبالة دار ميلخوف . وعلى امتداد حافتي المجرى كان الجليد قوياً أخضر تحت الثلج المنجرف . وتحت الجليد تقبب وتتفقا الفقاقيع ، ولكن ماوراء الوسط حيث انسابت العيون بالقرب من الضفة اليسرى ، كانت ثمة ثغرة فاخرة فاها ، مرعبة داكنة وسط البياض المتآكل . وكان الماء مرقطاً بالبظ البري الذي يقضي شتاءه هناك .

بدأ الطريق الى النهر من ميدان القرية . مضى بانتلاي بروكوفتش أولاً بالثورين الكبيرين تاركاً ولديه ليلحقا به فيما بعد . وعلى المنحدر ، عند تقاطع النهر ، لحق بيوتر وغريغوري بأنيكوشكا الذي كان يمشي الى جانب ثيرانه ، ومقبض فأس جديدة يبرز من زحافته ، وكان مرتدياً نطاقاً عريضاً أخضر ، بينما كانت زوجته القميئة المعلولة تمسك بالأعنة . صاح بيوتر عليه من بعيد :

- أيها الجار ، لا بد أنك أخذت امرأتك معك ؟

فابتسم انيكوشكا ، وهو يتوثب ليحتفظ بدفنه ، ومضى الى الأخوين .

- أخذتها لكي تدفني

- لن تكسب منها دفناً ، فهي هزيلة جداً .

- هذا صحيح . أنا أطعمها الشوفان ، ومع ذلك فهي لا تسمن !

وتساءل غريغوري قافزا من الزحافة :

- هل ستقطع الخشب في الموضع نفسه ؟

- أجل ، إذا أعطيتني سيكارة .

- لقد كنت طول عمرك تحب العيش على حساب الآخرين .

فقهقه انيكوشكا قائلاً ، مجهداً وجهه الأنثوي الحليق بابتسامة :

- أحلى الأشياء في الحياة مايسرق ويُستجدى .

ومضى الثلاثة معاً . كانت الغابة موشاة بالصقيع الناصع ، وذات بياض

عذري . ركب انيكوشكا في المقدمة ضارباً بسوطه الأغصان فوقه فراحت

بلورات الثلج المدببة تزخ على رأس زوجته .

فصاحت به وهي تنفض الثلج عنها : « لا تعبت ، أيها الشيطان ! » .

فقال بيوتر ناصحاً ، وهو يحاول أن يوصل سوطه الى ما تحت بطن

الثور ليستحث الخطى : « ألقها في الثلج » .

التقوا بستيبان استاخوف ، عند أحد منحنيات الطريق ، وهو يسوق

ثورين مشدودين الى نير ، عائداً الى القرية . وكان النعلان الجلديان في

جزمته اللبادية يصرفان على الثلج فيما كان يمشي بخطوات واسعة وخصلته

المجعدة مدلاة تحت قبعة الفرو المائلة الى جانب كعنقود من العنب الأبيض .

صاح انيكوشكا ، أثناء مروره :

- هي ، ستيبان ، أضللت طريقك ؟

- اللعنة على ضلال الطريق ! اصطدمت العربّة بجذع شجرة فانشطر

حديد الزحافة الى نصفين . ولذا يتعين عليّ أن أعود .

وصب ستيبان سيلاً من السباب البذيء ، وضاعت عيناه الفاتحتان

الشقيتان حينما مر بيوتر .

فسأله انيكوشكا متلفتاً : « خلفت زحافتك وراءك ؟ »

فتجاهل ستيبان السؤال ملوحاً بيده ، ثم رفع سوطه على الثيران التي

كانت تحيد عن الممشى ، ورمق غريغوري بنظرة طويلة حينما مر به . وعلى

مبعدة قليلة وصلت الجماعة الى زحافة متروكة في وسط الطريق . وكانت

اكسينيا تقف الى جانبها ، تشخص ببصرها على امتداد الطريق في اتجاههم ،
وهي تمسك طرف فروتها بيدها اليسرى .
فزأر انيكوشكا :

- تنحي عن الطريق وإلا سحقتك . ها - ها ، أنت التي تصلحين زوجة لي !
فتنحت اكسينيا جانباً وهي تبتسم ، واقتعدت فوق الزحافة المكسورة .
- ها هي زوجتك تجلس معك .

- أجل إنها تلتصق بي مثلما تلتصق شوكة بذيل خنزير ، والا
لأوصلتك .

- شكراً جزيلاً ،

وحينما وصل بيوتر اليها ألقى نظرة سريعة الى الوراء نحو غريغوري .
أما غريغوري فكان يبتسم متردداً ، والاضطراب والترقب ظاهران في كل
حركاته . حياها بيوتر وهو يمس قبعته بقفازه غير المصبع ،
- أتمنى أن تكون صحتك طيبة ، أيتها الجارة .
- الحمد لله .

وسألها بيوتر :

- ماذا ، الزحافة مكسورة ؟

فأجابت ببطء دون أن تنظر الى بيوتر : « نعم ، إنها كذلك »
واستدارت صوب غريغوري وهي تنهض على قدميها وقالت حينما
اقرب منها : « غريغوري باتتلايفش ، لي كلمة معك » .
إستدار غريغوري إليها قائلاً لبيوتر :

- راقب ثيراني .

- ها - ضحك بيوتر ضحكة ذات مغزى ، ومضى وهو يعض على طرف
شاربه المرير الطعم من دخان التبغ .

وقف الاثنان في صمت أحدهما قبالة الآخر . تلفتت اكسينيا حولها
بقلق ثم أدرات عينيها الشفافتين السوداوين نحو وجه غريغوري من جديد .

كان الخجل والفرح يلتهبان في خديها وقد أيبسا شفتيها . وصارت أنفاسها شهقات حادة .

وعند أحد منحنيات الطريق ، اخنفي بيوتر وانيكوشكا وراء جذوع البلوط البنية اللون . نظر غريغوري مباشرة في عيني اكسينيا ورأى فيهما شرارة داعية جريئة .
وقالت بثبات :

- حسناً يا غريشا ، افعل ما تشاء ولكنني لا أستطيع الحياة بدونك ، - وضغطت شفتيها معاً منتظرة جوابه .

لم يجب غريغوري . كان الصمت مطبقاً على الغابة . ورن فراغ زجاجي في أذنيه . سطح الطريق اللامع الصقيل بفعل مزالق الزحافات ، خرقة السماء الرمادية ، الغابة ، خرساء ، وسنانة ، موات... وانبعثت صرخة مفاجئة لغراب قريب بدت كأنها أيقظت غريغوري من سباته الطارىء . فرفع رأسه وراقب الطير الأسود المزرق يخفق بجناحيه مودعاً مبتعداً في طيران صامت . وأصابته الدهشة حين سمع نفسه يقول : « سيصبح الجو دافئاً . إنه يطير صوب الدفء » . وبدا كأنه ينفض نفسه ، فضحك بصوت أجش . « حسناً » . وأدار عينيه الثمليتين خلصة الى اكسينيا ، وفجأة جذبها إليه .

٩

في أمسيات الشتاء اعتادت جماعة صغيرة من القرويين أن تلتئم في غرفة شتوكمان بمنزل لوكيشكا . كان بينهم كريستونيا ، و« ولد » الطاحونة وقد تدلت سترة ملطخة بالدهان على كتفيه ، ودافيد دائم الابتسام (الذي أمضى حتى الآن ثلاثة أشهر في التسكع) ، ومشغل الماكنة ، إيفان كوتلياروف ، وأحياناً فيلكا الاسكافي ، ودائماً ميشا كوشيفوي وهو قوزاقي شاب لم يؤد بعد خدمته العسكرية النظامية

في البدء ، كانت الجماعة تلعب الورق . ثم أحضر شتوكمان عن غير طريق المصادفة كتاباً يضم شعراً لنيكرا سوف . وبدأوا يقرأون الكتاب بصوت مسموع ، وأحبوه . ثم انتقلوا الى نيكيتين ، وقبل عيد الميلاد اقترح شتوكمان قراءة كتيب مثنى الزوايا ، غير مجلد . فنظر كوشيفوي باحتقار الى الصفحات المدهنة ، وكان قد تخرج من مدرسة الكنيسة وفي مقدوره أن يقرأ بصوت عال . وقال :

- تستطيع أن تصنع منه شعرية ، إنه مدهن جداً .

فزأر كريستونيا بالضحك ، وابتسم دافيد ابتسامة مشرقة لكن شتوكمان انتظر حتى خبا المرح ، ثم قال :

- إقرأه ، ياميشا . إنه ممتع . كله عن القوزاق .

فأمال كوشيفوي رأسه بذؤابته الشقراء فوق المنضدة وقرأ مقطعاً الكلمات : « موجز تاريخ قوزاق الدون » ، ثم أجال بصره على الجميع مضيقاً عينيه في انتظار . وقال له إيفان الكسييفتش : « اقرأ » . وانكبوا على الكتاب ثلاث أمسيات ، يقرأون عن الحياة الطليقة في الماضي ، عن بوكاتشوف وستنكا رازين وكوندراتي بولافين وأخيراً وصلوا الى العصور المتأخرة . وصب المؤلف المجهول ازدراء على حياة القوزاق البائسة ، وسخر من السلطات والنظام القائم ، وحكومة القيصر ، ومن النظام القوزاقي نفسه الذي جعل من القوزاق مسخرين تابعين للملوك . فسرت في السامعين موجة انفعال وجعلوا يتجادلون فيما بينهم . وتكلم كريستونيا بصوته الهادر ، ورأسه يلامس عمود السقف ، بينما جلس شتوكمان قرب الباب يدخن سيكارته بمبسم من العظم وعيناه تبتسمان .

انفجر كريستونيا :

- إنه على حق! كله صحيح!

- ليس ذنبنا إن ينزل هذا العار على القوزاق . - ونشر كوشيفوي ذراعيه في حيرة ، وجعد وجهه الوسيم ذا العينين الداكنتين . كان مكتئز البدن ،

عريض المنكبين والرذفين ، يكاد يكون مربع الشكل . ومن قاعدة جسده الحديدية ارتفعت رقبة راسخة حمراء بلون الطابوق ، بدا عليها رأسه الصغير المهيب غريباً عما يحيط به ، بوجنتيه الناعمتين الانثويتين ، وفمه الصغير العنيد ، وعينييه الداكنتين تحت الواجهة الذهبية لشعره المجعد . أما مشغل الماكينة كوتلياروف ، وهو قوزاقي نحيل طويل ، فقد كان غارقاً حتى العظم في تقاليد القوزاق ، وكانت عيناه الجاحظتان المستديرتان تومضان وهو يدافع عن القوزاق في نقاش عنيف مع كريستونيا :

- أنت تميل الى الفلاح ، يا كريستونيا ، وليس لديك سوى قطرة واحدة من الدم القوزاقي مقابل دلو من الماء . لقد تزوجت أمك فلاحاً من فورونيج .

فهدر كريستونيا :

- أنت أحمق ، أحمق ، أيها الأخ! أنا أدافع عن الحقيقة .

فقال كوتلياروف متخابثاً :

- لم أكن في الحرس الملكي . فكل من هناك أحمق .

- وهناك أشخاص ميؤوس منهم ، في بقية الجيش ، أيضاً .

- صه يا فلاح!

- أليس الفلاحون رجالاً بقدر ما أنت رجل ؟

- إنهم مصنوعون من قشور الأشجار ومحشوون بالدغل .

فقال كريستونيا ، ولهجته الجنوبية تبرز بقوة :

- حيمنّا كنت في بطرسبرغ ، أيها الأخ ، رأيت أشياء عديدة . حدث

ذات مرة أن كنا في نوبة حراسة في قصر القيصر ، من الداخل والخارج .

اعتدنا أن نمضي على خيلنا حول القصر ، اثنين من هنا ، واثنين من هناك .

وحين كنا نلتقي ، اعتدنا أن نسأل : «أكل شيء هادى» ، لا اضطراب في أي

مكان ؟» ثم نمضي . لم يكن يسمح لنا بالتوقف والكلام . لقد اختارونا

بسبب من ملامحنا . وحين كان علينا أن نأخذ نوبة حراستنا عند الأبواب

كانوا يختارون كل زوج منا بحيث يتشابهان في الوجه والقوام والشعر . حتى أن الحلاق اضطر ذات مرة أن يصبغ لحيتي بسبب هذه الحماقة . كان عليّ أن آخذ نوبة حراستي مع قوزاقي في سريتنا ، له لحية بلون الحصان الأحمر ، نوعاً ما . ليحل بي الطاعون إن كنت أدري من أين جاء بمثل تلك اللحية ، لابد أن ناراً لفحتها أو شيئاً من هذا القبيل . بحثوا في كل الكتيبة ولم يكن ثمة من يشبهه . وهكذا أرسلني آمر الرعيل الى الحلاق ليصبغ لي لحيتي وشاربي . ولما نظرت الى نفسي في المرأة فيما بعد ، كاد قلبي أن ينفطر . كنت أبدو كما كانت النار تلتهمني . صدقوني . كان لمس لحيتي كفيلاً بسلق أصابعي !

فقاطعه كوتلياروف :

- ها إنه يخرج عن الصد ، هذا المهذار العتيق ، ولكن عم كنا نتكلم ؟
- عن الناس .

- طيب فأخبرنا عنهم . ماذا ، بحق الجحيم ، عسانا نريد من سماعك أن تتحدث عن لحيتك !

- حسناً ، وكما كنت على وشك أن أقول . كان عليّ ذات مرة أن آخذ نوبة حراسة خارج القصر . كنا راكبين ، أنا ورفيقي ، حينما جاء غوغاء من الطلاب يركضون من منعطف القصر . كانوا محتشدين كأنهم ذباب ! وحالما رأونا زاروا : هاه ! مرة أخرى : هاه ! وقبل أن ندرك ما العمل أحاطوا بنا وسألنا أحدهم : « ماذا تفعلون ايها القوزاق ؟ » فقلت « نقوم بالحراسة ، وأنت أيها الفتى ، ارفع يدك عن الالعنة » ، وصفقت يدي على سيفي . فقال : « لا تسىء فهمي ، أيها القوزاقي ، فأنا أيضاً من منطقة كامنسكايا ، أدرس في الجامعة ، أو الجومعة » ، أو أي اسم تطلقون عليها . تهياناً للمضي ، فإذا بأحدهم ، كان ذا أنف كبير يخرج قطعة من فئة العشرة روبلات ويقول : « اشربنا نخب صحة والدي الميت » . ثم أخرج صورة من جيبه وقال : « انظر ، هوذا أبي . خذها تذكاراً » . حسناً ، أخذناها ، لم نستطع أن نرفض . ثم ابتعدوا وزاروا من جديد هاه ! واتجهوا نحو شارع

نيفسكي . وفي تلك اللحظة ، جاء ملازم أول خارجاً من بوابات القصر الخلفية على حصانه يصحبه رعييل من الرجال . صاح : « ماذا حدث ؟ » فأخبرته أن طلاباً قد أتوا وأحاطوا بنا وشرعوا يتحدثون إلينا ، وإننا أردنا أن نضربهم بالسيف حسب التعليمات ، ولكن بما أنهم تركونا فقد مضينا في طريقنا . وحينما أنهينا واجبنا فيما بعد ، أخبرنا نائب العريف أننا قد حصلنا على عشرة روبلات ونريد أن نشرب بها في ذكرى الرجل العجوز ، وأريناه الصورة . وفي المساء ، جاء نائب العريف بشيء من الفودكا ، فقضينا وقتاً طيباً طيلة يومين . لكننا اكتشفنا فيما بعد أين كانت الخدعة . إذ تبين أن هذا الطالب ، هذا السافل ، كان قد أعطانا صورة أكبر مشير للاضطرابات في ألمانيا . صدقته وعلقت الصورة فوق سريري للذكرى . كانت له لحية شهباء ، ويبدو رجلاً معتبراً . وأغلب الظن أنه من التجار . لكن الملازم الأول حين رآها سأل : « من أين حصلت على هذه الصورة ، يا ابن الحلال ؟ » فأخبرته ، فإذا به يسبني ويلكمني على وجهي : « أتعرف من هذا ؟ إنه أتمانهم كارل . » . اللعنة ، لقد نسيت اسمه ، هيا ، ما كان اسمه ؟ ...

فقال شتوكمان مبتسماً : « كارل ماركس ؟ »

فصاح كريستونيا جذلاً :

- هو ذاك ، كارل ماركس . لقد سبب لي متاعب ، حقاً . كان حتى ولي العهد اليكسي ومعلموه قد اعتادوا أن يدخلوا غرفة الحرس . فكان من المحتمل أن يروها . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟

فقهقه كوتلياروف :

- وتظل تمتدح الفلاحين ، كانوا سيشبعونك ضرباً .

- لكننا شربنا بالعشرة روبلات . ولو نخب كارل الملتحي ولكن شربنا!

فابتسم شتوكمان وهو يعبث بمبسم سيكارتته وقال :

- يستحق الشرب نخبه .

فتساءل كوشيفوي :

- لماذا ، أي خير فعل ؟

وأمسك شتوكمان المبسم بين أصابعه ، وقذف عقب السيكرة المدة
ربة من يده الأخرى .

بعد غريلة واختيار طويلين ، بدأت جماعة صغيرة قوامها عشرة قو
نمع بانتظام في ورشة شتوكمان . كان شتوكمان قلب الجماعة وروحها
ح يعمل بعناد في اتجاه هدف لم يدركه أحد غيره . كان ينخر
دركات والمفاهيم البسيطة كما تنخر دودة في الخشب ، يبتث النف
كراهية ضد النظام القائم . ووجد نفسه في البداية يواجه فولاذ الش
رد ، ولكن عزمته لم تكن لتثبط فحتى الشك يمكن أن يزال .

١٠

على المنحدر الرملي للضفة اليسرى للدون تقع قصبة فيشنسكايا ، أة
ببة في الدون الأعلى . كانت في الأصل تدعى تشيكوناتسكي ، ثم نق
موضع جديد بعد أن دمرت أثناء حكم بطرس الأول ، وسم
نسكايا . وكانت في السابق همزة وصل مهمة على الطريق المائي العظ
فورونيغ وآزوف .

مقابل فيشتسكايا ينحني الدون كقوس تتاري ، وينعطف بحد
سين ، وإلى جانب قرية بازكي الصغيرة يعود فيستقيم في جلال وروع
ملاً ماء الأزرق المخضوضر مروراً بالشعب الطباشيرية للتلال القائمة
ففة اليمنى ، ثم يمضي ، وعلى يمناه قرى متراصة ، وعلى يسراه قصب
اعدة ، منحدرأ نحو البحر ، نحو بحر آزوف الأزرق .

وفي اوست - خوبيرسكايا ، ينضم إليه رافده خوهر ، وفي أوست

كثبان رملية صفراء وهي مكان أجرد بانس لا بساتين فيه ، تقوم في ساحتها كنيسة قديمة ، رمادية من القدم ، وتمتد من الساحة ستة شوارع في خطوط موازية للنهر . وحيث ينحني الدون صوب بازكي تتفرع بحيرة بسعة الدون أيام الصيهور ، متوغلة في أجمة من شجر الحور . وينحدر طرف فيشنسكايا الى هذه البحيرة ، وفي ساحة أصغر تغطيها أشواك ناتئة ذهبية ، تقوم كنيسة ثانية ، ذات قباب خضر وسقف أخضر ينسجم مع اخضرار أشجار الحور في الجانب الآخر من البحيرة .

ويمتد وراء القرية ، شمالاً ، قفر زعفراني من الرمال ، ومزرعة صنوبر واطىء ، ومنخفضات ماؤها وردي بسبب من التربة الطينية الحمراء . وتنتشر هنا وهناك في الفلاة الرملية قرى كالواحات النادرة ، ومروج ونجيل صدى من الصفصاف .

ذات يوم أحد في كانون الأول ، تجمع في الساحة خارج الكنيسة القديمة حشد كثيف قوامه خمسمائة شاب قوزاقي جاؤوا من جميع قرى المنطقة . انتهى القداس وأخذت الأجراس ترن ، وأصدر العريف الأقدم أمره ، وهو قوزاقي عجوز شجاع يحمل نياشين خدمة طويلة ، فانتظم الشباب صفين طويلين ملتويين . وتراكم العرفاء جيئة وذهاباً لتنظيم اصطفاقهم .

وهدر العريف «مراتباً» ، ثم صاح وهو يحرك يده بصورة مبهمة :
«تجمع في أربعاً»

ثم دخل الاتمان الى فناء الكنيسة مرتدياً بزة المناسبة ومعطف ضباط جديد ، ومهمازاه يجلبجلان ، يتبعه شرطي عسكري .
كان غريغوري ميليخوف واقفاً الى جانب ميتكا كورشونوف ، وسمعه يقول بصوت خافت :

- جزمتي تضغط على قدمي . لا أستطيع صبراً .
- أثبت ، انهم سيجعلونك أتماناً .

- سوف نمضي عما قريب .

وكما لو تأكد ظنه ، فقد ارتد العريف الأقدم خطوة أو خطوتين ،
واستدار على عقبيه بحدة ، وصاح :
- الى اليمين ، در...

وصلت الى المسامع طقطقة أقدام خمسمئة شخص يستديرون بدفعة
واحدة الى اليمين .
- الى الأمام ، سرا

ومضى الطابور خلال البوابة المفتوحة للكنيسة ، والتمعت القبعات وهي
تخلع عن الرؤوس وتردد صدى وقع الأقدام في أنحاء الكنيسة حتى القبة .
لم يعر غريغوري أي اهتمام لكلمات يمين الولاء الذي تلاه القس . كان
ينظر الى ميتكا كورشونوف الذي يحرك قدمه ووجهه يتلوى ألماً من جزمته
الجديدة الضيقة . وأخذت ذراع غريغوري المرفوعة تخدر ، وخليط مؤلم من
الأفكار يدور في ذهنه . وحينما وصل الى الصليب وقبل فضته ، تذكر
أكسينيا ، وزوجته . وبفجأة وميض البرق المتشعب ، لاحت له صورة
الغابة ، وجذوعها وأغصانها البنية يغطيها زغب أبيض ، والبريق المخضل
لعيني أكسينيا السوداوين تحت عصابة رأسها...

وحينما انتهى الاحتفال سيقوا الى الساحة ، واصطفوا من جديد ،
تمخط العريف ومسح أصابعه خلسة ببطانة معطفه ، وخطبهم :
- إنكم لم تعودوا صبية الآن ، لقد غدوتم قوزاقاً . لقد أقسمتم اليمين ،
وعليكم أن تفهموا ما يعني ذلك ، لقد صرتم قوزاقاً وعليكم أن تحافظوا على
شرفكم ، أن تطيعوا آباءكم وأمهاتكم وما الى ذلك . كنتم صبية ذات مرة ،
وكان لكم هزلكم وألعابكم - أظن أنكم اعتدتم أن تلعبوا «الحاح»* في

* الحاح : مصطلح عراقي للعبة الاطفال التي يرفع فيها وتد خشبي صغير يوضع على الأرض بضربه بطرف عصا ،
فإذا ما ارتفع قليلاً ضرب بالعصا في الهواء . المترجمون

الدروب - لكن الآن عليكم أن تفكروا بخدمتكم العسكرية القادمة . وبعد عام من الزمن سيستدعونكم للجيش...

هنا تمخط العريف مرة أخرى ، ونفض يده لينظفها من المخاط ، وختم خطبته وهو يلبس قفازيه المصنوعين من فراء الأرنب :
- يجب على آبائكم وأمهاتكم أن يفكروا بإعداد تجهيزاتكم . يجب أن يزودوكم بحصان للجيش ، و ، ، ، والآن ، إذهبوا الى بيوتكم ، والله معكم ، يا أولادي .

بالقرب من الجسر انتظر غريغوري وميتكا بقية أولاد قريتهما ، وانطلقوا إليها سوية . عادوا سيراً على امتداد الدون . كان دخان مواقد الأكواخ ينعقد حزماً فوق قرية بازكي ، وكانت ثمة أجراس كنيسة تدق ضعيفة . وكان ميتكا يحجل وراء الآخرين متكناً على عصا معقدة اقتطعها من سياج .

نصحه أحد الأولاد :

- اخلع جزمته .

فأجاب ميتكا متردداً :

- ستصاب قدمي بضربة صقيع .

- تستطيع أن تظل بجوربك .

فجلس ميتكا على الثلج ونزع جزمته بجهد . ثم استأنف سيره ، وهو يخطو بتثاقل على قدمه المجاورة . وكان جوربه المحاك السميكة يترك أثراً حاداً على الثلج الهش .

تساءل اليكسي بيشنيك القمي :

- أي طريق سنسلك ؟

فأجاب غريغوري عن الجميع :

- على امتداد الدون .

ومضوا ، يتحدثون وأحدهم يدفع الآخر خارج الطريق أو يوقعه أرضاً ،

فيتكوم عليه الآخرون . وبين بازكي وكرومكوفسكي كان ميتكا أول من شخص ذنباً يعبر الدون .

- انظروا ، يا أولاد . ذاك ذنب !

فشرع القوزاق الشباب يصرخون ويزعقون . فابتعد الذنب ببطء ، ثم توقف في وضع جانبي ليس بعيداً عن الضفة المقابلة .
- أمسكه !

- حقاً !

- ليأخذك الشيطان !

- إنه ينظر اليك ، ياميتكا ، أنت تمشي في جوربك .

- يقف في وضع جانبي لأن رقبته لاتسمح له بالاستدارة !

- يالرقبته الغليظة !

- انظر ، هو ذا يذهب !

وقف الهيكل الرمادي منتصباً لحظة ، كما لو كان منحوتاً من حجر الصوان وذيله مرتفع ، ثم قفز قفزة عجلى وانسل مبتعداً داخل الصفصاف المؤطر للشاطئ .

وصلوا القرية في الغسق . فاتخذ غريغوري طريقه على امتداد الجليد الى الممشى الصاعد الى داره . كانت ثمة زحافة مهمة في الفناء ، وكانت العصافير ترفرف على كومة من الدغل ملقاة على مقربة من السياج . واستشعر رائحة المنزل ، والهباب المحروق ، ورائحة الاصطبلات الوخمة .

صعد غريغوري درجات الدار ونظر الى الداخل خلال النافذة . كان المصباح المدلى ينشر ضوءاً اصفر باهتاً في المطبخ . وكان بيوتر واقفاً في الضوء وظهره الى النافذة . فنفض غريغوري الثلج من جزمته بالمقشة عند الباب ، ودلف الى المطبخ وسط عصفه من البخار .

- حسنا ، هاأنذا قد عدت . مساء الخير !

فأجاب بيوتر بلهجة مضطربة مستعجلة :

- لقد عدت بسرعة . أحسب أنك متجمد .

كان بانتلاي بروكوفتش جالسا ورأسه بين يديه ، ومرفقاه على ركبتيه . وكانت داريا تغزل على الدولاب الطنان وناتاليا تقف الى المائدة وظهرها الى غريغوري ، ولم تستدر لدى دخوله . وأجال غريغوري نظره في أرجاء المطبخ ثم ثبت عينيه على بيوتر . ونمّ وجه أخيه المترقب عن حدوث شيء سيء .

- هل أقسمت اليمين ؟

- نعم .

خلع غريغوري ملابسه ببطء ، محاولاً كسب الوقت وهو يقلب بسرعة في ذهنه كل الاحتمالات التي تكون قد أدت الى هذا الاستقبال البارد الصامت .

وخرجت ايلينشنا من غرفة الزوار بوجه يعبر عن قلقها .

وحدث غريغوري نفسه فيما هو يجلس الى المصطبة الى جانب أبيه :
«إنها ناتاليا !»

وقالت أمه لداريا وهي تشير بعينيها الى غريغوري : «أحضري له بعض العشاء» فتوقفت داريا عن أغنية غزلها ، ومضت الى الموقد وقوامها الفتى يتمايل عند الخصر وهي تحرك بكتفيها . كان الصمت مطبقاً على المطبخ ، لا يقطعه سوى تنفس ثقيل لعنزة ووليدها الجديد التي تتدفأ بالقرب من الموقد .

وبينما كان غريغوري يرتشف حساءه ، اختلس النظر الى ناتاليا بيد أنه لم يستطع أن يرى وجهها ، اذ كانت تجلس منحرفة عنه ، ورأسها محني على إبر حياكتها . وكان بانتلاي بروكوفتش أول من استفزه الصمت الشامل ليتكلم فتنحنج بافتعال ، وقال :

- إن ناتاليا تتحدث عن عودتها الى والديها .

ضغط غريغوري بيده على بعض فتات الخبز وكوره ، ولم يقل شيئاً .

فتساءل أبوه وشفته السفلى ترتعش ، وهذه أولى علامات النذير بانفجار جنوني مقبل :

- ولم هذا ؟

فأجاب غريغوري وهو ينهض ويرسم علامة الصليب عليه ، ثم ضيق عينيه وأبعد قصعته :

- لست أدري .

فرفع أبوه صوته :

- لكنني أدري!

فتدخلت ايلينشنا :

- لا تصرخ ، لا تصرخ!

- لكنني أدري!

وتقدم بيوتر من النافذة الى وسط الغرفة وقال :

- ليس هناك مايدعو للصراخ . الأمر متروك لها . إذا أرادت البقاء

يمكنها أن تبقى ، وإذا لم ترد ، حسناً... فليكن الله معها!

- إنني لا ألومها . لا شك أنه عار وخطيئة أمام الله أن تترك زوجها ،

لكنني لا ألومها . ليس الخطأ خطأها ، لكن خطأ ابن القحبة هذا .

وأشار الى غريغوري الذي كان متكئاً بظهره على الموقد .

فتساءل غريغوري :

- لمن أسأت ؟

- ألا تعرف ؟ ألا تعرف ، يا شيطان ؟

- كلا لا أعرف .

فقفز بانتلاي بروكوفتش ، قالباً المصطبة ، ومضى لصق غريغوري .

وأسقطت ناتاليا جوربها ، وندأ صوت عن الابر الساقطة على الارض . وعلى

الصوت نطت قطيطة من الموقد وبدأت تططبب كرة الصوف باتجاه

الصندوق ، وقد مال رأسها الى جانب وتقوس مغلبيها .

وبدا العجوز يتكلم مسيطراً على نفسه ومقطعاً كلماته :

- ما أريد أن أقوله لك هو : إذا لم تعش مع ناتاليا ، فبوسعك ان تجلو عن هذه الدار وتذهب حيثما تحملك قدمك . هذا ما أقوله لك . اذهب حيثما تحملك قدمك . - كرر العجوز ذلك في صوت هادي ، عادي ، ثم استدار وعدل المصطبة .

كانت دونيا جالسة على الفراش وعيناها المستديرتان المذعورتان تمرقان من واحد الى آخر .

وانبعث صوت غريغوري خاوياً في نبرته :

- إن ما أقوله ياأبتاه ، ليس لإثارة غضبك . أنا لم أتزوج باختياري ، أنت الذي زوجتني . أما بشأن ناتاليا فلست أقف في طريقها . تستطيع ان تذهب الى أبيها إذا شاءت .

- أخرج من هنا !

- سأفعل !

- اذهب الى الشيطان !

- انا ذاهب ، انا ذاهب ، لاتستعجل .

ومد غريغوري يده الى كم سترته الفرو ، الموضوع على السرير ، وتوسع منخراه ، وكل بدنه يرتجف غضباً فائراً كأبيه تماماً . ففي عروقهما جرى ذات المزيج من الدم التركي والقوزاقي ، كان تشابههما في تلك اللحظة خارقاً للعادة . وتأوهت ايلينشنا وهي تمسك بذراع غريغوري : « أين ذاهب ؟ » لكنه دفعها عنه بقوة ، وأمسك بقبعته التي كانت تسقط عن السرير .

فأرعد العجوز دافعاً الباب على مصراعيه :

- دعيه يذهب ، هذا الخنزير الأثيم! دعيه يذهب ، عليه اللعنة! امض ،

امض ، اخرج .

فجرى غريغوري الى درجات العتبة ، وكان آخر صوت سمعه ، بكاء ناتاليا المرتفع المتفجر .

أطبقت الليلة الزمهرية قبضتها على القرية ، وكان هناك ثلج إبري سقط من السماء السوداء ، وتشقق الجليد على الدون مرسلأ صدى كطلقات مدفع . ركض غريغوري لاهثاً خارج البوابة . وفي طرف القرية البعيد كانت الكلاب تنبح متنافرة ، ونقاط من الضوء صفر ، تشع خلال الغبش الصقيعي . سار في الشارع بلا هدف . كان سواد نوافذ استاخوف يتلألأ في لمعان ماسي .

وتناهت الى سمعه صرخة ناتاليا اللهفى من البوابة : « غريشا ! »
- اذهبي الى الجحيم ، لم أعد أحبك! - وصر غريغوري على أسنانه واستحث خطاه .

- عد ، يا غريشا !
ودلف ، متعثراً كالسكران ، في أول تقاطع طريق ، وتناهت إليه للمرة الأخيرة صرختها النائية الملتاعة :
- غريشا ، يا حبيبي...

اجتاز الساحة مسرعاً ، ثم توقف عند مفترق طريق ، مفكراً عند من يقضي الليلة . واستقر رأيه على ميشا كوشيفوي . كان يعيش مع أمه وأخته وأخويه الصغيرين في دار منفردة مسقوفة بالقش تقع الى جانب التل مباشرة . دخل غريغوري إلى حوشهم ونقر على النافذة الصغيرة...

- من هناك ؟
- هل ميشا هنا ؟
- نعم ، من يريده ؟
- أنا ، غريغوري ميليوخوف .
وبعد لحظة فتح ميشا الباب وقد أوقف من بداية نومه العميق :
- أهذا هو أنت ، غريشا ؟
- هو أنا .

- ماذا تريد في هذا الوقت من الليل ؟

- دعني أدخل ، وسنتحدث في الداخل .

وفي الممر ، أمسك غريغوري بمرفق ميشا ، وهمس وهو يلعن نفسه لأنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة :
- أريد أن أقضي الليلة عندك . لقد تعاركت مع أهلي . ألدك مكان لي ؟
أي مكان سيكون صالحاً .

- سنجد لك مكاناً . وعلام تعاركت ؟

- سأخبرك فيما بعد... أين الباب ؟ هنا ؟ أنا لا أستطيع أن أراه .
أعدوا فراشاً لغريغوري على المصطبة . فاستلقى ، ورأسه ممدوس تحت فروته لكي لا يسمع همس أم ميشا التي كانت تنام مع ابنتها في فراش واحد . سأل نفسه عما عسى أن يحدث في البيت آنذاك ؟ هل ستعود ناتاليا الى أبيها أم لا ؟ حسناً ، لقد اتخذت الحياة منحى جديداً . أين عليه أن يذهب ؟ وجاءه الجواب سريعاً . سيستدعي أكسينيا في الغد ، ويذهب معها الى الكوبان ، بعيداً من هنا... بعيداً ، بعيداً جداً...

طافت أمام عيني غريغوري المغمضتين سهوب متموجة ، قرى ، قصبات مجهولة لا يشعر نحوها بحب . وراء التلال المتموجة ، وراء الدرب الرمادي الطويل ، تمتد أرض ذات سماوات زرق ، ترحب به ، أرض أسطورية ، مصحوبة بحب أكسينيا ، بكل عنفوانه المتمرد والمتفتح في وقت متأخر ، ليضفي عليها فتنة أشد .

أقضى المستقبل المجهول مضجعه . وقبل أن يغفو في النهاية ، حاول جاهداً أن يتذكر ما كان يضايقه . كانت أفكاره ، وهو وسان تنساب بسهولة ويسر ، كما ينساب زورق مع التيار ، ثم ترتطم فجأة بشيء ما ، كما يرتطم الزورق بضفة رملية ، فيتقلب من جنب الى جنب شاعراً بضغط على صدره وسأل نفسه . ترى ، ماكان ذلك الشيء الذي اعترض دربه ؟

استيقظ في الصباح وتذكر في الحال ماهو - إنه الخدمة العسكرية! كيف

يستطيع أن يرحل مع أكسينيا ؟ فثمّة في الربيع معسكر التدريب ، وفي الخريف تجنيده في الجيش . ذلك هو العائق في دربه .

تناول بعض الإفطار ، ثم نادى ميشا إلى الممر ، وقال له :

- ميشا ، اذهب الى دار استاخوف من أجلي ، رجاء ؟ قل لأكسينيا أن توافيني عند الطاحونة الهوائية هذا المساء بعد حلول الظلام .
فقال ميشا متردداً :

- ولكن ماذا عن ستيبان ؟

- قل إنك جئت لأمر أو لآخر .

- حسناً ، سأذهب .

- أخبرها أن لا بد من المجيء .

- حسناً .

وفي المساء ، ذهب غريغوري الى الطاحونة وجلس هناك يدخن ، وهو يخبئ سيكارتة بكمه ، كانت الريح تتعثر ، وراء الطاحونة بعيدان الذرة الذاوية . وخفقت خرقة ممزقة من الجفاس على شراع الطاحونة الساكن المقيد . وبدا لغريغوري كأن طائراً كبيراً يرفرف فوقه ، دون أن يقوى على الطيران . لم تظهر أكسينيا . كانت الشمس قد غابت في المغرب بلون بنفسجي مذهب ذاو ، ومن الشرق شرعت الريح تهب منعشة . وكانت الظلمة تستبق القمر المصفور بين أوراق الصفصاف . وفوق الطاحونة ، كانت السماء المخضبة ، ذات الخطوط الزرق ، مظلمة كالموت . وحومت على القرية آخر أصوات النهار المليء بالعمل .

دخن ثلاث سكاير متوالية ، ودس العقب الأخير في الثلج الذي وطأته الأقدام ، وتفرس حوله بحقد وقلق . وبدت في الثلج آثار دكنا نصف مذابة لعربات مرت من هناك . لم يكن ثمّة إنسان على مرمى البصر . قام ، وتمطى ، وتحرك صوب الضياء المتلألئ ، في نافذة ميشا الذي كان يدعوه إليه . وكان يتقدم ناحية الحوش ، وهو يصفر بين أسنانه ، فاذا به يصطدم

باكسينيا وجهاً لوجه . يبدو أنها كانت تجري أو كانت تمشي بسرعة ، إذ كانت مبهورة النفس ، تنبعث من فمها البارد المنعش نفحة من ريح الشتاء أو ربما رائحة عشب السهب النضر .

- انتظرت وانتظرت حتى ظننت أنك لن تأتي .

- كان عليّ أن أتخلص من ستيبان .

- لقد تجمدت بسببك أيتها البائسة!

- أنا دافئة ، سأدفنك .

ونشرت معطفها المبطن بالصوف ، ولفت نفسها حول غريغوري كما يلتف نبات متسلق على شجرة بلوط .

- لماذا أرسلت إليّ ؟

- ارفعي ذراعيك عني ، فقد يمر شخص من هنا .

- لعلك تعاركت مع أهلك ، أليس كذلك ؟

- لقد تركتهم . قضيت الليلة عند ميشا . وأنا الآن كلب ضال .

- وما الذي ستفعل الآن ؟

وأرخت اكسينيا ذراعيها ، وسحبت معطفها بإحكام وهي ترتعش برداً .

- لنذهب الى السياج ، ياغريشا . لا نستطيع أن نظل واقفين هنا في وسط الطريق .

وانعطفا عن الطريق ، واستند غريغوري الى سياج من الاسفندان ، صقيعي مقطّط ، وهو يشق طريقه في الثلج المكتوم .

- هل ذهبت ناتاليا الى أهلها أم لا ؟

- لأعرف... وأتوقع أن تذهب . كيف يمكنها أن تبقى هناك ؟

ودس غريغوري يد اكسينيا المتجمدة في كم معطفه ، وقال وهو يعتصر رسفها النحيف :

- وماذا بشأننا ؟

- لأدري ، ياعزيزي . الرأي ماترتأي .

- هل تتركين ستيبان ؟

- بلا آهة ندم . هذا المساء ، إن شئت .

- وسنجد عملاً في مكان ما ، وسوف نعيش بشكل من الأشكال .

- عسى أن يشدني الى عريش العربية ، مادمت معك ، ياغريشا . أرضى بأي شيء في سبيل أن أبقى معك .

وقفا متلاصقين ، يدفي أحدهما الآخر . لم يشأ غريغوري أن يذهب ، كان يقف مواجهاً الريح ، ومنخراه يرتعشان ، وجفناه مطبقان وجعلت أكسينيا ، وجهها في ابطه ، تتنسم رائحة عرقه المألوفة المسكرة ، وعلى شفيتها الشرهتين بلا حياة ، ارتعشت ابتسامة جذلى بسعادة متحققة أخفتها عن عيني غريغوري .

وقال غريغوري وهو يغير موضع قبضته على ريش أكسينيا الذي صار رطباً بالعرق تحت أصابعه :

- سأذهب في الغد لأرى مخوف . قد يستطيع أن يسند إليّ عملاً .

لم تتكلم أكسينيا أو ترفع وجهها . وانداحت الابتسامة من وجهها كريح تتبدد . وأضفى على عينيها المتسعيتين القلق والخوف الكامنان فيهما ، صورة حيوان مذعور . وقالت لنفسها حينما تذكرت بأنها حبلى : « هل أخبره أم لا ؟ » وقررت : « يجب أن أخبره » لكنها ، في الحال أبعدت خاطر الفظيع وهي ترتعش خوفاً . فقد تحسست بغريزة المرأة بأن هذه ليست اللحظة المناسبة لإخباره ، وأدركت أنها قد تفقد غريغوري الى الأبد . وأدخلت في حسابها أنها غير متأكدة ما إذا كان الجنين المتوئب تحت فؤادها ابن غريغوري أو ستيبان ، فراوغت ضميرها ولم تخبره .

سألها غريغوري وهو يلف معطفه حولها : - لم ترتعشين ؟ أنت بردانة ؟

- قليلاً... ويجب أن أذهب ، ياغريشا . سيعود ستيبان ولا يجدني .

- أين ذهب ؟

- الى بيت انيكاي ليلعب الورق . أرغمته على ذلك .

وافترقا . وبقيت نفحة شفتيها المثيرة على شفتي غريغوري... نغمة
الريح الشتائية ، أو ربما تلك الرائحة النائية التي تنبعث من العشب عقب
زخة مطر ربيعية على السهب .

انعطفت اكسينيا في درب جانبي ، ومضت ، منحنية بشدة وهي تكاد
تعدو . وبالقرب من بئر ، حيث كانت القطعان قد خلطت الوحل الخريفي ،
تعثرت بارتباك وزلت قدمها فوق كتلة متجمدة ، فأحست بألم حاد في بطنها
وتعلقت بالسياج . ثم تلاشى الألم ، لكن في جنبها كان ثمة شيء ما ، حي
مختلج ، يدفر ، بغضب وقوة ، مرة تلو الأخرى .

١١

في الصباح التالي ، ذهب غريغوري ليرى مخوف . وكان مخوف قد
عاد لتوه من الحانوت ، وكان يجلس مع اتيوبيين في غرفة الطعام ، ذات
الحيطان المغطاة بورق نفيس بلوطي اللون ، وهو يرتشف شاياً ثقيلاً ،
بنفسجياً محمراً ترك غريغوري قبعته في الردهة ودخل .

- لي كلمة معك ، يا سيرغي بلاتونوفتش .

- اه ، ابن بانتلاي ميليوخوف ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- ماذا تريد ؟

- جئت أسألك ان كنت تستطيع أن تسند لي عملاً .

وبينما كان غريغوري يتكلم ، صر الباب فادار رأسه ورأى ضابطاً شاباً
يرتدي سترة عسكرية خاكية وعلى كتفه شارات ملازم أول وفي يده جريدة
مطوية . وتبين غريغوري فيه ليستنتسكي الشاب الذي غلبه ميته
كورشونوف في سباق الخيل في الصيف الماضي . فقدم مخوف كرسيّاً
للضابط ، والتفت ثانياً الى غريغوري ، وتساءل :

- هل جارت الدنيا على أبيك ليدفع ابنه للعمل ؟

- أنا لم أعد أعيش معه .

- تركته ؟

- نعم .

- حسناً ، كان بودي لو آخذك . انني أعرف أن عائلتك أناس مجدون

لكنني أخشى أن ليس لدي أي عمل لك .

فتساءل ليستنتسكي جالساً وناظراً الى غريغوري :

- ما الأمر ؟

- هذا الفتى يبحث عن عمل .

فسأل الضابط وهو يحرك ملعقته في فنجانہ :

- أتستطيع أن تعنى بالخيـل ؟ أتستطيع أن تقودها مشدودة على العربة ؟

- أستطيع . فقد كنت أعنى بخيولنا الست .

- أريد حوذيأ . ماهي شروطك ؟

- لأطمع بالكثير .

- في هذه الحالة ، تعال الى والدي في ضيعتنا غداً . أتعرف البيت ؟

- أجل ، أعرف ذلك .

- حوالي اثني عشر فرسخاً من هنا . إذن ، تعال غداً صباحاً وسنسوي

الأمر .

مضى غريغوري الى الباب . وفيما أدار المقبض ، تردد ، وقال :

- بودي أن أسر إليك بشيء فيما بيننا ، يا صاحب السعادة .

فتبع ليستنتسكي غريغوري خارجاً من الممر المعتم . كان ثمة ضياء

وردي يترشح باهتاً خلال الزجاج الفينيسي في الباب المؤدي الى الشرفة .

- حسناً ، ماذا تريد ؟

- لست وحدي... - واحمر وجه غريغوري بشدة - معي امرأة... ربما

تستطيع ان تجد شيئاً تعمله ؟

فاستفهم ليستنتسكي مبتسماً ورافعاً حاجبيه اللذين صبغهما الضوء
لوردي .

- زوجتك ؟

- زوجة شخص آخر

- اوه ، هكذا . حسناً ، سنجعلها طاهية للخدم . ولكن أين زوجها ؟

- هنا في القرية .

- إذن فقد سرقت زوجة رجل آخر ؟

- هي أرادت أن تأتي .

- قصة غرام! حسناً ، تعال غداً . تستطيع أن تذهب الآن .

وصل غريغوري الى ضيعة ياغودنويه حوالي الساعة الثامنة صباح اليوم
التالي .

وكان الفناء الكبير محاطاً بحائط من طابوق متقشر تناثرت عليه
سختلف البنايات . كان هناك جناح ذو سقف قرميدي ، سجل تاريخ
١٩١٠ على قرميدة من لون آخر فيه ، وهناك جناح للخدم ، وحمام ،
واصطبلات ، وبيت للدجاج وحظيرة للماشية ، ومخزن طويل للحبوب ومأوى
للعربات . كان البيت واسعاً وقديماً ، وقد استقر وسط بستان . وراء البيت
ترتفع جدار رمادي من أشجار الحور الجرد وصفصاف المروج ، تتأرجح من
نمما البنية أعشاش زاع فارغة .

ما أن دخل غريغوري الى الفناء حتى استقبله حشد من الكلاب السوداء
لقرمية* . وكانت ثمة كلبة عجوز ، دبقة العينين ، عرجاء أول من تشمته
تبعته مدلاة الرأس . وفي جناح الخدم كانت طباحة تتشاجر مع خادمة
مشاء شابة . وكان يجلس على عتبة الباب عجوز ريفي غليظ الشفتين ،
لفه سحابة من دخان التبغ . قادت الخادمة غريغوري الى البيت . وفاح البهو

برائحة الكلاب والفراء الرطب . وعلى منضدة هناك كانت حقيبة بندقية ذات ماسورتين وحقيبة صيد ذات كشكش حريري أخضر تأكلت أطرافه .
قالت الخادمة لغريغوري خلال باب جانبي : « السيد الشاب يدعوك للدخول » .

فنظر غريغوري بقلق الى جزمته الموحلة ، ودخل . كان ليستنتسكي مستلقياً على سرير الى جانب النافذة . وكانت على اللحاف المحشو بريش البط القطبي ، علبة تحتوي تبغاً وأدوات تدخين . أعد الضابط سيكارة له ، وزرر ياقة قميصه الأبيض ، وقال :

- جئت قبل الموعد . انتظر فسيراك أبي هنا خلال دقيقة . وقف غريغوري بجانب الباب . وسرعان ما سمع وقع أقدام في غرفة الانتظار وصوتاً عميقاً يتساءل خلال الباب : « أناثم أنت ، يا يغبيني ؟ »
- ادخل .

ودخل عجوز يرتدي حذاء لبادياً أسود قفقاسياً ، فرمقه غريغوري بنظرة جانبية . وسرعان ما اصطدم بالأنف المعقوف الأقنى ، والقوس الأبيض لشاربه ذي البقعة الصفراء تحت الأنف من أثر التبغ . كان ليستنتسكي العجوز طويلاً . عريض المنكبين . إلا أنه ضامر . كان يرتدي قمصلة طويلة من وبر الجمال ، تدلت في انسياب ، وياقتها تلتف كالأنشطة على رقبته المجعدة السمراء . وكانت عيناه الذابلتان قريبتين إلى جسر أنفه .

- بابا ، ها هو الحوذي الذي حدثك عنه . الفتى من عائلة محترمة .

فتساءل العجوز بصوت هادر :

- ابن من هو ؟

- ابن ميليخوف .

- أي ميليخوف .

- ابن باتتلاي ميليخوف .

- كنت أعرف بروكوفي . وأتذكر باتتلاي أيضاً . أخرج ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغوري ، وهو ينتصب كوتر .

- أجل ، يا صاحب المعالي .

واستعاد غريغوري حكايات أبيه عن الجنرال المتقاعد ليستنتسكي ،
أحد أبطال الحرب الروسية التركية .

تساءل العجوز :

- لماذا تبحث عن عمل ؟

- أنا لا أعيش مع أبي ، يا صاحب المعالي .

- أي قوزاقي ستكون إذا أجرت نفسك للغير ؟ ألم يزودك أبوك بشيء
حينما تركته ؟

- لا ، يا صاحب المعالي .

- هذا أمر آخر . تريد عملاً لزوجتك كذلك ؟

صر سرير ليستنتسكي الشاب بقوة ، فنظر غريغوري باتجاهه ورأى
الضابط يغمز له ، ويحرك رأسه بالإيجاب .

- هذا صحيح ، يا صاحب المعالي .

- بلا «معاليك» هذه ، أنا لا أحبها . ستكون أجرتكما ثمانية روبلات
شهرياً ، ستطهو زوجتك الطعام للخدم والشغيلة الموسمين . أيرضيك هذا ؟
- نعم .

- انتقل الى هنا صباح الغد . ستشغلان جناح الحوذي السابق .

وسأل ليستنتسكي أباه ، وهو ينزل قدميه الضيقتين الى السجادة :

- كيف كان الصيد يوم أمس ؟

- بدأنا بمطاردة ثعلب وطاردها الى الغابة ، لكنه كان عجوزاً واستطاع
أن يخدع الكلاب .

- أما يزال كازبك يحجل ؟

- لا بد أن عظام قدمه قد انخلعت . هيا ، يفغيني ، الفطور سيبرد .

واستدار العجوز نحو غريغوري وطق أصابعه الهزيلة .

- عادة سرّاً كن هنا في الثامنة .

وخرج غريغوري . في الطرف البعيد لمخزن الحبوب ، كانت كلاب الصيد تتشمس على رقعة من الأرض عارية من الثلج . وجاءت الكلبة العجوز تخب نحو غريغوري ، فتشممته من الخلف وتبعته قليلاً ورأسها ما يزال مدلى بشكل يدعو للأسى ، ثم قفلت عائدة .

١٢

فرغت اكسينيا من المطبخ مبكرة . جرفت الجمر وأغلقت المدخنة وغسلت الصحون ، وألقت نظرة عجل على خلال الشباك المطل على الحوش . كان ستيبان يقف الى جانب كومة الخشب الملاصقة للسياح الذي يفصل حوشهم عن حوش ميليوخوف ، وقد تدلت من زاوية شفتيه الصارمتين سيكارة دخت الى النصف . كانت زاوية الحظيرة اليسرى قد تهدمت ، وكان يجب وضع عمودين متينين . عملت اكسينيا ذلك الصباح ووجنتها موردتان وفي عينيها بريق فتي . ولاحظ ستيبان التحول عليها ، ولم يستطع أثناء فطوره ، إلا أن يتساءل : « ماذا بك ؟ »

فرجعت اكسينيا صدها ، متوردة الوجه « ماذا بي ؟ »

- إن وجهك يتلامع وكأنك لطخته بالدهن .

- إنها حرارة النار .

وأشاحت وجهها عنه واختلست نظرة عبر الشباك لترى إن كانت أخت ميشا كوشيفوي قادمة .

لكن الفتاة لم تصل إلا عند الغروب . وكان الانتظار قد أمض اكسينيا ، فابتدرتها قائلة :

- أتريدني ، يا ماشوتكا ؟

- تعالي لحظة .

كان ستيبان واقفاً أمام قطعة مرآة مثبتة على الموقد المبيض بالجبس
يمشط خصلته وشاربه الكستنائي بمشط قصير مصنوع من قرن الثور .
نظرت اكسينيا نحوه في قلق .

- أتريد أن تخرج ؟

لم يجب في الحال ، بل وضع المشط في جيب بنطلونه ، والتقط علبة
ورق وكيس تبغه اللذين كانا ملقيين على حافة الموقد . ثم قال :
- أنا ذاهب الى انيكوشكا لبعض الوقت .

- ومتى بقيت في البيت ؟ أنت تقضي كل ليلة في لعب القمار ، وطوال
الليل ، أيضاً . حتى صياح الديوك .

- حسناً ، لقد سمعت هذا الكلام من قبل .

- هل ستلعب البونثون من جديد ؟

- اوه ، كفى ، اكسينيا ، انظري ، ثمة من جاء ليراك .

فتراجعت اكسينيا الى الممر . حيثها ماشوتكا ذات الوجه الوردي وهي
تبتسم .

- عاد غريشا .

- طيب ؟

- طلب مني أن أبلغك بالحضور الى منزلنا حالما يحل الظلام .

فأمسكت اكسينيا يد الفتاة وسحبته صوب الباب الخارجي وقالت :

- على مهلك ، على مهلك ، ياعزيزتي ! هل طلب أن تقولي شيئاً آخر ؟

- قال أن عليك أن تجمعني حوائجك ، وتأخذها معك .

فألقت اكسينيا نظرة سريعة ناحية باب المطبخ وهي تلتهب وترتعد

دون أن تستطيع تثبيت قدميها على الأرض .

- ياإلهي ، كيف يمكنني أن... بهذه السرعة ؟ طيب... اسمعي . أخبريه

أنني سأحضر حالما أستطيع . ولكن أين سيلقاني ؟

- عليك أن تأتي الى منزلنا .

- أوه ، لا !

- حسناً ، سأخبره أن يخرج وينتظر .

كان ستيبان قد ارتدى سترته حينما دخلت اكسينيا ، ومد جسمه الى مصباح متدل من السقف ليشعل سيكارتة ، فسألها بين نفثتين من سيكارتة :
- ماذا تريد ؟

- من ؟

- ابنة كوشيفوي .

- اوه ، جاءت تسألني أن أفصل لها تنورة .

اتجه ستيبان الى الباب وهو ينفض سيكارتة . وقال فيما مضى خارجاً :
« لا تنتظري رجوعي ونامي » .

جرت اكسينيا الى النافذة المغطاة بالجمد وجثت على ركبتها أمام المصطبة . خشخش أقدام ستيبان على الممشى المسحوق بالأقدام وهو يتجه الى البوابة . وحملت الريح شرارة من سيكارتة وعادت بها الى النافذة . واختطفت اكسينيا نظرة في ضوء سيكارتة الى قبعة الفرو ومخطط وجنته السمراء ، خلال دائرة على الزجاج ذاب عنها الجمد .

وبحركة محمومة أخرجت السترات والتنورات وعصابات الرأس - أي جهاز عرسها - من الصندوق الكبير وألقت بالجميع في شال واسع . وعبرت خلال المطبخ للمرة الأخيرة ، لاهثة ، متوحشة العينين ، ظهر شخص ما من بيت ميليوخوف ليرى الماشية . فتريثت حتى تلاشى وقع أقدامه ، وقيدت الباب بالسلسلة ، ثم جرت هابطة الى الدون . ونفرت خصلات ملفوفة من شعرها من عصابة رأسها وجعلت تدغدغ وجنتها ، وبينما كانت تلمس دربها عبر أزقة جانبية نحو كوخ كوشيفوي ، ممسكة بصرة حوائجها ، اضمحلت قواها وصارت قدماها تشحطان ثقيلتين كالرصاص . كان غريغوري ينتظرها عند البوابة . أخذ الصرة ومضى بها نحو السهب ، صامتاً .

بعد ساحة درس الحبوب ، أبطأت اكسينيا خطاها وجذبت غريغوري وقالت : « انتظر لحظة » .

- لماذا ؟ سيتأخر القمر الليلة ، يجب أن نسرع .

- انتظر ، غريشا!

وتوقفت ، وهي تتلوى من الألم . فاستدار غريغوري نحوها .

- ما بك ؟

- شيء ما... في أحشائي . لابد أنني رفعت شيئاً ثقيلاً .

لعلت شفتيها الجافتين ، وهي تضيق عينيها من الألم وكأنها ترى إبراً من النار ، وأطبقت يديها على بطنها . ووقفت لحظة ، مقوسة وبائسة ، ثم استأنفت سيرها وهي تدس شعرها تحت عصابتها .

- حالتي حسنة الآن ، هيا بنا .

- لم تسألي إلى أين أنا ماض بك . ربما أقودك الى أقرب منحدر لألقيك من فوقه .

- سيان لدي الآن . انتهت لعبتي .

وكان صوتها يرتعش بضحكة بائسة .

في تلك الليلة عاد ستيبان في منتصف الليل كعادته . ذهب بادیء الأمر الى الاصطبل ، وأعاد التبن المتناثر الى المعلق ، وحل مقود الحصان ، ثم مضى الى الدار . وقال في نفسه وهو يحل السلسلة : « لا بد أنها خرجت لتزجية المساء » . دخل المطبخ وأغلق الباب بإحكام ، وأشعل عود ثقاب . كان حظه في اللعب مؤاتياً ذلك المساء ، ولهذا كان هادئاً نعيسان . أضاء المصباح ، وفغرفاه إزاء اضطراب المطبخ ، دون أن يخمن السبب . وبشيء من الاستغراب ، مضى الى حجرة كبيرة . كان الصندوق المفتوح متشابهاً وأعماقه سوداً ، وعلى الأرض سترة عتيقة نسيتهها اكسينيا في غمرة استعجالها . نزع ستيبان فروته عنه وركض الى المطبخ ليحضّر الفانوس . حملق ببصره في أرجاء الغرفة ، وأخيراً أدرك ماحدث . ألقى الفانوس من

يده ، ومن غير أن يعي مايفعل ، انتزع سيفه من الحائط ، وضغط على مقبضه حتى انتفخت العروق في أصابعه ورفع على نصله سترة اكسينيا الزرقاء والصفراء ، وطوح بها في الهواء ، وبأرجحة قصيرة من سيفه شطرها نصفين أثناء سقوطها .

وفي غمرة حزنه الذئبي الذي أحال ملامحه رمادية ، متوحشة قذف شقتي السترة العتيقة الى السقف مرة بعد مرة ، والفولاذ الحاد يصفر وهو يمزقها في الهواء .

ثم مزق شرابة السيف وألقى به الى الزاوية ، ومضى الى المطبخ ، وجلس الى المائدة منكس الرأس ، وبأصابع حديدية مرتجفة جعل يخط على وجه المائدة المتسخ .

١٣

إن المتاعب لا تأتي فرادى أبداً . ففي الصباح الذي تلا رحيل غريغوري ، مزق ثور ميرون غريغوريتش الأصيل بقرنيه بلعوم أحسن فرس لديه ، بسبب من إهمال هيت - بابا . فهرع هذا راكضاً الى البيت ، شاحباً ، مذهولاً مرتعداً :

- مصيبة ، ياسيدي! الثور ، عليه اللعنة ، الثور الملعون...

فتساءل ميرون غريغوريتش فرعاً :

- طيب . ماذا عن الثور ؟

- قتل الفرس . نطحها...

فجرى ميرون غريغوريتش ، الى الفناء دون أن يكمل ارتداء ملابسه . كان ميتكا الى جوار البئر يضرب العجل ابن الخمس سنوات بعصا . وكان الثور منكس الرأس يجر جلد رقبته المتغصن على الثلج ، وهو يدفر الثلج باظلافه نائراً مسحوقاً فضياً على ذيله المرفوع ، ولم يحاول أن يتحاشى

الضرب . كان يخور بين الفينة والفينة بصوت أبح قصير . ويركز قدميه الخلفيتين كما لو أنه سيقفز .

كان خواره على وشك أن يتحول الى زئير مدو . ضربه ميتكا على أنفه وجبينه ، وهو يسب طوال الوقت ، غير عابئ بميخي الذي كان يحاول جره الى الورا من نطاقه .

- ابتعد ، يا ميتكا... لخاطر الله ، سيبقرك! ياسيدي . ماذا تنتظر ؟
ركض ميرون الى البئر . كانت الفرس واقفة الى جانب السياج ورأسها مدلى بشكل يستدعي الأسى وكان جنبها المعتمان بالعرق يرفعان ويهبطان ، والدم ينهمر من رقبتها على صدرها . وكان ظهرها الفاقع وجنبها يرتجف مسبباً رعشات قوية في حقوها

جرى ميرون غريغوريتش ليرى رقبتها ، كان ثمة جرح فاغر في رقبتها ، وردي اللون ، يسع يد إنسان ، ويكشف عن قصبتها الهوائية . أمسكها ميرون غريغوريتش من ناصيتها ورفع رأسها ، فثبتت الفرس عينيها البنفسجيتين اللامعتين في سيدها وكأنها تسأله في خرس : « ماذا بعد ؟ »
وصاح ميرون غريغوريتش وكأنه يرد على سؤالها : « اجر وقل لأحدهم أن يسلق شيئاً من لحاء البلوط . أسرع! »

فركض هيت - بابا ، وجوزة عنقه ترتجف في رقبتها القذرة ، ليكشط بعض اللحاء من شجرة ، ومضى ميتكا صوب أبيه ، وإحدى عينيه مثبتة على الثور ، وهو يدور ويخور في أرجاء الفناء .

أمره أبوه : « أمسك الفرس من ناصيتها . ليركض شخص فيجلب خيطاً من القنب بسرعة! أم تراكم تريدون صفقة على وجوهكم ؟ »

ربطوا الخيط بإحكام حول شفة الفرس العليا ، المخملية ذات الشعر القليل ، لكي لا تشعر بالألم .

وجاء غريشاكا العجوز يحجل . وجيء بمحلول ، بلون ثمر البلوط في طاس مصبوغ .

- دعوه يبرد . إنه شديد الحرارة ، أليس كذلك ؟ ميرون ، أسمعني ؟

- ادخل ، يا أبتاه . سيصيبك البرد هنا .

- أقول لك دعه يبرد . أتريد أن تقتل الفرس ؟

غسلوا الجرح . وبأصابع متجمدة ، نظم ميرون غريغوريتش خيطاً من القنب الخام في إبرة للرتق ، ودرز الحواف ، بشكل نظيف ، وما كاد يخطو عدة خطوات مبتعداً من البئر حتى جاءت زوجته تعدو من البيت ، والذعر بارز على خديها المترهلين الشاحبين .
ودعته وانتحت به جانباً .

- ميرون ، ناتاليا هنا... آه ، ياربي!

فتساءل ميرون غريغوريتش شاحب الوجه :

- والآن ، ماذا حدث ؟

- إنه غريغوري... لقد ترك بيته!

ونشرت لوكينشنا ذراعيها كزاع يتهياً للطيران وصفقت يديها على تنورتها ، وانفجرت تعول :

- ياالفضيحتنا أمام القرية كلها! ياإلهي ، أية نازلة! آه!...

وجد ميرون غريغوريتش ناتاليا واقفة وسط المطبخ ، وعليها شال ومعطف شتائي قصير ، وفي عينيها نبتت دمعتان ، وكان خداهما متوردين بلون عميق .

قال أبوها معتداً وهو يجري الى الغرفة :

- ماذا تفعلين هنا ؟ هل ضربك زوجك ؟ ألا تستطيعان العيش معاً!

- رحل!

وأنت ناتاليا ، وهي تبلع دمعات جافة ، وترنحت وارتمت على ركبتها
أمام أبيها

- أبي ، حياتي تهدمت... أعدني إليك... غريغوري رحل مع تلك

المرأة . . هجرني . أبي ، سحقني في التراب!

تمتت بسرعة ، وهي تحرق في لحية أبيها الحمراء في الأعلى متضرعة .

- مهلاً ، مهلاً ، الآن...

- ليس ثمة لي ما أعيش من أجله هناك . أعدني إليك
وزحفت على ركبتيها الى الصندوق وألقت رأسها على ذراعيها .
وسرحت عصابتها عن رأسها فسقط شعرها الأسود السبط الأملس فوق
أذنيها الشاحبتين ، والدموع في مثل هذه الحالات كالطر في جذب أيار .
ضغطت الأم رأس ابنتها على بطنها الخاسفة ، هامسة بكلمات أمومية حمقاء
للتهدئة ، لكن ميرون غريغوريتش جرى هائجاً ، الى درجات العتبة ،
وصاح :

- أعدوا زحافتين!

وكان ثمة ديك على الدرجات قد حط ، منكباً ، على ظهر دجاجة ،
فطار على الصيحة وقفز مبتعداً ، وسار نحو مخزن الحبوب وهو يصيح في
سخط .

- أعدوا زحافتين!

وجعل ميرون غريغوريتش يرفس مرة وأخرى على الدرايزين المنقوش
لسلم الباب حتى هشمه بصورة بانسة . ولم يعد الى البيت الا بعد أن هرع
هيت - بابا خارجاً من الاصطبلات بزوج من الخيل وهو يعدهما أثناء عدوه .
ركب ميتكا وهيت - بابا عربة الى آل ميليوخوف لإحضار ما يخص
ناتالي . وأطار هيت - بابا في شروده خنزيراً صغيراً في الطريق . وكان يقول
لنفسه : « ربما سينسى السيد كل شيء حول الفرس ، وهو الآن مهتم بأمر
ابنته » ، وأرعى العنان في بهجة ثم تجهم وجهه وتلوت شفته حين تغير
مجرى أفكاره : « لكنه شيطان عجوز لن ينسى » . وحث الخيل بصياحه
وحاول أن يصفع بسوطه أرق أجزاء بطن الحصان .

كان يفغيني ليستنتسكي يشغل رتبة ملازم أول في كتيبة حرس الاتمان الخاص . وحينما كبا أثناء سباق الموانع للضباط وكسرت ذراعه اليسرى ، أخذ إجازة طويلة بعد خروجه من المستشفى وذهب ليقيم مع أبيه مدة ستة أسابيع .

وكان الجنرال العجوز يعيش بمفرده في ياغودنويه ، وكان قد فقد زوجته أثناء ركوبها عربتهما في ضواحي وارشو في ثمانينات القرن التاسع عشر ، إذ لم تصبه الطلقات التي وجهت إليه ، إنما اخترقت العربة وصرعت زوجته والحوذي ، وبقي ليستنتسكي وابنه يفغيني ابن العامين على قيد الحياة . وسرعان ما اعتزل الجنرال منصبه بعد هذا الحادث . وهجر ضيعته في اقليم ساراتوف ، وكانت قد منحت لجده الأكبر مكافأة لخدماته أثناء حرب عام ١٨١٢ ، وانتقل الى ياغودنويه حيث عاش حياة متقشفة صارمة .

أرسل ابنه يفغيني الى الكلية العسكرية وهو في سن المراهقة ، وأشغل نفسه بشؤون المزرعة . فابتاع خيولاً أصائل من الاصطبلات الإمبراطورية ، وهجنها بأحسن الجياد المستوردة من انكلترا ومن اصطبلات بروفالسكي المشهورة ، وربى سلالة جديدة . وجعل يربي ماشية وقطعاناً على أرضه الخاصة وعلى الأرض التي اشتراها ، ويبذر الحبوب مستخدماً عمالاً أجراً ويذهب للصيد مع كلابه في الخريف والشتاء ، ومن حين لآخر يغلق على نفسه القاعة البيضاء ويظل يشرب عدة أسابيع بلا انقطاع . وكان يكدره ألم في معدته ، فمنعه طبيبه منعاً باتاً من ابتلاع أي شيء صلب ، فكان عليه أن يمتص الخلاصة من طعامه مضغاً ، ثم يبصق الفضلات على طبق فضي يمسكه خادمه الخاص فينيامين الواقف الى جانبه دائماً .

وكان فينيامين فلاحاً أسمر متوسط الذكاء ، ذا شعر أسود غزير منفوش ، عمل في خدمة ليستنتسكي ست سنوات ، وفي البداية كان عليه

أن يقف فوق الجنرال وفي يده صحن فضي ، كان يشعر بالتقزز كلما رأى العجوز يبصق الطعام الممضوغ . لكنه اعتاد ذلك بمرور الزمن .
أما قاطنو الضيعة الآخرون فهم لوكيريا الطاهية ، وساشكا ، سانس الخيل الهرم ، والراعي تيخون وغريغوري الذي أخذ يشتغل حوزيا ، واكسينيا . ومنذ اليوم الأول ، لم تكن لوكيريا ذات الوجه المجذور التي بدت بعجزتها الكبيرة مثل قرص من العجين المفروش ، لتسمح لأكسينيا بالاقتراب من الموقد .

- يمكنك أن تطبخي حينما يستخدم السيد عمالاً إضافيين في الصيف .
أما الآن فاستطيع أن أدبر الأمور بنفسني .

انطلقت أكسينيا في عملها ، تغسل أرضيات البيت ثلاث مرات في الأسبوع ، وتطعم العدد الذي لا يحصى من الدواجن ، وتنظف بيت الدجاج . كانت تعمل دؤوبة ، وتحاول إرضاء الجميع ، بمن فيهم الطاهية ، أما غريغوري فكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته مع السانس ساشكا ، في الاصطبلات الفسيحة المبنية من جذوع الخشب . وكان العجوز كتلة من الشعر الأشيب ، لكن الجميع ظلوا ينادونه بألفة : « ساشكا » . ولم يخاطبه أحد باسمه الكامل واسم أبيه كما يتطلب الاحترام . أما لقبه فربما ليستنتسكي العجوز نفسه ، الذي اشتغل ساشكا عنده أكثر من عشرين عاماً ، كان قد نسيه . وكان ساشكا قد عمل في شبابه حوزيا ، ولكن ما إن تقدمت به السن ووهت قواه وأمسى بصره ضعيفاً ، حتى صار سانساً . وهو الآن قصير القامة ، يغطي جسمه شعر أشيب مخضوضر (حتى شعر يديه كان أشيب) ، وله أنف قد فرطحته هراوة في شبابه ، وكانت له ابتسامة طفولية خالدة ، ناظراً الى العالم بعينين ساذجتين تطرفان على الدوام . وكان التعبير الملائكي المرتسم على وجهه يشوه أنفه المكسور وشفته السفلى المدلاة المشقوقة . حينما كان ساشكا في الجيش ، ثمل ذات مرة وأخذ جرعة من « الماء الملكي » بدلاً من الفودكا ، فلحم السائل المحرق شفته السفلى

بذقنه ، مخلفاً ندبة ملتوية ذات وهج وردي كما لو أن وحشاً مجهولاً لحس
ذقن ساشكا بلسانه الرقيق اللاذع . كان ساشكا مغرمّاً بالفودكا ، فإذا
انتشى راح يتبختر في أرجاء الحوش كما لو كان سيداً . فيدق قدمه على
الأرض ويقف تحت نوافذ غرفة نوم ليستنتسكي العجوز ويصيح بصوت عال ،
وفي تجهم وهو يحرك سبابته أمام أنفه :

- ميكولاي ليكسييتش*!

- ميكولاي ليكسييتش!

فإذا كان ليستنتسكي العجوز في غرفة نومه مصادفة أتى الى النافذة
وأرعد صائحاً :

- أنت سكران ، يا عديم النفع!

فيشيل ساشكا بنطاله الى أعلى ، ويغمز ويبتسم في مكر . وتتراقص
ابتسامة منحرفة عبر وجهه ، ومن عينه اليسرى المغمضة ، الى الندية الوردية
اللون الممتدة من زاوية فمه اليمنى ، كانت ابتسامة عوجاء الا أنها بهيجة .
ويهز إصبعه القذر النحيل متوعداً وهو يقفز في مكانه :

- ميكولاي ليكسييتش ، يا صاحب المعالي ، إنني أعرفك!

فيبتسم سيده مهدئاً ، وهو يفتل شاربه الهمتلي بكل أصابعه الخمس
التي بقعها النيكوتين :

- اذهب وأغرق سكرك في النوم!

فيضحك السائس ، وهو يتقدم حتى سكة السياج :

- لن تستطع أن تخدعني! ميكولاي ليكسييتش ، أنت وأنا - يعرف
أحدنا الآخر كما تعرف السمكة الماء . أنت وأنا ، نحن أغنياء . وأي غنى!
- وهنا ، يبسط ذراعيه على امتدادهما ليصور مقدار غناهما . - نحن ، كما
يعرفنا الجميع ، في كل أرجاء منطقة الدون ، نحن... - ويمسي صوت ساشكا

* يقصد نيكولاي اليكسييتش . المترجمون

على حين غرة مستكيناً أسيان : - أنا وأنت - يا صاحب المعالي ، كل شيء حسن سوى أن لكلينا أنفأ متعفنأ !

فيسأله سيده رافعاً شاربه ، وقد استحال وجهه قرمزيأ من شدة الضحك :
- ولم ذلك ؟

فيقول ساشكا مقطعاً الكلمات ، وهو يطرف بعينه بسرعة ويلحق لعبه الذي ينزل على نديته :

- بسبب الفودكا ! لاتشرب ، ياميكولاي ليكسييتش ، وإلا انتهينا الى الافلاس - أنت وأنا . سنضيع كل ما لدينا على الشراب !

- رح واشرب بهذه عن آخرها ! - ويلقي إليه ليستنتسكي العجوز بقطعة من فئة العشرين كوبيكا ، فيلتقطها ساشكا ويخفيها في قبعته ، ويقول منتهداً :

- حسناً ، مع السلامة ، يا جنرال .

فيسأله سيده مبتسماً ، وهو يعرف ما سيلي ذلك :
- هل أوردت الخيل ؟

- آه ، أيها الشيطان القذر ! يا ابن الخنزير ! - ويستحيل وجه ساشكا أزرق ، ويقرقع صوته مغضياً : - أينسى ساشكا أن يورد الخيل ؟ حتى لو كنت ميتاً ، سأزحف أتلمس سطلاً من الماء لأورد الخيل . ويتصور أنني...
ويمضي السانس مقتظاً من اللوم الذي لا يستحقه ، وهو يصب اللعنت ملوحاً بقبضته . كان كل ما يفعله ساشكا يقابل بالفقران ، حتى إدمانه على الشرب وزوال الكلفة بينه وبين سيده . فقد كان سانساً لا يمكن الاستغناء عنه . وكان ينام في الاصطبل صيفاً وشتاءً ، في معلف فارغ . لم يكن أحد يضاهيه في عمله كان سانساً وبيطاراً للخيل معاً ، يجمع العقاقير لها في الربيع ، وينقب عن الجذور الطبية في السهب والوديان . وكانت حزم الأعشاب معلقة في أعالي جدران الاصطبل : فثمة الحزنبل لشفاء لهاث الخيل ، وحشيشة عين الحية كترياق لعضة الأفاعي السامة ، والورق الأسود

للحوافر ، وعشب صغير أبيض ينمو قرب جذور الصفصاف لعلاج القرح ،
والعديد من العقاقير الأخرى التي لا يعرفها الا القليل من الناس يستعملها
لعلاج جميع ما يصيب الخيل من أوجاع وأمراض .

وفي الصيف والشتاء ، ثمة فوق المعلف الذي ينام فيه ساشكا رائحة
نفاذة ذكية ، تدغدغ البلعوم ، معلقة كنسيج عنكبوت ذي غزل رقيق .
وهناك قش مضغوط ، كاللوح في صلابته ، تغطيه مرشحة حصان ، ومعطف
ساشكا الذي تفوح منه رائحة عرق الخيل ، اتخذهما حشية و فراشاً لسريره
العاري ، وكان المعطف والفروة هما كل ما يملك العجوز من متاع الدنيا .

أما تيوخون ، وهو قوزاقي بليد ضخم ، فقد كان يعيش مع لوكيريا ،
ويضمر في دخيلته غيرة عليها من ساشكا ، لا مبرر لها إطلاقاً . وكان يقود
العجوز ، مرة كل شهر ، من زر قميصه المدهون الى ما وراء الفناء .

- أيها العجوز ، لا تحاول أن تستميل امرأتي .

فيغمز ساشكا غمزة ذات مغزى :

- إن ذلك يتوقف على...

فيرجوه تيوخون :

- ابتعد عنها!

- إنني أحبهن مجدورات ، أيها الصبي . لن أحتاج الى الفودكا إذا

استطعت أن تهبني بنتاً مجدورة . كلما ازدادت بثور الجدري عليهن ازددن

شغفاً بنا نحن معشر الرجال . أولاء السفهات!

- يجدر أن تخجل من نفسك في سنك هذه... عيب عليك... هذا وأنت

رجل طيب : تعنى بالخييل ، وتعرف جميع الأسرار .

فأصر ساشكا :

- أنا قادر على كل أنواع التطبيب .

- ابتعد عنها ، يا جد . إنها لخطينة .

- سأستحوذ على تلك اللوكيريا يوماً من الأيام ، أيها الصبي ،

وسأمتلكها ، يا ولدي . يمكنك أن تقول مع السلامة للوكيريا ، فإنني سأنتزعها منك . إنها مثل فطيرة الزبيب ، سوى أن الزبيب منتزع منها . إنها الصنف الذي اشتيه!

فيقول تيوخون متنهداً وهو يخرج بعض قطع النقود النحاسية من كيس النقود : « خذ هذه ، ولا تدعني أقبض عليك والا قتلتك! » وهذا ما كان يحدث كل شهر .

كانت الحياة تبلى أوراقها في خدر ناعس في ياغودنويه . اذ كانت الضيعة نقع في واد ناء عن جميع الدروب المطروقة ، ومنذ الخريف تنقطع كافة المواصلات مع القرى المجاورة . وفي ليالي الشتاء تخرج قطعان الذئاب من مرابضها في الغابة لتشيع الفرع في الخيل بعوائها . وقد اعتاد تيوخون أن يذهب الى المرج ليخيفها ببندقية سيده ذات الماسورتين ، فتظل لوكيريا ، وهي تلف عجيزتها الضخمة ببطائيتها الخشنة ، تنتظر مترقبة صوت الإطلاقات ، وعيناها الصغيرتان المختلفتان في وجنتيها المجدورتين المدهونتتين تتطلعان في الظلام . وفي مثل تلك الأوقات ، اعتاد خيالها أن يجعل من تيوخون القبيح الأصلع ، شاباً وسيماً جريئاً ، وحينما ينصفق باب جناح الخدم ويدخل تيوخون في سحابة من البخار ، تفسح له المجال على السرير ، وتحتضن عشيرها المتجمد ، بدفء وهي تناغيه في وله .

وفي الصيف ، تظل ياغودنويه تطن بأصوات العمال الى وقت متأخر من الليل . فقد زرع السيد أربعين دسياتينا بشتى الحاصلات ، وكان يؤجر عمالاً لحصدها . ومن حين لآخر كان يفغيني يأتي صيفاً الى الضيعة ، وقد يروح يتمشى خلال البستان وعلى المروج ، فيصيبه الملل . وكان يقضي الصباح في صيد السمك في البركة . وكان ذا صدر ممتلئ ، متوسط الطول ، يصف شعره على الطريقة القوزاقية فيجعل له خصلة على الجانب الأيمن لرأسه . أما سترته العسكرية فقد اتسقت عليه بشكل أنيق .

خلال الأيام الأولى من حياة غريغوري مع اكسينيا في الضيعة ، وكان يأتي في كثير من الأحيان يتردد على جناح السيد الشاب . كان فينيامين يأتي مبتسماً الى جناح الخدم ويقول لغريغوري ، وهو يحني رأسه الأشعث :
- السيد الابن يريدك ، ياغريغوري .

فكان غريغوري يذهب الى غرفة يفغيني ، ويقف عند الباب . فيشير السيد الى كرسي مبتسماً كاشفاً عن أسنانه النادرة العريضة ، ويجلس غريغوري على حافته تماماً .

- كيف تجد خيلنا ؟

- خيل جيدة . والأشهب بديع .

- عليك بتمرينه كثيراً ، ولكن لا تجعله يجري سريعاً .

- هذا ما أخبرني به الجد ساشكا .

- وماذا عن «همام» ؟

- الكميت ؟ إنه حصان بديع على أن نعله مقلقل ، وسيتعين علي أن أبدله بنعل آخر .

ثم قال السيد الابن وهو يخاوص عينيه الرماديتين النفاذتين :

- عليك أن تذهب الى معسكر التدريب في أيار أليس كذلك ؟

- أجل .

- سأكلم الأتمان في ذلك . لن تضطر الى الذهاب .

- شكراً لك ، سيدي .

ران الصمت لحظة . فك السيد أزرار ياقة بزته وجعل يحك صدره

الأنثوي الأبيض .

- ألا تخشى أن يأخذ اكسينيا زوجها منك ؟

- لقد تخلى عنها ، لن يستعيدها .

- وكيف تعرف ذلك ؟

- رأيت رجلاً من القرية قبل أيام حينما ذهبت الى هناك طلباً

للمسامير . أخبرني أن ستيبان يسرف بالشراب . ويقول إنه لم يعد يريد
اكسينيا ، ويتصور أنه سيجد امرأة أخرى أكثر حرارة .

فعلق ليستنتسكي متفكراً ، وهو يحرق عبر رأس غريغوري وفي
ابتسامته شيء من التهتك :

- اكسينيا امرأة جميلة .

فقال غريغوري موافقاً : « لا بأس بها » ، وغام وجهه .

أوشكت إجازة يفغيني على الانتهاء ، فلم يعد يحمل ذراعه على حمالة
وصار بإمكانه أن يثنيها مثلما يشاء .

وفي خلال الأيام القليلة الأخيرة من بقائه ، كان يقضي وقتاً طويلاً في
حجرة غريغوري . وكانت اكسينيا قد بيضت الحيطان القذرة وجلت أطر
النافذة وحكت الأرضية بكسرة من الطابوق . فكان ثمة دفء وأناقة نساينان
في الحجرة الخالية البهيجة وكان الموقد ييث الدفء . وكان الضابط يختار
لزيارته أوقاتاً يكون غريغوري خلالها مشغولاً بالخيل . فيذهب في بادئ
الأمر الى المطبخ ، وسترته القصيرة الزرقاء ملقاة على كتفيه ، ويلبث يمازح
لوكيريا دقيقة أو دقيقتين ، ثم يذهب الى الغرفة الأخرى ، فيجلس على مقعد
بلا مسند بالقرب من الموقد محدباً كتفيه ، ويركز على اكسينيا نظرة
مبتسمة بلا حياة . فتتحرج اكسينيا من وجوده ، وترتفع الحياكة في
أصابعها .

ويسألها ، وهو ينفخ دخان سيكارتته حتى تمتلئ الغرفة بدخان أزرق :

- كيف حالك يا عزيزتي اكسينيا ؟

- حسناً جداً ، أشكرك .

وترفع اكسينيا عينيها فتلقي بنظرة الملازم النفاذة الفاضحة رغبته في
صمت ، ويستحيل لونها قرمزيّاً . فقد كانت نظرتها تلك كريهة ومزعجة .
وكانت تجيب على أسئلته بشكل غير مترابط ، متحاشية عينيها ومتحينة
الفرصة لترك الحجرة .

- عليّ أن أذهب لأطعم البط ، الآن .

- لاداعي للعجلة . عندك متسع من الوقت .

وابتسم ، وارتجفت ساقاه في سروال ركوب الخيل الضيق ، ومضى في إلحافه عليها بالأسئلة التي تخص حياتها الماضية وهو يضرب على أوتار صوته العميق الذي يشبه صوت أبيه ، ويسعى الى استمالتها في مجون بعينه الصافيتين كالبلور .

وحين دخل غريغوري ، انطفأت النار في عيني يفغيني نيكولايتش ، فقدم له سيكارة ، ومالبث أن ترك الغرفة . فسأل غريغوري بصوت أجش اكسينيا دون أن ينظر اليها ،
- ماذا أراد ؟

- كيف لي أن أعرف ؟ - وإذا ذكرت نظرة الضابط ضحكت بافتعال وأضافت : - دخل وقعد ، هنا بلا سبب ، ياغريشا - وأرته كيف كان الضابط جالساً محدوب الظهر ، - قعد حتى استبد بي الضيق منه . وهز ركبته الحادة .

فضاقت عيني غريغوري غضباً :

- هل دعوته للدخول ؟

- وما حاجتي إليه ؟

- حاذري ، وإلا سأركله يوماً من أعلى السلم .

فحدقت اكسينيا في غريغوري بشفتين مبتسمتين ، دون أن تتبين ما إذا كان هازلاً أم جاداً .

١٥

انقضى الشتاء في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير . وبدأت المياه الخالية من الجليد تطرز حوافي الدون ، واستحال لون الجليد الذائب من القمم رمادياً

وانتفخ كالاسفنج . وفي المساء ، كانت دمدمة خفيفة تُسمع من التلال ، تشير - كما كان الشيوخ يقولون - الى سقوط الصقيع أما الواقع فكان ذوبان الجليد على الأبواب . في الصباح يرن الهواء بفعل الصقيع الخفيف ، ولكن ما إن يحل الظهر حتى تصبح الأرض جرداء مبقعة ، وتنفذ الى الأنوف الرائحة الزكية لشهر آذار ولحاء أشجار الكرز المتجمد والقش المتعفن .

أعد ميرون غريغوريتش عدته للحرارة على مهله وهو يقضي الأيام المستطيلة في المأوى يشحذ أسنان المسالف ويصلح عجلات العربة . وكان غريشكا العجوز يصوم في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير ، فيعود من الكنيسة ، أزرق من البرد ، ويشتكى لكنته لو كينشنا :

- إن ذلك القس يرهقني . لاخير فيه فهو بطيء في قداسه كمن يدفع عربة مليئة بالبيض .

- لو صمت خلال أسبوع الآلام لكنت أكثر حكمة . كان الجو أدفاً آنذ .

فأجاب :

- نادي ناتاليا . سأجعلها تصنع لي زوجاً من الجوارب أكثر دفئاً .

كانت ناتاليا لا تزال تعيش على أمل أن يعود إليها غريغوري ، وكان قلبها يتشوق إليه وينتظر رجوعه ، غير آبهة لهمسة التحذير التي يسديها العقل الواعي ، فراحت تقضي لياليها في حنين مرهق ، متقلبة على فراشها ، وقد سحقتها عار غير متوقع لم تكن تستحقه . وحلت بها مصيبة فوق مصيبتها الأولى ، فجعلت تنتظر مآلها في رعب بارد ، وهي تخفق في غرفة صباها كطير زقزاق جريح ملقى على درب غابة . فمنذ الأيام الأولى من عودتها ، بدأ أخوها ميتكا يرميها بنظرات غريبة ، وسألها ذات يوم وهو يمسك بها في سقيفة الباب :

- مازلت تواقه لغريشا ؟

- وما دخلك أنت ؟

- أريد أن أونسك .

ونظرت ناتاليا الى عينيهِ وأرعبها مارأت فيهما . إذ التمعت عينا ميتكا الخضراوان ، الشبيهتان بعيني القط ، وومضت فتحتاهما بلزوجة في ضوء السقيفة الخافت . فصفت ناتاليا الباب ومضت الى غرفة جدها ، حيث وقفت فترة طويلة تتسمع الى ضربات قلبها العنيفة . وفي اليوم التالي جاءها ميتكا الى الفناء . كان يقلب تبناً جديداً للماشية ، وقد تدلت من شعره السبط وقبعته الفرو عيدان خضر من العشب . وكانت ناتاليا آنذاك تطرد الكلاب من معلف الخنازير .

- لا ترهقي نفسك ، يا ناتاليا...

فصرخت ، رافعة يديها لتحمي نفسها :

- سأخبر أبي .

- أنت بلهاء!

- لا تقترب ، أيها الوحش!

- لماذا تصيحين ؟

- ابتعد ياميتكا! سأذهب في الحال لأخبر أبي . كيف تجرؤ على النظر

إليّ هكذا ؟ ألا تخجل ؟ أعجب أن الأرض لا تنشق وتبتلعك .

- إنها لا تنشق! - وضرب ميتكا الأرض بجزمته ليؤكد قوله ، ووضع

يديه على خصره .

- لا تقترب مني ، ياميتكا!

- لن أفعل الآن ، لكنني سأتي في الليل . والله ، سأتي!

فتركت ناتاليا الفناء وهي ترتجف . وفي ذلك المساء اتخذت من

الصندوق سريراً لها ، وأخذت أختها الصغرى لتنام معها . وظلت طوال الليل

تتقلب باضطراب ، وعيناها الملتهبتان تحاولان اختراق الظلمة ، وأذناها

مرهفتان لأصغر نامة ، وهي متحفزة لتملأ البيت صراخاً . لكن شيئاً لم

يمزق الصمت سوى شخير جدها النائم في الغرفة المجاورة ، ودمدمة تند من

أختها بين حين وآخر .

ومضى عقد الأيام ينفرط مع ذلك الحزن المقيم الذي لا عزاء فيه ،
والذي لا تعرفه الا النساء .

لم يكن ميتكا قد تغلب على الخزي الذي سببته له محاولة الزواج
الأخيرة ، وصار مهموماً سيئ الطبع ، يخرج كل مساء ولا يعود الى البيت
قبل الفجر إلا لمأماً . أقام له علاقات مع نسوة غادر أزواجهن الى الجندية ،
وذهب الى دار ستيبان استاخوف ليراهن بلعب الورق . وكان أبوه يراقب
سلوكه ، إلا أنه لم يقل له شيئاً في ذلك الوقت .

قبيل عيد الفصح التقت ناتاليا بباتتلاي بروكوفتش خارج حانوت
موخوف . فناداهما :

- انتظري لحظة!

فتوقفت . وأحست بقلبها يغص بالحنين وهي ترى الى وجه حميها ،
الذي يذكرها بغريغوري . سألها العجوز ، وهو يرمقها بنظرة سريعة في
ارتباك ، كما لو كان هو نفسه قد اقترف إساءة ضدها :

- لم لا تأتين أحياناً لزيارتنا ، نحن العجوزين ؟ الزوجة تفتقدك...
حسناً ، كيف حالك ؟

وأفاقت ناتاليا من اضطرابها وقالت :

- شكراً لك...

وبعد لحظة من التردد ، إذ أرادت أن تقول : « يا أبتاه! » أضافت :

- يا باتتلاي بروكوفتش ، لقد كنت مشغولة جداً في المنزل .

فهز العجوز رأسه بمرارة :

- إن ابننا غريشا... آه! خدعنا ، السافل . لكم كنا نعيش معاً على خير

مايرام .

فأجابت ناتاليا متحشجة وفي صوتها غصة :

- اوه ، يا أبتاه . أظن أن ذلك لم يكن مقدراً له إن يدوم .

فتململ بانتتلاي بروكوفتش حينما رأى عيني ناتاليا تمتلنان بالدموع ،

وهي تزم شفيتها محاولة حبس دموعها . وقال لها :

- مع السلامة ، يا عزيزتي ، لاتحزني عليه ، ابن العاهرة! إنه لا يستحق ظفراً من اصبعك الصغير . لعله سيعود . ليتني أراه ليتني أمسك به .
وابتعدت ناتاليا ورأسها غارق في صدرها . ووقف بانتلاي بركوفتش يحجل من قدم الى آخر وكأنه على وشك أن ينطلق راكضاً . وحينما انعطفت ناتاليا عند زاوية الشارع ، نظرت الى الخلف . كان العجوز يعرج عبر الساحة ، وهو يتكئ بتناقل على عصاه .

١٦

عندما دنا الربيع قلّت الاجتماعات في ورشة شتوكمان ، إذ كان القرويون يتهيأون للعمل في الحقول ، فلم يأت من الطاحونة سوى ايفان اليكسييفتش الميكانيكي و«الولد» ، مصطحبين معهما دافيد . وفي خميس أسبوع الآلام اجتمعوا في الورشة في المساء الباكر . كان شتوكمان جالساً على منضدة البرادة يبرد حلقة فضية منحوتة من قطعة نقدية من فئة الخمسين كوبيكا . انسلت حزمة من أشعة الشمس الغاربة خلل النافذة ، تاركة بقعة غبراء من الضوء الوردي المصفار على الأرض . وتناول الميكانيكي كماشة وقلبها بيده وقال :

- منذ أيام ذهبت الى صاحب الطاحونة لأكلمه عن مكبس . أرى أنه لا معدى من أخذه الى ميليروفو ، فلا يمكننا إصلاحه هنا . إن به صدعاً هذا طوله .

وقاسه ايفان اليكسييفتش بخنصره .

فقال شتوكمان وهو ينثر غباراً فضياً رقيقاً يتطاير من القطعة النقدية التي يبردها :

- توجد ورشة في ميليروفو ، أليس كذلك ؟

- مصهر فولاذ . كان علي أن أقضي بضعة أيام هناك في العام الماضي .

- عمال كثيرون ؟

- أستطيع أن أقول أربعمائة أو نحو ذلك .

فتساءل شتوكمان بلهجة متأنية وهو يهز رأسه في اتساق مع حركاته :

- وكيف يبدو ؟

- إنهم في وضع حسن . ولكنهم ليسوا من جماعتك البروليتاريين ، إنهم

حثة .

فقال « الولد » الجالس الى جانب شتوكمان وشابكاً أصابعه القصيرة

الغليظة تحت ركبته :

- ولم ذلك ؟

كان دافيد عامل الطاحونة يمشي ذهاباً وإياباً في الورشة بشعره الذي

غدا أشهب بفعل نثار الطحين ، ويتسمع جذلاً الى خشخشة النشارة التي كان

يحركها بجزمته . وتصور أنه كان يسير فوق هوة كستها طبقة كثيفة من

أوراق قرمزية ، وكانت الأوراق اللينة تندعك تحت قدميه بخفة مخبئة تحت

التربة الرطبة المرنة .

- لأنهم على أحسن حال . فلكل منهم بيته الصغير ، وزوجته ، وكل

وسائل الراحة . ومعظمهم معمدانيون علاوة على ذلك . والأسطة نفسه هو

الذي يعظهم ، ولكنهم ينهشون بعضهم بعضاً ، أما القذارة التي تعلوهم فهي

من السمك بحيث من الصعب أن تكشطها بمعزقة .

فانبرى دافيد وقد انقض على الكلمة الغريبة :

- ومن يكون هؤلاء المعمدانيون ، ياإيفان اليكسييفتش ؟

- معمدانيون ؟ إنهم يعبدون الله على طريقتهم الخاصة . شيعة ما ،

مثلهم كمثلي « المؤمنين القدامى » .

وعلق « الولد » :

- الجنون فنون .

ثم واصل ايفان اليكسييتش حكايته :

- لقد ذهبت لرؤية سيرغي بلاتونوفتش ، كما قلت . ولكن أتيوبين كان هناك ، فطلب مني الانتظار في الممر . فجلست أنتظر وأستمع الى حديثهم عبر الباب . كان موهوب يقول ستندلع حرب ضد الألمان قريباً جداً ، لقد قرأ ذلك في كتاب . غير أن اتيوبين قال إنه لن تكون حرب بين المانيا وروسيا .

كان ايفان اليكسييتش يقلد لثغة اتيوبين بمهارة جعلت دافيد يطلق ضحكة قصيرة ، ولكنه توقف في الحال عندما لمح إمارات السخرية على وجه « الولد » .

ومضى ايفان اليكسييتش ينقل الحديث الذي سمعه :

- « لن تكون هناك حرب ضد المانيا ، لأن المانيا تقتات من حبوبنا » ثم سمعت صوتاً ثالثاً ، لم أميز صاحبه ، اتضح بعد ذلك ، إنه الضابط ، ابن العجوز ليستنتسكي . قال : « سوف تندلع حرب بين ألمانيا وفرنسا من أجل حقول الكروم ، ولكن لا علاقة لها بنا » .

فتساءل الميكانيكي وقد التفت الى شتوكمان :

- ماذا تظن يا اوسب دافيدوفتش ؟

فأجاب شتوكمان وهو يحدق بنظرة ثابتة في الحلقة التي أمسكتها يده المبسوطة :

- أنا لا أحسن النبوءات .

فقال « الولد » :

- سنجد أنفسنا في وسط المعمة حالما يبدأونها . وسواء شئنا أم أبينا ، فسوف يجروننا اليها من شعورنا .

فقال شتوكمان وهو يتناول الكماشة من يد الميكانيكي برفق :

- سأحدثكم أيها الأولاد كيف هو الأمر...

وراح يتكلم بجذ وهو يسعى لشرح المسألة بالتفصيل . واسترخى

«الولد» في جلسته على منضدة البرادة بينما فغر دافيد فاه مكشراً عن أسنانه الحادة . ولخص شتوكمان بأسلوبه المركز المشوق الصراع بين الدول الرأسمالية حول الأسواق والمستعمرات . وعندما فرغ من حديثه ، قال ايفان اليكسييفتش مغضباً :

- ولكن ما دخلنا نحن في ذلك ؟

فابتسم شتوكمان :

- سوف يصيب رؤوسكم الصداع جراء عريضة الآخرين .

وقال «الولد» متهكماً :

- لا تتكلم مثل الأطفال ، لعلك سمعت بهذا المثل : «عندما يتشاجر

السادة ، تترج نواصي الفلاحين» .

- أف!

قال ذلك ايفان اليكسييفتش مقطباً كمن يحاول اجتلاء كتلة هائلة

مستعصية من الأفكار .

وتساءل دافيد :

- لماذا يتردد ليستتسكي ذاك دائماً على مخوف ؟ أترأه يسعى وراء

ابنته ؟ هاه ؟

فاعترض «الولد» بخبث :

- لقد كان لابن كوروشونوف اللعين شأن هناك من قبل .

فكرر دافيد :

- ألم تسمع ايفان اليكسييفتش ؟ لأيما غاية يتردد الضابط الى هناك ؟

فجفل ايفان اليكسييفتش متسائلاً وكأنه لفح بسوط في قفا ركبتيه :

- ايه ؟ ماذا كنت تقول ؟

- لقد أخذته سنة من النوم! كنا نتكلم عن لستتسكي .

- كان في طريقه الى المحطة . نعم ، وهاكم المزيد من الأخبار ، عندما

خرجت من الدار شاهدت... من تظنون ؟ غريغوري ميليوخوف! كان واقفاً في

الخارج وبیده سوط . قلت له «ماذا تفعل هنا يا غريغوري؟» فأجاب
«أوصل السيد ليستنتسكي الى محطة ميليروفو» .
وأوضح دافيد :

- إنه حوذي ليستنتسكي .
- يلتقط الفتات من موائد الأغنياء .
- إنك أشبه بكلب مربوط يا «ولد» ، تنبح على كل إنسان .
- ثم فتر النقاش ، ونهض ايفان اليكسييتش ليفادر المحل .
- فنهش «الولد» نهشة أخيرة :
- مستعجل للصلاة ؟
- إني أتعبد كثيراً كل يوم .

ورافق شتوكمان ضيوفه الى الباب ، ثم أغلق الورشة ودلف الى البيت .
كانت السماء في الليلة السابقة لأحد الفصح قد غشيتها كتل من الغيوم
السود ، وبدأ المطر يتساقط . وأناخت عتمة رطبة على القرية . وعند الغسق
بدأ الجليد على الدون يتصدع بأنين مضطرب طويل . واذا تراصت كتل الجليد
المتكسر انطلقت من الماء أولى الطوافي . فتصدع الجليد دفعة واحدة على مدى
أربعة فرسات ، وانجرف مع التيار . وتلاطمت الطوافي مع بعضها وارتطمت
بالضفتين ، ومن بعيد كان ناقوس الكنيسة يقرع للصلاة بانتظام . وفي العطفة
الأولى ، حيث ينحدر الدون الى اليسار ، تراكم الجليد ، وكان هدير الطوافي
واحتكاكها يسمع في القرية . وفي ساحة الكنيسة التي انتشرت فيها البرك كان
عدد من الفتیان مجتمعين ، وكان صوت الصلاة الخفيض يتناهى الى الأسماع
خلل الأبواب المفتوحة . وسطعت الأنوار تتراقص اشعاعاتها على النوافذ
المشبكة ، بينما كان الصبية يعابثون الفتيات الصائحات بصوت مكتوم
ويقبلونهن ، ويتهايمسون معهن بحكايات ماجنة .

وكان منزل قيم الكنسية مزدحماً بالقوزاق القادمين من شتى قرى
المنطقة لحضور صلاة العيد . ونام الناس على المقاعد وعلى الأرض بعد أن

هدهم التعب والازدحام في الغرفة .

جلس الرجال على الدرجات المتداعية ، وهم يدخنون ويتحدثون عن الطقس ومحاصيل الشتاء .

- متى ستخرج جماعتك الى الحقول ؟

- ينبغي أن نبدأ في الأسبوع الأول بعد الفصح ، كما أحسب .

- هذا حسن . تربتكُم رملية .

- نعم ، وفي الجهة القريبة من الأخدود يوجد مستنقع مالح .

- ستكسب الأرض كثيراً من الندى الآن .

- عندما حرثنا السنة الماضية كانت مثل الغضروف ، صلبة وجافة في كل مكان .

وصاح صوت عالي الدرجة من جهة المنزل :

- أين أنت يادونيا ؟

ومن باب باحة الكنيسة سمع صوت جهوري غليظ يجأر :

- خير مكان للقبل ، يا... اخرجوا من هنا ، أيها الصبية القذرون . يالها من بدعة!

فانبرى صوت راعش يقول عبر الظلام :

- ألا تستطيع أن تجد لنفسك رفيقة ؟ اذهب وقبل الكلبة في زريبتنا .

- كلبة ؟! سوف أعلمك .

ثم سمع وقع خافت لأقدام تهرول ، وحفيف تنورات .

وتساقط الماء من السقف بجرس بلوري ، وهدر ثائية الصوت البطيء

اللزج كأنه التربة الطينية السوداء :

- كنت أسعى لشراء محراث بروخر ، كنت مستعداً لدفع اثني عشر

روبلأله ولكنه لا يرضى بها . ذلك الرجل لا يبيع الأشياء رخيصة...

يسمع من الدون حفيف وجلبة ، وكأنه غائية طروب قد خطرت بحلتها

القشبية وقوامها الذي يضاهي شجر الحور وخلفت تنورتها حفيفاً مثيراً .

وفي منتصف الليل ، مر ميتكا مخبأ على فرس حاسر الظهر في العتمة الدبقة متجهاً صوب الكنيسة . فأوثق العنان بعرف الفرس الجامح ، وصفعها على خاصرتها وأصاخ الى وقع الحوافر هنيهة ، ثم سوى حزامه ، ومضى الى الكنيسة . وعند المدخل رفع قبعته ، وأحنى رأسه بورع ، ونحى عن طريقه النساء ومضى الى المذبح . كان القوزاق محتشدين في كتلة سوداء الى اليسار ، وإلى اليمين كان ثمة حشد نسائي يزخر بالالوان . ووجد ميتكا أباه في الصف الأمامي ، فأمسك بمرفقه وهو على وشك أن يرسم علامة الصليب وهمس بأذنه :

- ابتي ، تعال الى الخارج لحظة واحدة .

وارتعش منخرا ميتكا ، فيما أفسح لنفسه المجال للخروج من الكنيسة بين ستار كثيف من خليط الروائح . وضاق بدخان الشمع المشتعل ، ورائحة أجساد النساء العرقة ، وروائح الملابس الكريهة النتنة التي لا تُرتدى إلا في أعياد الميلاد والفصح ، ورائحة الأحذية الرطبة ، والنفثالين ، ورياح البطون التي أجاعها الصيام .

وفي المدخل ضم ميتكا صدره الى كتف أبيه وقال : « ناتاليا تحتضر » .

١٧

عاد غريغوري في عيد أحد الشعانين من رحلته الى المحطة ، فوجد الثلوج قد تآكلها الذوبان ، وقد انقطع الطريق من يومين . وفي إحدى القرى الأوكرانية على مبعدة خمسة وعشرين فرستا من المحطة كاد أن يفقد الحصانين وهو يعبر نهراً . لقد وصل القرية في المساء الباكر وكان الجليد في الليلة الفائتة قد تكسر وبدأ يتحرك ، وكان النهر الهادر المزيد بالماء الطيني الخابط يهدد الشوارع . كان النزل الذي توقف عنده ليعلف الحصانين في ذهابه يقع على الجانب

الآخر من النهر . وكان من المحتمل أن يرتفع الماء أثناء الليل ، ولهذا قرر غريغوري عبوره دونما انتظار .

فساق العربة الى النقطة التي شق طريقه منها فوق الجليد عند الذهاب ، فوجد النهر قد طغى على ضفتيه . وكان جزء من سياج ونصف عجلة من عجلات العربات يدوران في دوامة عكرة في الوسط . وكانت هناك آثار حديثة لمزالق زحافات على الرمل الأجرد في الجرف . فكبح الحصانين اللذين كانا يرشحان من العرق ، وقفز مترجلاً ليتفحص الآثار عن كثب . كانت الآثار تتجه قليلاً الى اليسار عند حافة الماء وتختفي في مجرى النهر . قاس المسافة الى الجانب الآخر بعينه : خمسون خطوة على أكبر تقدير . ثم عاد الى الحصانين ليتفحص العدة . وفي تلك اللحظة اقترب منه عجوز أوكراني قادم من أقرب كوخ وعلى رأسه قبعة من فرو الثعلب . فسأله غريغوري ، ملوحاً بعنانه نحو الماء الخابط الهادر :

- هل يوجد مكان صالح للعبور من هنا ؟

- بعض الناس عبر من هنا هذا الصباح .

- أهو عميق ؟

- كلا . ولكن قد يغمر عربتك .

فسحب غريغوري العنان ولوح بسوطه ، وجعل يحث الحصانين ويستفزهما بنبرات صارمة . فتحركا مرغمين ، وجعلا ينخران ويتشممان الماء . ولفح غريغوري الهواء بسوطه ، ورفع جسمه قليلاً من على المقعد . نفر الكميت المربوط الى اليسار برأسه وسحب سيور الجلد على حين غفلة . والقى غريغوري بنظرة إلى قدميه ، فوجد الماء يدوم فوق مقدمة العربة . كان الحصانان في بادئ الأمر يخوضان الى ركبتيهما ، ولكن سرعان ما إرتفع التيار الى صدريهما . فحاول غريغوري أن ينكص بهما الى الورا بيد أنهما لم يستجيبا للعنان وجعلا يسبحان . ودارت مؤخرة العربة بفعل التيار ، في حين كان الحصانان يبذلان جهدهما للإرتفاع برأسيهما عن

التيار . وجرت أمواج المياه فوق ظهريهما ، وأخذت العربة تتمايل ويسحبها التيار الى الخلف بقوة .

فصاح الأوكراني وهو يهرول على الضفة ويلوح بقبعته الفرو :
- آآ... آ...

ومضى غريغوري يصرخ بغضب جامح ويحث الحصانين . كان الماء يزداد بدواماته خلف المركبة الغائرة . اصطدم المزلقان بركام ناتئ من بقايا الجسر الذي اكتسحته المياه ، وانقلبت المركبة بسهولة عجيبة . فغطس رأس غريغوري في الحال وهو يتأوه ، ولكن العنان لم يفلت من يده . وفيما كانت المركبة تتأرجح راح الماء يجذبه من ساقيه وذيل فروته جذباً هيناً ويجعله يدور . أفلح في أن يمسك بمزلاق ، وترك العنان وأخذ يضع يداً فوق الأخرى لاهثاً ، متجهاً صوب عريش العربة وقد أوشك أن يمسك بنهايته الحديدية ، وأصابته رفسة في ركبته من الكميت الذي كان يقاوم التيار ، فمد غريغوري يديه ، وهو يغص بالماء ، وأمسك بأسار العربة . ولم يجد نفسه الا وقد ابتعد عن الحصانين ، وارتخت قبضته . وكانت عضلات جسمه ترتعد من البرد ، ولكنه أفلح في الوصول الى رأس الحصان ، فسلط الحيوان عليه نظرة مجنونة مفعمة بالفزع من الموت ، تشع من عينيه الدمويتين .

وبين لحظة وأخرى كان يمسك بالعنان الجلدي اللزج ، ولكنه ظل يفلت من بين أصابعه ، وبطريقة ما استطاع أن يمسك به آخر الأمر . وعلى حين غرة وجد ساقيه تحكان القاع . اندفع الى الأمام بكل قواه يحث الحصانين بصراخه فأطاح به صدر الحصان وهو في طريقه الى الشاطئ ، خلل الماء الضحل .

جر الحصانان العربة من الماء بعنف وهما يدوسان عليه ، ثم وقفا على بعد بضعة خطوات منه . وكان البخار يتصاعد منهما وهما يرتعشان وقد أضناها التعب .

استوى غريغوري على قدميه ، وهو لا يكاد يشعر بالألم ، لقد لفه البرد

وكأنه وضع في عجينة ساخنة لا تحتمل . وكان يرتجف أكثر من الحصانين ، وأحس بضعف في ساقيه مثل رضيع لم يبلغ الفطام . واستعاد صوابه شيئاً فشيئاً ، فقلب العربية على مزلاقيها ، وساق الحصانين في عدو سريع ليبعث فيهما الدفء . وطار في شارع القرية وكأنه يغير على عدو ، وانعطف نحو أول بوابة مفتوحة دون أن يخفف من سرعته .

برهن المضيف على أريحية ، فقد أرسل ابنه ليعتني بالحصانين بينما ساعد هو غريغوري في خلع ملابسه . وبلهجة لا تتحمل الرفض طلب من زوجته أن تشعل الموقد . فتمدد غريغوري فوق الموقد بسروال رب المنزل فيما كانت ملابسه تجف . وبعد أن تناول عشاء من حساء الكرنب الخالي من اللحم استغرق في النوم .

ثم انطلق ثانية قبل الفجر بوقت طويل . لقد بقيت أمامه مسافة تربو على المائة والخمسة والثلاثين فرساً ، لذا كانت لكل دقيقة قيمتها . وأمام ناظره سهب ضاعت معالم طرقه بفعل فيضان الربيع ، وقد أحال الثلج الذائب كل وهدة صغيرة أو أخدود الى سيل متدفق هادر .

انهك الطريق الأجرد المعتم الحصانين . ومضى يسير على أديم تصلب بفعل صقيع الصباح الباكر ، حتى وصل قرية تبعد أربعة فرسات عن طريقه ، وتوقف عند مفترق طرق . كان العرق يتبخر من الحصانين ، وخلفه يلوح أثر مزلاقي العربية اللامع على الأرض . ترك العربية ثم انطلق ثانية ، ممتطياً صهوة جواد حاسر الظهر ويقود الجواد الآخر من عنانه . فبلغ ياغودنويه صباح عيد أحد الشعانين . أنصت ليستنتسكي العجوز باهتمام الى وقائع رحلته ، وذهب ليرى الحصانين . كان ساشكا يقودهما جيئة وذهاباً في الساحة ، وينظر بغضب الى خواصرهما الغائرة .

سأله السيد :

- كيف هما ؟

فأجاب ساشكا دون أن يوقف الحصانين ويهز لحيته الشبياء :

- لا بأس .

- هل أنهما ؟

- كلا . الكميت مصاب بحكة في صدره من احتكاك رقابيته ، ولكنها ليست ذات أهمية .

فأوما ليستنتسكي بيده لغريغوري :

- اذهب لتستريح .

فذهب غريغوري الى غرفته ، ولكنه لم يسترح سوى ليلة واحدة . فقد دخل فينيامين الغرفة في الصباح التالي بقميص جديد من الساتان الأزرق ، ووجهه سمين متألّق ، واستدعاه :

- السيد يريدك يا غريغوري في الحال .

كان الجنرال يتمشى في الصالة بخفين من اللباد . ولم يلتفت الا بعد أن تنحنح غريغوري مرتين مراوحاً قرب الباب :

- ماذا تريد ؟

- لقد أرسلت في طلبي .

- آه ، نعم! اذهب وأسرج الفرس وكرييش . وقل للوكيريا الا تطعم الكلاب . فسوف نأخذها للصيد .

استدار غريغوري ليترك الغرفة . بيد أن سيده أوقفه هاتفاً :

- أسمعت ؟ وسوف تذهب أنت معي .

دست اكسينيا قطعة من الفطيرة في جيب غريغوري وتمتمت :

- إنه لا يدع المرء يتناول حتى طعامه ، فليأخذه الشيطان ، تلعف بلفافك على الأقل يا غريشا .

قاد غريغوري الحصانين المسرجين الى السياج ، وصفر للكلاب . وخرج ليستنتسكي مرتدياً سترة قصيرة زرقاء بنطاق جلدي مزخرف . وقد تدلت من ظهره قارورة معدنية موضوعة في حافظة من الفلين ، وخلفه سوط مدلى من يده مثل الحية .

أمسك غريغوري باللجام ودهش لما رأى ليستنتسكي العجوز ينهض بجسمه العظمي بسهولة على السرج . وأمر الجنرال باقتضاب ، وهو يمسك العنان بيد مقفزة :

- كن قريباً ورائي .

وامتطى غريغوري الجواد الفتى المضطرب الذي رفع رأسه الى الأعلى . لم يكن حافراه الخلفيان قد نعلا ، فكان يتزحلق ويقعي على مؤخرتيه كلما يطاءً بقعاً من الجليد . أما الجنرال فقد استوى محدودباً ، ولكنه ثابت في سرجه فوق ظهر حصانه العريض . لحق غريغوري الجنرال وسأله :

- الى أين نذهب ؟

- الى وادي أولشانسكي - أجاب ذاك بصوت عميق .

كان الحصانان يخبان بخطى معتدلة . شد الجواد على اللجام وقوس رقبته القصيرة ، وازور نحو راكبه وحاول أن يعض ركبته . وعندما بلغا أعلى المرتفع ، حث ليستنتسكي فرسه على العدو السريع . فتبعت سلسلة كلاب الصيد غريغوري ، وكانت الكلبة السوداء تركض وقد لامس خطمها أسفل ذيل الجواد . فحاول الجواد أن يبلغها عندما أقعي الى الوراء بساقيه الخلفيتين ، غير أن الكلبة صدت عنه الى الخلف وصعدت الى غريغوري عندما التفت الى الوراء نظرات مستجدية كأنها امرأة عجوز .

بلغا وادي أولشانسكي ، بعد نصف ساعة . ومضى ليستنتسكي بين الأحراش على امتداد حافة المنحدر ، بينما انحدر غريغوري الى قاع الوادي المغسول بالمطر ، متحاشياً الحفر العديدة بحذر . وجعل ينظر الى الأعلى بين لحظة وأخرى ، فرأى هيئة ليستنتسكي الظاهرة بدقة من خلل الزرقاة الفولاذية لغليضة بيلسان جرداء مضللة . وعندما انحنى العجوز الى الأمام ، ونهض على الركاب ، تجعدت من الخلف سترته الزرقاء ذات النطاق . كانت الكلاب تعدو على حافة الوادي في جماعة مترصة . اجتاز غريغوري حفرة عميقة ومال جسمه الى جانب .

وقال في ذات نفسه : «بوسعي أن أدبر حالي بسيكارة . سأطلق العنان وأتناول كيس تبغي» . ونزع قفازه وجعل يبحث عن ورق اللف .
ندت صرخة من الجانب الآخر للشفير كأنها طلقة مسدس :
- تعقبه!

رفع غريغوري رأسه بحدة الى الأعلى ، فرأى ليستنتسكي يخب صعد السفح ملوحاً بسوطه...
- تعقبه!

كان ثمة ذئب أغبر ساقط الشعر يعدو بسرعة خاطفة مارقاً عبر قعر الوادي الذي يتخلله أسل المستنقعات والقصب ، حتى ليكاد يلامس جسمه الأرض . وعندما نط عبر أحد الأخاديد ، توقف والتفت بسرعة ، فلمح الكلاب . كانت تتعقبه على هيئة حذوة الفرس لتقطع عليه طريق الغابة في نهاية الوادي .

وقفز الذئب بظفر الى تلة صغيرة واتجه صوب الغابة . ولكن الكلبة العجوز كانت تقطع عليه الطريق مضاعفة بأسها بخطوات قصيرة . وكان كلب آخر يدعى بالصقر ، وهو من أجود وأشرس الكلاب يتعقبه من وراء . فتلكأ الذئب لحظة ، واختفى من بصر غريغوري عندما اجتاز غريغوري الوادي صعداً . وعندما أشرف ثانية على منظر لاحب من التلة كان الذئب قد ابتعد في السهب مندفعاً الى واد مجاور . واستطاع أن يرى الكلاب السوداء تعدو خلل الأعشاب الجافة خلف الذئب ، وليستنتسكي العجوز يستحث حصانه بعقب سوطه ملتفاً حول الوادي . وبدأت الكلاب تدرك الذئب عندما بلغ الوادي ، ولاح الصقر كخرقة ضاربة الى البياض مدلاة من حقوي الذئب .

هبت الصيحة على أذني غريغوري :

- تعقبه!

فهذب غريغوري بجواده باذلاً جهده بلا طائل ليرى ما يجري أمامه . كانت عيناه تسحان بالدموع ، وأذناه قد أصمهما عذيف الريح . لقد ألهبه

حماس الصيد . فانحنى على رقبة الجواد ، وطار يعدو عدواً جنونياً . وعندما بلغ الوادي ، لم ير الذئب ولا الكلاب . وبعد لحظة لحق به ليستنتسكي . وصاح وهو يكبح فرسه بشدة :
- أين ذهب ؟

- الى الوادي كما أعتقد .

- الحق به من اليسار . تعقبه!

ونخس العجوز خاصرتي الفرس ومضى نحو اليمين . هبط غريغوري في الوادي مشدأ عنانه ، صرخ وصعد الى الجانب الآخر من الوادي . فالحف على حصانه المتصبب عرقاً بالسوط والصياح ، وقطع مقدار فرست ونصف . فكانت التربة الرطبة اللزجة تتطاير تحت الحوافر وتلطمه على وجهه . انعطف الوادي الطويل الى اليمين وتشعب الى ثلاثة فروع ، ولما اجتاز غريغوري الفرع الأول لمح السلسلة الداكنة من الكلاب تطارد الذئب عبر السهب . كان الحيوان قد جوبه من قلب الوادي المكتظ بأشجار البلوط والهور ، فاندفع الى وهدة يكتنفها دغل جاف ونبات شائك .

راح غريغوري يراقب الكلاب والطريدة وهو يستوي واقفاً على الركابين ويمسح بكمه الدموع من عينيه الملفوحتين بالريح . وأدرك وهو ينظر بين لحظة وأخرى صوب اليسار ، إنه في السهب القريب من قرية . وقطعة الأرض غير المستوية التي حرثها مع ناتاليا في الخريف ليست بعيدة . فقاد الجواد عن قصد عبر الأرض المحروثة ، وفتر حماسه للصيد ، عندما كان الحيوان يتعثر أثناء ذلك وتزل حوافره فوق الطين . وأخذ يحث الجواد المتعسر الأنفاس بلا حماس ، وينظر الى سيده ، ليرى إن كان ليستنتسكي يتلفت الى الخلف ، ثم مضى يخب على مهله .

وعلى مبعدة يسيرة استطاع أن يرى مضارب الحارثين المهجورة ، وأبعد من ذلك بقليل شاهد ثلاثة أزواج من الثيران تجر محراثاً فوق التربة المخملية الغضة .

« إنهم من قریتنا ، بلا شك . ولكنها أرض من یاترى ؟ إنها لانیکوشكا
كما أعتقد » وخواوص غریغوري عینیه محاولاً تمييز الرجل الذي يتعقب
المحراث . فی تلك اللحظة سمع غریغوري صوت لیستنسکی یصرخ :
- أمسكوه .

فرأى قوزاقيین اثنين یتركان المحراث ویهرعان لیقطعا الطريق على
الذئب المندفع نحو الوهدة . كان أحدهما یرتدي قبعة مدببة ذات شريط
أحمر ، وقد شد سیرها الى ذقنه ، یلوح بعصا حديدية . وعلى حين غرة
ألقى الذئب فی أخذود حرائة عمیق . فقفز الصقر فوقه وهوى وقد انثنت
قادمته تحته ، وحاولت الكلبة العجوز المقتنية أثره التوقف فجرفت قائمتاها
الخلفیتان التربة الطينية المحروثة ، وتكومت على الذئب فاقدة توازنها .
فجعل الحيوان الطريد یهز رأسه بعنف . فارتدت عنه الكلبة . فحاقت كتلة
الكلاب بالذئب ، وراحت جمیعها تجرجر بالحيوان بضع خطوات على الأرض
المحروثة . ترحل غریغوري من على جواده قبل سیده بنصف دقيقة . وجثا
على ركبتيه ممسكاً بیده سكينه الصيد .

صاح القوزاقي ذو العصا الحديدية بصوت یعرفه غریغوري كل
المعرفة :

- هيا ! من بلعومه ! - وحط وهو یلهث لهاثاً شديداً الى جانب
غریغوري ، وقبض على قادمتي الذئب بيد واحدة ، وهو یجر الكلب الذي
تمكن من بطن الفريسة . وتحسس غریغوري قصبته الهوائية من تحت فرائه
الخشن ، وحزه بالسكين .

فزق لیستنسکی العجوز المزرق الوجه وهو یهبط من السرج
- الكلاب ! الكلاب ! اطردها .

واستطاع غریغوري أن ینحني الكلاب بعد لأي ، ثم دنا من سیده .
على مقربة منهما كان ستيبان استاخوف واقفاً بقبعة شد سیرها الى
ذقنه . كان یقلب العصا الحديدية بیديه وقد اختلج وجهه على نحو غریب .

التفت ليستنتسكي نحو ستيبان وقال :

- من أين أنت ، يا صاحبي ؟

فأجابه ستيبان بعد لحظة تلكؤ ، وقد اقترب خطوة نحو غريغوري :

- من تاتارسكي .

سأله ليستنتسكي :

- وما اسمك ؟

- استاخوف .

- ومتى تعود الى قريتك ؟

- الليلة .

فأشار ليستنتسكي بقدمه الى الذئب . كان فكا الحيوان يختلجان
واهنين اختلاجة الموت ، وتشنجت الى الأعلى إحدى ساقيه الخلفيتين
وارتفعت وقد علقت بها خصلة رمادية من الفرو . وقال :

- اجلب لنا الجثة . سوف أدفع لك .

ومسح العرق من وجهه الأرجواني بوشاحه ، واستدار ، وأنزل من كتفه
السير الضيق المشدود الى القارورة .

مضى غريغوري الى جواده . وعندما وضع قدمه في الركاب ، رنا الى
الخلف . فرأى ستيبان قادماً نحوه يختض بصورة لا إرادية ، وقد شد قبضته
الضخمتين على صدره .

١٨

تجمعت النسوة مساء الجمعة الحزينة في دار بيلاغيا مايدانيكوف
المجاور لدار كورشونوف ، للمسامرة . وكان زوجها غافريلا قد كتب اليها
من لودز يخبرها أنه يسعى للحصول على إجازة بمناسبة عيد الفصح . فبيضت
بيلاغيا الجدران ورتبت الكوخ منذ الاثنين السابق لعيد الفصح ، ولبشت

تنتظر بترقب منذ يوم الخميس ، وتهرع الى الباب لتقف أمام السياج حاسرة الرأس شاحبة وقد بدت على وجهها امارات الحمل . وتتطلع الى الطريق واضعة كفها فوق عينيها علها ترى بعلمها قادماً . كانت حاملاً من زوجها الشرعي الذي عاد من كتيبته في صيف العام الماضي وجلب معه قماشاً بولندياً هدية لها . وقضى معها أربع ليال ، وفي الخامسة سكر ، وجعل يسب بالبولندية والألمانية ، وجلس يغني والدموع تترقرق في مآقية ، أغنية قوزاقية قديمة عن بولندا ، تعود الى عام ١٨٢١ . جاء أصدقاؤه وأخوته لتوديعه وجلسوا معه يغنون ويشربون الفودكا قبل الغداء .

يقولون ان بولندا بلاد غنية جداً ،
لكننا وجدناها فقيرة كمن نزلت عليهم اللعنة .
وفي بولندا هذه يوجد نزل ،
نزل بولندي ، يعود لملك بولندا .
وفي هذا النزل كان ثلاثة فتیان يشربون ،
بروسي ، وبولندي ، وروسي من قوزاق الدون .
شرب البروسي الفودكا ودفع ما عليه .
وشرب البولندي الفودكا ودفع أكثر بقليل .
وشرب القوزاقي ، فعاد النزل فقيراً كما كان .
ثم جعل يتخطى فيسمع صليل مهمازيه
ورأت ساقية المقصف عينيه مسمرتين في عينيها .
« آه ، ياسيدتي العزيزة ، تعالي لتعيشي معي ،
تعالي لتعيشي معي في الدون الهادي ،
فالناس في الدون لا يحبون حياتكم ،
لا ينسجون ، لا يغزلون ، لا يبذرون ، لا يحصدون ،
لا يبذرون ، ولا يحصدون ، ولكنهم يرتدون ملابس أنيقة جداً »

وبعد الغذاء ودع غافريلا عائلته ومضى راكباً . وشرعت بيلاغيا من يومها ذاك ترقب بطنها .

شرحت لئاتاليا كورشونوفا كيف حملت . وقالت : لقد شاهدت حتماً قبل وصول زوجي بيوم أو بيومين ، كنت أسير خلال المرح ، فرأيت بقرتنا العجوز قبالي ، بقرتنا التي بعناها في الصيف الماضي . كانت تسير والحليب يقطر من حلمات ضرعها . فقلت في ذات نفسي « ياإلهي ، أتراني لم أحسن حلبيها » . وفي اليوم التالي جاءت دروزديخا العجوز تطلب حشيشة الدينار ، فقصصت عليها الحلم . فنصحتني بأن أقتطع قطعة من الشمع وألصقها على هيئة كرة وأخذها وأدفعها في روث البقر ، لأن سوء الطالع كان مطلاً من النافذة . فهرعت لأفعل كما قالت . ولكنني لم أجد الشمعة . لقد كانت لدي واحدة بالتأكيد ، ولابد أن الأطفال قد أخذوها ليصطادوا أباشبث . ثم جاء غافريلا ومعه المتاعب . وقبل ذلك كنت قد أمضيت ثلاثة أعوام بلا متاعب ، أما الآن فانظري الي! - ونخست بطنها المنتفخة .

وبرمت بيلاغيا من انتظار زوجها . لقد سئمت وحدتها ، ومن ثم دعت صديقاتها لزيارتها يوم الجمعة وقضاء الأمسية معها . وجاءت ناتاليا ويدها جورب لم تنته بعد من حياكته ، ذلك أن الجد غريشكا اشتد عليه البرد عند حلول الربيع . وكانت مريحة على غير عاداتها ، وضحكت أكثر مما ينبغي لدعابات الأخريات ، محاولة إخفاء اشتياقها لزوجها . وكانت بيلاغيا جالسة على الموقد وقد تدلت ساقاها العاريتان بعروقهما البنفسجية ، وجعلت تمازح فروسيا الشابة السليطة :

كيف ضربت زوجك يافروسيا ؟

- ألا تعرفين كيف ؟ على ظهره ، على رأسه ، وعلى أي مكان أستطيع أن أبلغه بيدي .

- لم أقصد ذلك ، إنما كنت أتساءل كيف حصل ذلك .

فأجابت فروسيا برمة :

- لقد حصل وحسب .

فعلقت امرأة نحيلة طويلة قائمة بتآن :

- ولكن هل سيهدأ لسانك اذا ما كبست زوجك مع امرأة أخرى ؟

- حدثينا عن كل ذلك يا فروسيا .

- ليس لدي ما أقوله...

- أوه ، هيا فكلنا هنا صديقات .

فتبسمت فروسيا قائمة وهي تتفلقشور عباد الشمس في كفها :

- حسناً ، لقد لاحظت نزواته منذ وقت طويل ، ثم أخبرتني إحداهن أنه

كان يتردد على الطاحونة مع فاجرة تأتي من الجانب الآخر من الدون .

فذهبت ووجدتهما في الطاحونة .

فقاطعتها المرأة الناحلة ملتفتة الى ناتاليا :

- هل من أخبار عن رجلك يا ناتاليا ؟

فأجابت هامسة :

- إنه في ياغودنويه .

- وهل تفكرين في العيش معه ؟

فتدخلت مضيفتهن :

- قد تفكر في ذلك ، ولكنه لا يفعل .

فأحست ناتاليا بالدم الحار يفور في وجهها . وأحنت رأسها فوق

جوربها وجعلت تنظر الى النسوة من تحت أهدابها . واذا أيقنت أنها لا

تستطيع أن تخفي عنهن حميا خجلها ، أسقطت كرة الصوف عن عمد

وبارتباك فطن له الجميع . فتدحرجت من حضنها ثم انحنت وراحت تتلمس

بأصابعها أرض الحجرة الباردة .

فنصحتها امرأة بنبرة رثاء ظاهر :

- ابصقي عليه ، أيتها المرأة! سوف تجدين لك نيراً آخر مادامت لك

رقبة .

واختفت حيوية ناتاليا المصطنعة كما تتوارى الشرارة في الريح . وانتقل حديث النسوة الى الثرثرة والقال والقليل . ومضت ناتاليا تحيك بصمت . وأجبرت نفسها على الجلوس حتى انفرط عقد السامرات ، ثم ذهبت أخيراً الى البيت وفي ذهنها قرار لم يختمر تماماً . فقد دفعها الخزي من مصيرها المجهول الى خطوة أخرى . ذلك انها مازالت لا تريد أن تصدق أن غريغوري قد هجرها الى الأبد ، وهي مستعدة لأن تغفر له وتستعيده . لقد قررت أن ترسل له خطاباً بصورة خفية ، لتؤكد ما إذا كان قد هجرها الى الأبد أو أنه قد يغير رأيه . وعندما عادت الى البيت في ساعة متأخرة وجدت غريشكا العجوز جالساً في غرفته الصغيرة يقرأ في نسخة قديمة بالية من الانجيل مجلدة بجلد مدهون . وكان أبوها في المطبخ يصلح شبكة لصيد الأسماك ويصغي الى قصة يرويها ميخاي عن جريمة قتل قديمة . وكانت والدتها قد أرقدت الطفلتين في الفراش ونامت على حافة الموقد ، وقد واجه عقبا قدميها المسودان الباب . فخلعت ناتاليا سترتها وجالت في الغرف دونما هدف . وفي احدى أركان الغرفة الكبيرة كان ثمة كومة من القنب المعد للبذر ، وكان بالوسع سماع الفئران تتراكمض وتصيء .

توقفت هنيهة في غرفة جدها بالقرب من طاولة صغيرة وهي تتفرس باكتئاب في كومة الكتب الدينية تحت الايقونات .

- جدي ، هل لديك شيء من الورق ؟

فتساءل الجد مقطب الجبين ناظراً اليها فوق النظارة : - أي صنف من الورق ؟

- ورق للكتابة .

فتلمس العجوز كتاباً للتراثيل وجر منه طبقة مدعوكة من الورق انبعث منها رائحة البخور القوية .

- وقلم ؟

- أسألي أباك . ابتعدي يا عزيزتي ، ولا تزعجيني .

وحصلت على عقب قلم من أبيها ، وجلست الى المنضدة تتصارع في ذهنها الأفكار التي سامتها العذاب ردحاً طويلاً من الزمن ، الأفكار التي أهاجت ألماً يحذر قلبها ويتأكله .
ومضت تكتب :

« غريغوري بانتلايش ! »

قل لي كيف لي أن أعيش ، وهل ضاعت حياتي أم لا . لقد رحلت دون أن تقول لي كلمة واحدة . لم أقترف ذنباً بحقك ، ولقد لبثت انتظرك لكي تطلق أساري ، لكي تقول أنك رحلت الى غير رجعة ، ولكنك مضيت عنى وها أنت صامت لا تريم كالقبر .

ظننت أنك رحلت في لحظة انفعال ، وانتظرت عودتك ، ولكنني لا أريد أن أحشر نفسي بينكما . أن يسحق انسان واحد في الأرض خير من أن يسحق اثنان . ارحمني لآخر مرة واكتب . وسأعلم آنذاك ما هو مصيري ، فأنا الآن أقف في منتصف الطريق .

لا تغضب مني ، يا غريشا ، بحب المسيح .
ناتاليا »

وفي الصباح التالي ، وعدت هيت - بابا أن تعطيه فودكا وأقنعتة بالشخص الى ياغودنويه حاملاً الرسالة . فقاد هيت - بابا حصاناً الى ساحة درس الحبوب ، وقد استبد به ترقبه لنوبة السكر وانطلق على الحصان غير المسرج الى ياغودنويه دون أن يخبر سيده بذلك . كان يبداً أخرق فوق حصانه ، كأى غريب بين فرسان قوزاق . كان مرفقاه الممزقان يرتجان أثناء خبئه . وكان أطفال القوزاق الذين يلعبون في الشارع يلاحقونه بصيحات السخرية :

- الاوكراني القذر !

- حاذر ألا تقع !

- كأنه كلب على سور !

وعاد عشية الليل ، وقد جلب معه ورقة زرقاء مما يلف به السكر
القند ، وغمز لئاتاليا وهو يخرج الورقة :

- كان الطريق فظيماً . لقد رجني حتى كاد أن يخلع كبدي .
قرأت ناتاليا الجواب واستحال وجهها قاتماً . لقد نفذت الكلمات الأربع
المخريشة على الورقة الى قلبها كأسنان حادة... .
« عيشي وحيدة . غريغوري ميليخوف » .

وبسرعة ، كما لو لم تكن لتثق بقواها ، مضت ناتاليا الى البيت وارتمت
على سريرها . كانت أمها تشعل الموقد استعداداً لتلك الليلة ، لكي تطبخ في
بكرة صباح أحد الفصح ولتكون كعكة العيد جاهزة في الوقت المناسب .
نادت على ناتاليا :

- ناتاليا تعالي ساعديني .
- ألم بي صداع ، ياماما . سأضطجع قليلاً .
فأطلت أمها برأسها خلال الباب وقالت :
- اشربي شيئاً من ماء الكامخ . وسيشفيك في الحال . فلعلت ناتاليا
شفتيها بلسانها الجاف ولم تجب .

لبثت مستلقية حتى المساء ، ورأسها مغطى بشال صوفي دافئ
وجسمها المكتوم يهتز بقشعريرة خفيفة . وكان ميرون غريغوريتش
وغريشاكا على وشك أن يمضيا الى الكنيسة حينما نهضت وذهبت الى
المطبخ . كانت حبات العرق تلمع على صدغيها تحت شعرها الناعم السبط
وقد ترقرت عيناها بغشاوة لزجة غير طبيعية .

وبينما كان ميرون غريغوريتش يشد أزراره الكثيرة على سرواله
العريض رنا الى ابنته وقال :

- وقت غير مناسب لمرضك ، أيتها البنت . تعالي معنا الى القداس .
- اذهبوا ، وسأتي فيما بعد .

- لعلك ستأتين حينما نكون على أهبة الرجوع ؟

- لا ، سآتي حينما أتم ارتداء ملابسي .

فخرج الرجلان ، وتركوا لوكينشنا وناتاليا في البيت . وجعلت ناتاليا في
لبيت تروح وتغدو على غير هدى بين الصندوق والسرير ، وتحملق بعينين
ساردتين في كومة الملابس المبعثرة في الصندوق ، وتند عن شفتيها
لمهمة ، وتدور في ذهنها نفس الأفكار الموحجة . وظنت لوكينشنا أن ناتاليا
م تستطع أن تقرر أي لباس تلبس ، فاقترحت عليها بحنان أمومي : « ارتدى
تنورتى الزرقاء يا عزيزتي . ستناسبك تماماً . أتريدين أن أحضرها لك ؟ » .

لم يكن لدى ناتاليا ملابس جديدة لعيد الفصح ، وحين تذكرت
لوكينشنا كيف كانت ابنتها قبل زواجها تحب في الأعياد أن ترتدي تنورتها
فضيقة ذات اللون الأزرق الغامق ، الحت عليها أن تأخذها وهي تعزو قلقها
الى حيرتها حول ما سترتديه .

- كلا ، سأمضي بهذه ! - وأخرجت ناتاليا بعناية تنورتها الخضراء ،
تذكرت فجأة انها كانت ترتديها يوم زارها غريغوري أول مرة كعريسها
لمقبل ، وحين أخجلها بتلك القبله الطائرة الأولى قرب مخزن الحبوب .
انكفأت على غطاء الصندوق المرفوع وهي تختص بالنشيج .

فصاحت أمها ضاربة يداً بيد :

- ناتاليا ، ما خطبك ؟

فخنقت ناتاليا رغبتها في العياط ، واستعادت سيطرتها على نفسها
أطلقت ضحكة غليظة متخشبة .

- لا أدري ما ألم بي اليوم

- آه ، ناتاليا ، لقد لاحظت

فصرخت بغیظ مفاجئ . وهي تدعك تنورتها الخضراء بأصابعها :

- حسناً ، وماذا لاحظت ، ياماما ؟

- أنت لا تستطيعين المضي على هذا المنوال ، أنت بحاجة الى زوج .

- كفاني ما لقيت من زوج واحد !

ومضت الى غرفتها ، وبسرعة عادت الى المطبخ مرتدية ملابسها ،
نحيفة كالفتيات الصغيرات ، وعلى وجنتيها الشاحبتين تورد أسيان قاتم .
فقال لها أمها :

- امضي قبلي ، فلست مستعدة بعد .

فدست ناتاليا منديلاً في كمها وخرجت ، وحملت الريح اليها هدير
الجليد الطافي والمذاق الدبق لרטوبة الذوبان . ومضت رافعة تنورتها قليلاً
بيدها اليسرى متمسكة طريقها عبر البرك الزرق اللؤلؤية حتى وصلت
الكنيسة . وكانت خلال الطريق تحاول أن تستعيد هدوءها النسبي السابق
بالتفكير في العيد ، وفي كل شيء بشكل مبهم وخاطف . غير أن أفكارها
ارتدت بعناد الى قطعة الورق المخبأة في صدرها ، والى غريغوري والمرأة
السعيدة التي كانت آنئذ تضحك منها ملء قلبها ، ولربما في اشفاق عليها
وحينما دلفت الى باحة الكنيسة اعترض طريقها بعض الفتيان ، فمالت
عنهم وتناهى الهمس الى أذنها :

- من تكون ؟ رأيتهما ؟

- ناتاليا كورشونوفا .

- يقولون انها مفتوقة . ولهذا هجرها زوجها .

- غير صحيح . كانت تعبت مع حميها ، باتتلاي الأعرج .

- ها ، هكذا ! ولهذا هرب غريغوري من منزله ؟

- صحيح . وهي لا تزال على علاقتها بباتتلاي...

ووصلت الى سقيفة باب الكنيسة وهي تتعثر على حجارة الأرض الوعرة
يتبعها الهمس الداعر القذر . وهأهأت الفتيات الواقفات في السقيفة حينما
استدارت وغذت السير الى البوابة الأخرى . وهرعت الى البيت وهي تترنج
كأنها ثملة . وعند بوابة الفناء جذبت نفساً سريعاً ثم دخلت تتعثر بأذيال
تنورتها وتعض على شفتيها حتى نز منهما الدم . وكان باب الحظيرة
المفتوح فاغراً فاه عن سواد مظلم خلل العتمة البنفسجية . وبإرادة صلبة

استجمعت بقية قواها وركضت الى الباب وخطت مسرعة عبر العتبة . كانت الحظيرة باردة جافة ، تفوح منها رائحة الجلد في عدة الخيل والتبن الزنخ . وتلمست طريقها مترنحة الى إحدى الزوايا ، من غير إحساس أو تفكير ، يستحثها تشوق مظلّم انشب مخبئه في روحها اليانسة المهانة . وهناك التقطت محشأً من مقبضه ، ورفعت الشفرة - وكانت حركاتها تنم عن ثقة واحكام - والقت برأسها الى الوراء ، وفي فورة جذلى من العزم ، فجائية ، شرطت بلعومها بنصله . فهوت كما لو ضربتها ضربة وصعقها ألم وحشي لهاب ، ولما أدركت على نحو مبهم أنها لم تنجز ماعزمت عليه كل الإنجاز ، تحاملت على الأربع ، ثم على ركبتها . وبسرعة فكت أزرار سترتها بأصابع مرتعشة ، وقد أفزعها الدم المنهمر على صدرها ، وازاحت جانباً صدرها القوي النافر ، بيد وبالأخرى سدّدت رأس الشفرة . وزحفت على ركبتها نحو الحائط ، ودفعت عليه الطرف غير الحاد للشفرة . وألقت ذراعيها وراء رأسها ، ودفعت صدرها بثبات الى الأمام ، الى الأمام... وشعرت وسمعت بوضوح بالحسحسة المقززة ، التي تشبه حسحسة الكرب ، وهي تنبعث من اللحم المتمزق ، وسرت موجة متزايدة من الألم الحاد على صدرها والى بلعومها ، غارزة إبراً تطن في أذنيها...

صر باب البيت . وتلمست لوكينشنا طريقها هابطة درجات الباب ومن برج الكنيسة انبعثت دقات ناقوسها المنتظمة . وكانت الطافيات الضخمة الجامحة تنحدر على الدون ، وينبعث منها هدير كاسح مستديم . وكان النهر الفياض ، الطلق الطروب ، يحمل أصفاده الجليدية بعيداً الى بحر آزوف .

تقدم ستيبان من غريغوري ، والتصق بخاصرة الحصان الحصان العرقه وقد أمسك بركابه .

- كيف حالك ، يا غريغوري ؟

- الحمد لله!

- فيم تفكر ؟ ها ؟

- فيم عساي أن أفكر ؟

- لقد انتزعت زوجة رجل آخر... أتقضي وطرك منها ؟

- دع الركاب .

- لا ترتعب! لن أضربك .

فاحمر وجه غريغوري وعلا صوته :

- لست خائفاً . أقلع عن هذا!

- لن أقاتلك اليوم . لا أريد... لكن تذكر كلماتي ياغريغوري ، لسوف

أقتلك عاجلاً أم آجلاً .

-«سنرى!» كما يقول الأعمى!

- تذكر كلماتي جيداً . لقد أسأت اليّ . لقد خصيت حياتي كما يخصى

خنزير . انظر هنالك...

ونشر يديه ، وراحته الخشتان مبسوطتان الى أعلى . - أنا احترث ،

ويعلم الله لأيما غاية . أنا بحاجة الى ذلك لنفسى ؟

بوسعي أن أدبر حالي قليلاً ، وأقضي الشتاء بهذه الوسيلة . إنها الوحدة

وحدها هي مايرهق كاهلي . لقد أسأت اليّ إساءة بالغة ، يا غريغوري .

- لا جدوى من شكواك اليّ . فالشيطان لا يفهم الجوعان .

فقال ستيبان موافقاً وهو يحدق في وجه غريغوري :

- هذا صحيح .

وعلى حين غرة انشق فمه عن ابتسامة صبيانية ساذجة ثنت زوايا عينيه

الى شقوق صغيرة :

- إنني آسف لشيء واحد فقط ، أيها الفتى ، آسف جداً... أتذكر السنة

الأخيرة ، قتال القرية في عيد المرفع ؟

- لا ، لا أذكر .

- يوم قتلوا قصار الأقمشة . وحين قاتل العزاب المتزوجين ، الا تتذكر ، هل تذكر كيف طاردتك ؟ كنت صغيراً وضعيفاً آنذاك ، كنبته أسل خضراء بالقياس لي . تخليت عنك حينئذ ، ولو كنت قد ضربتك أثناء هربك ، لكنت قد شطرتك نصفين . عدوت بسرعة ، كأنك قطعة من المطاط . ولو كنت قد لطمتك بقوة على أضلاعك لما كنت اليوم حياً ترزق في هذه الدنيا .
- لا تجعل هذا يقلقك ، فلسوف ننازل بعضنا مرة أخرى .

ومسح ستيبان جبينه كمن يحاول أن يستذكر شيئاً ما . ونادى ليستنتسكي العجوز غريغوري وهو يقود حصانه من عنانه . ومشى ستيبان الى جانب الجواد وهو ما يزال ممسكاً الركاب بيده . ولبث غريغوري يراقب كل حركة تبدر منه ، ولاحظ شارب ستيبان الكستناني المتهدل ، والدغلة الكثيفة في ذقنه الذي لم يخلق منذ أجل بعيد ، والسير الجلدي المتشقق في قبعته العسكرية . كان وجهه حزيناً غريباً بصورة مذهلة ، وقد تركت مسارب العرق البيض آثارها عليه . وفيما كان غريغوري ينظر ، أحس وكأنه يشخص من قمة تل الى السهب البعيد الملع بضباب ممطر . كان ثمة كلال وفراغ يغشيان قسمات ستيبان الذي تخلف وراء غريغوري دون كلمة وداع ، فمضى غريغوري بحصانه متمهلاً .

- انتظر قليلاً . وكيف... كيف حال اكسينيا ؟

فأجاب غريغوري وهو يضرب بسوطه كتلة من التراب من على جزمته :
- لا بأس .

ثم أوقف الجواد ونظر خلفه . كان ستيبان واقفاً وقدماه منفرجتان عن بعضهما كثيراً ، يلوك عوداً بين أسنانه . وأحس غريغوري على حين غرة بإشفاق عليه لاحد له ، وما هي الا لحظة حتى طغت الغيرة عليه . فصاح وهو يستدير على سرجه :

- إنها لا تفتقدك ، فلا تقلق ؟

- أهو كذلك ؟

وهوى غريغوري بسوطه على الجواد فيما بين أذنيه وابتعد يجري به
دون أن يجيب .

٢٠

لم تبح اكسينيا بحملها لغريغوري الا في الشهر السادس ، حينما لم
يعد في مقدورها أن تخفيه عنه . لقد ظلت صامته طيلة ذلك الوقت لأنها
كانت تخشى الا يصدق بأن الجنين الذي تحمله هو ابنه . كان تتريث كما لو
تنتظر شيئاً وكان قلبها ينقبض من نوبات الأسى والرعب .

وخلال الأشهر الأولى كان الغميان ينتابها من اللحم دون أن يلحظ
غريغوري ، وحتى لو لحظة لما قدر بواعثه .

واعتمل النبأ في سريرتها ذات مساء فأخبرته به ، وهي تتفرس قلقة في
وجهه طيلة الوقت تتلمس أي تبدل في قسماته . غير أنه استدار نحو النافذة
وتنحى متضيقاً .

- لم تخبريني من قبل ؟

- كنت خائفة ، ياغريشا . ظننت أنك قد تلفظني...

فسأل وهو ينقر بأصابعه على ظهر السرير :

- أسيكون ذلك قريباً ؟

- بداية آب ، على ماأظن .

- أهو ابن ستيبان ؟

- كلا ، إنه ابنك!

- هكذا تزعمين ؟

- فلتقدر أنت بنفسك . إنه يوم قطع الأخشاب...

- لا تصطنعي الأشياء يااكسينيا! حتى لو كان ابن ستيبان ، فما عساك

أن تفعلي ؟ إن ما أريد هو جواب صادق :

فجلست اكسينيا على المصطبة وهي تذرف دموعاً مغبضة ، وانفجرت في همس ضار :

- لقد عشت معه سنين عديدة ، ولم يحصل شيء أبداً! فكر بنفسك! إنني لم أكن امرأة عليلة... لابد أنه جاءني منك... وها إنك...

لم يتحدث غريغوري بأكثر من ذلك عن الموضوع . وطراً على موقفه من اكسينيا خيط جديد من الترفع الحذر والشفقة المشوبة بشيء من السخرية ، فانطوت على نفسها لا تسأله معروفاً . وفي أشهر الصيف فقدت ملامحها الجميلة ، لكن الحمل لم يؤثر على قوامها البديع الا قليلاً ، فقد اخفى امتلاؤها العام وضعها الجديد ، وبالرغم مما بدا على وجهها من نحول فقد اكتسب جمالاً جديداً بعينيها المتألفتين بدفء . واستطاعت أن تدبر بسهولة عملها ، كطاهية ، لا سيما وان عدد العمال الذين استخدموا في الضيعة كان أقل من السابق .

صار ساشكا العجوز مولعاً باكسينيا ، ذلك الولوج المتقلب الذي يميز الشيخوخة . ربما لأنها كانت ترعاه كما ترعى البنت أباه ، فكانت تغسل له أغطيته ، وترتق قمصانه وتمنحه لقماً سهلة المضغ على المائدة . وكان ساشكا حينما ينتهي من رعاية الخيل ، يذهب الى المطبخ ، ليجلب الماء ويعصد البطاطة للخنازير ، ويقوم بشتى الأعمال الصغيرة متوثباً حولها وملوحاً بيديه وهو يكشف عن لثته الجرداء ويقول :

- أنت تحسنين اليّ ، ولسوف أكافئك . سأفعل أي شيء من أجلك ، يا أكسينيا . لقد تلفت حياتي من غير امرأة تعنى بي ، كان القمل يلتهمني . لو احتجت الى أي شيء ، فما عليك الا أن تسأليني .

كان يفغيني نيكولايفتش قد رتب أمر اعفاء حوذيته من معسكر التدريب الربيعي . فعمل غريغوري في الحش ، ومن حين لآخر كان يوصل ليستنتسكي العجوز بمركبة الى مركز المنطقة ، ويمضي بقية وقته مع سيده في صيد طيور الجباري . وبدأت الحياة السهلة الرضية تفسد طباعه ، فأمسى

كسولاً بديناً ، وبدا أكبر سناً من حقيقة عمره . وكان الشيء الوحيد الذي يسبب له القلق هو التفكير بخدمته العسكرية المقبلة ، فلم يكن لديه حصان ولا عدة ، ولم يكن ليأمل أن يحصل على أي شيء من أبيه . فجعل يدخر الأجر الذي يستلمه عن عمله وعمل اكسينيا ، حتى حرم نفسه التبغ آملاً أن يستطيع ابتياع حصان دون اضطراره الى الاستجداء من أبيه . وكان ليستنتسكي العجوز قد وعده خيراً كذلك . وسرعان ما تحقق هاجس غريغوري بأن أباه لن يعطيه شيئاً . ففي أواخر حزيران جاء بيوتر لزيارة أخيه ، وذكر في مجرى الحديث أن أباه لم يزل غاضباً كالسابق ، وإنه أعلن الا يساعده في الحصول على حصان ، وقال : « فليذهب الى القيادة المحلية ليحصل على حصان » .

فقال غريغوري :

- ليس ثمة ما يدعوه للقلق ، فسأذهب لاداء خدمتي العسكرية على حصاني الخاص ، - وشدد على كلمة « الخاص » .

فسأله بيوتر مبتسماً وهو يلوك شاربه :

- وكيف ستحصل عليه ؟ هل ستشتغل راقصاً للحصول على ثمنه ؟

- سأرقص من أجله ، أو استجدي ، وإذا لم أستطع الحصول عليه بهذه الوسيلة فسوف أسرقه .

- يا للفتى الشاطر!

فقال غريغوري بلهجة أكثر جدية :

- سأبتاع حصاناً بأجوري .

ومضى بيوتر في جلسته على درجات العتبة يسأل غريغوري عن عمله وطعامه وأجوره ، وهو يلوك شاربه ويهز رأسه استحساناً ، وبعد أن أتم استفساراته قال لأخيه وهو يستدير لينصرف :

- خير لك أن تعود ، فلا جدوى من عنادك . أتحسب أنك ستحصل على أجر أعلى بهذه الطريقة ؟

- لا ، لا أظن .
- أثنوي البقاء معها ؟
- مع من ؟
- مع هذه المرأة ؟
- أجل . ولم لا ؟
- أوه ، كنت أتساءل وحسب .
- وبينما مضى غريغوري ليودع أخاه ، سأله أخيراً :
- وكيف الأحوال في البيت ؟
- فتضحك بيوتر فيما كان يحل فرسه من درابزين الدرجات ، وقال :
- لك بيوت بقدر ما للأرنب من جحورا كل شيء على مايرام . أمي
- تفتقدك . وقد حششنا ثلاثة أحمال من التبن .
- وتفرس غريغوري بانفعال في الفرس العجوز التي كان يمتطيها أخوه :
- ألم تلد مهرأ هذا العام ؟
- كلا ، أيها الأخ ، فهي عاقر . ولكن الكميت التي اشتريناها من
- كريستويينا ولدت .
- ووليدها .
- فحل جيد طويل الساق قوي الرسغ ، وذو صدر متين . وسيغدو جواداً
- جيداً .
- فتنهد غريغوري ، وقال :
- إنني أفتقد القرية يا بيوتر . أفتقد الدون . فلست تجد ماء يجري
- هنا . إنه جحر موحش !
- فأجاب بيوتر وهو يلقي بطنه على ظهر الفرس الهزيل :
- تعال زرنا .
- يوماً ما .
- حسناً . مع السلامة .

- رحلة طيبة .

وكان بيوتر قد ابتعد عن الفناء حينما تذكر شيئاً وصاح على غريغوري الذي كان لا يزال واقفاً على الدرجات :

- ناتاليا... لقد نسيت... شيء فظيع...

لكن الريح التي كانت تحوم فوق الفناء مثل النسر حملت نهاية الجملة بعيداً عن أذني غريغوري . وتلفع بيوتر وفرسه بغبار مخملي ، فلوح غريغوري بيده ومضى الى الاصطبلات .

كان الصيف جافاً كالعظام . ثم سقط مطر قليل فنضج القمح مبكراً . وما إن تم خزن الذرة ، حتى نضج الشعير واصفر لونه ، فخرج غريغوري والعمال المياومون الأربعة لحصاده .

وكانت اكسينيا قد انتهت عملها مبكرة ذلك اليوم فسألت غريغوري أن يصطحبها معه . وحاول أن يثنيها عن عزمها قائلاً :

- الأفضل أن تبقي في البيت فما الحاجة إليك هناك ؟

ولكنها ألحت وألقت العصا على رأسها بسرعة ، وخرجت تعدو حتى لحقت بالعربة التي ركب فيها الرجال .

وقد وقع أثناء الحصاد الحادث الذي كانت تتطلع اليه اكسينيا بتلهف ونفاد صبر مشوب بالفرح ، والذي كان غريغوري يتوقعه بخوف مبهم . واذا شعرت بالأعراض ، ألقت عنها المجرفة واستلقت تحت كومة من حزم الشعير . وسرعان ما جاءها المخاض .

فتمددت متفلطحة على الأرض وهي تعض على لسانها المسود مر بها العمال وهم على آلة الحصاد عند المنعطف ، وحثوا الخيل صارخين . وصرخ بها أحدهم ، وهو شاب تعلو أنفه دملة متقيحة وقد امتلأ وجهه الأصفر بتجاعيد لا حصر لها بدت كحفر على الخشب :

- هي ، أنت! انهضي وإلا ذبت!

فأناب غريغوري أحد الرجال محله على الآلة وعبر إليها .

- ما الخبر ؟

فقال بصوت مبحوح وشفها تلتويان بغير إرادتها :

- جاءني المخاض...

- قلت لك ألا تأتي ، يا قحبة الشيطان! ما عسانا أن نفعل الآن ؟

- لا تغضب مني ، يا غريشا!.. آه!.. آه!.. غريشا ، شد الحصان الى

العربة . لا بد أن أذهب الى البيت... كيف يمكنني ، هنا... والقوزاق .

وند عنها أنين حينما اعتصرها الألم مثل طوق حديدي .

فركض غريغوري ليأتي بالحصان الذي يرعى في منخفض على بعد

قليل ، وحينما عاد بالعربة . كانت اكسينيا قد زحفت جانباً وحبّت على

أطرافها الأربع ، وألقت برأسها في كومة من الشعر المغبر ، وجعلت تبصق

السنابل الشائكة التي كانت قد مضغتها في معاناتها . وركزت عينيها

المتسعتين على غريغوري في غيبوبة ، وغرزت أسنانها في صدريتها

المدعوكّة كي لا يسمع العمال صراخها المريع النفاذ .

ورفعها غريغوري الى العربة وساق الحصان مسرعاً صوب الضيعة .

انبعث من اكسينيا صراخ فيما كان رأسها يرتطم بقاع العربة : « آه! لا

تسرع... آه ، الموت! انك... ترجع... ني » .

واعمل غريغوري السوط بصمت ، ولوح بالأعنة فوق رأسه دون أن

ينظر الى الورا ، حيث كان يزحف الى سمعه عويل مبحوح متقطع .

وجعلت اكسينيا تتوثب هنا وهناك في العربة المترنحة من جانب لآخر

على الطريق غير المطروق ، والمليء بالعثرات ، وهي تضغط براحتيها على

خديها ، وعيناها الجزعتان الجاحظتان تدوران في محجريهما بصورة

وحشية . أبقى غريغوري الحصان على سرعته ، وقوس عريش العربة يتأرجح

صاعداً هابطاً أمام عينيها ، حاجباً سحابة بيضاء ناصعة كانت تتدلى من

السماء كأنها بلور مصقول . ومضت لحظة توقفت خلالها اكسينيا عن عويلها

الصارخ ، فتعالت قرقرة العجلات ، ومضى رأسها يرتطم بشدة على خشبة

الأرضية . لم ينتبه غريغوري لصمتها في البداية ، لكنه عاد فنظر الى الخلف . كانت اكسينيا مستلقية ، وقد تشوه وجهها بصورة مرعبة ، وانضغط خدها بقوة ، على جانب بالعربة ، وفكاهما يعتملان مثل سمكة ملقاة على الشاطئ . وكان العرق يسيل من جبينها الى محجري عينيها الغائرين . فرفع رأسها واضعاً تحته قبعته المدعوك . فقالت وهي تنظر اليه بطرف عينيها :
- ساموت ، يا غريشا . وينتهي أمري !

فارتعش غريغوري ، وسرت قشعريرة باردة في جسده حتى أصابع قدميه . وراح ينقب دون جدوى عن كلمات تشجيع وطمأنينة . فالتوت شفتاه بقوة وانفجر : « كفى هراء ، أيتها الحمقاء ! » ثم هز رأسه ، ومال الى الأمام وجعل يعصر قدميه المثنية : « اكسينيا يا حمامتي الصغيرة » ...
خبا الألم وانجاب عن اكسينيا لحظة ، ثم عاودها بقوة مضاعفة . تقوس جسمها وإذا شعرت بشيء يمزق بطنها ، أرسلت صرخة مدوية مرعبة اخترقت أذني غريغوري . فألهب الحصان بسوطه في نوبه من جنون . ثم تنهى إليه صوته ضعیفاً واهناً فوق قرعة العجلات :
غريشا .

فكبح جماح الحصان ، وأدار رأسه . كانت اكسينيا متمددة في بركة من الدم وذراعاها منشورتان ، وتحت تنورتها شيء حي يتململ ويصوص . فقفز غريغوري كالمجنون من العربة وكبا على مؤخرتها . وعندما حلق في فم اكسينيا اللاهث الملهب استطاع أن يخمن هذه الكلمات أكثر مما سمعها :
- اقضم الحبل... اربطه بخيط... من قميصك .

وبأصابع مرتعشة مزق خصلاً من الخيوط من كم قميصه القطني ثم قضم حبل المشيمة ، وهو يغلق عينيهِ بقوة حتى آلمته ، وربط بعناية طرفه النازف بالخيط .

كانت ضيعة ياغودنويه نائنة كالورم بجانب الوادي الفسيح الجاف .
والريح تهب متغيرة الاتجاه ، من الشمال أو الجنوب ، وتطفو الشمس في
بياض السماء الحائل الى الزرقة ، ويحل الخريف بحفيفه للأوراق الساقطة في
أعقاب الصيف ، وينهال الشتاء بصقيعه وثلجه ، غير أن ياغودنويه تبقى في
أحضان الملل الهامد . هكذا مرت الأيام ، واحداً تلو الآخر ، متشابهة
كالتوائم ، والضيعة ترزح منقطعة عن العالم كعهدها .

ما فتىء البط الهامس الأسود ، تحيط بعيونه حلقات حمر كالعوينات ،
يتهاذى في أرجاء الفناء ، والدجاج الحبشي منتشرأ كالمطر المنقوط ،
والطواويس زاهية الريش تتصادح مبحوحة الصوت كالقطط فوق سطح
الاسطبل ، كان الجنرال العجوز مولعاً بشتى أنواع الطيور ، حتى أنه يحتفظ
بكركي كسيح . وفي شهر تشرين الثاني ، حين يتناهى اليه نداء الكراكي
الخافت ، وهي طائفة نحو الجنوب ، يعتصر الكركي نياط نياط القلب
بصيحات الحنين النحاسية الجرس . ولكنه لم يقو على الطيران ، فقد تدلى
أحد جناحيه الى جنبه دونما نفع . وفيما كان الجنرال يقف الى النافذة
ويرقب الطير وهو يمد عنقه ويقفز مرفرفاً على الأرض ، يقهقه فاغراً فمه
الكبير تحت شاربه المتهدل الأشيب ، وكانت نبرة ضحكاته العميقة تتجاوب
في القاعة الخاوية ذات الجدران البيض .

ومضى فينيامين شامخاً برأسه الأشعث كدأبه أبداً ، ينفق أياماً بطولها
وحيداً في غرفة الانتظار يلعب الورق مع نفسه . وكان تيقن كعده يغار على
خليته ذات الوجه المجذور ، من ساشكا ، والعمال المياومين ، وغريغوري ،
ورب البيت ، وحتى من الكركي الذي خصته لوكيريا بالبرقة التي تفيض من
قلبها الأرملة . وكان ساشكا العجوز يسكر بين آونة وأخرى ، فيستجدي
قطعاً من فئة العشرين كوبيكا تحت نافذة ليستتسكي .

وطوال الوقت الذي أمضاه غريغوري في ياغودنويه لم يقع سوى حادثين اشاعا الحركة في السبات الذي ينيخ بكلكله على حياة الضيعة الرتيبة الوسنانه : مولد طفلة اكسينيا ، وفقدان ذكر الأوز النفيس . وقد ألف سكان ياغودنويه الطفلة بسرعة ، وحين عثروا على ريش الأوز في المرج ، استنتجوا أن ثعلباً قد اختطفه ، ثم مالبثوا أن استكانوا من جديد الى حياتهم الوداعة .

كان رب البيت ، حين يستيقظ صباحاً ، يستدعي فينيامين ويسأله :
- هل رأيت حلماً في الليلة الماضية ؟
- ماذا ، طبعاً رأيت حلماً رائعاً .

فيأمره ليستنتسكي باقتضاب وهو يلف لنفسه سيكارة :
- قصه علي .

فيروي فينيامين الحلم . وإذا ما تبين ليستنتسكي أنه غير ممتع أو مرعب ، فإن الغضب ينتابه ، ويقول :
- أيها الأبله! إن الاحلام السخيفة تأود الحمقى .

وشرع فينيامين يلفق أحلاماً مرحة مائعة . ولكن ذلك كان عليه عسيراً . فبدأ يخلق الأحلام قبل موعدها ببضعة أيام ، جالساً على صندوقه يخلط الورق ، وكان منتفشاً دهنياً كخدي لاعبه . وكانت عيناه تحدقان ساهمتين ، فيهرق ذهنه الى حد أنه لم يعد يرى أحلاماً حقيقية على الإطلاق . وحين كان يفيق في الصباح يجهد ذاكرته في محاولة استعادة ما رآه في الحلم ، ولكنه لا يرى إلا ظلاماً ، ظلاماً دامساً . إنه لم ير حلماً ، لم ير في نومه أي وجه .

وسرعان ما نضبت جعبة فينيامين من الأكاذيب الساذجة فصار الغضب ينتاب سيده حين يمسك به متلبساً بتكرار ما رواه :

- لقد رويت لي يوم الخميس الماضي ذلك الحلم حول الحصان ، لعنة الله عليك!

فيكذب فينيامين بهدوء :

- لقد رأيت الحلم ثانية ، يا نيكولاي اليكسييتش! إني صادق والله ،
لقد رأيتُه ثانية .

وفي كانون الأول استدعي غريغوري الى إدارة المنطقة في
فيشينسكايا . واستلم هناك مئة روبل لشراء حصان ، وطلب اليه أن يحضر
الى مركز التجنيد في قرية مانكوفو بعد عيد الميلاد بيومين .

عاد الى ياغودنويه وقد انتابه اضطراب ملحوظ . كان عيد الميلاد على
الأبواب ، ولم يكن لديه شيء جاهز . فاشتري حصاناً بمئة وأربعين روبلاً من
المال الذي تسلمه من السلطات إضافة الى ما ادخره . وقد اصطحب ساشكا
معه فاشترى حصاناً لا بأس بمظهره ، كميتا ، له من العمر ست سنوات ، فيه
عيب خفي . ومرر ساشكا العجوز أصابعه في ثنايا لحيته وقال :
- لن تحصل على واحد أرخص منه ، ثم إن السلطات لن ترى العيب فيه!
فليس لديهم مهارة كافية .

وعاد غريغوري الى ياغودنويه على ظهر الحصان ، فعجم عوده . وعلى
غير انتظار قدم بانتلاي بروكوفتش الى ياغودنويه قبل عيد الميلاد
بأسبوع . لم يدخل عربته الى الفناء ، بل ربط حصانه والعربة قرب البوابة ،
ثم ظلع الى جناح الخدم ، سالخاً بلورات الثلج عن لحيته التي تدلت كالخشبة
السوداء فوق ياقة معطفه . وكان غريغوري يتطلع خلال الشباك صدفة فرأى
والده قادماً . فارتبك واندesh :

- يا للعجب... إنه أبي!

ولأمر ما ، هرعت اكسينيا الى المهد ودثرت الطفلة . دخل بانتلاي
بركوفتش الغرفة آتياً معه بنفحة من الهواء البارد . ورفع قبعته الفرو ورسم
إشارة الصليب على نفسه أمام الأيقونة ، ثم أجال بنظراته في أرجاء الغرفة
ببطء :

- صحة طيبة!

فأجابه غريغوري وهو ينهض من المصطبة ويخطو الى وسط الغرفة قائلاً : « صباح الخير ، يا أبتى » . مد بانتلاي بركوفيتش الى غريغوري يداً باردة ، وجلس على حافة المصطبة وهو يلف نفسه بالفروة ، دون أن ينظر الى اكسينيا التي وقفت قرب المهد ساكنة لا تأتي حراكاً .

- هل تنهياً للجندية ؟

- بالطبع .

ثم صمت بروكوفتش وهو يحدق في غريغوري بنظرات متفحصة .

- اخلع عنك ثيابك ، يا أبتى ، لابد أنك متجمد .

- لا يهم ذلك .

- سنعد السماور .

- شكراً لك - ثم حك العجوز بظفره بقعة وحل متيبسة من معطفه ،

وأضاف : - جلبت تجهيزاتك : معطفين ، وسرجاً وسراويل ، ستجدها كلها هناك في الزحافة .

فخرج غريغوري وحمل كيسي التجهيزات من الزحافة . وحين عاد نهض

أبوه من مقعده . وسأل ابنه :

- متى ترحل ؟

- في اليوم التالي لعيد الميلاد . أتذهب الآن يا أبتى ؟

- أود أن أعود مبكراً .

ثم ودع غريغوري ، وهو مايزال يتحاشى النظر الى اكسينيا ، ومضى

صوب الباب . وفيما هو يرفع السقطة أدار عينيه صوب المهد وقال :

- أمك تخصك بالسلام : إنها تلازم الفراش لألم في ساقها - ثم صمت

لحظة ، وقال بتشاقل : - سوف أرافقك الى مانكوفو . كن على استعداد حين آتي .

خرج وهو يدس يديه في قفازين دافئين منسوجين . كانت اكسينيا

شاحبة من المذلة التي عانتها ، فلم تقل شيئاً . وراح غريغوري يقطع الغرفة

ذهاباً وإياباً ، وهو ينظر الى اكسينيا من زاوية عينيه فيما كان يمر بها ويطأ الواحاً تصرّ تحت قدميه .

ويوم عيد الميلاد ساق غريغوري العربة بسيده الى فيشينسكايا . فحضر ليستنتسكي القداس ، وتناول طعام الإفطار مع ابنة عمه ، وهي من ملاكات المنطقة ، ثم أمر غريغوري أن يعد العربة لرحلة الإياب . فنهض غريغوري في الحال رغم أنه لم ينته من تناول حساء الكرنب ولحم الخنزير الدسم . ومضى الى الإسطنبول ، وأخرج منه الحصان الرمادي الأرقط الخباب معلقاً به عنائه وشده الى الزحافة الخفيفة في عجلة .

كانت الريح تنخل ندف الثلج الناعمة المرئاة ، وكان زيد فضي يرسل هسيسه خلال الفناء وقد تدلى من الأشجار خلف السياج هداًب هش من الثلج الأبيض . كانت الريح تنفض هذا الهداب ، فيتناثر ، ويعكس من نور الشمس تشكيلة ثرة من الألوان القزحية . وكانت الغربان المستبردة تلغظ عالياً على السطح قرب المدخنة التي كان يتصاعد منها الدخان . وإذا أفزعها وقع الأقدام طارت وحامت فوق الدار كندف رمادية ، ثم اتجهت صوب الغرب ، صوب الكنيسة ، وهي ترى واضحة أمام سماء الصباح البنفسجية . نادى غريغوري الخادمة التي جاءت الى درج البيت :
- أخبري السيد أننا على استعداد .

خرج ليستنتسكي واستقل المركبة ، وقد دفن عذاريه في ياقة معطفه المصنوع من فراء حيوان الراكون . ودثر غريغوري ساقيه وعدل فروة الذئب المبطن بالمخمل . قال ليستنتسكي وهو يلقي نظرة الى الحصان :
- ابعث الدفء فيه .

جلس غريغوري مائلاً الى الوراء في مقعده ، ويدها تمسكان بقوة على الأعنة الراعشة ، يراقب حفر الطريق وهو يستعيد بقلق ذكرى تلك اللكمة التي لم تكن بالواهنة يوم كالحا له سيده على الأذن بسبب هفوة في سياقه المركبة في أوائل الشتاء . وحين انحدرت المركبة شطر الدون ارخى

غريغوري العنان من قبضة يده ، وذلك بقفازه خديه المتيبسين من الريح الباردة اللاذعة .

بلغا ياغودنويه في غضون ساعتين . كان ليستنتسكي صامتاً طوال الرحلة ، وبين آونة وأخرى ، يربت على ظهر غريغوري بإصبعه إشارة له بالتوقف ريثما يلف لنفسه سيكارة ويشعلها مديراً ظهره عكس الريح . ولم يتوجه إليه بالسؤال إلا وهما يهبطان التل صوب البيت .

- صباح غد الباكر ؟

فالتفت غريغوري جانباً في مقعده ، وجر شفتيه المتجمدتين عن بعضهما بمشقة . كان لسانه المتخشب من البرد ، يبدو وكأنه قد تورم والتصق بظهر أسنانه ، واستطاع أخيراً أن يجيب :

- أجل .

- تسلمت كل نقودك ؟

- أجل .

- لا تقلق على زوجتك ، سوف تكون بخير معنا . كن جندياً حسناً ، لقد كان جدك قوزاقياً طيباً . وينبغي لك - ثم خفت صوت ليستنتسكي إذ أخفى وجهه من الريح تحت ياقة معطفه - . ينبغي لك أن تسلك سلوكاً يليق بجدك وأبيك . لقد نال أبوك الجائزة الأولى في ألعاب الفروسية في الاستعراض الامبراطوري ، أليس كذلك ؟

- أجل .

- حسناً إذن !

هكذا ختم الشيخ كلامه بنبرة شديدة في صوته ، فكأنه يحذر غريغوري ، ثم دفن رأسه ثانية في معطف الفرو .

سلم غريغوري الحصان الى ساشكا في الفناء ، وتوجه الى جناح الخدم فصاح ساشكا وراءه :

- لقد جاء أبوك - وغطى الحصان بشرشف .

وألفى غريغوري أباه جالساً الى المائدة يتناول مرق اللحم . وحين لمح غريغوري وجه والده المحمر قرر أن والده قد « شرب قليلاً » .
- ها قد عدت ، يا جندي ؟

فأجابه غريغوري : « لقد تجمدت أوصالي » . وصفق يديه والتفت الى اكسينيا ، وأردف : « فكي أزرار قلنسوتي ، أصابعي متخشبة جداً » .
فحمم والده وهو لا يتوقف عن المضغ :
- لابد أن الريح كانت تعاكسك .

كان أبوه ، وقد بدا هذه المرة أرق مزاجاً ، يصدر الى اكسينيا أوامره وكأنه في بيته . قال لها : « لا تبخلي هكذا بالخبز ، اقطعي المزيد منه » .
وحين فرغ من طعامه ، نهض من المائدة وتوجه الى الباب ليدخن في الفناء . وحين مر بالمهد هزه مرة أو مرتين ، متظاهراً بأن هذا حدث عرضاً ، ثم دس رأسه تحت الغطاء وسأل : « هو قوازقي ؟ » .

فأجابت اكسينيا عن غريغوري : « إنها بنت » ، ولما لاحظت عدم الرضى الذي ارتسم على وجه الشيخ ، أردفت على عجل :
- إنها صورة لغريشا !

تفحص بانتلاحي بروكوفتش باهتمام ذلك الرأس الداكن الصغير الذي كان يبرز من بين الملابس ، ثم أعلن بلهجة لا تخلو من فخر : « إنها من دمنا!... هكذا إذن! » .

سأله غريغوري :

- كيف جنّت يا أبتى ؟

- بالفرس وحصان بيوتر .

- كان يلزمك حصان واحد ، وبإمكاننا شد حصاني في الرحلة الى مانكوفو .

- ليذهب خفيف الحمل . أتدري ، إنه حصان ليس بالرديء .

- هل رأيته ؟

- أجل .

كانت فكرة واحدة تضايقهما معاً ، ولكنهما تحدثا في شتى الأمور
التافهة . ولم تشاركهما اكسينيا الحديث بل لبثت جالسة على السرير حزينة
مكتئبة وئديها الممتلئان قد كبرا فشدوا على قميصها . لقد ازدادت إثر
ولادتها اكتنازاً بشكل ملحوظ ، ودبت عليها سيماء جديدة من الثقة
والسعادة .

ولم يأووا الى مضاجعهم إلا في وقت متأخر ، وحين لاذت اكسينيا
بجانب غريغوري بللت قميصه بدموعها وفيض الحليب الذي ينز من ثدييها .
- سأذوب أسي . ماذا أفعل بدونك ؟

فدمدم غريغوري :

- ستكونين بخير .

- الليالي الطوال... وتفيق الطفلة... فكر في ذلك فقط ، يا غريشا! أربع
سنوات!

- يقال إن الجندية في غابر الأيام كانت تستغرق خمساً وعشرين
سنة .

- ما شأني في غابر الأيام ؟

- اهدئي الآن ، كفاك ذلك!

- أقول تباً لخدمتك العسكرية . هي تفرق بيننا!

- سأعود في الإجازة .

- في الإجازة! - وأنت اكسينيا ، وهي تشق وتمسح أنفها بقميص
نومها : - ستجري مياه كثيرة في الدون حتى ذلك الحين .

- كفاك نشيجاً! ما أشبهك بالمطر أيام الخريف ، إنه يردّ على الدوام .

- ينبغي أن تكون في مكاني .

واستسلم غريغوري للنوم قبيل الفجر . ونهضت اكسينيا فأرضعت
الطفلة ، واستلقت من جديد . واتكأت على مرفقيها ، وراحت تحديق في وجه

الى الليلة التي حاولت فيها إقناعه بالهرب معها الى الكويت ، كانت أشبه بتلك الليلة ، ما خلا قمراً كان يغمر الفناء خارج النافذة بنوره الأبيض . إنها أشبه بتلك الليلة ، وغريغوري ما يزال هو نفسه ، ولكنه ليس كذلك تماماً . فإن وراءهما طريقاً طويلاً مهدته الأيام العابرة .

انقلب في فراشه ، وتمتم شيئاً حول قرية أولشانسكي ، ثم صمت . وحاولت أكسينيا أن تنام ، إلا أن أفكارها بددت النوم عنها ، كما تذرو الريح القش ، ورقدت حتى انبثاق الفجر تفكر بالكلمات المتقطعة التي فاه بها في نومه عن قرية أولشانسكي ، جاهدة أن تجد لها معنى . واستيقظ بانتلاي بروكوفتش حالماً بدأ ضوء النهار الوليد يزيد على النوافذ التي علاها الجمد .

- غريغوري انهض ، طلع النهار .

ركعت أكسينيا على السرير وارتدت تنورتها ، وشرعت تبحث عن الثقاب مدة طويلة وهي تتنهد .

وما إن تناولا الفطور ، وحزما متاعهما ، حتى كان الفجر قد انبج تماماً ، وكان ضوء النهار يتموج بتلاوين زرقاء ، فبدت معالم الواح السياج السود واضحة ولاح سقف الاسطبل معتماً على صفحة السماء البنفسجية الغبشاء .

وذهب بانتلاي بروكوفتش ليشد حصانيه ، فيما انتزع غريغوري نفسه من قبلات أكسينيا المحمومة اليائسة وذهب ليودع ساشكا والخدم الآخرين .

دثرت أكسينيا طفلتها ، وأخرجتها معها للوداع الأخير . فلمس غريغوري جبين ابنته الندي بشفتيه لمسة خفيفة ، ثم ذهب الى حصانه . قال أبوه وهو يحث حصانيه :
- ادخل الى المركبة .

- كلا سامتطي حصاني .

شد غريغوري حزام سرجه ببطء متعمد ، ثم امتطى الحصان ، ولم
العنان في يده ، فلمست اكسينيا الركاب بيدها وراحت تردد :
- انتظر ، يا غريشا... هناك شيء أردت أن اقله...
وقد حاولت أن تتذكر ذلك الشيء فجعدت حاجبيها وهي ترتجف
مذهولة .

- حسناً ، وداعاً... اعتني بالطفلة... يجب أن أمضي ، انظري كم ابتعد
أبي .

- انتظر يا أعز حبيب!

وأمسكت اكسينيا بيسراها الركاب الحديدي البارد كالثلج ، وشدت
يمنها الطفلة الى صدرها ، ولم تبق لها يد طليقة تمسح بها الدموع
المتدفقة من عينيها الواسعتين المحملقتين .
وجاء فينيامين الى درج الدار وقال :
- غريغوري ، السيد يريدك .

فأطلق غريغوري لعنة ، ثم لوح بسوطه ، واندفع خارج الفناء . فجرت
اكسينيا وراءه ، متعثرة بالثلج المتكوم ورافعة عالياً قدميها بجزماتها
اللبادية .

أدرك أباه على قمة التل . والتفت ينظر وراءه بحركة لا إرادية . كانت
اكسينيا واقفة عند الباب ، والطفلة ما زالت مشدودة الى صدرها ، وطرف
خمارها الأحمر يرفرف في الريح .

وسار على جواده بجانب مركبة أبيه . وبعد بضع لحظات أدار الشيخ
ظهره الى حصانيه وسأله :

- إذن أنت لا تفكر بالعودة الى زوجتك ؟

- القصة القديمة نفسها ؟ لقد فرغنا منها .

- إذن فلن تعود .

- كلا ، لن أعود!

- ألم تسمع أنها حاولت قتل نفسها ؟

- بلى سمعت .

- من قال لك ؟

- ذهبت مع سيدي الى مركز المنطقة والتقيت هناك صدفه برجل من القرية .

- وأمام الله ؟

- لماذا ، يا أبتى ، على كل حال... لا جدوى من البكاء على الحليب المراق .

فغضب بانتلاي بروكوتتش ،

- لا تقل لي قول الشياطين هذا . ما أقوله لك أقوله من أجلك .

- لدي طفلة تركتها ورائي ، فما جدوى الكلام ؟ ليس بوسعك أن تقحم الأخرى عليّ الآن...

- هل أنت واثق من أنك لا تقوم بتربية طفلة رجل آخر ؟

فامتنع وجه غريغوري ، لقد نكا أبوه جرحاً متقيحاً . فمنذ أن ولدت

الطفلة اعترى الشك المرير أفكاره ، فأخفاه عن اكسينيا وعن نفسه . ففي

الليل ، واكسينيا نائمة ، كان يذهب الى المهد أكثر من مرة ليتفكر في

الطفلة ، متلمساً تقاطيع وجهه في وجهها الأسمر الوردي ، ويعود الى فراشه

والشك ذاته يراوده . كان ستيبان ذا بشرة كستنائية تكاد تشبه بشرة

غريغوري ، فأني له أن يعرف دم من ذاك الذي يجري في عروق الطفلة ؟ كان

في بعض الأحيان يحسب أن الطفلة تشبهه ولكنه يراها ، في أحيان أخرى

شبيهة بستيبان الى حد مؤلم . لم يكن غريغوري يشعر إزاءها بعاطفة ، اللهم

الا العداء حين يذكر اللحظات التي عاناها يوم عاد باكسينيا من السهب وهي

تقاسي آلام المخاض . وذات مرة ، حينما كانت اكسينيا منهمكة في

المطبخ كان عليه أن يغير حضائن الطفلة المبتلة . وفيما كان يقوم بذلك

أحس بعاطفة حادة ملتهبة فانحنى على المهد خلسة وعض بأسنانه على إصبع قدم الطفلة الصغير المتصلب الأحمر .

لقد نكأ أبوه الجرح دون رحمة ، فرد عليه غريغوري ، وراحته على قربوس السرج ، قائلاً بصوت مبجوح :
- أياً كان أبوها ، فأني لن أتخلى عنها .

فلوح بانتلاي بروكوفتش بسوطه على الحصانين دون أن يلتفت :
- لقد شوهدت ناتاليا جمالها . إنها تميل برأسها الى أحد الجانبين وكأنها مشلولة . يبدو أنها قطعت وتر العضلة . فالتوت رقبتها .
ثم خلد الى الصمت . كان مزلقاً الزحافة يصران خلال الثلج ، وكانت حوافر حصان غريغوري تتكتك وهي تصطفق .

سأل غريغوري وهو يلتقط بعناية خاصة من عُرف حصانه شوكة :
- وكيف هي الآن ؟

- أبليت من الجرح بشكل أو بآخر . وقد لازمت الفراش طيلة أشهر سبعة . وفي أحد الثالث حسبنا أنها ستلفظ أنفاسها . فجاء الأب بانكراتي لتلاوة الصلوات . ولكنها بدأت تتماثل للشفاء . لقد حاولت أن توجه الضربة بالمحش الى قلبها ، ولكن يدها ارتجفت ، فأخطأت القلب قليلاً . ولولا ذلك لقضبت نجبها...

- لنسرع في هبوط التل!

قال غريغوري ذلك ، وهو ينهض في ركابه ويعمل بسوطه ، فبدأ الحصان يخب مرسلاً بحوافره رشاشاً من الثلج على المركبة . وحين وصل بانتلاي بروكوفتش الى محاذاته قال :

- إننا سنتعهد ناتاليا . فالمرأة لا تريد العيش مع أهلها . وقد رأيتها قبل أيام وقلت لها أن تأتي إلينا .

لم يجب غريغوري بشيء . وسار حتى بلغا أول قرية دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولم يعد أبوه الى الموضوع .

قطعا في ذلك اليوم سبعين فرستا . وبلغا مانكوفو مساء اليوم التالي عند الغسق (الأضواء مشتعلة في البيوت) .

سأل بانتلاي بروكوفتش أول مار في الشارع :

- في أي حي ينزل القادمون من فيشنسكايا ؟

- اذهب الى الشارع الكبير .

لقد وصلا الى البيت الذي نزل فيه خمسة مجندين مع آبائهم . سأل

بانتلاي بروكوفتش وهو يقود الحصانين الى سقيفة الحظيرة :

- من أين جنتم ؟

جاء صوت عميق من الظلام مسمياً القرى التي جاؤوا منها .

تلمس غريغوري ظهر حصانه المتصبب عرقاً بعد أن نزع السرج منه

ورد ضاحكاً رداً مازحاً عن السؤال الموجه اليه من أي قرية وصل .

وفي صباح اليوم التالي اصطحب اتمان المنطقة مجندي فيشنسكايا الى

اللجنة الطبية . فرأى غريغوري فتیان قريته الآخرين . وفي الصباح مر ميتكا

كورشونوف متوجهاً الى البئر وممسكاً بيده اليسرى قبعته المائلة الى

جانب ، على ظهر كميت طويل مجهز بسرج وعدة جديدين مزركشين

زركشة بهيجة ، دون أن يقول كلمة تحية لغريغوري الذي كان واقفاً على باب

الجناح .

تعاقب الرجال يخلعون ملابسهم في الغرفة الباردة الخاصة بالإدارة

المحلية المدنية . وضج الكتاب العسكريون بالحركة هنا وهناك ، وهرول

مساعد رئيس الشرطة ، ومر مساعد الاتمان المحلي مسرعاً بجزمة قصيرة

من الجلد اللماع . وأحد أصابعه مزدان بخاتم ذي حجر أسود وكان له وجه

أبيض بعينين سوداوين جميلتين .

تناهت اليهم من الغرفة الداخلية أوامر الأطباء ، وتنف من الحديث :

- واحد وستون .

ونق صوت مخضل بالخمير قرب الباب :

- بافل ايفانوفتش ، ناولني قلماً لا يمحي أثره .

- عرض الصدر...

- أجل ، من الواضح أنه وراثي...

- سجل السفلس...

- ارفع يديك . لست فتاة .

- بنية سليمة .

- ... ينقل العدوى الى القرية برمتها . يجب اتخاذ إجراءات خاصة . لقد

أخبرت صاحب السعادة بالموضوع .

- بافل ايفانوفتش ، انظر الى جسد هذا الرجل . يا لها من بنية!

- آه!

خلع غريغوري ملابسه بجانب فتى أحمر الشعر من قرية أخرى . وخرج
اليهما كاتب ، فعدل كتفيه بحيث تغطنت قمصته عند الظهر ، ثم أصدر الى
غريغوري والفتى الآخر أمراً مقتضباً بأن يدخلوا غرفة الفحص . فهمس ذو
الشعر الأحمر في ذعر وقد تورد وجهه وكان ينزع جوربه :

- هيا أسرع!

دخل غريغوري ، وقد تقلص جلده من البرد . وكان جسده الأسمر
بلون البلوط . وقد أحس بالحرج وهو يخفض عينيه الى ساقيه المكسوين
بالشعر . وكان يقف على الميزان في الزاوية فتى عار مربوع القامة . وكان
أحدهم ، يظهر أنه مساعد الطبيب ، يدفع العيار الى الأمام والى الخلف ، ثم
نادى بالرقم ، وأمره بالنزول .

تضايق غريغوري من إجراءات الفحص الطبية المهينة . لقد فحصه
بالسماعة طبيب أشيب الرأس يرتدي سترة بيضاء وقَلْبَ طبيب أصغر سناً
جفون عينيه ونظر الى لسانه وانشغل وراءه ثالث يرتدي نظارة ذات إطار
قرني ، وكان يفرك يديه بكميه المطويين ، وأمره ضابط :

- على الميزان!

فخطا غريغوري على الكفة الباردة .

- خمسة بودات* ونصف .

فهتف الطبيب الأشيب ، وهو يدير غريغوري من ذراعه .

- م... ا... ذا ، إنه ليس طويل جداً .

فقال الطبيب الأصغر سناً متلعثماً :

- مدهش!

وسأل ضابط يجلس عند الطاولة بعجب :

- كم ؟

فأجابه الطبيب الأشيب ولا يزال حاجباه مرفوعين :

- خمسة بودات ونصف .

فاحنى قوميسار المنطقة العسكري رأسه الأسود الاملس نحو جاره على

لمنضدة سائلاً :

- مارأيك لو يُنسَب الى الحرس الخاص ؟

- إن له وجه قطاع الطرق... إنه وحشي المنظر جداً .

- يا أنت ، استدر! ماتلك التي على ظهرك ؟

هكذا صاح ضابط تعلو كتفه شارة عقيد ، وهو يخطب إصبعه على

لمنضدة بفراغ صبر . فغمغم الطبيب الأشيب بشيء ما ، وأدار غريغوري

ظهره الى المنضدة ، وهو يجاهد للسيطرة على جسمه المرتجف ، ثم أجاب :

- أصبت ببرد في الربيع . إنها بثرة .

وحين انتهى الفحص قرر الضباط الجالسون عند الطاولة أن غريغوري

ينبغي أن يعين في كتيبة اعتيادية . فقليل له : «الكتيبة الثانية عشرة ،

باميليوخوف . هل سمعت ؟» وفيما كان سائراً نحو الباب سمع همساً ينم عن

شمزاز :

* البود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ تقريباً . المترجمون

- هذا مستحيل . حسبك أن تتصور لو رأى الامبراطور وجهاً كهذا ؟
عيناه وحدهما...

- إنه هجين . من الشرق دون ريب .

- وجسده ليس نظيفاً . تلك البثور...

وتجمهر حوله رجال آخرون من قريته كانوا في انتظار دورهم :

- كيف كانت النتيجة ، يا غريشا ؟

- أي كتيبة ؟

- الحرس الخاص ، هاه ؟

- كم كان وزنك على الميزان ؟

وتواثب غريغوري على قدم واحدة وهو يرفع ساق بنطاله ، وقال غاضباً :

« أف ، اذهبوا الى الجحيم! أي كتيبة ؟ الثانية عشرة » .

صاح الكاتب وهو يمد رأسه من الباب :

- كورشونوف ، ديمتري ، كارغين ايفان .

وأسرع غريغوري هابطاً الدرج وهو يحكم أزرار سترته .

كانت الريح الدافئة تعبق برطوبة ذوبان الجليد ، وكان الطريق أجرد من الثلج في بعض أجزائه والبخار يتصاعد منه . كانت الدجاجات المقوقنة ترفرف عبر الشارع ، والبط يخط في بركة ، وتبدو أقدامه في الماء برتقالية وردية ، كأوراق الخريف التي قضى عليها الصقيع .

جرى فحص الخيل في اليوم التالي . صفت في الساحة صفاً طويلاً عند جدار الكنيسة . وانهمك الضباط رائحين غادين ، ومر بيطري ومساعداه أمام صف الخيل الطويل . وكان اتمان فيشنسكايا يتراكم بين الميزان والمنضدة التي توسطت الساحة ، حيث تسجل نتائج الفحص . ومر ضابط من الانضباط العسكري ، وكان منهمكاً في الحديث مع رئيس شاب .

وحين جاء دور غريغوري قاد حصانه الى الميزان ، فقام البيطري ومساعداه كافة أجزاء بدن الحصان ، ثم وزنناه . وقبل أن يساق الحصان من

على الميزان ، أمسكه البيطري من شفته العليا بمهارة ونظر الى أسنانه ، وتحسس عضلات صدره ، ومضت أصابعه القوية تتلمس جسم الحصان ، كالعنكبوت ، حتى وصلت الى سيقانه . ثم تحسس مفاصل الركبتين ، ودق على العصب واعتصر العظم فوق الشية . وحين فرغ من فحصه تعدها ، وممزره الأبيض يخفق في الريح وينشر رائحة حامض الكاربوليك .

رفض حصان غريغوري ، وثبت خطل آمال ساشكا . كان البيطري الخبير من الذكاء بحيث اكتشف العيب الخفي الذي تحدث عنه الشيخ ، وعقد غريغوري في الحال مشاورات منفعة مع أبيه ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى قاد حصان بيوتر الى الميزان ، فقبله البيطري دونما فحص تقريباً .

ثم عثر غريغوري على بقعة يابسة نوعاً ما ، فنشر مرشحة سرجه على الأرض ووضع عليها عدته ، وأمسك أبوه بالحصان ، وانصرف الى الحديث مع شيخ آخر جاء أيضاً ليودع ابنه .

ومر بهم جنرال مديد القامة أشيب الرأس ، يرتدي عباءة رمادية فاقعة وقبعة فضية استراخانية ، كان يعرج قليلاً بقدمه اليسرى ملوحاً باليد بقفاز أبيض . فلكرز بانتلاي بروكوفتش غريغوري ، من الخلف وهمس :
- اتمان المنطقه .

- كأنه جنرال .
إنه أمير اللواء ماكاييف . إنه شيطان صارم .

وسار خلف الاتمان حشد من الضباط من مختلف الكتائب والبطاريات . وكان مقدم مدفعي عريض المنكبين والفخذين يتحادث بصوت مرتفع مع ضابط وسيم طويل من الحرس التابع لكتيبة الاتمان :

- ... يا للشيطان! أتدري ، كم كان الفارق كبيراً! قرية استونية ، وغالبية الناس هناك شقر ، ولكن تلك الفتاة ، يالللغرابة! أضف الى ذلك أنها لم تكن الوحيدة! قلبنا شتى الظنون حول الموضوع ، ثم علمنا أنه قبل عشرين عاماً... - ثم سار الضابطان مبتعدين عن المكان حيث كان غريغوري يرتب

عدته على مرشحة السرج فحملت اليه الريح الكلمات الختامية وسط ضجة من قهقهات الضابطين : - ... يبدو أن سرية من حرسكم كانت معسكرة في القرية .

وجرى من أمامهم كاتب وهو يزرر سترته بأصابع مرتجفة ملطخة بالحر ، وكان معاون رئيس شرطة المنطقة يصيح وراءه بغضب :
- قلت لك ثلاث نسخ . لعنة الله عليك!

راح غريغوري يتطلع بفضول الى وجه الضباط والموظفين التي لم يألها من قبل . وقد سمر أحد المساعدين نظرة ضجرة عليه . ثم أشاح بوجهه بعد أن التقت عيناه بعيني غريغوري باديتي الاهتمام . ومربهم رئيس عجوز وهو يكاد يركض . وقد بدا الانفعال عليه لأمر ما ، وكان يعض على شفته العليا بأسنانه الصفرة . فلحظ غريغوري عرقاً ينبض فوق حاجب الرئيس ذي اللون الزنجيلي .

نشر غريغوري على مرشحة سرجه الجديدة السرج ذا الرمانة الخضراء ، وخرجيه الأمامي والخلفي ، ومعطفين عسكريين ، وبنطالين ، وقمصلة ، وجزمتين طويلتين ، وتبديلة من الملابس الداخلية ، وكيس البقسماط ، وعلبة من لحم البقر المقدد ، وأنواع أخرى من الطعام حسب المقادير المعينة .

وكان في خرجي السرج المفتوحين أربعة من نعال الخيل ، ومسامير ملفوفة بخرقه مزيتة ، ومحفظة فيها بضع إبر وخط ، ومناشف .

ألقى الى عدته نظرة أخيرة ثم جلس القرفصاء ليزيل بكمه بعض الوحل عن طرفي شريط الحزم . وجاءت اللجنة العسكرية من طرف الساحة تسيير ببطء أمام صفوف القوزاق المصطفين وراء مرشح السروج ، وكان الضباط والاتمان يتفحصون العدد عن كثب ، رافعين أذيان معاففهم ذات الألوان الفاتحة فيما كانوا ينحنون للبحث في زكائب السروج ، ويمعنون النظر الى محتويات المحافظ ، ويقدر وزن أكياس البقسماط بأيديهم .

قال قوزاقي شاب يقف بجانب غريغوري ، مشيراً الى أمر انضباط المنطقة العسكري :

- انظروا ، يا شباب الى ذلك الطويل هناك ، إنه يمش مثل كلب وراء ابن عرس .

- الق نظرة واحدة الى الشيطان . إنه يقلب الكيس على بطنه!

- لا بد أن هناك شيئاً ليس على مايرام ، والا لما فعل ذلك .

- إنه بالتأكيد يعد مسامير الحذاء .

- يا للشيطان!

وتلاشى الكلام تدريجياً مع اقتراب اللجنة . ولم يبق إلا بضعة رجال الى أن يأتي دور غريغوري . كان اتمان المنطقة يحمل قفازاً بيسراه ويهز يمناه ، دون أن يثنيها عند المرفق . اعتدل غريغوري في وقفته . وسعل أبوه من ورائه . وحملت الريح رائحة بول الخيل والثلج الذائب في الساحة . وبدت الشمس مغتمة ، كما يشعر الإنسان بعد نوبة سكر .

توقفت ثلة الضباط عند الرجل الواقف بجانب غريغوري ثم تقدموا واحداً فواحداً .

- لقبك ، واسمك ؟

- ميليخوف ، غريغوري .

والتقط ضابط الانضباط المعطف من حزامه ، وشم البطانة وعد الأزرار باستعجال وتقدم آخر على كتفه شارة نائب ضابط ، فتمس قماش البنطالين الجيد بين أصابعه . وتوقف ثالث وراح ينبش في الخرجين ، منحنيماً الى درجة قلبت ذيل معطفه على ظهره . وراح ضابط الانضباط يبحث بإبهامه وخنصره بحذر في الخرقة التي تحوي مسامير الحذاء وكأنه يخشى أن يلفاها حارة ، وعد المسامير هامساً .

قال بغضب وهو يجر طرف الخرقة :

- لماذا ثلاثة وعشرون مسماراً . وما هذا ؟

- كلا ، يا صاحب السعادة . أربعة وعشرون - ماذا ، هل أنا أعمى ؟

فأسرع غريغوري يقلب زاوية ملتفة من الخرقة فكشف عن المسمار الرابع

والعشرين ، وفيما كان غريغوري يفعل ذلك لمست أصابعه الخشنة السمر يد الضابط البيضاء كالسكر لمسة خفيفة ، فنتش الضابط يده وكأن أحداً قد وخزها ، ثم مسحها بطرف معطفه ، وهو يعبس بتقزز ، ثم ارتدى قفازه .
لاحظ غريغوري حركته فاعتدل في وقفته وهو يبتسم بحنق والتقت عيناهما ، فاحمر وجه الضابط ورفع صوته :

- ما كل هذا ، ما كل هذا ، أيها القوزاقي ؟ لماذا لم ترتب شرائط الحزم ؟
لماذا لم تعدل الشكيمة ؟ وما معنى هذا ؟ أنت قوزاقي أم فلاح ؟ أين أبوك ؟
جر باتتلاي بروكوفتش عنان الحصان وخطا الى الأمام خطوة ضارباً الأرض بساقه العرجاء .

- ألا تعرف الأنظمة القوزاقية ؟

كان الضابط سيئ المزاج صباح ذلك اليوم بسبب خسارته في القمار فأفرغ جام غضبه على باتتلاي بروكوفتش .

ثم جاء اتمان المنطقة فهدأ الضابط . دس الاتمان رأس جزمته في حشية السرج ، ثم ند عنه فواق ، ومضى الى الرجل التالي وتفحص ضابط تجنيد الكتيبة التي نسب غريغوري اليها حاجياته كلها بما فيها محتويات المحفظة بشكل مؤدب ، ثم مضى الى الرجل التالي وهو يمشي القهقري كي يقي من الريح الثقباب الذي أشعل منه سيكارتته .

وفي اليوم التالي غادر القرية قطار من الشاحنات الحمر محمل بالخيول والقوزاق والعلف الى فورونيج .

وقف غريغوري في إحداها متكئاً بظهره الى طرف المعلق الخشبي وكانت تزحف عبر الباب المفتوح مناظر غريبة لأرض مستوية ، ودوم في المدى خيط غابة رقيق أزرق ، وكانت الخيل وراءه تلوك القش وتنقل ثقلها من حافر الى آخر ، وهي تحس بحركة القاع من تحتها . كانت الشاحنات تعج برائحة الشيخ ، وعرق الخيل ، وذوبان الربيع ، وثمر غابة تلوح كالخيوط في الأفق ، زرقاء كثيفة ومنيعه كنجم المساء خافت الوميض .

الجزء الثالث

١

كان يوماً ربيعياً دافئاً بهيجاً من أيام آذار عام ١٩١٤ حين عادت ناتاليا الى بيت حميها . كان بانتلاي يصلح سياج الاسفندان الذي كسره الثور ، بأغصان غزيرة الوبر بلون الحمام . وكانت القطرات تتساقط من بلورات الثلج الفضية المتدلية من السقوف . وتبدو آثار المسارب القديمة وكأنها لطخات قطران سود تحت حواشي السقوف .

وراحت شمس أشد توردا ودفنا منها في آذار تداعب التلال التي يذوب من عليها الجليد . وكانت الأرض منتفخة ، وبدا العشب المبكر كمعدن المالاكيت الأخضر على الرؤوس الطباشيرية الجرد الناتئة من التلال على الشاطئ .

تقدمت ناتاليا صوب حميها من الخلف ، وقد بدت أكثر نحافة واعتراها تغير كبير وأحنت رقبتها المائلة قليلاً وقد شوهاها أثر الجرح .

- صحة طيبة ، يا أبتى !

فهتف بانتلاي في عجلة والعيذان تسقط من يده :

- ناتاليوشكا! مرحباً يا عزيزتي . مرحباً! لماذا لم تأتي لزيارتنا ؟

ادخلي . ستسر الوالدة لرؤيتك كل السرور .

- لقد جئت ، يا أبتى... - ثم مدت يدها وهي غير واثقة ، وأشاحت بوجهها .

وأضافت : - ما لم تطردوني ، فأنا أرغب في البقاء معكم على الدوام .

- لم لا تبقين ، يا عزيزتي ؟ أترك غريبة عنا ؟ انظري ، لقد كتب عنك غريغوري في رسالته . طلب منا أن نسأل عنك .

دخل المطبخ . وراح باتتلاي يطلع هنا وهناك . وقد تملكه انفعال طروب . وبكت ايلنشنا وهي تعانق ناتاليا وهمست قائلة ، وهي تتمخط :
- أنت بحاجة الى طفل . إن ذلك كان سيسحره . اجلسي ، سأجلب لك بعض الفطائر ، أليس كذلك ؟

- حفظك الله يا أمي... لقد جئت إليكم...

وجرت دونيا الى المطبخ راکضة ، متوردة الوجه باسمه ، واحتوت ناتاليا من ركبته . وعاتبته قائلة : « يالك من قليلة حياء ! لقد نسيت كل شيء عنا » .
فصاح فيها أبوها بصرامة مصطنعة :
- كفك ، أيتها الطائشة !

غمغمت ناتاليا وهي تنشر ذراعي دونيا وتنظر في عينيها :
- لشد ماكبرت .

وتحدث الكل معاً ، يقاطع بعضهم بعضاً . وأسندت ايلنشنا خدها براحة يدها ، وقد غمرها الأسى إذ تطلعت الى ناتاليا ، وقد تغيرت كثيراً عما عهدتها

أمسكت دونيا بيدي ناتاليا وسألته قائلة :
- جئت لتقييمي ؟

- من يدري...

فقالت ايلنشنا بصورة حاسمة وهي تدفع طبقاً كبيراً من الفطائر عبر المائدة :

- ماذا ، في أي مكان آخر يمكن أن تعيش ؟ إنك ستبقين معنا .

جاءت ناتاليا الى أهل زوجها بعد تردد دام طويلاً . وكان أبوها قد رفض في بداية الأمر أن يسمح لها بالذهاب ، فقد صرخ في وجهها بحق

حين اقترحت ذلك ، وجرب أن يقنعها بالعدول عن هذه الخطوة . ولكن شق عليها أن تنظر في وجوه أهلها ، فمنذ أن حاولت الانتحار وهي تشعر وكأنها غريبة بين أهلها . وكان بانتلاي ، من جهته ، يلحف عليها بالعودة طوال الوقت ، فمنذ أن ودع غريغوري الذهاب الى الجندية عقد العزم على إعادتها ومصالحة غريغوري معها .

ومنذ ذلك اليوم في آذار عاشت ناتاليا مع آل ميلخوف . كان بيوتر يقف منها موقفاً ودياً أخوياً ، ولم يبد على داريا الا قليل من عدم الرضا ، وكان مما يعوز عن نظراتها الشزر العارضة ولع دونيا بها وموقف العجوزين الأبوي منها .

وفي اليوم التالي لمجيء ناتاليا إليهم أمر بانتلاي دونيا أن تكتب الرسالة التالية الى غريغوري :

« تحية ، يا ولدنا العزيز ، غريغوري بانتلايفتش! نبعث إليك بانحناء عميقة ، ونمنحك بركة أبوية من صميم قلب الوالد ومن أمك فاسيليسا ايلنشنا . إن أخاك بيوتر بانتلايفتش وزوجته داريا ماتفييفنا يبعثان تحياتهما لك بالعافية والرفاه ، وكذلك أختك دونيا وكل أهل البيت يحيونك ، لقد تسلمنا رسالتك المرسلة في خامس يوم من شهر شباط ، ونشكرك عليها من كل جوارحنا . أنت تقول أن الحصان تصطك ساقاه . ادهنهما ببعض السلاء ، وأنت تدري كيف تفعل ذلك ، ولا تنعل حافريه الخلفيين حيث لا زلق أو جليد أجرد . إن زوجتك ناتاليا ميرونوفنا تعيش الآن معنا ، وهي مرتاحة وبصحة جيدة . والدتك ترسل إليك بعضاً من الكرز المجفف ، وزوجا من الجوارب الصوفية ، وشيئاً من لحم الخنزير ، وأشياء أخرى . كلنا احياء بصحة جيدة . ولكن طفل داريا قد مات . قبل أيام سقفنا المأوى ، أنا وبيوتر ، وهو يأمرك بالناية بحصانه والمحافظة على سلامته . لقد ولدت البقرات ويبدو أن الفرس ملقحة ، فقد عرضناها على

فحل من اسطبلات المنطقة . ومنتظر ولادة مهرها في الأسبوع الخامس من الصوم الكبير . يسعدنا أن نسمع أخبار خدمتك العسكرية وأن الضباط راضون عنك . فاخدم كما ينبغي . إن خدمة القيصر لا تذهب سدى . وناتاليا ستعيش معنا ، وعليك أن تفكر بالأمر جيداً . وثمة مشكلة أخرى ، لقد قضى ذئب على ثلاث شياه قبل الصوم الكبير ، والآن ، اعتن بصحتك في رعاية الله . لا تنس زوجتك ، هذا ما أمرك به . إنها امرأة طيبة وهي زوجتك الشرعية . لا تتعد الحدود ، واصغ الى ما يقوله والدك .

أبوك

العريف الأقدم بانتلاي ميليخوف»

كانت كتيبة غريغوري معسكرة في موقع صغير يدعى رازيفيلوفو على بعد أربعة فرسات عن الحدود الروسية النمساوية وكان نادراً ما يكتب الى أهله . وقد رد على الرسالة التي ذكرت أن ناتاليا تعيش معهم برسالة انتقى كلماتها بحذر ، والتمس أباه أن يحييها باسمه . ولم يلزم نفسه بشيء في كل رسائله التي كانت غامضة المعنى . وكان بانتلاي يطلب الى دونيا أو بيوتر أن يقرأها له عدة مرات ، ويتأمل الأفكار المستترة بين اسطرها . وقبل عيد الفصح بقليل كتب الى غريغوري يسأله ما إذا كان عازماً لدى عودته من الخدمة العسكرية أن يعيش مع زوجته أو مع اكسينيا كالسابق .

تلكا غريغوري في جوابه . فلم يتلقوا منه إلا رسالة مقتضبة بعد أن انصرم أحد الثالوث . فقرأتها دونيا بسرعة ، وهي تبتلع نهاية الكلمات ، ووجد بانتلاي مشقة في تلمس بيت القصيد بين زحام التحايا والاستفسارات . وعالج غريغوري موضوع ناتاليا في نهاية الرسالة إذ قال ،

«سألني أن أقول لك ما إذا كنت سأعيش مع ناتاليا أم لا ، ها أنا أقول لك ، يأبتي ، إن ما انفصم لا يمكن لك أن تربطه ثانية . كيف لي أن أتصالح مع ناتاليا ، وأنت نفسك تعلم أن لدي طفلة ، وليس في مقدوري أن

أعد بشيء ، وإنه لمما يؤلمني أن أتحدث في هذا الموضوع . قبل أيام
القي القبض على رجل وهو يُهرَّب بضائع عبر الحدود ، وقد التقينا به
صدفة ، فقال إن الحرب مع النمسا ستندلع عما قريب ، وإن قيصرهم قدم
الى الحدود ليعرف من أي موقع سيشنون الهجوم ، وأي أرض يستولي
عليها . وإذا اندلعت الحرب فقد لا أبقى على قيد الحياة ، وليس في
الامكان أن نقرر قبل ذلك شيئاً .

اشتغلت ناتاليا بجد للعجوزين وعاشت يحدوها أمل مقيم في عودة
زوجها . لم تكتب الى غريغوري رسالة قط ، إلا أن أحداً في العائلة لم يحن
الى رسالة منه بمثل ما في حنينها إليها من ألم وشوق .

جرت الحياة في القرية وفق نظامها الذي لا محيد له ، فعاد القوزاق الذين
أنهوا خدمتهم العسكرية الى أهليهم . وكان الكدح الممل أيام العمل يبتلع
الوقت دون أن يشعر به أحد . والقرية أيام الأحاد تتدفق الى الكنيسة ، كل
عائلة بسربها : القوزاق بقمصلاتهم وبنطالات الأعياد ، والنساء بتنورات ملونة
طويلة تكنس الغبار ، وقمصان مطرزة منتفحة الأكمام .

تقف في ساحة القرية عربات خاوية ترفع عرائشها في الهواء ، وتتصاهل
خيولها ، ويمر الناس من مختلف النحل ذهاباً وإياباً . وكان المستوطنون
البلغار يبيعون الخضر عند مأوى عربات الحريق فيعرضونها صفوفاً طويلة ،
وكان الأطفال من خلفهم يتراكمضون عصابات ويحملقون في الجمال التي
جردت من عددها فراحت تشرف على ساحة السوق بشموخ . وكان ثمة
حشود من الرجال بقبعات ذوات شرائط حمراء في كل مكان ونسوة ارتدين
عصابات زاهية . وراحت الجمال ، وقد التمتعت عيونها بلون أخضر هامد ،
تجتز وهي ترتاح من عنائها المستديم على النواير .

وكانت الطرقات تنن تحت وقع الأقدام ، والأغاني ، والرقصات على

أنغام الاوكورديونات ، فلا تتلاشى آخر الأصوات في ضواحي القرية الا في وقت متأخر من الليل .

كانت ناتاليا ، التي لا تخرج الى لقاءات المساء أبداً ، يسرها أن تجلس لتصفي الى حكايات دونيا الساذجة . وكانت هذه قد شبت دون أن يشعر أحد بذلك ، فغدت فتاة جميلة القوام ، مليحة الوجه بما يلائمها . وقد نضجت قبل أوانها كتفاحة مبكرة . وفي تلك السنة تناست صديقاتها اللاتي تقدمنها في السن أنهن بلغن سن المراهقة قبلها ، فأدخلنها الى حلقتهن . وكانت دونيا سمراء متينة كأبيها .

وقد بلغت آنذاك الخامسة عشرة من عمرها ، وما زالت تقاطيع بدنها صبيانية خشنة ، وكانت خليطاً ساذجاً ، يكاد يبعث على الرثاء ، من الطفولة والشباب المتفتح ، وقد تنامى ثدياها وراحا يدفعان قميصها بشكل ملحوظ ، وصار كتفها أعرض مما كانا عليه ، وكانت عيناها السوداوان ، بشقيهما الطويلين المائلين بعض الشيء ، تتقادحان خجلاً ودعابة . كانت تعود بعد أمسياتها فتقص على ناتاليا أسرارها البريئة :

- ناتاليا ، حمامتي ، أريد أن أخبرك شيئاً...

- حسناً ، هيا ، أخبرني!

- البارحة جلس ميشا كوشيفوي طوال المساء معي على الجذمة عند

مخازن القرية .

- لماذا احمر وجهك ؟

- اوه ، لم يحمر وجهي!

- انظري في المرأة ، غدوت شعلة كبيرة .

- حسناً ، أنت السبب .

- لا بأس ، استمري ، لن أقول أي شيء .

فدلكت دونيا وجنتيها اللاهتين براحتيها السمراوين ، وشدت أصابعها

على صدغيها ، ورنّت ضحكاتها الفتية بدون سبب :

- قال إنني أشبه بزهرة لازوردية صغيرة .

- طيب ، استمري!

شجعته ناتاليا ، وقد سرته سعادة فتاة أخرى ، ناسية ماضيها وسعادتها المحطمة .

- قلت له : « لا تكذب ، يا ميشا! » فأقسم أن ذلك صحيح .

وأرسلت دونيا ضحكاتها تجلجل في أرجاء الغرفة هازة رأسها . وراحت جدائلها الفاحمة الغليظة تنزلق على كتفيها وظهرها كالعضيات .

- وأي شيء آخر قاله ؟

- رجاني أن أعطيه منديلي تذكاراً .

- وهل أعطيته ؟

- كلا . قلت له إنني لن أفعل ذلك ، قلت له : « اذهب واطلب من

امراتك » فقد شوهد مع كنة يروفي ، وهي امرأة سيئة تعبت مع الرجال . زوجها في الجيش .

- خير لك أن تتبعدي عنه .

فمضت في قصتها وهي تجاهد لإخفاء ابتسامة قفزت الى شفتها :

- سوف أفعل هذا! وبعد ذلك ، حين كنا ثلاثتنا عائدات الى البيت ، أنا

وفتاتان أخريان ، لحق بنا الجد ميخي العجوز وهو سكران ، وصاح :

« قبلنني ، يا عزيزاتي ، وسأدفع لكن كوبكيكين عن كل قبلة » وهجم علينا

فضربه نيورا على وجهه بعسلوج ، وهربنا .

كان الصيف جافاً . وبات الدون حيث يمر بالقرية ضحلاً ، وحينما كان

لتيار الصاخب ينطلق متدفقاً ، لم تبق سوى مخاضة ضحلة ، حتى صار

بمقدور الثيران أن تعبر الى الضفة الأخرى دون أن تبلل ظهورها ، وأثناء

الليل كانت ثمة رطوبة ثقيلة خانقة تنحدر على القرية من سلسلة التلال .

فتملاً الريح هواءها بالعطر النفاذ للأعشاب الملفوحة . وكانت النباتات

لجافة على السهب قد اضطربت فيها النار ، فعلق فوق المنحدرات على

جانبى الدون ضباب ذو رائحة عذبة . وفي الليالى كانت السحب تتكاثف فوق النهر وتهدر السماء بقصف الرعد المندرج ، دون أن ينزل مطر لينعش التربة الجافة ، مع أن البرق كان يمزق صفحة السماء شظايا مهلهلة دكناء . وكانت ثمة بومة تنعب من قبة الكنيسة ليلة اثر ليلة ، فتنفذ صرخاتها المرعبة فوق القرية ، وتطير البومة الى المقبرة لتنوح فوق أكمات القبور البنية اللون التي عشت عليها الحشيش .

يتنبأ الكهول وهم يستمعون للبومة تنعب من المقبرة : « هناك متاعب تختمر » .

- إن الحرب على الأبواب .

- لقد نعبت بومة كهذه قبل الحرب التركية .

- لعلها الهیضة من جدید .

- لا تتوقع خيراً حينما تطير من الكنيسة الى حيث يرقد الأموات . -

ارحنما يا نيكولاى العجائبي!

وكان مارتن ، أخو اليكسي مبتور اليد ، الذي يسكن قريباً من المقبرة ، قد اضطجع الى جانب سورها مترصداً البومة اللعينة ، لكن الطائر الغامض الذي لا يرى طار فوقه دون أن يحدث صوتاً ، وحط على الصليب في الطرف الآخر للمقبرة ومضى يرسل نعيه المرعب فوق القرية الغافية ، فهدر مارتن سباباً مقذعاً ، وأطلق النار على بطن غيمة سوداء عالقة ، وقفل راجعاً . ولدى عودته الى البيت استقبلته زوجته بالتقريع ، وهي امرأة كثيرة الهواجس ، عذبة ، ولود كأنثى الأرنب . فقالت له :

- أنت أحمق ، أحمق ميؤوس منه! هل تدخل الطير في شؤونك ، ها ؟

ماذا تقول لو عاقبك الله ؟ ها أنا في شهري الأخير ، وقد لا ألد بسببك أنت .

- صه ، يا امرأة! ستكونين بخير ، فلا تخافي مطلقاً! ماذا يفعل ذلك

الطير هنا ، يث فينا جميعاً رعدات باردات ؟ إنه يستنزل الويل علينا ، والعياذ بالله! لو انفجرت الحرب ، فسينزعونني . حسبك أن تنظري الى هذا

الذراق الذي خلفته لي! - ولوح بيده صوب الزاوية حيث كان الأطفال نائمين وكان شخيرهم يمتزج مع صأصأة الفرن .

كان بانتتلاي يتحدث مع الشيوخ في السوق ، فقال بوقار :
- كتب ابننا غريغوري يقول إن القيصر النمسوي قد قدم الى الحدود ، وأصدر أوامره لتحشيد جميع قواته في مكان واحد والزحف على موسكو وبطرسبرغ .

فاستعاد الشيوخ ذكريات الحروب الماضية وتبادلوا مخاوفهم . وقال أحدهم معترضاً :

- ولكن الحرب لن تنشب . انظروا الى الحاصل .

- لا دخل للحاصل بالحرب .

- هم الطلاب الذين يثيرون القلاقل ، على ما أتوقع .

- مهما يكن ، فسنكون نحن آخر من يسمع بها .

- مثلما كان في الحرب مع اليابان .

- وهل اشتريت الحصان لابنك ؟

- لا أريد أن أفعل قبل الأوان...

- إن هذا كله من أكاذيب!

- ولكن ضد من ستكون الحرب ؟

- ضد الأتراك . حول مشكلة البحر . لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى

اتفاق حول تقسيم البحر .

- وهل هذا أمر صعب ؟ ليقسموه قسمين ، كما نفعل نحن بأرض

المروج .

وانقلب الحديث الى مزاح ، ثم انصرف الشيوخ الى أعمالهم .

كان عشب المرج الذي نما مبكراً ينتظر حشه . أما العشب الذابل

فيما وراء الدون ، والذي لم يكن جزءاً من عشب السهب ، فقد كان ذاوياً لا رائحة له ، مع أن الأرض واحدة ، الا أن العصابات التي تمتصها الأعشاب

كانت متباينة . ففي السهب كانت التربة سوداء غنية وراسخة بحيث لا تترك القطعان عليها أثراً حينما تمر ، فكان العشب قوياً زكي الرائحة عالياً . لكن التربة على امتداد ضفتي الدون كانت رطبة متعفنة ، فمنما عليها عشب هزيل قميء ، حتى أن الماشية لم تكن لتلتفت إليه أبداً .

كانت القرية تستعد لحش العشب : شحذ القوزاق مناجلهم وصنعوا المجارف ، أما النساء فنقعن الشراب المحلي للحصادين . وكان حش العشب على وشك أن يبدأ حينما وقعت حادثة هزت القرية من اقصاها الى أدناها . فقد وصل رئيس شرطة المنطقة يصبحه مفتش وضابط أسود الأسنان يرتدي بزة لم تر مثلها القرية من قبل . وأرسلوا في طلب اتمان القرية وجمعوا الشهود ثم مضوا مباشرة الى منزل لوكيشكا الحولاء . وساروا على ممشى جانب الشارع الذي يغمره ضياء الشمس ، واتمان القرية يهرول أمامهم مثل ديك صغير . كان المفتش يحمل بيده قبعته عليها الشارة الرسمية وسأل الاتمان ، وجزمته المتربة تصفق بقع ضياء الشمس :

- هل شتوكمان في المنزل ؟

- أجل ، يا صاحب السعادة .

- كيف يتكسب عيشه ؟

- إنه مجرد حرفي . يشتغل على منضدة عمل...

- ألم تلاحظ عليه أي شيء يجلب الشبهة ؟

- لا ، مطلقاً .

وفيما كان رئيس الشرطة يسير جعل يعتصر بثرة على جسر أنفه ويلهث داخل بزته السميكه . وكان الضابط الصغير ينظف أسنانه السود بقشة ويجعد عينيه المحمرتي الحوافي . ومد المفتش يده الى الأمام ليزيح الاتمان وواصل يسأله :

- هل يستقبل أي زوار ؟

- أجل ، يلعبون الورق أحياناً .

- من ؟

- عمال من الطاحونة في الغالب .

- من هم بالضبط ؟

- مشغل الماكينة ، والقباني ، عامل الدواسة دافيد ، وأحياناً بعض القوزاق الآخرين .

توقف المفتش ومسح بقبعته العرق على قصب أنفه وانتظر الضابط الذي كان تخلف وراءه . فقال له شيئاً ما ، وهو يلوي زراً في قمصلته ، ثم أشار الى الاتمان . فهرول هذا على أطراف أصابعه ، قاطعاً نفسه . واختلجت العروق المعقدة في رقبته وارتعشت .

- خذ اثنين من الحراس وألق القبض على الأشخاص الذين ذكرتهم .
أحضرهم الى الإدارة ، سنكون هناك بعد دقيقة أو دقيقتين . أتفهم ؟
فشد الاتمان قامته حتى انتفخت عروقه فوق ياقته العالية ، وند عنه شيء مثل الغمغمة ، واستدار لينفذ التعليمات .

كان شتوكمان يجلس وظهره الى الباب وصدريته مفتوحة الأزرار ، وهو ينحت نموذجاً على قديدة من الخشب بمنشار رفيع .

- قم ، من فضلك . فأنت معتقل .

- لأي سبب ؟

- أتشغل غرفتين ؟

- نعم .

- سنفتشهما .

تعلق مهماز الضابط بممسحة الأرجل عند الباب . ومضى الى المنضدة والتقط أول كتاب وقعت عليه يده وهو مقطب الوجه .

- أريد مفتاح تلك الحقيبة .

- ما سبب زيارتكم هذه لي ؟

- . سيتسنى الوقت للحديث معك فيما بعد . تعال هنا يا شاهد!

ونظرت زوجة شتوكمان خلال فرجة الباب من الغرفة الأخرى ، ثم ارتدت . فتبعها المفتش وكاتبه الى الغرفة الأخرى .

وسأل الضابط شتوكمان بهدوء وهو يمسك بكتاب أصفر الغلاف :
- ما هذا ؟

فأجاب شتوكمان هازا كتفيه :
- كتاب .

- بوسعك أن تحتفظ بحذقتك الى فرصة أكثر ملائمة . أجب على السؤال كما ينبغي .

فمال شتوكمان بظهره على الموقد وهو يحاول كتمان ابتسامة هازنة . ونظر رئيس شرطة المنطقة الى الكتاب عبر كتف الضابط . ثم استدار الى شتوكمان :

- أدرس في هذا ؟

فأجاب شتوكمان بجفاء وهو يفرق بمشط صغير لحيته السوداء الى خصلتين متساويتين :

- إنني مولع بالموضوع .

- هكذا !

وألقى الضابط نظرة في صفحات الكتاب ثم رماه على المنضدة . ونظر في كتاب آخر ، ثم نحاه جانباً . وإذا اتم قراءة غلاف الثالث ، التفت الى شتوكمان من جديد :

- أين تحتفظ ببقية هذا النمط من الأدب ؟

فخاوص شتوكمان إحدى عينيه كما لو يسدد ضربة نحو هدف ما ، وأجاب :

- أمامك كل ما لدي .

فرد الضابط ملوحاً بالكتاب عليه :

- أنت تكذب .

- انني أطالب...

- فتشوا الغرفتين!

ومضى رئيس الشرطة ، ممسكاً بقبضة سيفه ، الى الحقيبة حيث كان حارس قوزاقي مجدور ينبش في الملابس والمفارش وقد ظهر عليه الرعب مما كان يحدث .

وأخيراً استطاع شتوكمان أن يقول ، وهو يضيق عينيه ويصوبهما نحو جسر أنف الضابط :

- إنني أطالب بمعاملة مؤدبة .

- اسكت ، يا هذا!

قلب الرجال كل ما كان من الممكن تقلبيه . ثم جرى التفتيش في الورشة أيضاً ، حتى أن رئيس الشرطة المتحمس نقر على الجدران بعقالات أصابعه .
وحيثما انتهى التفتيش . اقتيد شتوكمان الى مكتب الإدارة . فسار في وسط الطريق أمام الحارس القوزاقي ، وقد دس إحدى يديه في طية معطفه القديم ، والأخرى تتأرجح ، وكأنه ينفض وحلاً عن أصابعه . ومشى الآخرون حذاء الأسبجة على الممشى المتلامع بضياء الشمس ، ومن جديد مضى المفتش يدوس على بقع ضياء الشمس بجزمته التي أضحت الآن خضراء من الحشيش . ولم يعد حاملاً قبعته في يده ، بل شبكها بإحكام فوق أذنيه الغضروفيتين .

كان شتوكمان آخر من استجوب بين المعتقلين . وحشر الباقون معاً في غرفة الانتظار يحرسهم قوزاق ، وقد تم استجوابهم سلفاً . وكانوا : ايفان اليكسييفتش ويداء مازالتا ملطختين بالزيت ، ودافيد البسام ، و«الولد» وقد القى سترته على كتفيه ، وميشا كوشيفوي .

سأل المفتش شتوكمان وهو ينبش في محفظة أوراقه :

- حينما استجوبتك حول مجزرة الطاحونة لم أخفيت حقيقة كونك عضواً

في حزب العمال الاشتراكي - الديمقراطي الروسي ؟

كان شتوكمان واقفاً الى الجانب الآخر من الطاولة وحدث بصمت فوق رأس المحقق . فصرخ الأخير وقد أغاظه سكوت السجين :
- إن هذا ثابت لدينا . وستلقى جزاء مناسباً لفعلك .
- أرجوا أن تبدأ باستجوابك . - قال ذلك شتوكمان بلهجة ملول ، وإذ رأى مقعداً طلب السماح له بالجلوس . فلم يجب المفتش بل ألقى نظرة شرزاء الى شتوكمان فيما كان يجلس بهدوء .

- متى قدمت الى هنا ؟
- في العام الماضي .
- بناء على تعليمات من منظمتك ؟
- بدون أية تعليمات .
- منذ متى وأنت عضو في حزبك ؟
- عم تتحدث ؟
- أنا أسألك ، منذ متى وأنت عضو في حزب العمال الاشتراكي - الديمقراطي الروسي ؟
- أعتقد أن...

- أنا لا آبه بما تعتقد ، أجب على السؤال . فالانكار لا يجدي ، بل إنه خطر . - وسحب المفتش وثيقة من محفظته ودبسها على المنضدة بإبهامه .
- لدي هنا تقرير من روستوف يؤكد عضويتك في الحزب المذكور .
فأدار شتوكمان عينيه سريعاً نحو الوثيقة وركز عليها نظره لحظة ، ثم أجاب بثبات وهو يرت على ركبته :
- منذ ١٩٠٧ .

- هكذا! أتذكر أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك ؟
- نعم .

- إذن ، ما الذي أتى بك الى هنا ؟
- بدا لي أن المكان هنا يفتقر الى ميكانيكيين .

- ولكن لم اخترت هذه المنطقة بالذات ؟

- لنفس السبب .

- أليديك الآن ، أو هل لديك في أي وقت مضى ، اتصال بمنظمتك ، أثناء

فترة إقامتك هنا ؟

- كلا .

- أيعرفون أنك قد قدمت هنا ؟

- أظن ذلك .

فبرى المفتش قلمه بمبرة ذات مقبض لؤلؤي ، ماطاً شفتيه الى الأمام ،

وتحاشى النظر الى السجين .

- أتراسل أياً من أعضاء حزبك ؟

- كلا .

- إذن فما قولك بالرسالة التي اكتشفناها أثناء التفتيش ؟

- إنها من صديق ليس له أي ارتباط مهما كان نوعه بأي منظمة ثورية .

- هل تلقيت أية تعليمات من روستوف ؟

- كلا .

- لم كان عمال الطاحونة يجتمعون في حجرتك ؟

فهز شتوكمان كتفيه كالمندهش من غباء السؤال :

- اعتادوا المجيء في أماسي الشتاء لقضاء الوقت . كنا نلعب الورق...

فأضاف المفتش :

- وتقرأون الكتب التي يحرمها القانون ؟

- كلا . فقد كانوا جميعاً أميين تقريباً .

- مهما يكن . فمشغل ماكينة الطاحونة والآخرين كذلك لا ينكرون هذه

الحقيقة .

- ذلك غير صحيح .

- يبدو أنك لا تتمتع بأبسط عناصر الادراك بأن... - وابتسم شتوكمان

لذلك ، فنسي المفتش ما كان سيقوله ، وانهى كلامه بغيظ مكتوم : - أنت ، ببساطة لا عقل لك . إنك تصر على الانكار الذي يضربك . فمن الواضح جداً أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك لكي تمارس نشاطات مشبوبة لهمم القوزاق ، لينقلبوا ضد الحكومة . أنا عاجز عن فهم ما يحدوك الى تمثيل لعبة التضليل هذه . فهي لا تستطيع أن تمحو ذنبك...

- كل هذه ظنون من جانبك . أتسمح لي بالتدخين ؟ شكراً . وهي ظنون لا أساس لها البتة .

- هل قرأت هذا الكتاب على العمال الذين زاروا حجرتك ؟ - ووضع المفتش يده على كتاب صغير وغطى عنوانه . لكن اسم « بليخانوف » كان ظاهراً فوق يده .

فأجاب شتوكمان : « كنا نقرأ شعراً » ونفث سيكارته وهو يشدد قبضته على المبسم العظمي بين أصابعه . في صباح اليوم التالي الماطر خرجت عربية البريد من القرية وقد جلس شتوكمان في مقعدها الخلفي يغالبه النعاس ، ولحيته مدفونة في ياقة معطفه . وعلى كلا جانبيه انحشر على المقعد قوزاقيان تسليح كل منهما بسيف . وكان أحدهما وهو مجدور الوجه مجعد الشعر ، يقبض بقوة على مرفق شتوكمان بأصابعه المعقدة ، ويرميه بنظرات جانبية متهيبة ، مبقياً يده الأخرى على قرابه المتآكل .

ومضت العربى تفرق مسرعة في الشارع . وكانت ثمة امرأة صغيرة تقف بجانب فناء درس الحبوب العائد لآل ميليوخوف ، ملفعة بشال ، تنتظر العربى وقد اسندت ظهورها الى سياج الاسفندان .

مرت العربى مسرعة ، فألقت المرأة الصغيرة نفسها وراءها وهي تضغط بيديها على صدرها .

- أوسيب أوسيب دافيدوفتش ! أه ، ما عساني أن أفعل...

فحاول شتوكمان أن يلوح لها بيده ، لكن القوزاقي المجدور قفز وأمسك بذراعه ، وصاح بصوت متوحش أجش :

فللمرة الأولى في كل حياته البسيطة ، يرى رجلاً جرؤ على أن يعمل ضد القيصر نفسه .

٢

كان الطريق الطويل من مانكوفو الى بلدة رادزيفيونو الصغيرة قد تغلف في موضع وراء غريغوري بضباب رمادي لا يميز . حاول غريغوري بين الحين والحين أن يتذكر الطريق ، غير أنه لم يستطع سوى أن يستعيد صوراً باهتة لأبنية المحطات ، وعجلات القطار تفرقع تحت أرضية الشاحنات المرتجفة ، وروائح روث الخيل والعشب ، وخيوطاً لامتناهية من خطوط السكك الحديد تحتها ، والدخان المائج من الماكنة ، والوحي الملتحي لاحد أفراد الجندرمة الواقف على رصيف محطة فورونيز أو كييف . لا يدري بالضبط أيهما .

وفي المكان حيث نزلوا من القطار ، كانت ثمة حشود من الضباط ورجال حليقو الوجه في معاطف رمادية ، يتحدثون بلغة لم يستطع فهمها . استغرق إنزال الخيل وقتاً طويلاً . وحين فرغوا من ذلك أمر مساعد قائد المقدمة* بامتطاء الخيول وقاد الثلاثمائة قوزاقي ، أو أكثر ، الى المستشفى البيطري ، حيث كان ينتظرهم اجراء طويل لفحص الخيل . ثم توزيع القطعات . لغط ضباط الصف وهم يغدون ويروحون هنا وهناك ، فتكوّن الرعيل الأول من خيل سمر فواتح ، والثاني من حمر وكميت ، والثالث من سمر غامقة . وألحق غريغوري بالرابع الذي اشتمل على خيل سمر وذهبية . وتكوّن الخامس كله من خيل شقر والسادس من خيل دهم . ووضعت الرعائل تحت أمرة رؤساء عرفاء ، وألحقوها بسرايا الخيالة المعسكرة في القرى والضياح القريبة .

* المقدمة - ترتيب في اصطلاف القطعات في تقسيمات متوازية مع فراغ بين كل قسم وآخر . المترجمون

مرّ أمام غريغوري رئيس عرفاء متهتك ذو عيينين منتفختين على حصانه
وقد حمل شارات الخدمة الطويلة ، وسأله :
- من أي ناحية أنت ؟
- فيشنسكايا .
- هل أنت مقصود الذيل ؟*

فضحك القوزاق القادمون من نواح أخرى ، وازدرد غريغوري الإهانة وهو
صامت .

كان الطريق الذي اتخذهُ رجيل غريغوري يمضي بهم على امتداد الطريق
العام . وفي البداية ، كانت خيل الدون ، التي لم تر طرّقاً مرصوفة من قبل ،
تخطو بحذر ، وكأنّها تسير على نهر متجمد السطح ، وتنصب آذانها
وتنخر ، ولكنها لم تلبث أن اعتادت الطريق ومضت حوافرها ذوات الحدوات
الجديدة تطرق بأصوات حادة وهي تغذ السير . وكانت الأرض البولندية غير
المألوفة تقطعها شرائح من الغابات غير الكثيفة . وكان النهار دافئاً معتماً ،
وبدت الشمس العائمة خلف ستار سميك من السحب غريبة غير مألوفة هي
الأخرى .

كانت ضيعة رادزييلوفو تبعد عن المحطة أربعة فرساتات تقريباً ،
فوصلوا إليها في نصف الساعة . وقد سبقهم في الطريق مساعد قائد المقدمة
مع مرافقه وهما يخبان خبيّاً .

سأل قوزاقي شاب رئيس العرفاء وهو يشير الى ذؤابات الأشجار الجرد
من الحديقة :

- أية قرية هذه ، أيها العم ؟
- أية قرية ؟ عليك أن تنسى قراك القوزاقية وأنت هنا ، يا أخي ، فلست
في اقليم الدون .

* كان لكل ناحية كنية . وكان أهل فيشنسكايا يكنون بـ« الكلاب » . (ملاحظة المؤلف)

- فما هي إذن ، أيها العم ؟

- أنا ، عمك ؟ أي ابن أخ لي أنت! تلك ، يا أخي ، هي ضيعة الأميرة
يوروسوفا ، وإن سريتنا الرابعة مقرها هنا .

حدق غريغوري ، وهو يمسد بقنوط على رقبة حصانه ، في البيت ذي
الطابقين والبناء الأنيق ، والسياح الخشبي ، وفي النمط غير المألوف لأبنية
الضيعة . ولكن حينما مروا بالبستان تهاست الأشجار الجرد بذات اللغة
التي تتهامس بها الأشجار في بلاد الدون البعيدة .

تكشفت الحياة الآن للقوزاق عن أكثر جوانبها املاً وإرهاقاً . وإذا كان
الشباب محرومين من العمل فسرعان ما أضحوا صرعى الحنين الى وطنهم ،
وراحوا يقضون وقت فراغهم في الكلام . وقد انزل رجيل غريغوري في جناح
كبير من البيت ، سطحه من القرميد ، ليناموا على الواح خشبية تحت
النوافذ . وفي الليل كان الورق الملصق على شروخ النافذة يبعث صوتاً في
مهب النسيم كبوق راع بعيد ، وإذا كان غريغوري يتسمع اليه خلال شخير
النائمين تتملكه رغبة قوية لا تقاوم في أن ينهض ويذهب الى الاصطبلات ،
ويسرج حصانه ويمطيه ويمضي عليه الى أن يصل قريته من جديد . وكان
قلبه ينبض بالحنين والأسى .

نفخ بوق النهوض في الخامسة ، وكان الواجب الأول في النهار تنظيف
الخيول وحسها ، وفي خلال نصف الساعة الوجيزة التي تطعم خلالها الخيل
سنحت الفرصة لتبادل حديث مشئت :

- هذه حياة جهنمية ، يا أولاد!

- أنا لا أستطيع تحملها .

- أما رئيس العرفاء! فأَي خنزير! يجعلنا نغسل حوافر الخيل!

- إنهم يعدون الفطائر/الآن في بيوتنا... جاء عيد المرفع .

- حسبي أن يكون لي مكان أقبل فيه فتاة وأحتضنها .

- رأيت حلماً ليلة البارحة ، يا أولاد . حلمت بأنني وأمي نحش العشب في المرج ، وكان أهل القرية متناثرين حولنا كما تتناثر أزهار الأقحوان على ساحة درس الحبوب . - قال ذلك بروخور زيكوف ، هو فتى هادئ له عيانان وديعتان كالعجل :

- ولم نفعل سوى أن مضينا نحش ونحش... مما اشاع في نفسي الحبور .

- أراهن أن زوجتي تقول الآن : ترى ، ماذا يعمل زوجي نيكولاي الآن ؟
- هو - هو - ! أغلب الظن أنها تحاكك أباك الآن !
- ماهذا الكلام...

- ليس في العالم امرأة لا تحاول مع رجل آخر في غياب زوجها .
- وفيهم القلق ؟ ليست المرأة جرة من اللبن . سنجد ما يكفينا منهم حينما نعود .

وهنا تدخل في الحديث يغور زاركوف غامزاً ومبتسماً ابتسامة ذات مغزى . وهو أكثر الرجال مرحاً ومجوناً في السرية ، ولم يكن يشعر إزاء أي إنسان الا باحترام قليل وحياء أقل :
- هذا شيء أكيد : فلن يدع أبوك زوجتك وشأنها ، إنه كلب فحل لا يكل .

وأضاف كاسحاً سامعيه بنظرته المتلامعة :

- سأقص عليكم حكاية . كان هناك عجوز رعديد ظل يلاحق كنته ، لا يدعها ترتاح ، لكن ابنه كان يعترض طريقه دائماً . إذن ، ماذا يعمل العجوز ؟ في الليل ذهب الى الفناء وفتح البوابة ، فخرجت جميع الماشية . ثم قال لابنه : «ماذا فعلت ، ياكسول ويا كيت وكذا ؟ لماذا لم تسد البوابة ؟ انظر ، لقد هامت جميع الماشية في الخارج . اذهب وعد بها » . فقد ظن ، كما ترون ، أنه ما إن يذهب ابنه حتى يتسنى له قضاء وطره من كنته . على

أن الابن كان كسولاً ، فهمس لزوجته : « اذهبي أنت وأرجعيها » . وهكذا خرجت ، واستلقى هو هناك يستمع . فانسל الأب نازلاً من الموقد وزحف على يديه وركبتيه صوب السرير . لكن ابنه لم يكن بالرجل الأحمق ، فقد أخذ شوبكاً من الأرض ولبث ينتظر . وما إن زحف أبوه صاعداً الى السرير ووضع يده عليه حتى هوى عليه بضربة من شوبكه أصابت رأسه الأصلع في وسطه تماماً . وصاح : « ابتعد عني ، ولا تمضغ بطانيتي ، عليك اللعنة » . لقد كان لديهم في البيت عجل من عادته أن يمضغ الأشياء ، ولهذا تظاهر الابن أنه قد ضرب العجل . أما الأب فقد أفلح في العودة الى الموقد زاحفاً وتمدد هناك وهو يتحسس بإصبعه برفق التورم الذي كان بحجم بيضة أوزة . وأخيراً قال : « ايفان . ما الذي ضربت لتوك ؟ » فأجاب إيفان : « العجل ، بالطبع » فقال العجوز وهو يكاد يبكي : « أي مزارع ستكون إن كان دأبك ضرب الماشية على هذا النحو ؟ »

- أنت كذاب كبير! أف منك يا مجذور الوجه!

فصاح رئيس العرفاء وهو يدنو منهم :

- ما هذا ، هل أنتم في سوق ؟ تفرقوا!

فمضى القوزاق الى خيولهم يضحكون ويهزلون . وبعد تناول الشاي مضوا لإجراء التدريب الذي يتفنن رؤوساء العرفاء خلاله في الأوامر والسباب :

- شد بطنك ياخنزير!

- الى اليسار سر!

- ما هذه الوقفة يا ملعون!

وقف الضباط ، خلال التدريب ، يدخنون في جانب الفناء لا يتدخلون الا من حين لآخر . وحينما كان غريغوري ينظر الى الضباط المهذبين المتأنقين في معاطفهم الرمادية الجميلة وبزاتهم اللصيقة بأبدانهم ، ، خامره شعور بأن ثمة جداراً منيعاً بينه وبينهم . إذ كانت حياتهم الرغدة المنتظمة ،

والتميزة جداً ، والتي لم تكن لتشبه بأية حال حياة القوزاق ، تنساب بهدوء لا يكدرها الوحل أو القمل أو الخوف من قبضة رئيس العرفاء .
في اليوم الثالث لوصولهم الى الضيعة وقع حادث ترك أثراً أليماً في نفس غريغوري ، وفي نفوس جميع القوزاق الشباب . كانوا يتلقون التعليمات أثناء تدريب الخيالة ، وكان الحصان الذي يركبه بروخور زيكوف ، الفتى ذو العينين الوديعتين الذي طالما حلم بقريته القوزاقية النائية ، حيواناً نافراً متوحشاً ، وحدث أن رفس هذا الحصان رئيس العرفاء أثناء مروره . لم تكن الضربة قوية جداً ، أذ كشطت الجلد في ساق الحصان الأيسر ، وحسب ، ولكن رئيس العرفاء هوى بسوطه على وجه بروخور ، وصرخ وهو يندفع صوبه على حصانه :

- لماذا بحق الجحيم لا تتبين طريقك ، يا ابن القحبة! سوف أريك...
سوف تقضي الأيام الثلاثة القادمة في الواجب!
وحدث أن شهد المنظر أمر السرية ، الا أنه أدار ظهره وهو يعابث عقدة سيفه بأصابعه ويتشاءب ملأً . ومسح بروخور ، وشفتاه ترتجفان ، خطاً من الدم كان يسيل من وجنته المتورمة .

فنظر غريغوري الى الضباط ، وهو يجرح حصانه الى الصف ، غير أنهم مضوا في حديثهم كما لو أن شيئاً أليماً لم يقع . وبعد ذلك بخمسة أيام ، أسقط غريغوري دلواً في البئر ، فانقض عليه رئيس العرفاء كالصقر ورفع قبضته .
- لا تلمسني . - قال ذلك غريغوري بصوت أجش وهو ينظر الى الماء المتماوج تحته .

- ماذا ؟ انزل الى البئر وأخرجه ، يا نغل! لسوف أحطم رأسك هذا!
فقال غريغوري ببطء دون أن يرفع رأسه :
- سأخرجه لكن لا تلمسني .

لو كان هناك أي قوزاقي الى جانب البئر ، لما تردد رئيس العرفاء لحظة في ضرب غريغوري ، لكنهم كانوا يسوسون خيولهم عند السياج فلم يسمعوها ما كان دائراً . وتقدم رئيس العرفاء من غريغوري ، متلفتاً صوب

- ماذا تظن نفسك ؟ كيف تجرؤ على مخاطبة رئيسك بهذه الصورة ؟
- لا تبحث عن المتاعب ، يا سيمون يغوروف .
- أتهددني ؟ سوف أ...
فقال غريغوري رافعاً رأسه من البئر :
- اسمع ، لئن ضربتني... فسأقتلك . أنتهم ؟
ففغر رئيس العرفاء فمه الشبيه بضم الشبوط ، منذهلاً ولكن لم يند
بجواب . فقد فلتت فرصة العقاب . ولم يكن وجه غريغوري الداكن لين
غير . واعترت رئيس العرفاء الحيرة ، فمشى مبتعداً عن البئر ، متزحلقاً
وحل بالقرب من المزراب الذي كان يسيل فيه الماء الى أحواض خشبية
حينما أصبح على مبعدة ما استدار وهز قبضته ، وصاح :
- سوف أرفع تقريراً عنك الى آمر السرية . أجل سأرفع عنك تقريراً .
لأمر ما ، مع ذلك ، لم يرفع تقريره عن غريغوري . ولكنه شاك
ريغوري خلال أسبوعين وجعل يتسقط أخطاءه دائماً ويوكل اليه واج
خفارة في غير دوره ويتحاشى أن تلتقي نظراتهما .
سحق نظام الحياة الموحش الرتيب نفسية القوزاق الشباب . كما
تستغلون بصورة مستديمة وحتى أفول الشمس بالتمرينات ، على الأقا
على ظهور الخيل ويسوسون الخيل ويطعمونها . في الساعة العاشرة ، و
ذوة وتوزيع الحرس ، كانوا يصفونهم للصلاة ، رئيس العرفاء يرتل ص
سولى وعيناه تجولان على المراتب المائلة أمامه .
وفي كل صباح كانت الأمور تدور على المنوال ذاته كرة أخرى ، وت
يام متشابهة كما تتشابه حبات الحمص .
لم يكن في كل الضيعة سوى إمرأتين : زوجة الوكيل * العجوز وخادمه

الشابة الجميلة ، فرانيا ، وهي فتاة بولندية . تشير إعجاب الجنود والضباط على السواء . وكانت كثيراً ما تجري من المنزل الى المطبخ حيث يعمل طباح الجيش العجوز الذي لا حاجب له . فكانت الرعائل التي تتدرب في ساحة العرض تراقب كل حركة في تنورة الفتاة الرمادية أثناء هرولتها عبر الفناء ، وهم يتغامزون ويطلقون التهديدات المبالغ في علوها . وإذا كانت الفتاة تستشعر حملقة القوزاق والضباط ، راحت تسبح في جدول الشبق الذي انبعث من ثلاثمائة زوج من العيون ، ومضت تؤرجح رديفها بشكل مثير فيما كانت تجري ذاهبة آتية بين المطبخ والمنزل ، تمنح الابتسام لكل رجيل بالتناوب ، وللضباط بصورة خاصة وبالرغم من أن الجميع ناضلوا لاجتذاب اهتمامها بهم ، إلا أن الشائعات ذهبت الى أن أمر السرية الأجعد الشعر وحده قد ظفر بها .

وذاث يوم في مستهل الربيع ، كان غريغوري مكلفاً بالعمل في الاصطبلات ف قضى معظم وقته في طرف واحد منها حيث شاع الهياج بين جياذ الضباط لوجود فرس بينها . حان وقت الغذاء . وكان غريغوري قد أذاق حصان أمر السرية طعم السوط لتوه ، وشرع يعني بحصانه هو . فألقى هذا نظرة جانبية الى سيده ومضى يلوك التبن ، وقد رفع ساقه الخلفية المضروبة أثناء التدريب . وبينما كان غريغوري يصلح من وضع الرسن ، سمع صوت اصطراع وصرخة مكتومة ، انبعث من الزاوية الدكناء للطرف الآخر من الاصطبل . فانتابته دهشة من الصوت الغريب ، وهرع الى هناك عبر المعالف . وعلى حين غرة غشى على بصره ظلام لزج غطى على الممر فجأة وصفق أحدهم باب الاصطبل ، فسمع غريغوري صوتاً مكتوماً ينادي همساً :
- أسرعوا ، يا أولاد!

فأسرع غريغوري خطاه ، وصاح :

- من هنا... ؟

وفي اللحظة التالية اصطدم بعريف كان يتلمس طريقه الى الباب ،

فهمس هذا وهو يضع يده على كتف غريغوري : «أهذا أنت ، يا ميليوخوف ؟» .

- قف! ماذا هناك ؟

فانفجر العريف في قهقهة آثمة وأمسك بكم غريغوري : «يا من... هناك ، أين ذاهب ؟» إذ كان غريغوري قد انتزع ذراعه ، وجرى ثم دفع الباب . كان ثمة في الفناء المهجور دجاجة مقصوصة الذيل ، لا تدري بما أعد الطباخ لها من خطط تتعلق بحساء الوكيل لليوم التالي ، فكانت تنبش في شيء من الروث باحثة عن موضع تضع فيه بيضتها .

أعشى الضياء غريغوري لحظة ، فظلل عينيه بيده واستدار وهو يسمع الى جلبة تتعالى في زاوية الاصطبل الدكناء . فجرى ناحية الصوت مضيقاً عينيه وإذا به يلقي زاركوف يزرر سرواله ويهز رأسه .

- ماذا بحق... ماذا تفعل هنا ؟

فهمس زاركوف وهو يطلق زفيراً كريهاً في وجه غريغوري : «أسرع إنه لشيء رائع... لقد جروا الفتاة فرانيا الى الداخل هنا... ومددوها!» وانقطعت قهقهته الخليعة فجأة حينما أطاح به غريغوري على حائط الاصطبل الخشبي . واعتادت عينا غريغوري الظلمة شيئاً فشيئاً وكان ثمة رعب فيهما وهو يعدو صوب الجلبة ، ووجد غريغوري في الزاوية حشداً من قوزاق الرعيل الأول . فشق طريقه بينهم بصمت . ورأى فرانيا راقدة على الأرض بلا حراك ، وقد لفَ رأسها بمراوح الخيل ، وثوبها ممزق ومرفوع الى ما فوق ثدييها ، وساقاها الأبيضان وسط العتمة منفرجان بشكل داعر فظيع . وكان قوزاقي قد قام لتوه من فوقها ، وهو يبتسم ابتسامة معوجة ويتراجع ليفسح المجال لمن يليه ، فشق غريغوري طريقه خلال الحشد عائداً ، وركض الى الباب ينادي رئيس العرفاء . ولكن القوزاق الآخرين جروا خلفه وأمسكوا به عند الباب ، وسحبوه الى الورا واضعين أيديهم على فمه فمزق قمصلة أحدهم من طرفها الى ياقتها وركل آخر على معدته ، ولكن الآخرين استطاعوا أن يشلوا

حركته . ومثلما فعلوا بفرانيا ، أوثقوا رأسه بمرشحة حصان وقيدوا يديه خلف ظهره ، ثم القوا به في معلف خال ، وهم صامتون لكيلا يشخصهم من أصواتهم ، وحاول أن يصيح ومرشحة الحصان تخنقه ، وجعل يرفس الفاصل في هياج . وكان يسمع الهمس يتناهى من الزاوية ، والباب يصصر مع دخول القوزاق وخروجهم . ثم أطلق سراحه بعد عشرين دقيقة تقريباً . وكان رئيس العرفاء وقوزاقيان من رجيل آخر يقفون عند الباب .

قال له رئيس العرفاء ، وهو يطرف بعينه بشدة دون أن ينظر إليه :
- ما عليك إلا أن تقفل فمك!

وقال دويوك مبتسماً ، وهو قوزاقي من رجيل آخر :
- لا تثرثر وإلا صلطنا أذنك...

ثم رأى غريغوري قوزاقيين رفعوا الكومة الساكنة التي كانت فرانيا ممددة عليها ، وقد انفرجت ساقاها بشكل متصلب تحت تنورتها ، وارتقيا معلفاً ودفعاها خلال فجوة في الحائط أحدثتها عارضة خشبية سائبة . كان الحائط يحاذي البستان . وفوق كل معلف نافذة صغيرة مسودة ، فتسلق بعض القوزاق فوق فواصل المعالف ليروا ماستفعله فرانيا ، بينما هرع آخرون خارج الاصطبلات . وتملك غريغوري فضول حيواني ، هو الآخر ، فأمسك بعارضة سقيفة ، وشد قامته الى احدى النوافذ ووجد مااعتمد عليه بقدميه وجعل ينظر من هناك . كانت عشرات من العيون تحمق خلال النوافذ الوسخة في الفتاة الراقدة تحت الجدار . كانت ممددة على ظهرها ، وساقاها يتقاطعان وينفرجان مثل شفرتي المقص ، وأصابعها تنبش في الثلج عند الجدار . لم يستطع غريغوري أن يرى وجهها لكنه سمع الأنفاس المكتومة للقوزاق الآخرين المتطلعين من النوافذ ، وخشخشة التبن الناعمة المريحة .

لبثت راقدة طويلاً ، وأخيراً همت على يديها وركبتها . وارتعشت ذراعاها ، تكادان لا تقويان على حملها . ورأى غريغوري ذلك بوضوح . ثم

قامت على قدميها وهي تترنح ، ومرت بعينيها على النوافذ بحملقة طويلة بطيئة ، وقد بدت شعثاء ، غريبة ، عدائية . ثم ابتعدت متأرجحة وهي تقبض بيد شجيرات زهر العسل وبالأخرى تتحسس الجدار .

فقفز غريغوري من الفاصل وحك بلعومه يخامره شعور بالاختناق الوشيك . وعند الباب قال له أحدهم ، لم يستطع حتى تذكره فيما بعد ، بلهجة قاطعة :

— لئن فهِت بكلمة... قتلناك ، وحق المسيح!

وفي ساحة العرض لاحظ أمر السرية انقطاع أحد أزوار معطف غريغوري . فسأله :

— من كنت تصارع ؟ أي هندام يمكن أن تسمي هذا ؟

فنظر غريغوري الى الثقب الصغير المستدير الذي خلفه الزر المفقود ، وجاشت به الذكرى ، فأحس ، للمرة الاولى منذ فترة طويلة ، من الزمن بالرغبة في البكاء .

٣

انتشر فوق السهب هواء ساخن اصفر . وتعالى غبار أصفر من بحار القمح الناضج غير المحصود . واضحى معدن آلات الحصاد حاراً جداً بحيث لا تستطيع يد أن تلمسه . وصار النظر الى السماء الصفراء-المزرق الملتهبة شيئاً موجعاً . وحيث انتهت حقول القمح ، بدأت حقول زعفرانية من البرسيم .

وانتقلت القرية عن بكاراة أبيها الى السهب لقطع الذرة . وكانوا يختنقون بالحر والغبار الحريف ، ويرهقون الخيل وهي تجر الحاصدات . ومن حين لآخر ، كانت موجة من الهواء القادم من النهر تثير هبة من الغبار على السهب ، فتتغلف الشمس بغشاوة مخدرة .

وكان بيوتر قد شرب نصف دلو من الماء منذ الصباح الباكر حتى الآن ، وهو يجرف القمح من ناحية الحاصدة . فما أن تمضي دقيقة على شربه السائل الدافئ ، الكريه حتى يجف ريقه من جديد . كان قميصه وسرواله مبللين كليهما ، والعرق يتصبب من وجهه ، وفي أذنيه رنين متواصل ، وكل كلمة يقولها تخربش بلعومه . وكانت داريا تجمع القمح حزمًا ، وقد لفعت رأسها ووجهها بعصابتها ، وفكت أزرار قميصها . وانحدرت حبات رمادية كبيرة من العرق بين نهديها الاغبشين . وكانت ناتاليا تقود الخيل ، وقد التهبت وجنتاها حتى صارتا بلون البنجر ، وادمعت الشمس المتوهجة عينيها . وكان بانتلاي يروح ويغدو بين حزم القمح ، وقميصه المبتل يلسع جسده . وبدت لحيته كسيل من دهن العربات الأسود الذائب ، ينساب فوق صدره .

صاح كريستونيا من عربة عابرة ،

- جعلوك تعرق ؟

- مبتل عن آخري! سومي بانتلاي يعرج ، ماسحاً بطنه العرق بذيل

قميصه .

وصاحت داريا :

- بيوتر! لنتوقف .

- تريثي قليلاً ، سنفرغ من هذه المسافة .

- لنتنظر حتى يبرد الجو . كفاية الى هذا الحد .

أوقفت ناتاليا الخيل ، وكان صدرها يلهث كما لو كانت هي التي تسحب الحاصدة . ومضت داريا نحوهما متلمسة طريقها في حذر بقدميها المحترقتين الداكنتين على الحنطة المحصودة .

- ليست بعيدة! ثلاثة فرسات أو نحوها ، لا غير!

- لو قمنا بغوصة واحدة فيها!

وبدأت ناتاليا تقول متنهدة :

- وحينما تصلين الى هناك وترجعين...

- لماذا ، بحق الشيطان ، علينا أن نمشي على أرجلنا! سنحل الخيل ونركبها .

فنظر بيوتر قلقاً الى أبيه الذي كان يربط حزمة ، ولوّح بيده .
- حسناً ، حلّوا الخيل .

فحلت داريا العدة وقفزت ببراعة على ظهر الفرس . وقادت ناتاليا حصانها الى الحاصدة ، وشفتها المشققتان بتسيمان ، وحاولت أن تمتطيه من مقعد القيادة . فمضى اليها بيوتر وأعان ساقها على الصعود الى ظهر الحصان . ثم انطلقوا . ومضت داريا تخب في المقدمة ، وهي تركب حصانها على الطريقة القوزاقية ، وقد شمרת تنورتها الى مافوق ركبتها العاريتين ، واندفعت عصابتها الى ماوراء رأسها . ولم يستطع بيوتر أن يمنع نفسه من الصياح عليها :

- حاذري ألا يتقرّح ظهر الحصان!

فردت عليه داريا بصيحة غير مبالية :

- لا حاجة الى أن تقلق!

وبينما كانوا يعبرون طريق الحقل ، نظر بيوتر الى شماله فلاحظ غمامة صغيرة من الغبار تتحرك بسرعة على امتداد الطريق العام البعيد من القرية .

فعلق محدثاً ناتاليا ، وهو يخاوص عينيه :

- ثمة خيال قادم!

فأجابت ناتاليا دهشة :

- ومسرّع ، أيضاً ! انظر الى الغبار!

- لعمرى ، من عساه يكون! - ونادى بيوتر على زوجته : - داريا! شدي

الزماء لحظة ، ودعينا نراقب ذلك الخيال!

هبطت غمامة الغبار في منخفض واختفت ، ثم ارتفعت من جديد على

الجانب الآخر . وصار الآن بالمستطاع رؤية شبح الخيال خلل الغبار . فلبث بيوتر يحدّق وراحته الوسخة على حافة قبعته القش .

- ليس من حصان يستطيع أن يتحمل هذا العدو مدة طويلة . لسوف يقتله! - وتجهّم وأبعد يده ، واجتاح وجهه تعبير قلق .

أصبح الآن بالامكان رؤية الخيال بجلاء تام . كان يركب حصاناً بسرعة جنونية ، ويده اليسرى تمسك بقبعته ، وفي يمينه علم أحمر صغير مغبر . مرق على الطريق على مقربة دانية منهم حتى ان بيوتر سمع انفاس الحصان اللاهثة . وصاح الرجل وهو يمر بهم :
- انذار!

وتطاير من الحصان نثار من زبد صابوني اصفر وتساقط على أثر حافره . وتابع بيوتر الخيال بعينه . وانطبعت في ذاكرته نخرة الحصان القوية وصورة كفله ، مبتلاً ومتلألئاً كالفولاذ ، حينما رآه وهو يحدّق في الشبح المبتعد .

وتفرّس بيوتر ببلادة في الزيد المرتعش في الغبار ، وهو لمّا يزل عاجزاً عن ادراك طبيعة الكارثة التي حلّت بهم ، فشم أجال بصره في السهب المتموج المنحدر صوب القرية ، كان القوزاق يتراكمون من جميع الجهات فوق الصفوف الصفرة لجذامة الحنطة ، متجهين صوب القرية ، وكانت ترى عبر السهب ، حتى النجد البعيد ، غمامات صغيرة من الغبار تنم عن فرسان مسرعين . وتحرك قطار طويل من الغبار على الطريق المؤدي الى القرية . أما القوزاق الذين كانوا في قائمة الخدمة الفعلية ، فقد تركوا عملهم واخرجوا الخيل من الحاصدات وانطلقوا سراعاً الى القرية . وشاهد بيوتر كريستونيا يحل حصانه ، التابع لفصيله الحرس ، من عربة وينطلق عليه بسرعة جنونية ، وهو ينظر الى بيوتر عبر كتفه .

وقالت ناتاليا فيما يشبه العويل ، وهي تنظر الى بيوتر بذعر :

- « فيم كل ذلك ؟ » . وحفرته نظرتها ، نظرة الأرنب الواقع في فخ ، فعاد

مسرعاً الى الحاصدة ، وقفز من حصانه قبل أن يتوقف ، وحشر ساقيه في بنطاله الذي خلعه أثناء العمل ، وانطلق ، ملوحاً بيده لأبيه ، ليضيف غمامة اخرى من الغبار الى تلك الغمامات التي تناثرت قبله فوق السهب المنبسط في وقدة القيط .

٤

وفي ساحة القرية وجد حشداً رمادياً كثيفاً ، وقد ارتدى الكثيرون بزاتهم العسكرية وحملوا عدتهم . وكانت القبعات العسكرية الزرق لرجال كتيبة الاتمان ترتفع بمقدار رأس عن بقية القبعات ، مثل أوز هولندي بين دواجن الحقل الصغيرة .

كانت حانة القرية مغلقة . وكانت نظرة ضابط الارتباط العسكري كنيبة مثقلة بالهموم . واصطفت النساء اللواتي ارتدين ثياب الاعياد حذاء الاسيجة على امتداد الشارع . وكانت ثمة كلمة واحدة على كل شفة : «التفير» . والوجوه مأخوذة ، قلقة . وسرى القلق السائد الى الخيل ، فجعلت ترفس وتثب وتنخر غاضبة . وانتشرت في الساحة قنان فارغة وأوراق حلوى رخيصة ، وكانت غمامة من الغبار قد تعلقت في الجو منخفضة .

قاد بيوتر حصانه المسرج من عنانه . وعلى مقربة من سور الكنيسة وقف قوزاقي أسمر ضخم ، من كتيبة الاتمان ، يزرر بنطلونه الازرق ، وفمه ينفرج عن ابتسامة ناصعة الاسنان ، فيما كانت امرأة صغيرة قوية البنية ، زوجته أو حبيبته ، تتفجّر بوجهه :

- لسوف القنك درساً لذهابك مع تلك السفينة!

كانت ثملة ، وقد انتشرت على شعرها الاشعث قشور بذور عباد الشمس ، وانهدلت عصابتها الزاهية ، فشد جندي الحرس نطاقه ، وانحنى ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وساقاه طويلتان وطيات سرواله العريضة يمكن أن تمرر عجلأ حولياً دون أن يعصى فيها .

- ابتعدي عني ، ياماشكا .

- ياللوحش! يا زير النساء!

- وماذا في ذلك ؟

- يا عديم الحياء!

وعلى مقربة منه كان رئيس عرفاء أحمر اللحية يناقش مدفعياً . وكان يؤكد له :

- لن يؤدي ذلك الى شيء ما! سوف نقضي هناك يوماً ، ثم نعود الى بيوتنا من جديد .

- ولكن لنفرض أن الحرب وقعت ؟

- ياه ، يا صديقي! أين هو البلد الذي يستطيع أن يصمد أمامنا ؟

وفي الحشد القريب يجري حديث لاترابط فيه وكان ثمة قوزاقي مسن وسيم يتجادل في حماس :

- لا مصلحة لنا فيها . فليقاتلوا هم فنحن لم نحصد قمحنا بعد .

- ياللمصيبة! هانحن واقفون هنا ، بينما في الحصاد كل دقيقة لها وزنها!

- ستنفذ الماشية الى الحزم!

- قبل قليل فقط شرعنا في حصاد الشعير!

- يقولون ان القيصر النمسوي قد قتل .

- كلا ، ولي عهده .

- يا صديق من أي كتبية أنت ؟

- ها! يا عزيزي ومن أين أنت ؟

- لكن الاتمان يقول إنهم استدعونا لمواجهة ما قد يحدث لا غير .

- انتهينا ، يا أولاد!

- سنة أخرى ، وأكون قد خرجت من وجبة الاحتياط الثالثة . -

ماعساهم يريدون منك ، أيها الجد ؟

- لا عليك ، فما أن يشرعوا بتقتيل الرجال حتى يستدعوا الشيوخ ، أيضاً .

- الحانة مغلقة!

- وماذا ؟ في وسعنا أن نذهب الى منزل مارفوتكا ، ستبيعنا برميلاً!
ثم بدأ التفتيش . واقتاد ثلاثة من القوزاق رابعاً ، مضرجاً بالدم وفي
حالة سكر تام ، الى إدارة القرية . فارتقى الى الخلف ، وشق قميصه ، وصاح
وهو يجول بعينه الصغيرتين :

- سأعلم الفلاحين! سأنال من دمهم! سيعلمون من هم قوزاق الدون!
فتضاحكت حلقة الرجال المحيطة به استحساناً :

- صحيح ، لقنهم درساً!

- لمَ قبضوا عليه ؟

- هاجم بعض الفلاحين!

- حسناً ، يستحقون ما فعل .

- سنريهم أكثر من هذا!

- ساهمت في قمعهم عام ١٩٠٥ . كان ذلك منظرراً جديراً بالمشاهدة!

- ستتشب الحرب . وسيرسلوننا من جديد لقمعهم .

- كفى ما لاقينا . فليؤجروا لتلك المهمة ، أو فلتقم بها الشرطة . من

العار علينا أن نفعل ذلك .

كان حانوت موحوف مكتظاً بالناس . وكان في وسطهم ايفان توميلين
يناقش صاحبي الحانوت ، وهو سكران ، وموحوف يسعى لتهديته . وكان
شريكة اتيوبين قد ارتكن عند الباب . وقال متبرماً : « علام كل هذا ؟ في
رأيي أن هذا انتهاك للحرمة! يا ولد ، اجر في طلب الاتمان! »

ضغط توميلين ب صدره على التاجر المتجهم ، وهو يمسح يديه
المعروقتين ببنتاله ، وقال متهكماً :

- لقد عصرتنا وعصرتنا بالفائدة التي تفرضها علينا ، أيها الخنزير ،
والآن طاش صوابك . سوف أحطم وجهك! أنت تنهب حقوقنا القوزاقية ، أيها
الثعبان الغليظ!

كان اتمان القرية منهمكاً في صب سيل من الكلمات المهدنة لطمأنة القوزاق المحيطين به : «حرب ؟ كلا ، لن يكون هناك اية حرب . فقد قال سعادة آمر الانضباط العسكري أن النفير لم يكن الا من قبيل التمارين . لا حاجة للتطير» .

- حسناً! فلنعد الى الحقول فور عودتنا الى بيوتنا!

- وكيف لا! الحصاد لا ينتظر!

- ماذا يدور في خلد السلطات ؟ لدي أكثر من مائة ديسياتين يتعين عليّ حصادها .

- تيموشكا! قل لأهلينا إننا سنعود غداً .

- يبدو أنهم علقوا بيانا . لنذهب ونلقي نظرة عليه .

وهكذا ظلت الساحة دائبة الحركة والصخب بالحشود القلقة حتى ساعة متأخرة من الليل .

بعد أربعة أيام ، كانت الشاحنات الحمر للقطارات العسكرية تحمل كتائب وبطاريات القوزاق باتجاه الحدود الروسية - النمسوية .
- الحرب...

ومن المعالف انبعثت محممة الخيل ورائحة الروث الكريهة الرطبة .
وفي العربات دار نفس النمط من الحديث ، واغلب الأغاني من هذا النوع :

الدون يقظان يتململ ،

الدون الهادئ المسيحي .

اطاعة للنداء ،

نداء الملك ، يغذ الدون مسيرته .

في المحطات ، كان القوزاق يقابلون بنظرات فضولية عطوف . وكان
لناس يحدقون بفضول في شرائط سروايل القوزاق ، وفي وجوههم التي لم
تزل داكنة من أثر العمل الأخير في الحقول .
- الحرب...

وانطلقت صرخات الجرائد بالنبا . وفي المحطات ، لوحت النساء
بمناديلهن ، وابتسمن ، ونثرن السكاكر والحلوى . مرة واحدة فقط ، قبيل
أن يصل القطار فورونيچ دس عامل سكك عجوز ، نصف سكران ، رأسه في
الشاحنة حيث انحسر بيوتر ميلخوف مع ثلاثين قوزاقاً آخرين ، وتساءل :
- انتم ذاهبون ؟

فأجابه أحد القوزاق :

- نعم . ادخل وامض معنا ، ايها الجد .

فرد العجوز وهو يهز رأسه لائماً :

- يا ابني... ما أنتم إلا ثيران للذبح!

٥

خلال الاسبوع الرابع من حزيران ١٩١٤ ، نقلت هيئة اركان الفرقة
كتيبة غريغوري ميلخوف الى مدينة روفنو لتشارك في المناورات . وكانت
ثمة فرقتان من المشاة قد عسكرتا على مقربة من روفنو ، اضافة الى بعض
وحدات الخيالة . وكان أن عسكرت السرية الرابعة في قرية فلاديسلافكا .
وبعد اسبوعين ، وبينما كان غريغوري وقوزاق السرية الرابعة مضطجعين في
خيامهم وقد هدت قواهم المناورات المستديمة دخل آخر السرية ، الرئيس
بولوكو فينكوف على غفلة مسرعاً وعائداً من هيئة أركان الكتيبة على حصانه
المغطى بالزبد .

اضطرب القوزاق في الفناء فقال بروخور زيكوف متهمكماً :

- «ستتحرك من جديد ، على ما أظن» . وأرهف سمعه ينتظر صوت البوق .

وغرز عريف الرعيل الابرة التي كان يرتق بها بنطلونه في بطانة قبعته ، وعلق قائلاً :

- يبدو كذلك .

- لن يدعونا نرتاح لحظة .

- قال رئيس العرفاء : ان أمر اللواء سيزورنا .

في هذه اللحظة نفخ البوقي اشارة الانذار . فقفز القوزاق على اقدامهم . وصاح بروخور وهو ينقب في جنون : « اين ولى كيس تبغي ؟ » .

- اسرجوا حصنكم!

وصاح غريغوري وهو يعدو الى الخارج :

- فليذهب كيسك الى الجحيم .

جرى رئيس العرفاء الى الفناء ، واتجه ناحية مرابط الخيل ماسكاً مقبض سيفه . وكانوا قد اسرجوا خيلهم خلال المهلة النظامية . وبينما كان غريغوري ينتزع أوتاد الخيام ، استطاع العريف أن يجمعهم :

- انها الحرب هذه المرة ، يابني!

- أنت تهزل!

- وحق الرب! لقد أخبرني رئيس العرفاء .

وانتظمت السرية في الشارع وعلى رأسها الأمر على صهوة حصان هائج . وحوّم ايعازه على رؤوس المراتب :

- ارتال ، اصطفاف!

وقرقت الحوافر فيما مضت الخيل خارجة من القرية الى الطريق العام . ومن قرية مجاورة ظهرت للعيان السريتان الاولى والخامسة متجهتين على الخيل صوب المحطة .

وفي اليوم التالي انزلت الكتيبة من القطار في محطة تبعد ، حوالي

خمسة وثلاثين فرستا عن الحدود النمسوية . كان الفجر ينسلخ من وراء أشجار البتولا في المحطة . وبدا الصباح مبشراً بتحسن .
ضجّت الماكنة وعجّت فوق خطوط السكك ، وتلألأت القضبان تحت دهان من الندى ، وهبطت الخيل من الشاحنات على الألواح الخشبية وهي تنخر . ومن وراء برج الماء تنهى خليط من الاصوات والاوامر .
وقاد قوزاق السرية الرابعة خيولهم من أعنتها عبر تقاطع السكك وبدت أصواتهم متطيرة في العتمة البنفسجية المتكسرة . وبزغت الوجوه وهياكل الخيل من الظلمة بشكل مبهم .

- أية سرية تلك ؟

- ومن أنت ؟ من أين أنت ؟

- سأريك من أنا! كيف تجرؤ على التحدث الى ضابط على هذا النحو ؟

- آسف ، يا صاحب السعادة ، لم أتبينكم .

- اذهب! اذهب!

- فيم تكاسلكم ؟ تحركوا . ها هو القطار قادم .

- أين رعيلكم الثالث ، يا رئيس العرفاء ؟

- سرية ، تراصفي!

همسات تتمتم في الرتل :

- اللعنة ، كيف تتراصف ونحن لم نعرف النوم منذ ليلتين .

- هات نفسا ، يا سيومكا ، لم أدخن سيكارة منذ البارحة .

- اذهب الى الجحيم...

- عض حزام سرجه ، هذا الشيطان .

- فقد حصاني نعلا من ساقه الامامية .

وعلى مبعدة قليلة ، كان الرعيل الرابع قد أوقف قليلاً لأن الرعيل الآخر

اعترض طريقه . كانت أشباح الفرسان السود بارزة بوضوح قبالة صفحة

السماء الرمادية الممزقة ، كما لو رسمت بحبر هندي . في كل صف أربعة

فرسان . تأرجحت رماحهم كعبدان عباد الشمس الجرد . ومن حين لآخر
جلجل ركاب أو صرّ سرج .

- يا اخوان ، الى أين ذاهبون ؟

- الى الاشبيين لحفلة التعميد !

- ها - ها - ها !

- صد ! ما هذا الكلام الفارغ !

كان بروخور زيكوف راكباً الى جانب غريغوري ، حدّق بروخور في

وجهه وهمس :

- ميليفوف ، لست خائفاً . أليس كذلك ؟

- ما الذي يدعو للخوف ؟

- قد نلتحم اليوم في المعركة .

- حسناً ، وما في ذلك ؟

فاعترف بروخور واصابعه تعبت بالأعنة الندية في عصبية ،

- لكنني خائف . لم أنم طرفة عين طوال الليل .

ومرة أخرى تقدمت السرية ، وتحركت الخيل بخطى رتيبة . واهتزت

الرماح وانسابت في ايقاع منتظم . فألقى غريغوري الاعنة ، وغفا . وبدا له

أن الذي كان يتقدم على سيقانه الى الأمام بليوننة ، فيؤرجحه على السرج ،

لم يكن الحصان ، بل هو نفسه سائراً على طريق مظلم دافئ ، يمشي في

يسر غريب ، وفي فرح لايقاوم ، ومضى بروخور يثرثر الى جانبه . لكن

صوته اختلط بصرير السرج وقرقة الحوافر ، فلم يكدر اغفائه الهنية .

انعطفت السرية في طريق جانبي . وكان الصمت يرن في آذانهم ،

والشوفان الناضج يتدلى على جانب الطريق ، ومن ذؤابات يتبخر الندى .

وحاولت الخيل أن تبلغ السنابل الخفيضة ، فكانت تجذب الاعنة من أيدي

راكبيها . زحف ضوء النهار اللطيف تحت جفني غريغوري المنتفخين من جراء

الأرق . فرفع رأسه وسمع صوت بروخور الرتيب ، كأنه صرير عجلة في عربة .

أيقظه رعد قاصف شديد ، تماوج بغتة عبر حقول الشوفان .

- رمي مدافع!

كاد بروخورأن يصيح ، وغام الرعب بعينيه اللتين تشبهان عيني العجل ،
فرفع غريغوري رأسه . كان أمامه المعطف الرمادي لعريف الرعيل ، يرتفع
ويهبط في الوقت نفسه مع ظهر الحصان . وعلى كلا الجانبين امتدت حقول
القمح غير المحصودة ، وتراقصت قبرة في السماء على علو عمود تلغراف .
وهبت جميع السرية ، اذ سرى صوت الرمي خلالها سريان التيار الكهربائي .
ودفع الرئيس بولو كوفنيكوف السرية الى عدو سريع ، وقد اثاره الرمي . وبعد
مفترق طريق حيث قامت حانة مهجورة ، بدأوا يصادفون عربات اللاجئين
ومرت بالقوزاق سرية من الفرسان المتألقين . وحدق قائدهم ، الذي كان
يمتطي حصاناً أصيلاً أشقر ، في القوزاق باحتقار وهمز حصانه . ثم التقوا
ببطارية من مدافع القوس جنحت في منخفض تقع موحل . كان الراكبون يلهبون
خيولهم بالسياط ، بينما يعالج المدفعيون عجلات العربة . وتمر مدفعي ضخ
مجدور حاملاً ضمة الواح خشبية يبدو أنه انتزعها من سياج الحانة .

وبعد ذلك بقليل لحقوا بكتيبة من المشاة . كان الجنود يمشون
مسرعين وقد لفت معاطفهم فوق ظهورهم . والتمعت الشمس على صحائف
طعامهم المصقولة وانسابت من حراهم . وقذف نائب عريف قميء نشط من
السرية الاخيرة بكتلة من الطين الى غريغوري وقال :

- هاك ، تلقف! اقذف النمسيين بها!

فرد غريغوري :

- لا تتعابث ، أيها الجندب! - وقتت كتلة الطين أثناء طيرانها بسوطه .

- قولوا لهم « مرحباً » على لساننا ، أيها القوزاق!

- ستسبح لكم الفرصة لذلك بأنفسكم .

انطلق أحدهم في بداية الرتل يردد أغنية بذينة ، وجعل جندي ذو
ردفين اثنييين سمينين يمشي الى جانب الرتل وظهره الى الأمام وهو يصنع

ربلتي ساقيه القصيرتين ، فضحك الضباط ، اذ كان الاحساس القوي بالخطر قد قربهم اكثر الى الجنود وصاروا أكثر تسامحاً .

ومنذ ذلك الحين اخذ الرتل يمر باستمرار بكتائب من المشاة تتزاحف مثل دود القز ، وبطاريات مدفعية ، وعربات شحن ، وعربات الصليب الأحمر ، وشاعت في الهواء الرائحة المميّنة للمعركة الوشيكة الوقوع . بعد ذلك بقليل ، وبينما كانت السرية الرابعة تدخل إحدى القرى ، لحق بها أمر الكتيبة ، العقيد كاليدين ممشوق القد ، يصحبه معاونه .

وحينما مرّا بغريغوري وسمع الأخير يقول لكاليدين باضطراب : « هذه القرية ليست مؤشرة على الخريطة ، يا فاسيلي ماكسيموفتش وقد نجد أنفسنا في موقف حرج » .

لم يتبين غريغوري رد العقيد . وانطلق المساعد يهذب حتى لحق بهما . كان حصانه يعرج على ساقه الخلفية اليسرى ، ولاحظ غريغوري بصورة آلية خصائصه البديعة . وظهرت على البعد أكواح قرية صغيرة راقدة تحت منحدر يسير . كانت الكتيبة تعدو عدواً سريعاً . وجعلت الخيل تعرق ومسح غريغوري براحة يده على رقبة حصانه التي صارت قاتمة ، والقى النظرات فيما حوله . وإلى الجانب الآخر من القرية كانت ثمة غابة ، وذؤابات أشجارها الخضراء تخترق قبة السماء الزرقاء . ومن وراء الغابة اختلطت انفجارات قنابل المدفعية بقرعة طلقات البنادق المتوالية . فنصبت الخيل آذانها . وعلى مسافة بعيدة حوم في السماء دخان المنثار المتفجر ، وسرت طلقات البنادق ببطء الى يمين الغابة ، تتلاشى حيناً ، وتتعالى حيناً . أصاح غريغوري السمع لكل صوت ، وقد استحالت أعصابه حزماً صغيرة من الاحاسيس المتوترة . وتململ بروخور زيكوف على سرجه ، وهو يتكلم بلا انقطاع .

- غريغوري ، تبدو هذه الطلقات تماماً مثل أطفال يقرقعون العصي على السياج ، أليس كذلك ؟

دخلت السرية القرية . كان الجنود يتدافعون هنا وهناك في الأفنية . وكان سكان الأكواخ يحزمون أمتعتهم ليلوذوا بالفرار ، وقد انطبع الجزع والحيرة على وجوههم . واذا مر غريغوري لاحظ جنوداً يضرمون النار تحت سقف إحدى الحظائر ، غير أن صاحبها ، وهو بيلوروسي طويل أشيب الشعر ، قد سحقته الكارثة المفاجئة ، مرّ بهم دون أن يبدي أدنى اهتمام . وشاهد غريغوري عائلة الرجل نفسه تحمّل عربة بوسائد حمراء الأغنية ، وأثاث متداعٍ . وكان الرجل نفسه يحمل باعتناء إطار عجلة مكسوراً عديم النفع ، وربما مضت عليه سنوات وهو ملقى في الفناء .

وذهل غريغوري لغباء النساء اللواتي كن يكدسن على العربات مزهريات وايقونات ، ويتركن الحاجات الغالية والضرورية وراءهن في المنزل . وفي بطن الشارع ، تطاير الريش من حشية ريشية ، مثل عاصفة ثلجية ، وكانت ثمة رائحة حريفة في الهواء لهباب محترق وسراذيب زنخة . وفي طرف القرية التقوا بيهودي يهرول ناحيتهم ، وقد تمزقت فتحة فمه الضيقة عن صرخة :

- أيها السيد القوزاقي ، أيها السيد القوزاقي! آه ، يا الهي!

وكان ثمة قوزاقي قصير القامة مدور الرأس يخب على حصانه أمامه ، ملوحاً بسوطه دون أن يبالي به إطلاقاً .

- قف! - صاح نقيب من السرية الثالثة على القوزاقي .

فانحنى القوزاقي على رمانة سرجه وانطلق في شارع جانبي .

- قف ، أيها الوغد . من ايه كتيبة أنت ؟

فالتصق رأس القوزاقي الحليق برقبة الحصان ، وانطلق بسرعة جنونية نحو سياج عال فألقى حصانه ، ثم قفز برشاقة .

فقال العريف :

- ان الكتيبة التاسعة معسكرة هنا ، يا صاحب السعادة . تلك هي

كتيبته .

- ليذهب الى الشيطان - وعبس النقيب ، واستدار الى اليهودي الذي كان يمسك برِكابه - ماذا أخذ منك ؟

- أيها السيد الضابط... ساعتى ، أيها السيد الضابط . . وطرف اليهودي ، مديراً وجهه الوسيم ناحية الضباط المقبلين .

حرر النقيب الركاب بقدمه وشرع يتقدم . وقال مبتسماً من وراء شاربه وهو يبتعد :

- على ايه حال كان الالمان سيأخذونها حينما يأتون .

وقف اليهودي حائراً وسط الطريق . واعتصر التشنج وجهه . وصاح أمر السرية بقسوة وهو يرفع سوطه :

- تنح عن الطريق ، يا حسقيل أفندي .

مضت السرية الرابعة ، وسنابك الخيل تقرقع والأسرجة تصر . وسخر القوزاق من اليهودي التائه ، وتحدثوا فيما بينهم :

- لا معدى لمن كان على شاكلتنا من السرقة .

- كل شيء يلتصق بيد القوزاقي .

- دعهم يكونون أكثر حرصاً على حاجياتهم !

- ولد ماهر ، هو ذاك !

- قفز عبر السياج ، كأنه كلب صيد .

تخلف رئيس العرفاء كاركين وراء السرية ، وبمصاحبة ضحكات القوزاق خفض رمحه وصاح :

- أجر قبل أن أغرزه فيك...

فغفر اليهودي فاه في ذعر وجرى . فلحق به رئيس العرفاء وضربه بسوطه . ورأى غريغوري اليهودي يكبو ، ثم يستدير الى رئيس العرفاء وقد غطى وجهه براحتيه . كان الدم يتلألأ خلال أصابعه الهزيلة .

وقال ناشجاً :

- لماذا ؟

فصاح رئيس العرفاء وعيناه النفاذتان الشبيهتان بالازرار تتبسمان
بلزوجة فيما مضى مبتعداً :

.. لا تمش حافياً ، أيها الأحمق!

ووراء القرية ، كانت جماعة من جنود الهندسة تنجز بناء قنطرة عريضة
عبر منخفض تغطيه الحلفاء وزنابق الماء الصفر . وعلى بعد قريب كانت
سيارة تطن وتقرقع وسائقها يضج حولها . وفي مقعدها الخلفي جنرال قوي
البنية ، أشيب الشعر ذو لحية اسبانية وخدين منتفخين ، بين جالس
ومضطجع . فوقف العقيد كاليدين وأمر فوج الهندسة وقفة استعداد الى جانب
السيارة . وزعق على المهندس ، وهو يقبض على سير محفظة خرائطه :

.. لقد أمرت باتمام هذا العمل أمس . اسكت! كان عليك أن تجهز
المواد سلفاً . اسكت! .. وهدر من جديد ، مع أن الضابط لم يحاول أن يفتح
شفتيه المرتجفتين - كيف تتوقع أن أعبّر الى الجانب الآخر ؟ اجبني ، أيها
الرقيب . كيف لي أن أعبّر ؟

وكان يجلس الى يساره جنرال شاب أسود الشارب ، ويشعل عود
ثقاب ليدخن سيكارا . وانحنى الرقيب المهندس الى الأمام وأشار الى الجانب
من الجسر . وعند الجسر مضت السرية نازلة في المنخفض . وغاصت الخيل
حتى ركبها في الوحل الأسود الحائل ، وتناثرت فوقهم من الجسر نشارة
خشب رقيقة بيضاء .

عبرت السرية الحدود النمساوية عند الظهر . وقفزت الخيل عبر العمود
الاسود - الابيض المكسور لنقطة الحدود . ومن اليمين انبعث قصف
المدافع ، ومن بعيد لاحت السقوف القرميدية لمزرعة ماتحت أشعة الشمس
العمودية . وجثمت بتثاقل فوق كل شيء غمامة من الغبار مرّة المذاق .
وأصدر أمر الكتيبة أوامره بافراز دوريات الاستطلاع وارسالها الى الأمام .
فأرسل الرعيل الثالث من السرية الرابعة تحت قيادة الملازم الاول
سيمينوف ، وتخلفت الكتيبة في ضباب رمادي ، وقد قسمت الى سرايا .

وركبت مفرزة تتكون من عشرين قوزاقياً خيلها على الطريق المحفر ، مارة بالمزرعة .

قاد الملازم دورية الاستطلاع حوالي ثلاثة فرستات ثم توقف ليدرس خريطته فتجمع القوزاق في حلقة يدخنون . وترجل غريغوري عن حصانه ليرخي السرج ، لكن رئيس العرفاء صاح به :
- ماذا تظنك فاعلاً ؟ عد الى حصانك .

أشعل الملازم سيكارة ، ومسح منظاره باعتناء . كان هناك واد يمتد أمامهم في قيظ الظهيرة . والى يمينهم برزت خطوط متعرجة لغابة ما يخرقها خط الطريق ، وعلى مبعدة حوالي فرست ونصف ، كانت ثمة قرية صغيرة ، وبدت بالقرب منها ضفة نهير طينية متأكلة وصفحة ملساء . فحدّق الضابط بإمعان خلال منظارته ، متفحصاً السكون الميت في شوارع القرية ولكنها كانت مهجورة كمقبرة . كان شريط الماء الأزرق وحده يومئ متحدياً .
أشار الضابط الى القرية بعينيه ، وقال :
- لا بد أن هذه كوروليوفكا .

اقترب رئيس العرفاء بحصانه ، ولم يجب ، لكن التعبير في وجهه أفصح عن قوله : أنت تعلم خيراً مني . أنا لا أعنى الا بالقضايا الصغرى .
ثم قال الضابط متردداً ، وهو يزيح منظاره عن عينيه ويتجههم كما لو كان يعاني المأ من أسنانه :
- سنذهب الى هناك .

- قد نلتقي بهم ، يا صاحب السعادة ؟

- سنكون حذرين . هيا بنا .

ظل بروخور زيكوف قريباً الى غريغوري . مضوا حذر الشارع المهجور في حذر . كانت كل نافذة توحى بكمين ، وكل باب حظيرة مفتوح يستثير احساساً بالوحشة ويبعث في الظهر رعشة مزعجة . وانجذبت كل العيون الى الاسيجة والحفر ، وكأن فيها مغناطيساً . ومضوا مثل وحوش كاسرة ،

مثل ذئاب تقترب من مساكن الناس في ليلة شتائية - لكن الشوارع كانت خالية . كان الصمت مذهلاً . ومن نافذة مفتوحة لأحد البيوت انبعث الصوت البريء لساعة تدق . كان وقع الضربات مثل طلقات مسدس ، ورأى غريغوري الضابط الراكب أمامه يرتعش وتنطلق يده الى مسدسه .

لم يكن في القرية كائن ما . وخاضت الدورية النهر حتى بلغ الماء بطون الخيل فغاصت فيه رضية وحاولت أن تشرب منه ، لكن فرسانها جروا الأعنة واستحثوها على المضي ، . وحدق غريغوري وهو ظمآن في الماء الكدر ، القريب والعزیز المنال . لقد جذبته اليه بصورة تكاد لا تقاوم . ولو كان ممكناً اذن لوئب من سرجه واستلقى بملابسه تحت همهمة التيار حتى يقشعر من البرد صدره وظهره العرقان .

ومن المرتفع الواقع وراء القرية شاهدوا بلدة بعيدة : مجموعة مربعة الشكل من المنازل ، أبنية من الطابوق ، حدائق ، وابراج كنائس ، مضى الضابط الى قمة التل ووضع منظاره على عينيه . ثم صاح واصابع يده اليسرى تتحرك بعصبية :

- هاهم .

فركب رئيس العرفاء الى القمة التي ألهبته الشمس يتبعه القوزاق الآخرون فرادى ، وجعلوا يحدقون النظر ، فشاهدوا الرجال - الذين يبدوون نقاطاً سوداء - يهرولون في الشوارع ، والعربات تسد الشوارع الجانبية . والخيالة يجرون رائحين غادين . واستطاع غريغوري وقد ضيق عينيه وجعل يحدق من تحت راحته ، ان يميز لون البزات الرمادي غير المألوف . وكانت تمتد أمام البلدة خطوط سمر للخنادق التي حفرت توأ ، والرجال محتشدون حولها .

قال بروخور شاهقاً :

- ما أكثرهم .

وكان الآخرون صامتين ، وقد تملكهم جميعاً الاحساس ذاته . وتسمع

غريغوري الى ضربات قلبه المتوترة (كأن كائناً حياً صغيراً ثقیلاً يقفز في مكانه الايسر من صدره) وأدرك أن الشعور الذي استشعره عند مرأى هؤلاء الأجانب كان شيئاً مغايراً تماماً لما كان قد شعر به لدى مواجهة « العدو » أثناء المناورات .

قاد رئيس العرفاء القوزاق بسرعة عائداً بهم الى أسفل المرتفع وأمرهم بالترجل وارتفع الى القمة عائداً الى الملازم . ودون الملازم بعض الملاحظات بقلمه في دفتر ملاحظات الميدان ، ثم أشار الى غريغوري بإصبعه ،
- ميليخوف .

- سيدي .

مضى غريغوري الى الضابط ، وقد تحجرت ساقاه بعد طول الركوب ،
فناول الضابط ورقة مطوية وقال :

- لديك أفضل حصان . سلم هذه الى آمر الكتيبة . اسرع .

فوضع غريغوري الورقة في جيب صدره وعاد الى حصانه وهو يدس سير قبعته تحت ذقنه فيما كان يمضي ، ولبت الضابط يراقبه حتى امتطى حصانه ثم نظر الى ساعة معصمه .

كانت الكتيبة قد بلغت قرية كوروليوفكا حينما وصل اليها غريغوري بالتقرير ، وبعد أن قرأه العقيد أصدر امره الى مساعده الذي انطلق الى السرية الاولى .

تدفقت السرية الرابعة خلال كوروليوفكا ، وانتشرت بسرعة وانتظام فوق الحقول الواقعة وراء القرية وكأنها في ساحة تدريب . ووصل الملازم سيميونوف مع رجاله .

واصطفت السرية مراتب وارحلت الخيل رؤوسها لتنفض عنها ذباب الخيل ، وكانت ثمة جلجلة متواصلة تنبعث من الألجمة .

وبدت قرقعة السرية الأولى المارة خلال القرية عنيفة في سكون الظهيرة .

ومضى النقيب بلكوفنيكوف على حصانه المتوثب الى مقدمة المراتب
والقى يدا على عقدة السيف ، بينما جمع الاعنة باحكام في اليد الأخرى ،
امسك غريغوري أنفاسه ولبث يتربص الايعاز . وانبعثت قرقة سنابك من
الجناح الايسر فيما كانت السرية الاولى تتخذ موقعها .

استل الضابط سيفه من غمده ، فتوهجت شفرته كضوء أزرق .

- سرية!

وأمال سيفه ذات اليمين ، ثم ذات الشمال ، وأخيراً خفضه أمامه ،
ولبث يمسك به فوق اذني الحصان . «الى الأمام في سيل منتظم» - هكذا فهم
غريغوري هذه الاشارة الصامتة .

- بالرمح ، تهيؤوا! استلوا السيوف! الى الهجوم... سر!

قال الضابط ذلك خطفاً واطلق العنان لحصانه .

وتأهت الارض كليلة تحت الضغط الشديد لمئات الحوافر . وما كاد
غريغوري ، وهو في الصف الأمامي ، يهيء رمحه استعداداً حتى انطلق
حصانه ، وقد جرفة فيضان متلاطم من الخيل الأخرى ، ومضى يعدو بسرعة
متناهية . وكان هيكل الضابط الأمر أمامه يتوثب صاعداً هابطاً ، وصورته
بارزة ازاء خلفية الحقل الرمادية . وكان ثمة شق من الأرض المحروثة
السوداء يندفع باتجاهه بشكل لا يقاوم . اطلقت السرية الاولى صيحة راعشة
مائجة ، فالتقطها السرية الرابعة . بدا وكأن الخيل تطير فوق الأرض ترفع
ارجلها عالياً ثم تنزلها وتستعجل الارض تحتها . واستطاع غريغوري أن يتبين
صوت اطلاق النار البعيد خلال الصفير الهادر في أذنيه . وأزت الرصاصات
الاولى على علو شاهق فوقهم ، لتشق قبة السماء الزجاجية . فضغط غريغوري
محور رمحه الحار الى جنبه حتى آلمه وعرقت راحته . وجعله صفير الرصاص
المتطاير يخفض رأسه على رقبة حصانه المبللة ، فنفذت الى منخريه رائحة
عرق الحيوان الحريفة ، ورأى ، وكأنه ينظر من خلال زجاجة منظارة مضربة ،
حوافي الخنادق البنية اللون ، ورجالات ببزات رمادية يهرعون هاربين الى

البلدة . وانطلقت رشاشة ترشق القوزاق بلا كلل بصليبة نصف دائرية من الرصاص الصافر ، فصار الرصاص يثير كرات الغبار المتفشفشة من أمامهم وتحت حوافر الخيل .

أن العضو الذي كان يزيد من سرعة جريان الدم في صدر غريغوري قبل الهجوم ، قد تحول الآن الى حجر ، ولم يكن ليستشعر سوى الرنين في أذنيه والالم في أصابع قدمه اليسرى . وتجمدت الأفكار التي أطاشها الذعر ، فأضحت كتلة ثقيلة داخل رأسه .

وكان الضابط الخيال لياخوفسكي أول من سقط من حصانه . فداسه بروخور .

نظر غريغوري وراءه ، فانطبع في ذاكرته كسرة مما رأى ، كشر حصان بروخور عن اسنانه بعد أن قفز فوق الضابط الصريع ، وهوى على الأرض طاوياً رقبته . وانقذف بروخور من سرجه بدفعة قوية ومثلما تحفر ماسة على زجاج حفرت في ذاكرة غريغوري ولمدة طويلة لثة حصان بروخور الوردية المكشورة الاسنان وبروخور الراقد على بطنه وقد داسته حوافر حصان القوزاقي الذي يليه . لم يسمع غريغوري اية صرخة ، ولكنه أدرك من وجه بروخور بقمه المشوه وعينيه الشبيهتين بعيني العجل الجاحظتين من محجريهما أنه يصرخ حتماً بصورة وحشية . وهوى آخرون ، خيلاً وقوزاقاً . وحدق غريغوري أمامه ، خلال غشاوة الدموع ، التي استدرتها الريح من عينيه ، في الكتلة الرمادية الهائجة من النمساويين الهاربين من الخنادق .

أضحت السرية الآن متفرقة ومبعثرة اشتاتاً بعد أن كانت قد انطلقت من القرية في سيل منتظم . وبلغ الذين كانوا في الطليعة الخنادق ، وكان غريغوري بينهم ، أما الآخرون فقد كانوا يتلكؤون في المؤخرة .

واطلق نمساوي طويل أبيض الحاجبين ذو قبعة مسدولة فوق عينيه ، النار على غريغوري بصورة تكاد تكون أفقية . ولفحت حرارة الرصاصة خد غريغوري . فضرب برمحه ، وهو يجر الاعنه بكل قوته في نفس الوقت .

كانت الضربة شديدة حتى أن نصف الرمح اخترق جسم النمساوي . ولم ينتزع غريغوري الرمح بالسرعة الكافية . فأحس بيده اختلاجة مرتعشة ، ورأى النمساوي يقبض على الرمح وينشب اظفاره فيه ، وقد تقوس الى الوراء تماماً حتى لم يعد يرى منه سوى ذؤابة ذقنه غير المحلوق . فأسقط غريغوري الرمح تحت ضغط جسم النمساوي وتلمس بأصابع خدرة مقبض سيفه .

فر النمساويون الى شوارع البلدة . ومضت خيل القوزاق تشب فوق بزاتهم الرمادية .

وفي اللحظة الأولى بعد أن أسقط غريغوري رمحه ، ادار حصانه ، دون أن يعرف لذلك سبباً ، فرأى رئيس العرفاء ماراً به وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه المكشورة . ضرب غريغوري حصانه ببطن سيفه ، فمضى به في الشارع وقد قوس رقبته .

كان ثمة نمساوي آخر يجري حذاء السور الحديدي لإحدى الحدائق ، وهو يترنح بلا بندقية ويده متشبثة بقبعته . رأى غريغوري قفاه رأسه وياقة قمصته المبللة . فلحق به ، ودوم سيفه فوق رأسه وقد أهاجه جنون الموقف . كان النمساوي يجري لصق السور الحديدي على الجانب الأيسر ، فكان من العسير على غريغوري أن يصرعه بسيفه . لكنه مال فوق سرجه وأمسك سيفه بوضع مائل ، وهوى به على صدغ الرجل . وبدون أن تند عن النمساوي صرخة ، ضغط بيده على الجرح واستدار وظهره الى السور . فأجتازه غريغوري وهو يكبح حصانه ، ثم استدار ، ورجع يخب على حصانه . كان وجه النمساوي المربع المشوه بالذعر أسود كالحديد الصلب . وكانت ذراعاها مدلاتين على جانبيه ، وشفتاه الرماديتان ترتعشان . كان السيف قد هوى على صدغه بضربة مائلة وسلخ بشرته فتدلت فوق وجنتيه كخرقة قرمزية . وكان الدم يسيل على بزته .

التقت عينا غريغوري بعيني النمساوي المصعوقتين رعباً ، كان الرجل

يتهاوى ببطء على ركبتيه ، ينبعث من بلعومه انين مقرر . فضيق غريغوري عينيه ، وهوى بسيفه . فشطرت الضربة قحف رأسه الى نصفين . فبسط الرجل ذراعيه وهوى ، وارتطمت جمجمته المهشمة بعنف على حجر الطريق . فشب حصان غريغوري وحمله الى وسط الشارع وهو ينخر .

انبعث من الشوارع صوت طلقات متفرقة . ومر بغريغوري حصان مزبد يحمل قوزاقياً ميتاً ، علقت احدى قدميه بالركاب ، والحصان يجرجر الجسد المهشم المروض فوق الحجارة . ولم ير غريغوري سوى الخط الاحمر على البنطلون والقمصلة الخضراء الممزقة وقد تكومت من الجر فوق رأسه .

أحس غريغوري برأسه ثقيلاً كالرصاص . فانزلق من على حصانه وهز رأسه بشدة . ومرّ به قوزاق من السرية الثالثة يجرون خيولهم . وحمل رجل جريح على معطف . واقتيد جمع من الأسرى النمساويين خبياً . كان الرجال يهربون كقطع رمادي متزاحم ، وجزمهم ذوات النعال الحديدية تقرقع باكتئاب على حجارة الشارع . فرأى غريغوري وجوههم مثل كتلة هلامية ، بلون الطين ، وتخلّى عن أعنة حصانه ومضى لسبب ما الى الجندي النمساوي الذي صرعه . كان الرجل مستلقياً حيث هوى الى جانب نقش السور الزخرفي المصنوع من الحديد ، وقد انبسطت راحته السمراء القذرة كما لو كان يستجدي . القى غريغوري نظرة على وجهه ، فبدا صغيراً ، يكاد يكون طفولياً ، على الرغم من الشارب المتدلي وسيماء العذاب (أترأه من المعاناة البدنية أو من ماض مؤلم ؟) المرسوم على فمه الفظ المشوه .

- هي ، انت! - صاح بذلك ضابط قوزاقي غريب وهو يمضي على حصانه وسط الشارع .

رفع غريغوري بصره الى قبعته المغبرة ، ومضى متعثراً الى حصانه ، كانت خطاه ثقيلة مترنحة ، وكأنه ينوء بحمل على ظهره لا يحتمل . كان الاشمنزاز والذهول يسحقان روحه . أمسك بالركاب في يده ، لكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع أن يرفع اليه قدمه الثقيلة .

قضت الوجبة الاولى من القوزاق الاحتياط من تتارسكي والقرى المجاورة الليلة الثانية غب رحيلهم في قرية صغيرة . وتجمع رجال الطرف الادنى لتتارسكي منفصلين عن رجال الطرف الاعلى ، ولهذا أوى بيوتر ميليوخوف وانيكوشكا وكريستونيا وستيبان استاخوف وايفان توميلين وآخرون في بيت واحد . وكان القوزاق قد استلقوا للنوم ناشرين بطانياتهم في المطبخ والغرفة الامامية ، وكانوا يدخلون سيكارة الليل الأخيرة . وجلس رب الدار يجاذبهم اطراف الحديث ، وهو عجوز هرم طويل كان قد خدم في الحرب التركية .

- اذن ، فأنتم ماضون الى الحرب ، أيها الجنود ؟

- اجل أيها الجد ، ماضون الى الحرب .

- لن تكون مثلما كانت الحرب التركية ، لا ، لا أظن ذلك . فليدكم أسلحة مغايرة الآن!

فقبع توميلين مغضباً ، دون أن يعرف أحد ممن :

- ستكون مثلها تماماً . جهنمية كتلك تماماً . مثلما قتلوا الناس آنئذ ، سيكررون ذلك هذه المرة ، تماماً .

- هذا كلام أحرق ، أيها الشاب . ستكون حرباً من طراز مختلف .

فأيد ذلك كريستونيا ، متغائباً في كسل وهو يسحق سيكارة بظفره :

- ستكون مغايرة لاشك .

- سنقاتل بعض الشيء - وتشاءب بيوتر ميليوخوف ، ورسم علامة

الصليب على فمه ، وغطى رأسه بمعطفه الكبير .

فقال العجوز :

- اولادي ، اسألکم شيئاً واحداً . اسألکم جاداً ، ولكم أن تتذكروا ما

أقول .

ازاح بيوترطرف معطفه وأرهف سمعه . استطرد العجوز يقول :

- تذكروا امراً واحداً : اذا اردتم أن ترجعوا من الصراع المميت أحياء وتنجوا بجلودكم ، عليكم أن تراعوا قانون الانسانية .

فتساءل ستيبان مبتسماً في ريبة : « أى قانون ؟ » . وكان قد استأنف الابتسام من جديد منذ أن سمع بالحرب فقد أيقظته الحرب ، وخفف من قلقه وألمه ما كان سائداً من قلق وألم .

- هوذا القانون : لاتأخذوا أمتعة غيركم . هذا اولاً . وبما انكم تخافون الله ، فلا تسيئوا الى أیه امرأة . فهذا ثانياً وبعد ذلك ، عليكم أن تعرفوا ادعية معينة .

فتملأ القوزاق ، وتكلموا جميعاً في وقت واحد :

- الارجح أننا سنفقد حاجياتنا قبل الحصول على حاجيات الآخرين!

- ولم علينا الا نمس ایه امرأة ؟ أنت لاتقدر ان ترغمها ، ولكن هب أنها كانت راغبة ؟

- من الصعب أن أحيأ بلا امرأة .

- كن على ثقة من ذلك!

- ماذا عن الادعية ؟

فركز العجوز عليهم عينيه عابساً ، وأجاب :

- عليكم الا تمسوا امرأة . ابدأ إن لم تستطيعوا كبج جماح أنفسكم

فسوف تفقدون رؤوسكم ، أو ستجرحون . ستندمون فيما بعد حيث لا ينفع ندم . سأتلو عليكم الأدعية . لقد خضت غمار الحرب التركية ، والموت يتعقبني كخرج السرج ، لكنني اجتزتها حياً بفضل هذه الأدعية .

ومضى الى الغرفة الاخرى ، وراح ينقب تحت الايقونة ثم عاد بقصاصة ورق بالية مخرقة وقال :

- انهضوا الآن واكتبوها! سترحلون من جديد قبل صياح الديك غداً ،

أليس كذلك ؟

ونشر الورقة على المنضدة وسواها براحة يده وتركها . كان انيكوشكا

أول من نهض . وتلاعبت على وجهه الانشوي الناعم الظلال التي كان الضوء الخفّاق يلقيها عليه . وقعد الجميع الآستيبان ودوّنوا الادعية . ولف انيكوشكا الورقة التي استعملها وربطها الى خيط الصليب في صدره . فسخر منه ستيبان :

- تبني عشاً مريحاً للقمل ، لم يكن خيط الصليب ملائماً لتكاثره فتصنع له بيتاً ورقياً ممتازاً !
فقاطعه العجوز متجهماً :

- ايها الشاب ، اذا كنت لاتؤمن ، فأمسك لسانك! لا تكن حجر عثرة أمام الآخرين ولا تسخر من الايمان . إنها لخطيئة .
فابتسم ستيبان ، غير أنه لاذ بالصمت وسأل انيكوشكا العجوز اذ سعى الى تخفيف تجهمه :

- يتحدث الدعاء عن رماح الدببة واعواد السهام . فما معنى هذا ؟
- هذه الأدعية كتبت منذ زمن بعيد . فحصل عليها جدي الراحل من جده . في الأزمنة الغابرة قاتل الرجال بأعواد السهام ورماح الدببة .
كانت الأدعية التي دونها القوزاق ثلاثة ، وكان بمستطاع المرء ان يختار منها مايشاء .

دعاء ضد الأسلحة

فليباركنا الله . على الجبل صخرة بيضاء تشبه حصاناً . وكما لا ينفذ الماء في الصخرة ، فعسى ألا تنفذ الرصاصة أو السهم في أنا عبد الرب ، أو في رفاقي ، أو في حصاني . وكما تترد المطرقة عن السندان ، فلتترد الرصاصة عني . وكما يدور حجر الرحي ، فليدر السهم فلا يمسني . وكما تكون الشمس والقمر متألقين ، فلاكن أنا عبد الرب قوياً . خلف هذا الجبل توجد قلعة ، سأغلق هذه القلعة وأرمي المفتاح في البحر . سأضعه تحت الصخرة البيضاء المسماة «أطور» لايمكن أن يراها سحرة أو ساحرات ، ولا رهبان أو راهبات ، وكما أن مياه المحيط لاتنضب ،

وذرات الرمل الأصفر لا يمكن أن تحصي ، فعسى الا أصاب ، أنا عبد الرب ،
بأذى . باسم الأب ، والابن ، والروح القدس . آمين .

دعاء المعركة

يوجد محيط عظيم ، وفي هذا المحيط العظيم توجد صخرة بيضاء ، «الطور»
وعلى تلك الصخرة يوجد رجل صخري ذو قامة قوية . غطني ، أنا عبد الرب ،
ورفاقي بالصخرة من الشرق الى الغرب ، ومن الأرض الى السماء . احمني من
السيف والحسام الحادين ، من فيصل الفولاذ ومن رمح الدببة ، من الخنجر ،
مستقيماً وغير مستقي ، من السكين والفأس ، ومن قذائف المدفع ، من الطلقات
المصنوعة من معدن الرصاص ، من الأسلحة الفتاكة ، من جميع السهام المذيلة
بريش العقبان والبجع والاوز والرهو والغريان ، في جميع المعارك مع الأتراك ، وأهل
القرم ، والنمساويين ، والتتار ، والليتوانيين ، والالمان ، والكالميكيين . ايها الآباء
القديسون والجبروت السماوية ، احموني ، أنا عبد الرب . آمين .

الدعاء وقت الهجوم

ايها الحاكم الأعلى ، ويا أم الرب المقدسة ، وياسيدنا عيسى المسيح . بارك
ياسيدي ، خادمك الداخل في المعركة ، ورفاقي الذين معي . لفهم بالسحاب ،
واحمهم بصقيعك الحجري السماوي . ياديمتري سالونيكا القديس ، دافع عني ، أنا
عبد الرب ، ورفاقي من كل الجهات الأربع . لاتدع الأشرار يطلقون الرصاص ،
ولأن يطعنوا بالرمح ولا أن يضربوا بالبلطة ، ولا أن يلطموا بأخمص البلط ، ولا أن
يشجوا بالفأس ، ولا أن يقطعوا أو يطعنوا بالسيف ولا أن يخزوا أو يجرحوا
بالسكين ، لا الكبير منهم ولا الصغير ، لا الاسمر ولا الأسود ، لا الزنديق منهم ولا
الساحر ، ولا أي مشعوذ بالسحر . أمامي الآن كل شيء ، أنا عبد الرب ، اليتيم
الفاني . في البحر ، في المحيط ، وعلى جزيرة «بويان» يقوم عمود حديدي ،
يتكى على عصاة حديدية ، وهو يأمر الحديد والفولاذ والرصاص والصفائح وكل

أنواع الترياس : « رح ، ايها الحديد الى أمك الارض بعيداً عن عبد الرب وعن رفاقي وحصاني . فاذهي يا أعواد السهام الى الغابة ويا ايها الريش الى أمك الطير ، ويا غراء الى السمك » . احمني ، أنا عبد الرب ، بدرع ذهبي ، من الحديد ومن الرصاص ، من قذيفة المدفع والعتاد ، من الرمح والسكين ، فحسبى أن يكون جسدي أقوى من السلاح . آمين .

خبأ القوزاق الادعية تحت قمصانهم ، وعقدوها بالايقونات الصغيرة التي باركتهم امهاتهم بها ، وبالصرر الصغيرة التي تضم تراب أرضهم . لكن الموت اجتاح الجميع سواسية ، أولئك الذين لم يحملوا الأدعية والذين حملوها . وتعفنت جثثهم في حقول غاليسيا وبروسيا الشرقية ، في جبال الكربات ورومانيا ، وفي كل مكان خفق فيه اللهب الاحمر للحرب وانطبعت على ترابه آثار حوافر خيل القوزاق .

٧

جرت العادة أن يجند قوزاق القصبات العليا من الدون ، بما فيها فييشنسكايا ، في كتيبتي القوزاق الحادية عشرة والثانية عشرة وفي حرس الاتمان الخاص ، ولكن لسبب مائسب قسم من وجبة ١٩١٤ الى كتيبة قوزاق الدون الثالثة التي كانت تتألف بصورة رئيسية من قوزاق قصبه أوست - ميدفيدتسكايا . وبين هؤلاء كان ميتكا كورشونوف .

عسكرت كتيبة قوزاق الدون الثالثة في فيلنو مع بعض الوحدات من فرقة الخيالة الثالثة . وذات يوم من أيام حزيران خرجت مختلف السرايا من المدينة لتتسلم مقراتها في الريف .

كان النهار معتماً الا أنه دافئ . وتجمعت السحب السارية في السماء

فأخفت الشمس وراءها . وكانت الكتيبة تسير وفق مسيرة الرتل ، وفرقة الكتيبة الموسيقية تجلجل في المقدمة ، بينما تجمع الضباط بقبعاتهم الصيفية الخفيفة وقمصلاتهم الخفيفة في المؤخرة ، وقد علتهم سحابة من دخان السكاير . وعلى جانبي الطريق كان الفلاحون ونساؤهم اللابسات حلاًلاً بهيجة يقطعون العشب ، ويتوقفون لدى مرور القوزاق ليتأملوا ارتالهم . وعرقت الخيل من الحر ، وظهر بين سيقانها زبد مصفر ، ولم يخفف من الحرارة ذلك النسيم الخفيف الهاب من الجنوب الشرقي ، بل زاد من شدة الحر اللاهب . وكانوا قد قطعوا نصف المسافة تقريباً واشرفوا على قرية صغيرة حينما خب مهر صغير من وراء سياج ، واذا رأى الحشد الهائل من الخيل اطلق صهيقاً طويلاً وجاء يتوثب أمام السرية الخامسة . وكان ذيله الصغير ذو الشعر الكث مرفوعاً الى جانب واحد . وانتشر الغبار من حوافره البديعة على الحشيش المُداس . ومضى يتوثب حتى وصل الى الرعيل الاول ، ودس انفه بغباء في حقو جواد رئيس العرفاء ، فجمع الجواد ، لكنه أشفق على المهر كما يبدو ولم يرفسه .

صرخ رئيس العرفاء ملوحاً بسوطه : «تنح عن الطريق ، يامخبول!» وضحك القوزاق اذ سرهم المشهد المؤلف الذي ذكرهم بالأهل والبيت . ثم حدث شيء غير متوقع . اذ جعل المهر يشق طريقه بين صفوف القوزاق ، فتبعثر الفصيل وفقد تنظيمه المنسق . وحرنت الخيل وامتنعت على راعيها . انحشر المهر بينها وحاول أن يعض الحصان القريب منه . وجاء آمر السرية يعدو على حصانه ،

- ماالذي يجري هنا ؟

كانت الخيل تنخر وتلقي نظرات جانبية على المهر الصغير الذي طاش صوابه ، بينما حاول القوزاق المتبسمون أن يبعده بسياطهم . وكان الرعيل قد شملته فوضى كاملة فيما كان الآخرون يضغطون عليه من الخلف ، وكان بالإمكان رؤية ضابط الرعيل الهائج منطلقاً من مؤخرة الرتل .

هدر أمر السرية وهو يدير حصانه صوب الحشد الحاشد :

- ما معنى كل هذا ؟

- انه مهر...

- حلّ بيننا .

- من الصعب التخلص منه ، هذا الشيطان!

- الفحه بالسوط ، ولاتدله!

وحاول القوزاق ، وهم يتسممون بحيرة ، أن يشدوا اعنتهم ويكبحو
جماح الخيل الهائجة .

- يا رئيس العرفاء! يا أمر السرية ، مالذي يجري ، بحق الشيطان ؟
نظم رعائلك! لاينقصنا الا هذا!

وتنحى أمر السرية جانباً . وانزلق ساقا حصانه الخفيتين في منخفض
جانب الطريق . فجعل يهمز حتى تسلق الحصان حافة المنخفض الاخرى
المغطاة بنبات رجل الاوز واقحوان أصفر . وعلى مبعدة من هناك كانت
مجموعة الضباط قد توقفت . وكان رأس العقيد ملقى الى الوراء وهو يشرب
من قارورة ، ويده تحط على حنو السرج بتحنان أبوي .

فرق رئيس العرفاء الرعيل وابعد المهر عن الطريق وهو يسب ويشتم
هائجاً . ثم انتظم الرعيل من جديد وجعلت مائة وخمسون زوجاً من العيون
تراقب رئيس العرفاء منتصباً على ركابه فيما كان يطارد المهر . غير أن
المهر ظل يحرن ويحاذي جواد رئيس العرفاء العملاق ، ويتوثب منفلاً فلم
يستطع رئيس العرفاء أن يصل بسوطه الى ظهره ، فكان سوطه لاينال غير
ذيله الشبيه بالفرشاة ، والذي ما أن يهوي تحت لفح السوط حتى يرتفع في
اللحظة التالية ويلوح في الريح بوقاحة .

كان جميع من في السرية يضحك ، بمن فيهم الضباط . حتى أن وجه
الرئيس العبوس انثنى بما يشبه ابتسامة معقوفة .

كان ميتا كورشونوف في الصف الثالث من الرعيل القيادي الى جانب

ميخائيل ايفانكوف وكوزما كروتشكوف ، وكلاهما ينحدران من القصابات العليا للدون . وكان ايفانكوف صامتاً طول الوقت ، وهو رجل عريض المنكبين والوجه ، أما كروتشكوف ، الذي كان قوزاقياً مكور الكتفين ، مجدور الوجه قليلاً ويكنى بـ«الجمال» ، فقد كان لايفتاً يشاكس ميتكا . وكان كروتشكوف هذا قوزاقياً «قديماً» اي قوزاقي في عامه الأخير من الخدمة العسكرية ، واستناداً الى قواعد الكتيبة غير المكتوبة ، كان يسهم مع كل القوزاق «القدامى» الآخرين في تعقب الفتيان واصدار الأوامر اليهم والحكم عليهم «بالجلد» لأي ذنب تافه . وكانت العقوبة المقررة لقوزاقي من وجبة ١٩١٣ ثلاث عشرة «جلدة» وللقوزاقي المجدد في ١٩١٤ اربع عشرة «جلدة» وكان العرفاء والضباط يشجعون هذا الاسلوب على أساس انه يعزز في القوزاقي الاحترام ، لا للرتبة حسب ، ولكن للسن أيضاً .

كان كروتشكوف ، الذي أضحي نائب عريف في المدة الأخيرة ، جالساً على سرجه محدودب الظهر ، كالطائر . وقد ضيق عينيه باتجاه غمامة رمادية منتفخة ، وسأل ميتكا وهو يحاكي لهجة أمر السرية ، النقيب بوبوف :
- آه... اخبر... ر... رني ، يا كورشونوف ، ماذا لو... سمي أمر

سري... يتنا ؟

فأضفى ميتكا على لهجته سمة الاحترام وهو الذي طالما عرف مذاق السوط لعناده وكراهيته للطاعة .

- النقيب بوبوف ، يانائب العريف!

- ماذا ؟

- النقيب بوبوف!

- ليس هذا ما أريد معرفته . قل لي ماذا نسميه نحن القوزاق فيما

بيننا ؟

فغمز ايفانكوف محذراً ميتكا وابتسم ابتسامة عريضة . تلفت ميتكا ورأى النقيب راكباً خلفهم تماماً .

.. هيا اجبني!

.. انه يدعى النقيب بويوف ، يانائب العريف!

.. اربع عشرة جلدة لك ، اجبني ، أيها الكلب!

.. لا أعلم ، يانائب العريف .

فقال كروتشكوف ، متحدياً بصوته الطبيعي :

.. حينما نصل الى المعسكر ، سأسلخ عنك جلدك ، أجب عن سؤالي!

.. لا اعلم .

.. الا تعلم الكنية التي نطلقها عليه ، ياوجه الفأر ؟

وتسمع ميتكا الى الخطو المتأني لحصان الرئيس وراءهم ولزم الصمت .

فتجهم كروتشكوف متهيجاً وصاح :

.. حسناً ؟

وانفجرت قهقهة مكتومة من الصفوف الخلفية . فلم يدرك كروتشكوف

سبب الضحك وظن أن القوزاق يتضحكون منه ، فزمجر قائلاً :

.. حذار يا كورشونوف! سأعطيك خمسين من خير الجلادات حينما نبلغ

المعسكر!

فhez ميتكا كتفيه باستخذاء وقال :

.. الاوز الاسود .

.. تلك هي .

.. كروتشكوف! .. جاء صوت من الخلف .

فجفل نائب العريف كروتشكوف ، القوزاقي «القديم» ، فوق سرجه

واتخذ جلسة الاستعداد .

.. ما لعبتك ، ايها الوغد ؟ انت ماذا تلقن هذا القوزاقي الشاب ؟

طرف كروتشكوف ، وغمرت خديه حمرة أرجوانية . وانبعث الضحك

من الصفوف الخلفية .

.. من ذا الذي علمته في العام الماضي ؟ على من كسرت هذا الظفر ؟ ..

ومد النقيب ظفر خنصره الطويل المدبب تحت انف كروتشكوف - لاتدعني
اسمع هذا ثانية ، قط ! اتفهم ، يارجل ؟
- اجل ، يا صاحب السعادة .

وانثنى النقيب عن الصف كي تمر السرية . اسرعت السريتان الرابعة
والخامسة سيرهما فأمر النقيب سريته أن تسرع أيضاً .
سوى كروتشكوف سير كتفه وهو يتصبب عرقاً من الضحك :
- كان وراءنا . سمع كل شيء . لابد أنه خمن عم كنتما تتحدثان .
- كان عليك أن تغمز لي ، يابليد .
- لست بحاجة .

- لست بحاجة . ها ؟ أربع عشرة على العري .

لدى وصول الكتيبة الى هدفها ، وزعت السرايا على ضياع المنطقة .
وكان القوزاق يقطعون البرسيم وعشب المروج لأصحاب الارض أثناء النهار ،
وفي الليل يرعون خيلهم المقيدة في الحقول المخصصة لهم ، ويلعبون الورق
ويروون القصص الى جانب دخان نيران المعسكر . وقد تقرر أن تقيم
السرية السادسة في ضيعة كبيرة تعود لمالك أرض بولندي . فكان الضباط
يشغلون المنزل ويلعبون الورق ويسكرون ويوجهون اهتمامهم الى ابنة
الوكيل ، بينما نصب القوزاق خيمهم على مبعدة ثلاث فرستات من المنزل .
وكان الوكيل يخرج كل صباح راكباً عربة خفيفة من المعسكر . وكان
السيد الممتلىء الوقور ينزل من العربة ويحيي القوزاق بتلويحه لا تتغير من
قبعته البيضاء ذات الذؤابة اللامعة .

كان القوزاق ينادون عليه : « تعال واقطع العشب معنا ، ايها
السيد ! فسينفض عنك ذلك بعض شحمك . خذ المحش واقطع وإلا سيشل
جسمك » . فيبتسم الوكيل بفتور ، ويمسح رأسه الاصلع بمنديله ،
ويمضي مع رئيس العرفاء ليحدد لهم القسم التالي من العشب الذي ينبغي
قطعه .

- وفي منتصف النهار يصل مطبخ الميدان . فيغتسل القوزاق ويذهبون لاستلام طعامهم .
- كانوا يأكلون في صمت ولكنهم يكثرون الاحاديث في فترة الاستراحة القصيرة بعد الغداء .
- شيء عفن ، عشب هذه المنطقة . لا يقارن بالسهب .
 - مع ذلك ، لا توجد حلفاء كثيرة .
 - لقد اتموا الحش الآن في ديارنا .
 - عما قريب سنتم أيضاً . هلال جديد بالأمس ، ستمطر .
 - هذا البولندي عجوز لئيم . كان بمقدوره أن ينفحنا قنينة على اتعابنا .
 - هو... هو! إنه قمين لنهب مذابح الكنيسة ان اراد قنينة لنفسه .
 - يا أولاد ماالحكمة في أن المرء كلما زاد ماله ، زاد جشعه ، ها ؟
 - سل القيصر عن ذلك .
 - من رأى ابنة رب البيت ؟
 - ماذا عنها ؟
 - غانية يغطيها لحم كثير!
 - آي...!
 - سألتهمها بكل حشاياها .
 - لأدري كم هو صحيح ، لكنهم يقولون بأنها تلقت عروضاً بالزواج من العائلة المالكة .

- لن ترضى قطعة لدنة مثلها برجل عادي ، أليس كذلك ؟
- سمعت شائعة ، يا أولاد ، بأن استعراضاً فحماً ينتظرنا عمّا قريب .
- ماذا كنت اقول ، ان لم تجد قطعة ما تفعله ، فإنها سوف...
- كفاية ، ياتاراس!
- أترك تعطينا نفساً من سيكارتك ، يا ولد ؟
- أنت مثل شحاذ في فناء الكنيسة .

- انظروا ، يا اولاد ، إن مبسم فيدوت جيد لكن سيكارتته لا تنفع .

- لقد دخنها واحالها رماداً .

- انظر ثانية ، يارجل ، انها لم تزل متوهجة كأمرأة .

وانبطحوا على بطونهم ، يدخنون . كانت ظهورهم العارية حمراء من
لفح الشمس . في جوارهم كان خمسة قوزاق « قدامى » يستجوبون مجنداً
مستجداً ،

- من أين أنت ؟

- يلانسكايا .

- من مناجم الملح . ها ؟

- اجل .

- وكيف يجرون عربات الملح على دروبكم ؟

وعلى مبعدة قليلة ، كان كروتشكوف مستلقياً على مرشحة حصان ،
وهو يقتل بفتور شاربه الخفيف حول اصبغه .

- بالخيـل .

- وبأي شيء آخر ؟

- بالثيران .

- وعلى أي شيء يحملون السمك من القرم ؟ على صنف معين من

الثيران ، على ظهورها سنامان وتأكل العوسج . ماذا تدعى ؟

- جمال .

- هاو - هاو - هاو !

ونفض كروتشكوف متكاسلاً وسار باتجاه المستجد المذنب ، وهو يحذب
كتفيه الشبيهين بكتفي الجمل ، ويمد عنقه الأسمر الزعفراني بجوزته الكبيرة .

- احن ظهرك ! - قال ذلك آمراً وهو ينزع نطاقه .

في غسق أمسية حارة من أماسي حزيان ، تحلق القوزاق حول نيران
المعسكر وجعلوا يغنون :

سار قوزاقي الى أرض نائية
ممتطياً حصانه عبر السهل
وترك قرية الى الأبد

وينشج صوت صادح ، فضي الرنين ، وحزين ، بينما تعبر الأصوات
الجهيرة عن حزن مخملي عميق :

لن يعود ثانية

وهنا يرتفع الصوت الصادح الى طبقة من الحزن أعلى :

عبثاً شخصت عروسه القوزاقية الشابة
صوب الشمال ، كل صباح ومساء
تنتظر ، يحدوها الأمل في أن حبيبها القوزاقي
سيرجع من الارض التي لن يرحل عنها .

وتبنت الأغنية أصوات عديدة ، وصارت قوية منعشة ، كالجعة البيتية .

لكن خلف التلال حيث يجثم الثلج عميقاً
وتنشرح حقول الجليد وتهب الزوابع
حيث تنحني متجهمه ، أشجار الصنوبر والشربين
ترقد عظام القوزاقي تحت الثلج

ومضت الاصوات تحكي قصة حياة القوزاقي البسيطة ، يدعمها الصوت
الصادح بنبراته المرتعشة ، مثل قبرة حائمة فوق أرض نيسانية ، ذائبة
الجليد :

وبينما رقد القوزاقي يلفظ أنفاسه الأخيرة

استصرخ وراح يتوسل
ان تكوم فوقه رابية على قبره

وتندمج الاصوات الجهيرة مع الصوت الصادح :

حيث تلوح الى الابد
شجرة بندق من أرض موطنه ، بأزهار زاهية

وحول نار معسكر أخرى ، كان الجمع أصغر والأغنية تنساب في نغم مغاير :

من بحر آزوف العاصف
تمخر السفن في الدون صعداً
لأن أتماننا شاباً قد عاد
الى موطن أجداده

وحول نار ثالثة ، كان راوية السرية يغزل الحكايات وهو يسعل من
الدخان . وكان القوزاق ينصتون باهتمام لا ينثني . الا في بعض الاحيان حين
كان البطل يتخلص بمهارة من مكيدة تدبرها له الروح الشريرة ، فكانت يد
أحدهم ، تتوهج بيضاء في ضوء النار ، وهي تنصفق على ساق جزمته ، أو
يشهق صوت غليظ مبحوح باستحسان جذل . ثم تمضي نبرات الراوية
المنسابة المتواصلة .

... بعد اسبوع من وصول الكتيبة الى مقرها الريفي ، ارسل آمر السرية
في طلب الحداد ورئيس العرفاء .

- كيف حال الخيل ؟

- ليست سيئة جداً ، يا صاحب السعادة ، في حالة طيبة ،

فبزم النقيب شاربه الأسود الذي كان سبب كنيته وقال بصوته

الصريري :

- أمر الكتيبة اصدر التعليمات لتبييض جميع الركائب والشكائم .
سيجري استعراض امبراطوري للكتيبة . فليصقل كل شيء حتى يتوهج ،
السروج وبقية العدة . على القوزاق أن يصبحوا مشهداً يسر العين . متى
يمكنك أن تتم ذلك ؟

نظر رئيس العرفاء الى الحداد ، ونظر الحداد الى رئيس العرفاء . ثم
نظرا معاً الى النقيب . واقترح رئيس العرفاء :

- مارأيكم بيوم الأحد ، يا صاحب السعادة ؟ - ولمس باصبعه باحترام
ذؤابة شاربه المبيضة مما تناثر عليها من رماد .

فأضاف النقيب متوعداً : « احرص على أن يكون الاحد! » وصرفهما
معاً .

بدأت الاستعدادات في نفس اليوم . وساهم ايفانكوف ابن حداد السرية ،
وهو نفسه حداد ماهر ، في تبييض الركائب والشكائم . وقام القوزاق بحس
خيلهم ، وتنظيف أعتتها ، وصقل النضاء والأجزاء المعدنية الأخرى من عدة الخيل
بحجر الجلي . وما ان حلت نهاية الاسبوع حتى كانت الكتيبة تشع كقطعة نقود
جديدة من فئة العشرين كويكا ، كان كل شيء يتألق من الصقل ، من حوافر
الخيل الى وجوه القوزاق . وفي يوم السبت فتش الكتيبة أمرها وشكر الضباط
والقوزاق على استعداداتهم الحماسية ومظهرهم الرائع .

مر الشريط اللازوردي لأيام تموز وتلاشى . كانت خيل القوزاق في
أحسن حال ، سوى أن القوزاق أنفسهم كانوا برمين يقلقهم وسواس الحيرة .
فلم تند همسة واحدة عن الاستعراض الامبراطوري . ومر الاسبوع في حديث
لاينصرم واستعداد لاينتهي . ثم جاء أمر من الكتيبة ، كصاعقة من السماء ،
يقضي بالعودة الى فيلنو .

بلغوا المدينة مساء . وسرعان ما صدر أمر ثان الى السرية . كان على
الصناديق أن تجمع وتخزن في المستودع ، وأن تجري الاستعدادات لانتقال
آخر محتمل .

- يا صاحب السعادة ، فيم كل هذا ؟

هكذا كان القوزاق يتلمسون الحقيقة من ضباطهم . وكان الضباط يهزون اكتافهم . لأنهم كانوا أنفسهم على استعداد لبذل الكثير في سبيل أن يعرفوا .

- لست أدري .

- هل ستجري مناورات في حضور جلالتك ؟

- ليست لدى انسان فكرة عن الأمر ، بعد .

هكذا كانت أجوبة الضباط لما فيه سرور القوزاق . ولكن ، في التاسع عشر من تموز ، أفلح مراسل آمر الكتيبة أن يهمس في أذن صديق له وهو قوزاقي في السرية السادسة يعمل في الاصطبل :

- انها الحرب ، يا ولدي!

- أنت تكذب!

- وحق الرب ، لكن اصمت ولا تفه بشيء!

وفي الصباح التالي صفت الكتيبة على هيئة سرايا خارج الثكنات ، في انتظار الأمر .

كان النقيب بوبوف يركب حصاناً بديعاً على رأس السرية السادسة ، ويده اليسرى تمسك بالعنان يغطيها قفاز ناصع البياض . وكان حصانه يمسح أنفه بعضلات صدره المفتولة ، وهو يقوس عنقه .

وجاء الأمر من وراء ركن بنايات الثكنة ممتطياً حصانه الى مقدمة الكتيبة ، وادار الحيوان جانباً . وسحب مساعد الأمر منديله ، وهو يمد خنصره بأناقة ، ليمسح أنفه ، ولكن الوقت لم يسمح له بإنجاز العملية . فقد قذف العقيد صوته في الصمت المتوتر :

- ايها القوزاق!

وحدث كل امرئ نفسه : «هاهي قادمة!» وأبقاهم التوتر مثل نابض فولاذي . وكان حصان ميتكا يراوح من حافر الى حافر ، فكان ميتكا يضرب

خاصرته بكعبه مغتاضاً . والى جانبه كان ايفانكوف ممتطياً حصانه بلا حراك ، وهو يستمع وفمه ذو الشفتين الشبيهتين بشفتي الأرنب فاغر الفم يكشف عن صف داكن من الأسنان غير المستوية . وكان كروتشكوف خلفه ، محدودب الظهر متجهماً . ثم لابين الذي كان يحرك أذنيه الغضروفتين كالحصان ، بينما كان بالمستطاع رؤية التخطيط المتعرج لجوزة عنق شيكولوف الحليقة النظيفة ، خلف لابين .

ـ المانيا أعلنت الحرب علينا...

وجرت همسة على امتداد الصفوف وكأن دفقة من الريح قد تموجت عبر حقل من الشوفان الناضج الكث السنابل . وشق الهمس سهيل حصان فاستدارت عيون جزعة وأفواه فاغرة باتجاه السرية الأولى حيث تجرأ الحيوان على الصهيل .

وقال العقيد مزيداً من الكلام . كان ينتقي الكلمات بتأن ، ساعياً لاستثارة الشعور بالعزة الوطنية . لكن الصورة التي تراءت للقوزاق الالف لم تكن لبيارق أجنبية حريرية تهوي تحت أقدامهم ، بل لحياتهم اليومية هم وقد حلت فيها البلبلة ، لزوجاتهم وأطفالهم وحببياتهم ، وللحبيب التي لم تحصد ، وللقرى اليتيمة التي خيم عليها الغم .

«في غضون ساعتين سنركب القطار...» تلك الفكرة الوحيدة التي نفذت الى أذهانهم جميعاً .

وبكت زوجات الضباط في مناديلهن ، وكن متجمهرات على مسافة قريبة . وحمل الملازم خوبروف على ذراعيه تقريباً زوجته البولندية الشقراء الحامل وتفرق القوزاق متجهين الى مباني الثكنة .

سارت الكتيبة الى القطار ، تنشد . كانت أصوات القوزاق تغطي على الجوق الموسيقي ، فانكفاً هذا في صمت مرتبك . وكانت زوجات الضباط يركبن عربات مستأجرة ، وحشد ملون يتزاحم على الأرصفة ، وحوافر الخيل تثير سحابة من الغبار . وانطلق المنشد الرئيسي بأغنية قوزاقية مبتذلة وهو

يتضحك من حزنه وحزن الآخرين ، نافضاً كتفه الأيسر بحيث تراقص سير كتفه الأزرق بصورة محمومة ، ومضى القوزاق بأغنيتهم الى شاحنات المحطة الحمر ، وهم يدغمون الكلمات ، الواحدة بالأخرى ، عن عمد ، فصارت شتائم مسموعة على وقع الحوافر المنقلة حديثاً . وجرى الى المنشدين مساعد الأمر ، وقد اكتسى وجهه لوناً أرجوانياً من الضحك والشعور بالحر ج . وغمز المنشد الرئيسي متهمكماً الى جميع النساء اللواتي كن يودعنهم ، ولم يكن الذي سال على خديه البرونزيتين الى طرفي شاربيه الاسودين عرقاً ، بل العصاره المرة لنبات الشيح . وعلى الخط الحديدي ، اطلقت الماكنة خواراً محذراً مستعداً للسفر .

قطارات... قطارات... قطارات لاحصر لها . على امتداد شرايين ، فوق خطوط السكك المتجهة صوب الحدود الغربية ، كانت روسيا الحائرة المانحة تضخ دمه المتسربل بمعاطف رمادية .

٨

في بلدة تورجوك الصغيرة وزعت الكتيبة الى سراياها الاعتيادية . وبناء على تعليمات هيئة أركان الفرقة وضعت السرية السادسة تحت أمره فيلق المشاة الثالث ، وواصلت السفر الى بليكالييه حيث أقيمت نقاط الحراسة . كانت الحدود ماتزال تحت حراسة قطعات التخوم ، وكانت وحدات جديدة من المشاة والمدفعية تنقل الى هناك . وفي السابع والعشرين من تموز أرسل أمر السرية في طلب رئيس العرفاء وقوزاقي يدعى استاخوف ، من الرعيل الاول . وعاد استاخوف الى الرعيل عند المغرب ، في اللحظة التي

كان فيها ميتكا كورشونوف عائداً بحصانه بعد ورده . فنادى عليه .

- أهذا أنت ، يا استاخوف ؟

- نعم ، هو أنا . أين كروتشكوف والاولاد ؟

- هناك في الكوخ .

ودلف استاخوف الى الكوخ ، وهو قوزاقي ضخمة أسمر ، محاصراً عينيه كأنه لم يقو على الرؤية . والى المنضدة كان شيكولكوف يخيطة عناناً مقطوعاً على ضوء فانوس . وكان كروتشكوف واقفاً حذاء الموقد ويداه إلى ظهره هو يغمز لايفانكوف ويومئ الى صاحب الكوخ البولندي الذي استلقى على سريريه متورم الجسم بالحبس* .

كانت ثمة نكتة قد تبودلت بينهما ، وما فتئت وجنة لايفانكوف تهتز سحكاً .

- غدا ، يا اولاد ، سنخرج مع انبلاج الصباح الى نقطة أمامية للحراسة .

سأل شيكولكوف ناظراً اليه وافلت من يديه قطعة جلد ،

- الى أين ؟

- الى بلدة ليوبوف .

فتساءل ميتكا الذي دخل في تلك اللحظة ووضع الجرة عند الباب :

- من سيذهب ؟

- شيكولكوف ، كروتشكوف ، رفاتشيف ، بوبوف ، ولايفانكوف .

- وماذا عني ؟

- أنت تبقى هنا ، ياميتكا .

- طيب ، اذن فليأخذكم الشيطان جميعاً!

انتزع كروتشكوف نفسه من الموقد وسأل صاحب الكوخ المضيف ،

هو يشد نفسه حتى قرقت عظامه :

* الحبس : مرض يصيب الجسم فيجتمع فيه سائل مائي . المترجمون

- كم يبعد هذا المكان ؟

- أربعة فرسات .

فقال استاخوف وهو يجلس على مصطبة : « قريب جداً » وخلع جزمته .
« أين أستطيع أن أعلق جوربي ليجف ؟ » .

انطلقوا في الفجر . وعند طرف القرية كانت فتاة عارية القدمين تستقي
الماء من البئر . فشد كروتشكوف عنان حصانه وقال لها :
- اسقيني يا عزيزتي !

غطست الفتاة في الوحل بقدميها العاريتين وهي ترفع تنورتها المغزولة
في البيت . ومدت الدلو وعيناها الرماديتان تتبسمان وراء أهدابها الكثيفة .
فشرب كروتشكوف وهو يمسك بالدلو الثقيل من طرفه ، ويده ترتجف من
ثقله ، وتقطر الماء وطش على الخطوط الحمر في بنطاله .

- ليحفظك المسيح ، يا ذات العينين الرماديتين !

- ليحمد الرب !

وأخذت الدلو وخطت مبتعدة وهي تتلفت وتتبسم .

- فيم تتبسمين ؟ تعالي لنزهة على الحصان ! - وتحرك على سرجه كأنه
حاول أن يخلي المكان لها .

فصاح استاخوف وهو يبتعد على حصانه : « تحرك ، لا تقف ! »

وتبسم رفاتشيف لكروتشكوف :

- لا تستطيع أن تنتزع نظرك منها ، ها ؟

فقال كروتشكوف متضاحكاً : « ساقاها ورديتان كساقَي حمامة » .
والتفت الجميع ، كما لو صدر اليهم أمر بذلك .

ومالت الفتاة على البئر ، مظهرة مفرق رديها تحت تنورتها الضيقة
والريلتين الورديتين لساقيهَا المنفرجتين .

وتنهد بوبوف : « آه لو استطعنا أن نتزوج فقط » .

فاقترح استاخوف : « هب انني زوجتك بسوطي » .

- لن يجدي ذلك نفعاً...

- أنت متلهف الى الزواج بهذه الدرجة ، الست كذلك ؟

- سيتعين علينا أن نمسك به ونربطه كما نربط الثور .

ومضى القوزاق خبباً يتباحكون فيما بينهم . وبعد أن ساروا سيراً متواصلاً بعض الوقت ، ارتفعوا ورأوا قرية ليوبوف الكبيرة تجثم على امتداد وادي أحد الأنهار . كانت الشمس ترتفع وراءهم . وعلى مقربة منهم صدحت قبرة بشدوة حنون فوق عمود برق .

وكان استأخوف قد عين مسؤولاً عن الجماعة لأنه كان قد أتم لتوه دورة أمري الحضاير ، فاختار أخرييت في القرية ليكون نقطة مراقبتهم باعتباره أقرب موضع الى الحدود . وأطلع صاحب البيت القوزاق على سقيفة يستطيعون إيواء خيلهم فيها ، وكان بولندياً حليقاً أنحف الساقين ، يرتدي قبعة لبادية بيضاء . وكان هناك حقل برسيم أخضر وراء السقيفة . وانحدرت السفوح الى غابة قريبة ، وكان ثمة امتداد أبيض للحنطة يقطعه طريق امتدت وراءه حقول برسيم . تناوبوا المراقبة بالمنظارة من الحفرة القائمة وراء السقيفة ، بينما اضطجع الآخرون في السقيفة الباردة التي فاحت برائحة الحنطة المخزونة زمناً طويلاً ، والتبن المترب ، والفئران ، والشذى العفن الحلو بعض الشيء للأرض الرطبة .

واستراح ايفانكوف في ركن مظلم الى جانب محراث ونام حتى المساء . وعند المغرب جاءه كروتشكوف وقال له بمرح وهو يقرص جلد رقبته بأصابعه :

- تنام جيداً على زقوم الجيش ، أيها الخنزير! قم واذهب لمراقبة الألمان!

- كفاك تعابثاً ، يا كوزما!

- هيا ، قم!

- هلا كففت! ها أنا ذا قائم . فتحامل على قدميه ، ووجهه محمر ومنتفخ ، وحرك رأسه من جانب الى آخر على عنقه القوي الذي شد رأسه بثبات الى كتفيه

العريضين وتنشق (إذ أصابه برد من الاضطجاع على الأرض الرطبة) ، وسوى حزم خرطوشه وخرج من السقيفة ، جارا بندقيته من حمالتها . وأخذ مكان شيكولكوف الذي كان يقوم بالمراقبة طوال فترة الظهيرة ، وسوى المنظارة وحدق طويلاً في اتجاه الشمال الغربي ، صوب الغابة .

كان في مقدوره أن يرى حقل الحنطة الثلجي يتموج في الريح ، وفيضاً أحمر من ضياء الشمس يغسل الرأس الأخضر لغابة الشربين . وكان الأطفال يغطسون ويتصايحون في الجدول الذي امتد في حنوة زرقاء بديعة وراء القرية . وانطلق صوت امرأة هادر ينادي :

« ستاسيا ، ستاسيا! تعالي ههنا! » أشعل شكولكوف سيكارة ، وقال فيما رجع الى السقيفة : « انظر الى الوهج في ذياك الغروب! سيهب علينا شيء من الرياح » .

فوافق ايفانكوف : « أحسب كذلك » .

وفي تلك الليلة ، ظلت الخيول واقفة غير مسرجة . وفي القرية أطفأت كل الأنوار وتلاشت الأصوات . وفي الصباح التالي ، نادى كروتشكوف على ايفانكوف من السقيفة :

- لنذهب الى القرية ؟

- لماذا ؟

- نستطيع أن نحصل على شيء نأكل وعلى كأس نشرب هناك .

فنظر ايفانكوف اليه في شك :

- نستطع ذلك ؟

- طبعاً نستطيع . سألت مضيفنا أنه هنالك في ذلك البيت . أترى السقف

القرميدي ؟ - وأشار كروتشكوف باصبعه ذات الاظفر الأسود ، لدى الحسquil هناك جعه . لنذهب .

وانطلقا . فنادى استاخوف وراءهما :

- أين تراكما ذاهبين ؟

فأشاح كروتشكوف عنه وهو الذي يعلوه رتبة :

- سنعود عما قريب .

- عودا ، أيها الولدان!

- كفاك نباحاً!

انحنى لهما يهودي عجوز ذو جفنين مجعدين وسالفين طويلين وأدخلهما .

- ألدك أية جعة ؟

- لم يبق شيء ، أيها السيد القوزاقي .

- سنعطيك ثمنها .

- يا عيسى بن مريم ، هل يعقل أني... صدق في أيها السيد القوزاقي

كيهودي شريف ، ليست لدي أية جعة!

- أنت تكذب أيها الحسقي!

- أيها السيد القوزاقي ، إنني أقول لك...

فقاطعه كروتشكوف مغتاضاً وهو يخرج كيس نقوده مهلهلاً من جيب بنطاله :

- اسمع يا أنت . هات بعض الجعة والا غضبت .

فضغط اليهودي على قطعة النقود بين ابهامه وخنصره ، وخفض جفنه

الملتوي ومضى الى الممر . وعاد بعد دقيقة يحمل قنينة من الفودكا ، رطبة

تعلق عليها قشور الشعير .

- وكنت تقول لنا ليس لديك أي شيء! أيها العجوز...

- قلت ليس لدي أية جعة .

- هات لنا شيء نأكله .

ولطم كروتشكوف أسفل القنينة ليخرج السداد الفليني وصب لنفسه

قدحاً من الفودكا . خرجا نصف ثملين . ومضى كروتشكوف يتراقص وهو

يهز قبضته على النوافذ الخالية كعيون سود غائصة .

كان استأخوف يتشاءب في السقيفة ، وكانت الخيل تجتر تبناً وراء الجدار .

مر اليوم بلا عمل . وبعد الظهر أرسل بوبوف الى السرية يحمل تقريراً .

حل المساء . ثم جنّ الليل ، وسطع الهلال الأصفر في أعالي السماء . من حين الى آخر كانت تفاحة ناضجة تحدث صوتاً عند وقوعها على أرض الحديقة خلف البيت . بينما كان ايفانكوف في نوبة حراسته سمع صوت خيل في شارع القرية ، فزحف خارج الحفرة ليستطلع الأمر ، لكن القمر كان قد تلعغ بغيمة ، فلم يستطع أن يرى شيئاً خلال العتمة المنيعة . فمضى وأيقظ كروتشكوف الذي كان نائماً عند الباب .

- كوزما ! خيالة قادمون ! انهض !

- من أي اتجاه ؟

- إنهم يدخلون القرية .

وخرجوا . كانت قعقة الحوافر تنبعث بجلاء من الشارع على بضعة مئات من الأمتار .

- لنذهب الى الحديقة . نستطيع هناك أن نسمع بوضوح أكثر .

ركضوا عبر الكوخ الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، وجثما حذاء السور .

أصوات مكتومة . كان صرير السروج وجلجلة الركائب ينبعثان مقتربين . صار الآن بمقدورهما أن يتبيننا الهيكل المعتم للخيالة راكبين في تشكيلة رباعية متوازية .

- من يسير هناك ؟

- وأجاب صوت بالروسية من الصف الأمامي :

- وماذا تريد ؟

- من يسير هناك ؟ سأطلق النار ! - وقعق كروتشكوف بترباس

بندقيته . فشد أحد الراكبين عنان حصانه وأداره باتجاه السور ، وقال :

- نحن حرس الحدود ، هل أنتم نقطة أمامية ؟

- نعم .

- من أي كتيبة ؟

- كتيبة القوزاق الثالثة...

وانبعث صوت ينادي من الظلمة :

- من تكلم هناك ، ياتريشين ؟

فأجاب الرجل :

- توجد نقطة أمامية من القوزاق معسكرة هنا ، ياصاحب السعادة .

وتقدم فارس ثان من السور .

- مرحباً أيها القوزاق!

فرد ايفانكوف باحتراس :

- مرحباً .

- هل كنتم هنا منذ زمن طويل ؟

- منذ البارحة .

وقدح الراكب الثاني عود ثقاب واشعل سيكاره . وعلى الوهج الخاطف

استطاع كروتشكوف أن يتبين ضابطاً من حرس الحدود .

قال الضابط ، ساحباً نفساً :

- إن كتيبتنا تنسحب الآن . عليكم أن تدركوا بوضوح انكم ابعد نقطة

أمامية . وقد يتقدم العدو غداً نحوكم .

وتساءل كروتشكوف واصبعه على الزناد :

- الى أين ذاهبون ، ياصاحب السعادة ؟

- إننا في طريقنا للحاق بسريرتنا التي تبعد فرستين من هنا . هيا ، يا

أولاد ، لنتحرك . حظاً سعيداً لكم ، ياقوزاق!

- حظاً سعيداً لكم .

وفي تلك اللحظة ازاحت الريح بلا رحمة نقاب السحاب عن القمر ،

وانسكب ضوء مصفر ميت على القرية ، والحدائق ، وسقف الكوخ المنحدر ، ومفرزة حرس الحدود الصاعدة على التل .

في الصباح التالي ذهب رفاتشيف الى السرية حاملاً تقريراً . فاتح استاخوف المزارع البولندي ، فوافق الرجل على السماح لهم بقطع البرسيم لخيولهم لقاء بعض النقود . وأثناء الليل ظلت الخيل واقفة مسرجة . وكان القوزاق قد افزعهم أنهم تركوا الآن لمواجهة العدو . لم يكونوا قد عرفوا الشعور بالعزلة والوحدة طالما كانوا يدركون بأن ثمة حرساً للحدود أمامهم ، أما وقد علموا الان بأن الحدود مفتوحة ، فقد ترك ذلك النبأ فيهم أثراً بيناً .

ولم يكن مرج البولندي بعيداً عن السقيفة . فأرسل استاخوف كلاً من ايفانكوف وشيكولكوف لقطع البرسيم . وقادهما البولندي ذو القبعة من اللباد الابيض الى حصته ومضى شيكولكوف يحش ، بينما كان ايفانكوف يجرف العشب الرطب الثقيل معاً ويربط حزمأ . وبينما كانوا منهمكين على ذلك النحو ، لاحظ استاخوف خلال المنظارة التي كان يحدق فيها على امتداد الطريق المؤدي الى الحدود ، صبيأ يعدو عبر الحقول من الجنوب الغربي ، كان الصبي يجري هابطاً مثل أرنب بري بني اللون ، وكان مايزال على مسافة ما ، حينما صاح ولوح بكم سترته الطويل ، وجرى إلى استاخوف مبهور النفس ، زانغ العينين وقال لاهثاً :

- أيها القوزاقي! أيها القوزاقي! الألمان! الألمان قادمون!

وأشار باصبعه . فأمسك استاخوف بالمنظارة إزاء عينيه ورأى جمعاً من الفرسان من بعد . وصاح دون أن يرفع منظارته :

- كروتشكوف!

فبرز كروتشكوف من السقيفة وهو يتلفت .

- أجر في طلب الاولاد! هناك دورية ألمانية قادمة!

وتسمع الى كروتشكوف ينطلق مبتعداً ، وصار الآن بإمكانه أن يرى

بوضوح جماعة الفرسان تناسب على امتداد الخط المتعرج المخضوضر
للأرض العشبية .

وصار بمستطاعه حتى أن يتبين اللون الأحمر لخيولهم ولون بزاتهم
المشرب بالأزرق الغامق . كانوا أكثر من عشرين فارساً ، في كتلة متراسة ،
قادمين من الجنوب الغربي ، بينما كان قدومهم متوقفاً من الشمال الغربي .
عبروا الطريق ثم ساروا على امتداد الأخدود الذي يعلو الوادي عند القرية .
ومضى ايفانكوف يحشو كيس علفة بحزمة من العشب ، وهو يجر
أنفاسه بصعوبة وقد لاح طرف لسانه بين شفثيه المزمومتين ، بينما كان
البولندي أحنف القدمين واقفاً يجر أنفاسه من غليونه ، ويداه مدسوستان في
حزامه . ومضى يحرق من تحت حافة قبعته في شيكولكوف الذي كان لا يزال
يحش العشب .

حمحم شكولكوف وهو يعمل بشدة بالمنجل الصغير كاللعبة :

- أتسمي هذا منجلاً ؟ أتحش أنت به ؟

فأجاب البولندي دون أن يخرج غليونه من فمه : « احش به » وأخرج
اصبعاً من حزامه .

- بمنجلك هذا يمكن أن تحش المرأة الشعر الزائد في موضع معين !

فوافق البولندي : « ها - ها ! »

وقهقه ايفانكوف . وكان على وشك أن يقول شيئاً ما ، لكنه ما أن تلفت
حتى رأى كروتشكوف يجري عبر الحقل الوعر ، ويده على سيفه . واذا تقدم
منهم ، صاح : « اتركوا هذا ! » فتساءل شكولكوف وهو يغرز رأس المنجل في
الأرض : « الآن ، ماذا بعد ؟ » « الألمان ! » فقذف ايفانكوف حزمة العشب .
وهرع البولندي نحو البيت مقوساً ظهره كأن الرصاص قد بدأ ينز فوق
رأسه .

وما أن بلغوا السقيفة ووثبوا الى خيولهم حتى رأوا سرية من الجنود
الروس تدخل القرية من ناحية بليكاله . فجرى القوزاق لملاقاتهم . وأبلغ

استأخوف أمر السرية أن مفرزة ألمانية كانت تتخذ لها طريقاً حول القرية من جهة التل . فتفحص النقيب جزمته العفراء متجهماً ، وتساءل :
- كم عددهم ؟

- أكثر من عشرين .

- اقطعوا عليهم خط الرجعة ، وسنطلق نحن عليهم النار من هنا .
واستدار الى سريته ، وأصدر اليها أمراً بالاصطفاف ، وانطلق يقودهم في مسيرة سريعة .

وحين بلغ القوزاق التل كان الالمان قد أصبحوا بينهم وبين بلدة بليكالييه . كانوا يسيرون خبياً ، يقودهم ضابط يمتطي كميتاً معقوص الذيل .

أصدر استأخوف أمراً : « وراءهم ! سنطاردهم حتى نقطتنا الامامية الثانية » .

وتخلف وراءهم حارس الحدود الخيال الذي انضم اليهم في القرية ، فصاخ استأخوف وهو يستدير على سرجه :
- ما الأمر ؟ تتركنا ، أيها الأخ ؟

فلوح حارس الحدود بلا اكتراث ومضى نازلاً الى القرية متمهلاً . وانطلق القوزاق على خيولهم في خيب سريع . صارت البزات الزرق للخيلة الالمان واضحة للعيان . وكان هؤلاء قد لمحوا القوزاق يتبعونهم ، فمضوا يخبون باتجاه النقطة الامامية الروسية الثانية التي كانت معسكرة في ضيعة تبعد حوالي ثلاثة فرسات من قرية ليوبوف . وتضاءلت المسافة مابين الفريقين بصورة واضحة .

صاح استأخوف وهو يثب عن سرجه :

- سنطلق النار عليهم !

وأطلق القوزاق النار وقوفاً ، وقد عقدوا الاعنة على أذرعهم ، وشب حصان ايفاكوف على صوت الاطلاق فأوقعه أرضاً . ورأى وهو يسقط ، واحداً

من الالمان يميل جانباً في البدء . ثم ينشر ذراعيه ، وينقلب عن سرجه بغتة . أما الآخرون فلم يتوقفوا ولا حتى نزعوا بنادقهم ، بل مضوا في طريقهم هذباً في تشكيلة مفتوحة . وكانت الأعلام فوق رماحهم ترفرف في الريح . وكان استاخوف أول من امتطى صهوة حصانه من جديد . وأعمل القوزاق سياطهم في الخيل . وانحرف الالمان الى اليسار ، ومر القوزاق الذين يتعقبونهم على مقربة من الخيال السريع . وابتعد ذلك ، جاءت أرض ريفية متموجة تتخللها شعاب ضحلة المياه . واذا كان الالمان يسيرون حذو الجانب الأبعد لكل شعب ، كان القوزاق يترجلون ويطلقون عليهم النار . وبالقرب من النقطة الامامية الثانية هوى الماني آخر . صاح كروتشكوف وهو يضع قدمه على الركاب : « سقط » .

وتمتم استاخوف وهو يحشو مشبكاً من الخرطوش في مخزن بندقيته باصابعه التي اصفرت من التبغ : « لابد أن قوزاقنا سيأتون بعد لحظة . تلك هي النقطة الامامية الثانية » .

وانطلق الالمان في خيب متواصل . واذا مروا الى جانب الضيعة نظروا اليها ، ولكن الفضاء كان مقفراً . وكانت الشمس تعلق السقف القرميدي بشراة . وعلموا فيما بعد أن النقطة الامامية كانت قد سحبت في الليلة الماضية ، بعد أن اكتشفوا أن أسلاك البرق قد قطعت على بعد نصف فرس تقريبا .

واطلق استاخوف طلقة اخرى صوب الالمان وهو جالس على سرجه ، فاذا بأحدهم ، وكان متخلفاً قليلاً عن الآخرين ، يهز رأسه ويهمز حصانه .

وصاح استاخوف مستديراً نحو الآخرين من ورائه : « سنطاردهم الى النقطة الامامية الاولى » . واذا استدار لاحظ ايفانكوف أن أنف استاخوف كان يتقشر وثمة قطعة من الجلد مدلاة من منخره .

وتساءل قلقاً ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره : « لم لا يستديرون ويدافعون عن أنفسهم ؟ » فرد شيكولكوف وهو يلهث مثل حصان تمزقت رثاه : « انتظر تر » .

انحدر الالمان داخل شعب دون أن يتلفتوا . واختفوا عن الأنظار .
وعلى الجانب الآخر كانت هناك أرض محروثة ، وعلى هذا الجانب ، نجيل
ودغل قليل . ووقف استاخوف حصانه وازاح قبعته الى الوراء ، ومسح بظهر
يده حبات العرق . ونظر الى الآخرين ، وبقى وقال :
- ايفانكوف امض أنت لترى أين ذهبوا .

فلحق ايفانكوف شفتيه الياستين في ظلماً ، وقد احمر وجهه وتبلل
ظهره بالعرق ، وانطلق .

وتتمم كروتشكوف وهو يطرد ذباب الخيل بصوته :
- لهفي على سيكارة .

اندفع ايفانكوف الى الشعب مباشرة وقد انتصب على ركابه يشخص
ببصره عبر قرار الشعب . وفجأة رأى رؤوس الرماح المتموجة ، ثم ظهر
الالمان ، كانوا قد اداروا خيلهم وعادوا يجرون صعداً على المرتقى يبتغون
الهجوم . وكان الضابط في المقدمة ، وقد رفع سيفه بشكل غير طبيعي . وفي
خلال الثواني التي قضاها ايفانكوف وهو يدير حصانه ، انطبعت في ذاكرته
صورة الوجه الكئيب الحليق لذلك الضابط وجلسته البديعة على السرج .
واعتصر قلبه رعد حوافر الخيل الالمانية . وتحسس في ظهره قشعريرة
الموت القارصة بألم يكاد أن يكون حقيقياً . ومن غير أن يصرخ ، أدار
حصانه وانطلق باتجاه الآخرين .

لم يتسن لاستاخوف أن يطوي كيس تبغه وحشره فأخطأ جيبه . حين
رأى كروتشكوف الالمان يطاردون ايفانكوف ، انطلق قبل الآخرين مبتعداً .
وكان خيالة الجناح الأيمن يجرون ليقطعوا الطريق على ايفانكوف ، وهم
يقتربون منه بسرعة مذهلة . وكان ايفانكوف يلهب حصانه بالسوط ،
وقشعريرات شائثة تحتاج وجهه ، وعيناه جاحظتان . في المقدمة كان
استاخوف يجري ، منحنيماً على قربوس السرج . ودوم غبار بني على اثار
الخيل .

«سليحقون بي ، في اية لحظة الآن!» سيطرت هذه الفكرة المخدرة على ذهن ايفانكوف ، ولم يخطر بباله أن يظهر شيئاً من المقاومة . وكوّم جسمه الضخم حتى صار كالكرة ، ورأسه يلامس عرف الحصان .
لحق به ألماني ضخم أحمر الشعر وعرز رمحه في ظهره . فأصاب رأسه نطاق ايفانكوف الجلدي ونفذ مائلاً في جسمه لعمق يكاد يبلغ نصف فيرشوك* .

فصرخ بجنون ، وهو يمتشق سيفه : «ايها الاخوان ، ارجعوا!» وتفادى طعنة أخرى مصوبة الى جنبه . وضرب بسيفه على ظهر الماني سعى اليه من اليسار . وماهي الا لحظة ، حتى وجد نفسه مطوقاً . واصطدم حصان الماني ضخم بخاصرة حصانه حتى كاد يطرحه أرضاً ، ورأى ايفانكوف صورة قريبة لوجه عدو ، شوهاء فظيعة .

كان استاخوف أول من بلغ الجمع . ولكنه لم يلبث أن اضطر الى التراجع . فلوح بسيفه واثثنى على سرجه كثعبان الماء ، وقد كشر عن أسنانه ، وغدا وجهه غريباً يحاكي الموتى . وكان ايفانكوف قد أصابه طرف سيف بجرح عبر رقبتة . واطبق عليه خيال من اليسار ، وتلألأ في عينيه بريق الفولاذ المرعب ، فدافع بسيفه ، وصلصل الفولاذ بالفولاذ . ومن الخلف ، التصق رمح بسير كتفه ، وانعرز باصرار ، ممزقاً السير . وبدا وراء رأس حصانه وجه عرق محموم لألماني كهل أنمش ، كان يحاول أن يبلغ صدر ايفانكوف بسيفه . واذا وجد السيف لايطال ، قذفه ، وانتزع غدارته من بيت السرج الاصفر ، وقد تسمرت عيناه الطارفتان في وجه ايفانكوف ، لكنه لم يفلح في انتزاع غدارته ، اذ نال منه كروتشكوف برمح عبر حصانه ، فألقى الالماني بنفسه الى وراء وهو يمزق بزته الزرقاء الغامضة على صدره متأوهاً في دعر وذهول : «ماين غوت!»

* مقياس طول روسي قديم يساوي 1 مستمترات . الناشر

وأحاط بكروتشكوف ثمانية خيالة محاولين أسره حياً غير أنه شهباً بحصانه وقاتل حتى أفلحوا في اسقاط سيفه من يده . فنتش رمحاً من الماني ورفعه الى أعلى وكأنه في ساحة استعراض . واذا رداً الالمان الى الوراء ، راحوا يذودون الرمح بسيوفهم . وتجمعوا معا على رقعة صغيرة من أرض طينية محروثة كالحة ، وهم يتدافعون ويترنحون في حومة القتال ، كما لو كانوا يهتزون في مهب الريح .

وراح القوزاق والالمان - وقد مسهم جنون الرعب - يطعنون ويضربون كل ما صادفهم في الطريق : من ظهور ، واذرع ، وخيل وأسلحة . وتدافعت الخيل في جنون الخوف من الموت . واذا استرجع ايفانكوف شيئاً من سيطرته على نفسه حاول عدة مرات أن يهوي على رأس ألماني طويل الوجه ، أشقر الشعر ، كان قد تعقبه باصرار ، لكن سيفه كان يهوي على خوذة الرجل فينزلق عنها .

وشق استاخوف طريقه خلال الحلقة وانطلق من اسارها والدم يسيل منه . وتبعه الضابط الالماني . فانتزع استاخوف بندقيته من على كتفه وأطلق النار عليه ، فأرداه قتيلاً على مدى الرمي الأفقي تقريباً . فكانت هذه نقطة التحول في القتال . فما أن فقد الالمان أمرهم ، وقد أصيبوا جميعاً بجراح ضربات طائشة ، حتى تفرقوا وتراجعوا . ولم يتبعهم القوزاق ، ولا أطلقوا النار عليهم ، بل عادوا مباشرة الى سريتهم في بليكالويه ، فيما انتشل الالمان رفيقاً جريحاً وهربوا باتجاه الحدود .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريباً ترنح ايفانكوف على سرجه :
- أنا... سوف أقع...

وأوقف حصانه . غير أن استاخوف جر زمامه صائحاً : « تابع! » ومسح كروتشكوف الدم من وجهه تاركاً عليه أثراً مدماء ، وتحسس صدره . كانت ثمة بقع قرمزية تبدو لزجة على قميصه . وعلى مبعده من الضيعة حيث كانت النقطة الأمامية الثانية معسكرة ، اختلفت آراء الجماعة حول الطريق .

قال استاخوف مشيراً صوب المستنقع وغيبه خضراء لغابة حور رومي :
« الى اليمين! »

فأصر كروتشكوف : « كلا ، إلى الشمال! » .

وافترقوا . وصل استاخوف وايفانكوف الى مقر الكتيبة بعد كروتشكوف وشيكولكوف ، فوجدوا قوزاق سريتهم ، في انتظارهما عند طرف القرية . والقي ايفانكوف بالعنان ، ووثب من السرج ، ثم ترنح وهوى . ووجدوا مشقة في انتزاع مقبض السيف من أصابعه المتصلبة عليه . وبعد غضون ساعة من الزمن انطلقت كل السرية تقريباً الى حيث تمدد الضابط الالماني . فجرده القوزاق من جزمته وملابسه واسلحته وتجهزوا حوله لينظروا الى وجه الشاب الصريع العابس الاصفر . وأفلح أحدهم في الاستيلاء على ساعة الضابط ذات الغطاء الفضي ، وباعها في الحال الى عريف رعيه . ووجدوا في خرجه بضع أوراق نقدية ، ورسالة ، وخصلة من شعر أشقر في ظرف ، وصورة فتاة ذات فم بسام مزهو .

٩

تحولت هذه الحادثة بعد ذلك الى مأثرة بطولية . وحصل كروتشكوف - وهو الاثير لدى أمر السرية - على وسام القديس جيورجي . أما رفاقه فقد بقوا في الظل . وأرسل البطل الى مقر هيئة أركان الفرقة حيث عاش في بحبوحة الى نهاية الحرب ، ونال ثلاثة أوسمة أخرى لأن سيدات وضباطاً ذوي نفوذ جاؤوا اليه من موسكو وبطرسبورغ ليلقوا عليه نظرة . فتأهت السيدات وتنهدن ، واتحفن قوزاقي الدون بالسكاير والحلوى الغالية . وكان في البداية ينزل عليهن كل لعنات الشياطين ، لكنه فيما بعد جعل من الأمر تجارة مربحة تحت التأثير العطوف للمتملقين الرسميين المتسربلين ببزات الضباط . كان يروي قصة «مأثرته» وهو يببالغ ويكذب دون أن يخزه

ضميره ، بينما يستبد بالسيدات الحبور فيحملن باعجاب في الوجه
للصوصي المجذور للبطل القوزاقي . وكان الجميع مسرورين سعداء .
وزار القيصر مقر القيادة ، فأخذ كروتشكوف اليه ليراه . فتفحصه
الامبراطور الوسنان كما لو كان حصاناً ، وطرف بجفنيه الغليظين ، وربت
على كتف القوزاقي .
وعلق الامبراطور قائلاً : « يا للفتى القوزاقي الطيب ! » ثم استدار الى
حاشيته وطلب ماء معدنياً .

وغدت ناصية كروتشكوف تظهر دائماً في الصحف والمجلات .
وظهرت سكاير تحمل صورة كروتشكوف . واهدى تجار نيجني - نوفغورد له
حساماً مطلياً بالذهب .

أما بزة الضابط الالماني الذي قتله استاخوف فقد علقت على لوح من
الخشب المعاكس ووضعها الجنرال فون رنكامف في سيارته وايفانكوف
ومساعده يصحبانه لامساکها . ومضى بها أمام القطعات المستعرضة التي كانت
بصدد الذهاب الى الجبهة ، وهو يلقي الخطب النارية المألوفة برطائه الرسمية .
ترى ، ما الذي حدث بالفعل ؟ كل مافي الأمر أن رجالاً ، لم يكونوا قد
حذقوا فن التقتيل بأبناء جنسهم ، نزلوا ساحة الوغى ، وفي موجة الرعب
القاتل التي غمرتهم هجموا ، وضربوا ، وافنى بعضهم بعضاً كالعميان ،
مسبين أفدح الضرر ببعضهم وبخيلهم ، ثم عادوا وهربوا وقد أرعبتهم طلبة
أصابت أحدهم . لقد ولوا الأدبار وأرواحهم مشوهة .
وسمي ذلك مأثرة بطولية .

١٠

لم تكن الجبهة قد غدت - بعد - تلك الحية الضخمة الطويلة التي آلت
اليها فيما بعد . الا أن مناوشات الفرسان ومعاركهم قد حميت على امتداد

الحدود . وفي الأيام التي تلت اعلان الحرب مباشرة أطلقت القيادة الالمانية كشافة على هيئة مفارز قوية من الفرسان صارت تبث الرعب بين صفوف القطعات الروسية بتسللهم عبر نقاط الحدود والتجسس على الترتيبات العسكرية وعدد القوات . وكان الجيش الروسي الثامن متستراً بفرقة الخيالة الثانية عشرة تحت قيادة الجنرال كاليدين . وعلى جناحه الايسر كانت فرقة الخيالة الحادية عشرة قد تقدمت عبر الحدود النمساوية ، ولكن ما أن احتلت لاشنوف وبرودي حتى اضطرت الى التوقف حينما عززت الوحدات النمساوية بالخيالة المجرين . وقذفت الخيالة المجرية بنفسها على الوحدات الخيالة الروسية واضطرتها الى التراجع صوب برودي .

كان ثمة ألم داخلي ممض يعذب غريغوري ميليوخوف منذ معركته الأولى . أصبح أنحف قواماً بشكل جلي ، وغالباً ما كانت تتراءى له ملامح وهيكل ذلك النمساوي الذي صرعه قرب السياج ، سواء كان ماشياً أو مستريحاً ، نائماً أو ناعساً . وعاش في نومه تجربة تلك المعركة الأولى ، مرة تلو المرة ، حتى لقد أحس باختلاج راعش في يده اليمنى ، حين تقبض على الرمح فكان يستيقظ ويترد الحلم عنه بقوة ، وهو يظلل بيده عينيه المضيقتين الى حد الألم .

مضت الخيالة تدوس على القمح الناضج وتشوه الحقول بحوافر الخيل ، وبدا وكأن عاصفة صقيعية ماحقة قد اجتاحت غاليسيا . ووطئت جزم الجنود الثقيلة الطرق ، وخربشت سطحها المرصوف بالحصى وخبطت الوحل الخريفي .

وغدا وجه الأرض الكئيب مجدوراً بفعل القنابل ، وعلا الصداً شظايا الفولاذ والحديد متشوقة لدم الانسان . وفي الليل كانت ومضات حمر تضيء الأفق ، وتلتهب القرى والمدن مثل برق الصيف . وفي آب - حين تنضج الفواكه وتغدو الحنطة جاهزة للحصاد - كانت السماء رمادية عابسة ، وكانت الأيام الصاحية النادرة خانقه شديدة القيقظ .

كان شهر آب آفلأ الى زوال . واستحال لون الأوراق أصفر في البساتين ، وانتشر لون أرجواني حزين من سيقانها . وكانت الاشجار تبدو من بعد ، كما لو أصابتها جراح بليغة وسال منها نزيف قاتل .

وكان غريغوري يتفحص باهتمام التغييرات التي أصابت رفاقه . فقد عاد بروخور زيكوف من المستشفى يحمل آثار نعل الحصان على خده ، والألم والذهول يكمنان في زاويتي شفتيه . وصارت عيناه الشبيهتان بعيون العجل تطرفان أكثر من أي وقت مضى . أما يغور زاركوف فلم يضع فرصة ليلعن فيها ويسب ، وغدا أكثر مجوناً من قبل ، وجعل يثور على كل شيء تحت الشمس . وبدا على يميليان غروشيف أنه يحترق ، وهو قوزاقي دؤوب كف من قرية غريغوري نفسها ، فقد حال لون وجهه داكناً ، وصار يضحك في غم وعصبية . وكان بالمستطاع ملاحظة التغييرات على كل وجه ، وكان كل واحد منهم يداري ويرعى في داخله بذور الأسى التي زرعتها الحرب .

سحبت الكتيبة من خط القتال لتستريح ثلاثة أيام ، وأكمل تعدادها بتعزيزات جلبت من الدون . وكان قوزاق سرية غريغوري على وشك أن يذهبوا ليستحموا في بحيرة قريبة حينما دخلت القرية قوة كبيرة من الخيالة قادمة من المحطة الواقعة على بعد ثلاثة فرسات تقريباً . وفي الوقت الذي بلغ الرجال سد البحيرة كانت القوة تهبط نازلة التل . حتى صار واضحاً أن القادمين هم القوزاق . كان بروخور زيكوف يخلع قميصه حينما رفع بصره وحدّق وصاح :

- إنهم قوزاق ، قوزاق الدون!

فشخص غريغوري الى الرتل الزاحف الى داخل الضيعة حيث تعسكر الكتيبة .

- احتياط ، على أكثر تقدير .

- يبدو أنها تعزيزات .

- هذه هي الوجبة الثانية كما أعتقد .

وصاح غروشيف : « انظروا يا أولاد ، ذلك بالتأكيد ستيبان استاخوف !
هناك هو ، في الصف الثالث من المقدمة » . وأطلق ضحكة صارفة قصيرة .
- وذاك انيكوشكا .

- غريشا ! ميليوخوف ! ذاك اخوك . ألا تراه ؟
- أراه .

عليك أن تسقيني بالفودكا لأنني أول من رآه .
فحدق غريغوري مخاوفاً عينيه ومحاولاً أن يتبين الحصان الذي كان
يركبه بيوتر . وقال في نفسه وهو يحول نظره الى وجه أخيه : « لابد أن
ابتاع حصاناً جديداً ! » وكان وجهه قد لفحته الشمس بشدة ، وشاربه
مقصوفاً وحاجباه قد حال لونهما بفعل شمس الصيف : لقد اعتراه تغير
غريب منذ لقائهما الأخير . مضى غريغوري لملاقاته نازعاً قبعته ، وملوحاً
بها بصورة آلية وتدفق وراءه القوزاق دون أن يتموا ارتداء ملابسهم ، وهم
يدوسون على الأنصال الرقيقة المتكسرة لحشيشة الملائكة وشوك
الارقطيون .

انحرفت المفزة حول البستان داخله الضيقة ، يقودها نقيب متقدم في
السن قوي البنية ، تعلو خطوط فمه الحليق الصارم قساوة متخشبة . وقال
غريغوري في دخيلته : « شخص خبيث ابح الصوت ! » وهو يبتسم لأخيه
ويجول بعينه في الوقت نفسه في قامة الرئيس المتينة وحصانه معقوف الأنف
الذي يبدو أنه منحدر من صقع شرقي . وأمر النقيب السرية بصوت رفيع رنان
ان توزع مراتب .

وصاح غريغوري مبتسماً واعتراه انفعال مسرور :

- مرحباً ، أيها الأخ !

- المجد لله ! سنكون معاً . كيف حالك ؟

- لا بأس .

- اذن ما تزال حياً ؟

- كيف حالهم جميعاً ؟

- لا بأس .

وأراح بيوتر كفه على حصانه القوي ذي اللون المائل للحمرة ، ود
كل جسمه على السرج ليتفحص غريغوري مبتسماً . ثم مضى واختفى و
لصفوف المتدفقة من القوزاق الآخرين ، معروفين وغير معروفين .

- مرحباً ، ميليوخوف! تحيات من القرية!

فتبسم غريغوري متبيناً ميخائيل كوشيفوي من خصلة شعره الذهبية
قال :

- اذن أنت تنضم إلينا ؟

- صحيح . نحن كالدجاج يجري وراء الدخن .

- اذ نقرت فسرعان ماتنقر .

- مستحيل!

وقدّم يغور زاركوف من البحيرة وقد ارتدى قميصه فقط وهو يظلم عا
ساق واحدة ويحاول أن يدس الأخرى في بنطلونه أثناء ركضه .

- مرحباً يا أولاد!

- هي ، هذا زاركوف!

- مرحباً ، أيها الحصان! هل اضطروا الى حبلك اذن ؟

- كيف حال أُمي ؟

- لاتزال حية . أرسلت لك حبها . لكننا لم نقبل أن نحمل هداياها لك
حملنا ثقيل بما فيه الكفاية .

أنصت يغور الى الجواب وقد اكتسى وجهه تعبيراً جدياً غريباً ،
تعد الحشيش على عجيزته العارية ، مخفياً وجهه الخائب ومحاولاً بـ

وقف القوزاق نصف عراة وراء السياج المطلي بالدهان الأزرق ، وفي الجانب الآخر كانت سرية الاحتياط القادمة من الدون تتدفق على امتداد الطريق المحفوف بأشجار الكستناء ، داخلة الى الفناء .

- مرحباً يا ابن القرية!

- أهذا أنت ، الكساندر ؟

- أجل ، هو أنا .

- اندريان! كيف ، أيها الشيطان ذو الاذن المصلومة ، الا تعرفني ؟

- زوجتك ترسل حبها اليك ، أيها الجندي!

- ليحفظك المسيح .

- أين بوريس بيلوف ؟

- في أيه سرية كان ؟

- في الرابعة ، على ما أظن .

- من أي مكان هو ؟

- من ناحية فيشنسكايا ، من زاتون .

وانضم صوت ثالث الى الحديث المتشعب :

- ماذا تريد منه ؟

- لدي رسالة له ، هذا ما أريد .

- قتل قبل بضعة أيام ، في ريبودي .

- حقاً ؟

- صدقني . رأيته بأم عيني . رصاصة في الصدر ، تحت ثديه الأيسر

تماماً .

- هل يوجد أحد من قرية كورونيا رتشكا ؟

- لا .

صفت السرية في الفناء . وعاد القوزاق الآخرون الى استحمامهم ثم

انضم اليهم بعد قليل القادمون الجدد . جلس غريغوري الى جانب أخيه .

وانبعثت من طين السدة الرطب المفتت رائحة فجة كريهة ، وكان الماء ذا لون أخضر لَمّاع عند الحوافي . قصع غريغوري القمل في ثنايا ومدارز قميصه ، وقال لأخيه :

- بيوتر ، روعي تعبانة . اني كرجل تكفيه ضربة أخرى ليخر صريعاً . كأنني كنت بين شقي رحي ، لقد سحقوني ولفظوني .
كان صوته متكسراً ذبيحاً ، وامتدت تجعييدة دكناء منحرفة عبر جبهته (لم يلاحظها بيوتر الا الآن ، ويشعور قلق) أضفت عليه طابعاً عجيباً من التغير والغرابة .

فتساءل بيوتر وهو يخلع قميصه كاشفاً عن جسم أبيض يلوح لفح الشمس خطأ واضحاً على رقبتة :

- لماذا ، ماخطبك ؟

فقال غريغوري باستعجال وقد غدا صوته قوياً في مرارته :

- الأمر هكذا : لقد جعلونا نحترب ، أسوأ من قطع من الذئاب . الكراهية في كل مكان . وأحياناً أقول لنفسني إنني لو عضضت شخصاً لأصبته بالسعار .

- هل اضطررت أن... تقتل أحداً ؟

- أجل .

قالها غريغوري في شبه صياح وهو يعتصر قميصه ويرمي به عند قدميه . ثم يضغط على بلعومه بأصابعه كما لو كان يمنع كلمة تخنقه ، وأشاح بعينه .

فاستحبه بيوتر متجنباً عيني أخيه :

- أخبرني .

- إن ضميري يزهد روعي . لقد غرزت رمحي في جسم رجل... في غمرة الهياج... ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، ولكن لِمَ قتلت الآخر... ؟

- حسناً ؟

- ليس الأمر «حسناً» . لقد قتلت رجلاً بلا سبب ، فيعذب نفسي ،
ذاك الخنزير! إن هذا النغل لا يبارحني في أحلامي . هل كنت أنا الملووم ؟
- أنت لم تألف الأمر بعد ، ستتغلب على حالتك هذه . فتساءل غريغوري
فجأة :

- هل ستمكثون مع سريتنا ؟
- لا ، فنحن تابعون للكتيبة السابعة والعشرين .
- حسبت أنكم جئتم لمساعدتنا .
- سوف تلحق سريتنا بفرقة مشاة . إننا نسعى للحاق بها . على أننا
جنناكم ببعض البدلاء ، شرذمه من الشبان .
- حسناً ، لنستحم .

وخلع غريغوري بنطاله بسرعه ومضى الى حافة السدة ، ملفوح الجسم
قوي البنية بالرغم من كتفيه المتهدلين ، وخطر في ذهن بيوتر أنه شاخ خلال
فترة فراقهما . وغطس في الماء رافعاً يديه ، فانعقدت عليه موجة
خضراء كبيرة ، ثم انحسرت متموجة عنه . ومضى يسبح صوب جماعة
القوزاق المتصايحين في الوسط ، ويداه تلطمان الماء برفق ، وكتفاه
تتحركان بتكاسل .

كان بيوتر بطيئاً في خلع الصليب والتعويذة المخاطة فيه عن رقبته .
فدس الخيط تحت كومه ملابسه ، ونزل الى الماء بحذر وتهيب ، وبلل صدره
وكتفيه ، ثم اندفع الى الأمام متأوهاً ، ومضى يسبح للحاق بغريغوري . واتجه
صوب الضفة المقابلة ، وكانت رملية يغطيها الدغل . ورطبت الحركة في
الماء غريغوري وهذأته ، فراح يتكلم بهدوء وبدون هياجه السابق . قال :

- لقد استبد بي الضيق حتى تركت القمل يأكلني! آه ليتني الآن في
بيتنا ، فقط! لو أن لي جناحين ، لطرت الى هناك! لأختلس نظرة خاطفة
وحسب! كيف حالهم جميعاً ؟
- إن ناتاليا تعيش معنا .

- كيف حال أبي وامي ؟

- لا بأس . لكن ناتاليا ماقتت تنتظرك . انها لاتزال تعتقد بأنك عائد اليها .
نخر غريغوري وبصق ماء دون أن يجيب . فأدار بيوتر رأسه وحاول أن
ينظر في عيني أخيه .

- حبذا لو ترسل كلمة اليها في رسائلك . إن هذه المرأة لاتحيا الا من أجلك

- ماذا ، أما تزال تريد أن تصل ما انقطع ؟

- إنها تحيا على الأمل... إنها امرأة طيبة . ومتزمتة كذلك لن تدع أحد

يتعابث معها!

- عليها أن تجد زوجاً .

- غريب أن يصدر هذا الكلام منك!

- لاغربة فيه . هذا ما يجب أن تكون عليه الحال .

- حسناً ، هذا شأنك . لن أتدخل . - وكيف حال دونيا ؟

- غدت امرأة ، أيها الأخ! لقد كبرت كثيراً هذا العام حتى أنك

لاتعرفها .

فقال غريغوري دهشاً ومبتهجاً بعض الشيء : - حقاً!

- وحق الرب! وعمّا قريب ستتزوج ، ولن يكون بمستطاعنا حتى أن

نغمس عذارنا في الفودكا . أو قد نصبح في عداد القتلى ، عليهم اللعنة! - لا

أسهل من ذلك!

واضطجعا على الرمل جنباً الى جنب يتشمسان في دفء الشمس

الرفيق . ومرّ بهما ميشا كوشيفوي سابحاً :

- هيا ، ياغريغوري ، الى الماء .

- كلا أريد أن أرتاح .

وتساءل غريغوري وهو يدفن خنفساء في الرمل :

- كيف حال اكسينيا ؟

- رأيته في القرية قبيل اندلاع الحرب .

- مالذي كانت تفعله هناك ؟

- جاءت لتأخذ من زوجها بعض حوائجها .

فتنحج غريغوري ودفن الخنفساء ملقياً عليها كومة رمل .

- هل حدثتها ؟

- تبادلنا بالتحية فقط . كانت تبدو في حال طيبة ، ومبتهجة . يبدو أنها

تقضي وقتاً رضيعاً في الضيعة .

- وماذا عن ستيان ؟

- أعطاه حوائجها بالفعل . كان سلوكه لائقاً الى حد كبير . لكن ،

عليك أن تفتح عينيك! بلغني أنه أقسم حينما كان ثملاً أن يضع فيك رصاصة في أول معركة . لن يقدر أن يغفر لك .

- أعرف ذلك .

وأدار بيوتر وجهة الحديث : - ابتعت حصاناً جديداً لي .

- بعتم الثيران ؟

- بمئة وثمانين ، وكلفنا الحصان مائة وخمسين . وما هو بالرديء .

بالرديء . - وكيف حال المحصول ؟

- حسن . انتزعونا قبل أن نستطيع خزنه .

ومال الحديث وجهة شؤون منزلية ، وانجاب توتر المشاعر . وارتوى

غريغوري بأنباء بيوتر عن البيت . وعاد بره صغيرة يعيش هناك كما كان ،

ذلك الفتى البسيط العنيد .

واقترح بيوتر نافضاً الرمل عن بطنه المبلل :

- طيب ، لنغطس غطسة أخرى ، ثم نرتدي ملابسنا . وكان الشعر على

ظهره وذراعيه منفوشاً من البرد .

عادا الى الفناء مع جمع من القوزاق . ولحق بهما ستيان استاخوف عند

سياج البستان . وكان أثناء مشيه يمشط شعره الى الخلف تحت ذؤابة

قبعته . واذا حاذى غريغوري قال :

- مرحباً ، أيها الصديق !
فرد غريغوري : « مرحباً ! » وتوقف وتباطأ في مشيه واستدار نحوه وقد
بدا على وجهه شعور بالحرج والاثم .
- لعلك لم تنسني ، أليس كذلك ؟
- كدت . - لكنني أتذكرك !
وابتسم ستيبان هائلاً ومضى ، واضعاً ذراعه حول كتف نائب عريف
يمشي أمامه .
بعد غروب الشمس جاءت رسالة تلفونية من هيئة أركان الفرقة الى
كتيبة غريغوري تأمرها بالعودة الى الجبهة . وتجمعت السرايا خلال خمس
عشرة دقيقة ، وانطلقت ، وهي تنشد ، لكي تسد ثغرة في خط القتال
أحدثتها خيالة العدو .
وفيما كان غريغوري وبيوتر يتوادعان ، دس بيوتر ورقة مطوية في يد
أخيه . فتساءل غريغوري : - ماهذه ؟
- لقد استنسخت تعويذة لك . خذها...
- هل فيها أية فائدة ؟
- لاتسخر ، ياغريغوري !
- لست ساخراً .
- حسناً ، الى اللقاء أيها الأخ . لا تندفع في مقدمة الآخرين . إن
لموت بهرجاً لذوي الدماء الحارة . صن نفسك .
- فما جدوى التعويذة اذن ؟
- لوح بيوتر يده .
قضت السرايا زمناً ما دون أن تراعي اتخاذ أية احتياطات . ثم أصدر
رؤساء العرفاء أوامر بمراعاة أقصى مايمكن من الهدوء ، وان تطفأ كل
السكاير . وتطايرت فوق غابة بعيدة صواريخ الاشارة تزينها ذؤابات من
دخان بنفسجي .

دفتر مذكرات جلدي ، بني اللون ، صغير القطع . تأكلت زواياه وتمزقت ، فلا بد أن زمناً طويلاً مضى عليه وهو في جيب صاحبه . وقد ملأت صفحاته كتابة مائلة مزخرفة نوعاً ما...

« ... مضى عليّ حين من الزمن وأنا أحس بهذا الدافع الذي يستحثني على تناول القلم والشروع بالكتابة . أود أن أبدأ ما يشبه «المذكرات المدرسية» . أبدأ بها ، قبل كل شيء .

حدث في شباط (لا أذكر التاريخ بالضبط) أن تعرفت عليها بواسطة جار لها ، طالب يدعى بويارشكين . صادفتها خارج دار للسينما . وحينما قدمها بويارشكين . ، قال : «ان ليزا من ناحية فيشنسكايا ، كن لطيفاً معها يا تيموفي . فهي فتاة رائعة» .

واذكر أنني تمتعت بضع كلمات غير مترابطة وأخذت يدها الناعمة العرقة بيدي . وهكذا التقيت بليزافيتا موخوفا ، وقد أدركت في الحال أنها بنت ماجنة . ففي عيون اضرابها من النساء ما يكشف الستر عن الكثير . ولي أن أعترف أن الانطباع الذي خلفته لدي لم يكن انطباعاً حسناً . ولربما كان السبب هو ذلك الدبق الذي تحسسته في يدها . اذ أنني لم أر في حياتي شخصاً تعرق يدها بمثل تلك الشدة . ثم كانت هناك عيناها ، جميلتان جداً في الواقع ويغشيهما لون بندقي رافع ، ومع ذلك فهما لا تسران الناظر فيهما .

فاسيا ، يا صديقي العزيز ، أشعر أنني أنمق أسلوب في الكتابة عامداً ، حتى أنني أخذت الجأ الى نقل الصور على نحو دقيق ، ذلك لأنه حين تصلك هذه المذكرات وأنت في سميبالاتنسك (فأنا أفكر في إرسالها

اليك بعد أن تؤول هذه القصة التي بدأتها مع يليزفيتا مخوفا الى النهاية) ستجد فيها متعة . أود أن تكون لك فكرة جلية عما حدث . سوف أعمد الى سرد الحوادث حسب تتابعها الزمني . حسناً ، وكما سبق أن قلت ، تعرفت بها ودلف ثلاثتنا لمشاهدة فلم عاطفي سخيف . ظل بوياريشكين ساكناً طوال الفلم (اذ كان يعاني من ألم الأسنان ، أو «ألم الفرس» ، كما دعاه هو) ووجدت من ناحيتي صعوبة في خلق موضوع للحديث . واكتشفنا أننا كنا في ديرة واحدة ، أي من قصبتين متجاورتين ، ولكن ما أن تبادلنا بعض الذكريات عن جمال الطبيعة في السهب وما الى ذلك حتى صمتنا . فخلدت أنا الى صمت عفوي ، اذ اصح التعبير ، وتقبلت هي نضوب الحديث دون أي مفض . وعلمت منها أنها طالبة طب في السنة الثانية . وأنها سليفة عائلة من التجار ، وأنها ولوع بالشاي القوي ونشوق* اسمولوف . ولك أن تتصور كم هي زهيدة هذه المعلومات لأمرى يسعى الى معرفة كنه فتاة ذات عينيْن بندقيتي اللون . وحينما ودعناها عند موقف الترام طلبت مني أن أزورها . فدونت عنوانها . أحسب أنني سأعرج عليها في الثامن والعشرين من نيسان .

٢٩ نيسان

زرتها اليوم . قدمت لي شاياً وحلوى . انها ، في الواقع ، لا تخلو من شيء . حادة اللسان ، ذكية الى حد ما ، ولكنها متعلقة بنظرية ارتسيبياشيف القائلة : «افعل ما يحلو لك» وباستطاعتك أن تشم ذلك من مسافة فرست . عدت في وقت متأخر ، لففت سكاثر وفكرت بأشياء لاعلاقة لها بها أبداً ، وبالنقود بوجه خاص ، أن بدلتني في حالة يرثى لها ، ولكن ليس لدي أي «رأسمال» . وعلى العموم ، فالأمور في غاية العفوة .

*النشوق ، أو السعوط : دقيق التبغ يدخل في الأنف فيعطس المرء . المترجمون

شهدت اليوم حادثاً على جانب من الأهمية . فبينما كنا نزجي الوقت في منتزه سوكونليكي ببراءة مطلقة ، تورطنا في مشكلة . كانت الشرطة ومفرزة من القوزاق ، قوامها عشرون قوزاقياً تقريباً ، يفرقون اجتماعاً للعمال بمناسبة أول أيار . فهوى سكران بضربة من عصاه على أحد خيول القوزاق ، فما كان من القوزاقي الا أن أعمل به ضرباً بسوطه . (لست أدري لماذا يصبر بعض الناس على اطلاق كلمة «عسلوج» على السوط ، في حين أن له هذه التسمية الفخمة - لم لانسعملها ؟) مضيت اليه وقررت أن أتدخل ، مدفوعاً بأنبل المشاعر ، صدقني . قلت للقوزاقي أنك فظ ، وأنت كذا وكيت ، فما كان منه الا أن استعد ليلفحني بسوطه ، لكنني قلت له مع شيء من رباطة الجأش أنني قوزاقي من قصبة كامنسكايا وبمقدوري أن اشبعه ضرباً . ثم تبين أن القوزاقي كان شاباً لطيفاً لم يكن قد قضى في الجيش زمناً طويلاً يجعله حاد الطباع . فأجاب بأنه من ناحية أوست - خوير سكايا وأنه مشهود له بقوة بارعة ، وافترقنا في سلام . ولو كان قد شرع بمهاجمتي ، لاحتمد بيننا قتال ، ولأصابني شيء أسوأ من ذلك . إن تدخلني هذا يجب أن يفسر بواقع وجود ليزافيتا معنا ، وعندما أكون معها أجدني أندفع برغبة طفولية محض لاتيان «عمل بطولي» . وباستطاعتي بالفعل أن أرى نفسي أغدو ديكاً فتياً وأحس بعرف أحمر غير منظور يطلع تحت قبعتي... الى أين تراني سأنتهي!

الشيء الوحيد الذي استطيع أن أفعله في حالتي النفسية الراهنة هو السكر . ففوق كل شيء ، أنا لا أملك شروى نقيير . وقد انشق بنطلوني على نحو بانس في أهم موضع (أى ، بصراحة ، عند ملتقى الفخذين) وأصبح مثل

بطيخة مشقوقة في الدون ، والأمل ضعيف في أن يحتمل الرتق . وهل يرجي خير من محاولة رتق بطيخة ؟ لقد زارني فولودكا سترجنيف . سوف أحضر المحاضرات غداً .

٧ أيار

وصلتني نقود من أبي . رسالته غضبي ، لكنني لا أحس بذرة من الخجل ، ماذا لو أن أبي عرف أن قواعد ابنه الأخلاقية تتحلل على هذا النحو...لقد اشتريت بدلة . ورباط عنقي الجديد يجذب انتباه حتى سائقي عربات الأجرة . وبعد حلاقة لدى أحسن حلاق في المدينة خرجت منه لامعاً أشبه ببائع في حانوت خردوات . وفي الشارع ابتسم لي شرطي . ياللوغد الماكر! بيني وبينه شيء مشترك في هذه الهيئة... ومنذ ثلاثة أشهر... ولكن ما فات فات... لمحت ليزا صدفه خلال نافذة الترام . فلوحت بقفازها وابتسمت . مارأيك بي ؟

٨ أيار

«أمام الحب ، لا تملك كل الأعمار الا أن تكون خاضعة...» . لازلت أستطيع أن أرى فم زوج تاتيانا فاغراً باتجاهي مثل فوهة مدفع . واستبدت بي رغبة ، وأنا جالس على مقعدي في الصالة العليا ، أن أبصق فيه . وكلما أذكر تلك العبارة ، وعلى الأخص «خاضعة» في نهايتها ، أحس بفكي يستحثني على التثاؤب ، لعلها رجفة عصبية .

ولكن المهم هنا هو أنني في عمري هذا ، عاشق ، رغم أن كتابة هذه الكلمة تجعل شعر رأسي يقف... زرت ليزا . بدأت معها بمقدمة طويلة براءة . فتظاهرت بأنها لم تفهم وحاولت أن تغير الموضوع . أتراني تسرعت ؟ فليأخذ الشيطان هذه البدلة الجديدة ، لقد اربكت علي الأمور . فحينما أنظر الى نفسي في المرأة أحس بأنني شخص لايقاوم . ها قد حان

الوقت اذن ! وفي اعتقادي أن النصر حليف التفكير الرياضي المباشر .
ان لم أفاتها الآن ، فبعد شهرين يكون الأوان قد فات . سيكون
بنطلوني قد تخلق ولن يصبح بإمكانني مفاتها بأي حال من الأحوال . واذ
أنا أكتب اليك هذا ، أحس بفيض من الاعجاب بنفسي يغمرني . يالي من
خليط رائع من أكرم الفضائل لأكرم الناس في عصرنا . فأمامك الآن عاطفة
رقيقة ، لكنها نارية في الوقت نفسه ، « صوت العقل السليم » دونما حاجة
لذكر حشد من الصفات المحبة الأخرى .

حسناً ، لم أقطع معها شوطاً أبعد من مقدمتي التمهيدية . اذ قاطعتنا
صاحبة دارها ، التي استدعتها الى الخارج وسألتها قرصاً ، الا أنها رفضت
رغم توفر النقود لديها . كنت متيقناً من ذلك ، وتصورت وجهها وهي ترفض
الطلب بنبرة صوتها الصادقة وبذلك الاخلاص المتشرب في العينين
البندقيتين . ولم أشأ ، بعد ذلك ، أن أتحدث عن الحب .

١٣ أيار

إنني عاشق بحق وحقيق . لا مجال لأي شك في ذلك . كل شيء ينبئني
به . وسأفاتها غداً . على أنني لم أحضر الكلام المناسب لدوري حتى الآن .

١٤ أيار

حدث الأمر على نحو غير متوقع بتاتاً . كان ثمة مطر ، زخ خفيف
دافئ ، . كنا نتمشى في شارع موخوفايا ، والريح تلمح الرصيف بالمطر .
كنت أتحدث وهي صامتة ، ورأسها مطأطأ وكأنها تقلب الرأي في شيء ما .
وانداح خط من ماء المطر على حافة قبعتها وانساب على خدها . فبدت رائعة
الجمال . وجرى الحوار بيننا كالآتي :

- يليزافيتا سيرغيفنا ، لقد بحث اليك بما أحس ، فالأمر متروك اليك
الآن .

- يخالجني الشك في صدق أحاسيسك .
- فهرزت كتفي بحركة بلهاء وأجبت ببلاهة بأنني مستعد لأن أقسم لها ،
أو بشيء من هذا القبيل . فقالت :
- اسمع ، انك تتكلم وكأنك إحدى شخصيات تورغنيف* . لا تستطيع أن
تجعل الأمر بشكل أبسط ؟ .
- ليس ثمة ما هو أبسط منه . أنا أحبك .
- وماذا بعد ذلك ؟
- الرأي لك الآن .
- أتريدني أن أقول لك إنني أحبك أيضاً ؟
- أريدك أن تقولي شيئاً ما .
- القضية ، ياتيموفي ايفانوفتش... اوه ، كيف عساي أن أعبر عنها ؟
إنني أميل إليك بعض الميل وحسب... أنت طويل القامة جداً .
- فوعدها قائلاً :
- وسيزداد طولي .
- ولكننا لا نعرف أحداً الآخر الا قليلاً . اننا...
- مع مر الوقت ستوثق معرفتنا .
- فمسحت خديها المبللين بيد وردية وقالت :
- حسناً ، فلنعش سوياً . والزمان خير حكم . ولكن عليك أن تدعني
أفسخ علاقتي السابقة أولاً .
- فتساءلت :
- مع من ؟
- أنت لا تعرفه . طبيب ، اختصاصي بالأمراض التناسلية .
- متى ستتحررين منه ؟

* ايفان تورغنيف ، الأديب الروسي المعروف ، مؤلف « الآباء والبنون » و« آسيا » وغيرهما . المترجمون

- الجمعة ، كما آمل .

- هل سنعيش سوية ؟ اعني ، في شقة واحدة ؟

- نعم فإنني أعتقد أن هذه الطريقة هي الأفضل . عليك أنت أن تنتقل الى

شقتي .

- لماذا ؟

- لدي غرفة مريحة جداً . نظيفة ، وصاحبة الدار امرأة لطيفة .

لم اثر أي اعتراض وافترقنا عند منعطف شارع تفرسكاي . وتبادلنا قبلة

اثارت دهشة كبيرة لدى سيدة عابرة .

ترى ، ماذا يخبىء المستقبل لي ؟

٢٢ أيار

أعيش حياة ملؤها الحلاوة . على أن حياتي «الحلوة» غشيتها اليوم

سحابة حينما أخبرتني ليزا أن علي أن أغير ملابسني الداخلية . لا شك في أن

ملابسي الداخلية في حال تثير التقزز . ولكن أين النقود ، أين النقود ؟

نحن نصرف من نقودي ، ولم يبق إلا القليل . سيتعين علي إيجاد عمل .

٢٤ أيار

قررت اليوم أن أبتاع لي شيئاً من الملابس الداخلية ، على أن ليزا

فتحت لي باباً جديداً للمصرف . فقد اجتاحتها فجأة رغبة لاتقاوم في تناول

الغداء في مطعم جيد وشراء جوارب حريرية لها . تغدينا واشترينا الجوارب ،

وانتابني اليأس . لن تكون لي ملابس داخلية!

٢٧ أيار

إنها تمتصني حتى الجفاف . فجسدي لم يعد أكثر من ساق جرداء

لزهرة عباد الشمس . إنها ليست بامرأة ، إنما نار مدمرة!

استيقظنا اليوم في التاسعة . إن عادتني اللعينة في تمطية أصابع قدمي أدت الى النتائج التالية . جرت الغطاء فعرضت قدمي لفحص دقيق . ثم لخصت رأيها كالآتي : « لك قدم مثل حافر حصان . وأسوأ ! أما ذلك الشعر على أصابع قدمك - أوف ! » وهزت كتفها بتقزز محموم ، ودفنت رأسها تحت الغطاء واستدارت صوب الحائط .

أصابتنى الحيرة . ودسست قدمي أخفيها عن الأنظار ، ولمست كتفها .
- ليزا !

- اتركني وشأنى !

- ليزا ، هذا لامعنى له . فأنا لا أستطيع أن أغير شكل قدمي ، فلم أوص عليها ، كما تعلمين . أما من ناحية الانبات فليس لامرئ أن يعرف أين سينبت الشعر في المرة القادمة . إنه ينبت في كل مكان . أنت طالبة طب ، ويتعين عليك أن تكوني ملمة بقوانين الطبيعة .

استدارت . وكان ثمة وميض خبيث في عينيها البندقيتين :

- بالله عليك ، اشتر شيئاً من المسحوق المعطر . فقدماك تفوحان برائحة كريهة كجثث الموتى .

فأجبت بدافع العدالة بأن يديها تعرقان على الدوام . فلاذت بالصمت ، وخيمت على روعي سحابة عتماء ، اذا توخينا استعمال الكلمات الضخمة . الأمر ليس متعلقاً بالقدم والشعر... .

رحنا اليوم بنزهة في القارب في نهر موسكو . تذكرنا مرابع الدون . إن سلوك ليزا لا يليق بها . فهي لاتني تصب العبارات الجارحة على رأسي ، وهذه في بعض الأحيان شديدة القسوة . فلو أنني رددت عليها بالمثل لكان

معنى ذلك انفصام علاقتنا ، وهذا مالا أريده . وعلى الرغم من كل شيء ، فإنني أزداد تعلقاً بها يوماً بعد يوم . انها ، ببساطة ، فتاة مدللة ، بيد أنني أخشى أن لا يكون تأثيري عليها من القوة بحيث يؤدي الى أي تغيير جذري في طباعها . إنها فتاة منقلبة الأطوار . أضف الى ذلك أنها فتاة صغيرة خبرت أشياء لم يحدث أن تعرفت عليها أنا الا عن طريق السماع . وفي طريق العودة جذبتني الى صيدلية وابتاعت ، وعلى وجهها ابتسامة ما ، مسحوقاً معطراً وترهات اخرى . « إن هذا سيخفف من فوح الرائحة الكريهة » .

انحنيت لها باحترام وشكرتها .

شيء سخيف ، ولكن ما الحيلة ؟

٧ حزيران

ليس لها ، في الواقع سوى ذكاء ضئيل جداً ، ولكنها خبيرة بجميع القضايا الأخرى .

وفي كل ليلة ، وقبل الذهاب الى الفراش ، صرت أغسل قدمي بالماء الحار ، وأصب عليهما شيئاً من ماء الكولونيا ، وارشهما بمادة مقفزة أخرى .

١٦ حزيران

إنها تغدو مستحيلة الاحتمال يوماً بعد يوم . انتابتها أمس نوبة من الهستيريا . إنه لشيء بالغ الصعوبة أن يعيش المرء مع امرأة كهذه .

١٨ حزيران

ليس ثمة تشابه في طباعنا وميولنا قط! حتى اللغة التي نتحدث بها لم تعد واحدة . الشيء الذي يربطنا هو السرير وحياة تافهة . حدث هذا الصباح أن مضت الى جيبي لتأخذ نقوداً قبل الذهاب الى

الخباز فعثرت على دفتر المذكرات الصغير هذا . نظرت اليه ، وقالت :

- ما هذا الذي تحمله في جيبك ؟

فشعرت بالحمى تسري في أوصالي . هبها ألقت نظرة في داخله ؟
وانتابتني الدهشة حين وجدت نفسي أجيب بصوت طبيعي : « مجرد دفتر
ملاحظات للحساب » .

فدسته في جيبي ثانية بلا أدنى اكتراث ، وخرجت . عليّ أن أكون أكثر
حذراً . إن انطباعات مباشرة كهذه ليست بذات قيمة الا حينما يكون الشخص
الآخر جاهلاً بها كل الجهل . إنها ستكون مصدر تسلية لصديقي فاسيا .

٢١ حزيان

إن ليزا تذهلني . هي في الحادية والعشرين . فمتى تسنى لها أن
تغدو متحللة الى هذا الحد ؟ أي نمط من العوائل عائلتها ؟ من كانت له يد
في تنشئتها ؟ إن هذه الأسئلة تثير فيّ أقصى الاهتمام ، إنها جميلة بشكل
مريع . وهي فخورة بقوامها الكامل . إنها تعبد نفسها ، وليس في العالم
شيء يهملها غير ذلك ، لقد حاولت مراراً أن أبدأ معها حديثاً جدياً ،
ولكن... . أن تقنع « مؤمناً قديماً » بعدم وجود الله أسهل من تعيد تربية
ليزا .

لقد غدا العيش سوية أمراً مستحيلاً وسخيفاً . ومع ذلك فإنني أشعر
بالتردد إزاء فصم العلاقة . ولا بد لي من الاقرار بأنني غدوت كلفاً بها رغم
كل شيء . لقد غدت جزءاً مني .

٢٤ حزيان

تبين أن غيظها له أسباب بسيطة . تبادلنا حديثاً مكشوفاً اليوم
وأخبرتني بأنني لم استطع أن اشبع جسدها . لم يتم الانفصام بعد . لعل ذلك
في غضون بضعة أيام .

إن ما نحتاج اليه هو جواد فحل! فحل بمعنى الكلمة!

يشق عليّ كثيراً أن أتخلّى عنها . إني التصق بها التصاق القدم بالوحل .
خرجنا اليوم الى تلال فورو بيوفي . جلست بجانب نافذة الفندق وترشحت
الشمس من تحت السقف المزخرف على جعدات شعرها . إن لشعرها لون
الذهب الخالص . ها أنا قد غدوت أنظم شعراً!

تركت عملي ، اذ تركتني ليزا . شربت اليوم جعة مع سترزنيف . بالأمس
شربنا الفودكا . افترقنا ، أنا وليزا ، كما يفترض في الناس المهذبين أن
يفترقوا ، وبطريقة لائقة بلا منغصات . واليوم رأيتها في شارع دميتروفكا
بصحبة شاب يرتدي جزمة راكبي السباق . استجابت لتحيتي بتحفظ . لعل
الوقت قد حان لأن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات - فقد نصب معينها .

انني ملزم على ماكنت أتوقع تماماً بتناول القلم من جديد . هي
الحرب . حماس بهيمي متفجر . كل أصحاب القبعات العالية يفوحون
بالوطنية كالكلاب الميتة . الآخرون ساخطون ، غير أنني أشعر بالرضا .
لقد أضناني الحنين الى... . « فردوسي المفقود » . طاف بي ليلة أمس حلم
هادئ صغير عن ليزا . لقد خلفت فيّ أثراً عميقاً من التشوق . ليت
يتجلى .

لقد سنمت من كل هذا الضجيج والاضطراب . عاودني الحنين القديم .
أما صه كما يمص طفل مصاصة .

آب

مخرج من الأزمة! سوف أمضي الى الحرب . حماقة ؟ تماماً .
فضج !

ولكن ما عساني أفعل غير ذلك ؟ واه على أي شيء له طعم مغاير
ك ، فقبل عامين لم يكن لدي أي شعور بالتخمة كهذا . أم ترى أن اله
أ يدب في ؟

آب

ها أنا أكتب في القطار . لقد تركنا فورونيچ لتونا . وفي الغد سأك
ن أهلي . لقد اتخذت قراري . سوف أحارب من أجل « الدين والقيص
رض الاجداد » .

آب

يا للتوديع الحافل الذي شيعوني به . كَرَعَ الأتمان قدحاً أو قدحين
في خطبة جياشة . واخبرته همساً ، بعد ذلك ، إنه أحرق . فصعق ، ح
خديه اخضر لونهما مهانة . ثم فح صوته بحقد : « أنا أيضاً أفهم
سر . عسى الا تكون واحداً من أولئك الذين اذقناهم لفح السوط ع
١٩ ، أليس كذلك ؟ » فأجبت بأنني ، مع الأسف الشديد ، لست « واح
أولئك » . بكى أبي وحاول أن يقبلني وقطرة سائلة تتدلى من أنف

أن عليه أن يأتي معي ، فهتف مذهولاً : «ولكن ماذا عن شؤون الضيعة ؟» .
غداً ، سأغادرهم ميمماً شطر المحطة .

١٣ آب

هنا وهناك ، حقول قمح غير محصود . سناجب أرضية على الاكمام .
إن لها شهباً عجيباً بالألمان الذين نراهم في الصور الرخيصة وقد انغرز فيهم
رمح كوزما كروتشكوف . كان ياما كان ، ويوم كنت تلميذاً أدرس
الرياضيات والعلوم الدقيقة الأخرى ، لم يمر في خاطري قط أنني سأعيش الى
اليوم الذي أجد فيه نفسي «داعية وطنياً» . ما أن التحق بإحدى الكتائب حتى
أتوجه بخطبة الى القوزاق .

٢٢ آب

في إحدى المحطات الواقعة على الخط الحديدي رأيت أول جماعة من
الاسرى . كان ضابط نمساوي وسيم رياضي البنية يساق تحت الحراسة
صوب بناية المحطة . وكان ثمة فتاتان تتمشيان على الرصيف ، فابتسمتا
له . واستطاع أن يدبر لهما انحناء أنيقة جداً دون أن يتوقف ، وأطار قبله
في الهواء صوبهما . كان ، حتى في أسره ، حليق الذقن ، مهذباً ، وجزمته
البنية ملمعة . لبثت أراقبه وهو يمضي مبتعداً . شاب وسيم ، وجه لطيف
ودود . لو صادفته في معركة ، لما ارتفعت ذراعك لضربه .

٢٤ آب

لا جنون ، لاجنون ، لاجنون... إن كافة الخطوط الحديدية مزدحمة بقطر
من اللاجئين والوحدات العسكرية .

مر أول قطار طبي توأ . وحينما توقف قفز منه جندي فتى . وجهه
معصوب . تحدثنا . كان قد جرح بقذيفة عنقودية . كان فرحاً الى حد كبير

لأن من المحتمل أن يعفى من أية خدمة عسكرية أخرى . كانت عينه تالفة .
على أنه كان يضحك في الواقع .

٢٧ آب

أنا الآن في كتيبتي . وأمر الكتيبة شيخ لطيف جداً . قوزاقي من الدون
الأسفل . إن بمقدور المرء أن يشم رائحة الدم هنا . والشائعات تسري بأننا
سنكون في الخط الأمامي بعد غد . أنا في الرعيل الثالث من السرية الثالثة - قوزاق
من ناحية قسطنطينوفسكايا . رهط تعس . ليس بينهم سوى ماجن ومغن واحد .

٢٨ آب

نحن في الطريق . واليوم ، ينبعث من هناك الكثير من الجلبة . أصوات
كالرعد تقصف من بعيد . حتى أنني تشممت الهواء بحثاً عن المطر . بيد
أن السماء كانت كالحرير الأزرق .
أمس ، صار حصاني أعرج ، فقد سحق ساقه في عجلة مطبخ الميدان .
كل شيء جديد وغريب . لست أدري بم أبداً وعم أكتب .

٣٠ آب

أمس لم يكن لدي وقت للكتابة . وها أنا الآن أكتب على السرج . ان
الارتجاج يجعل قلبي يخط غرائب وعجائب . نحن ثلاثة ماضون على خيلنا
مع عجلة علف لجلب العشب .

هاهم الاولاد يقومون بحزم الحمولة ، وأنا متمدد على بطني أدون
تسجيلاً متأخراً لما حدث أمس . أمس ، العريف تولوكونيكوف (الذي
ينادييني باحتقار «أيها التلميذ» ، «لا اسمع يا أنت ، أيها التلميذ ، الا
تستطيع أن ترى أن حدود حصانك قد انخلعت ؟») . هذا العريف أرسل ستة
منا للاستطلاع .

مضينا عبر قرية التهمتها النار عن آخرها . كان الجو شديداً الحر . كانت الخيل تتصبب عرقاً ، وكذلك نحن . لا يجوز الزام القوزاق بارتداء السراويل الجوخ في الصيف . في حفرة خارج القرية رأيت أول جثة الماني . ملقى على ظهره وساقاه في الحفرة . التوت إحدى ذراعيه تحته . بينما أطبقت الثانية على حافظة بندقية . لابندقية في أي مكان على مقربة منه . منظر مميت ، قشعريرة باردة تسري الآن في عمودي الفقري وأنا أفكر به

بدا وكأنه قد قعد وساقاه في الحفرة ، ثم تمدد على ظهره للاستراحة . بزة وخوذة رماديتان . باستطاعتك أن ترى البطانة الجلدية . لقد أصابني ذهول في هذه التجربة الأولى حتى صار من المستحيل عليّ الآن تذكر وجهه . لا شيء سوى النمل الكبير الأصفر يتزاحف فوق جبينه الأصفر وعينه الجامدتين نصف المغمضتين . أما القوزاق فقد رسموا إشارة الصليب عليهم وهم يمرون بجانبه . نظرت الى بقعة الدم الصغيرة على الجانب الأيمن من بزته . لقد أصابته الرصاصة في جانبه الأيمن واخترقته . وبينما كنت أمر به لاحظت أن في الجانب الأيسر حيث خرجت الرصاصة من جسمه كانت البقعة الحمراء على بزته وكتلة الدم على الأرض أكبر بكثير ، والبزة ممزقة ارباً ارباً .

تركته والقشعريرة تخضني ، اذن ، هكذا يحدث الأمر

العريف الأقدم ، المكثي «بالمزعج» ، حاول أن يستنهض مرحنا بأن راح يقص علينا حكاية بذيئة ، بيد أن شفتيه كانتا ترتعشان .

وبعد مسيرة نصف فرسك تقريباً من القرية ، صادفنا معملاً مبقر البطن ، لم يبق منه سوى حيطان من الطابوق سودها الدخان عند القمة . خشينا ان نمضي باستقامة الطريق لأنه كان يمتد بمحاذاة هذا التل من الرماد ، فقررنا ان ندور حوله من الجانب الآخر . وما ان خرجنا عن الطريق حتى شرع أحدهم باطلاق الرصاص علينا من جهة المعمل . لقد كاد صوت تلك الطلقة الأولى أن يقلبني من على سرجي ، وإن كنت أشعر بالخجل من

الاقرار بذلك . قبضت على رمانة السرج ، وبحركة غريزية انحنيت وشدت على العنان . انطلقنا عائدين هذباً الى القرية مارين بالحفرة التي رقد فيها الالمانى القتيلى ، ولم نستعد صوابنا الا بعد أن خلفنا القرية وراءنا . ثم استدرنا وترجلنا . تركنا الخيل مع رجلين ، وشق أربعتنا الطريق عائدين الى تلك الحفرة . جشونا لنمضي خلالها . ومن بعيد وقع بصري على ساقى الالمانى القتيلى في جزمتهما الصفراء القصيرة ، مدلاتين فوق الحافة . وحينما مررت به قطعت نَفْسِي ، كما لو كان نائماً أخشى إيقاظه . كان العشب تحته ندياً أخضر .

تمددنا في الحفرة ، وما أن مرت بضع دقائق حتى انطلق تسعة ألمان منح املى الحراب راكبين من وراء خرائب المعمل المهديم . كان بمقدوري أن أشخص فيهم حاملي حراب من بزاتهم . صاح أحدهم ، ضابط حتماً ، بصوت غليظ ، فانطلقت المفرزة برمتها باتجاهنا .

هاهم الاولاد ينادون عليّ الآن لاذهب لمساعدتهم في تحميل العشب . يجب أن أمضي .

٣٠ آب

أريد أن أتم وصف كيف أطلقت الرصاص على رجل لأول مرة في حياتي . هجم حاملوا الحراب الالمان علينا ، ولا أزال أستطيع أن أرى تلكم البزات الخضراء بلون السحالي وخوذهم المتلألئة التي تشبه الأجراس شكلاً ، ورماحهم والأعلام ترفرف في رؤوسها .

كانوا يمتطون خيلاً كمتاً غامقة اللون . ولسبب ما سرحت بنظري على حافة الحفرة ولاحظت خنفساء صغيرة زمردية . راح جرمها يكبر حتى بدت هائلة الحجم . وجعلت تشق طريقها ، وهي تهز أوراق الحشيش كالعملاق ، متجهة صوب مرفقي الذي كنت قد ركزته على فتات الطين الجاف للحافة . تسلقت كم قمصتي وزحفت مسرعة نحو البندقية ، ومنها الى الحمالة .

كنت لا أزال اراقب رحلتها حينما تناهى اليّ صوت «المزعج» زاعقاً : « اطلق النار ، ماذا دهاك ؟ »

ركزت مرفقي بثبات أكثر ، وضيق عيني اليسرى وشعرت بقلبي يتضخم حتى غدا هائلاً كتلك الخنفساء . وارتعشت موجهاً بندقيتي ازاء بزة رمادية مخضوضرة . ضغطت على الزناد واستمعت الى نواح الرصاصة الطائر . والى جانبي اطلق «المزعج» ناره ، لا بد أن موجهاًتي كانت خفيفة اكثر مما يجب ، ذلك لأن الرصاصة ارتدت عن الارض فأطارت قرمة من العشب وخلفت مساراً من الغبار . تلك أول طلقة سددها على رجل في حياتي . ثم افرغت مخزن العتاد دونما تصويب ، ودون أن أرى شيئاً أمامي . ولم ألق نظرة باتجاه الالمان الا حالما سحبت الزناد فلم ألق استجابة . كانوا يسرعون عاندين على نفس النمط الأول ، والضابط في المؤخرة . كانوا تسعة كما من قبل . واستطعت أن أرى الكفل الاسمر الغامق لحصان الضابط والصفحة المعدنية في قمة خوذة ، خوذه حاملي الحراب .

٢ أيلول

في «الحرب والسلام» فقرة يتحدث فيها تولستوي عن الخط الفاصل بين الجيشين المتقاتلين ، خط المجهول الذي يبدو أنه يفصل بين الأموات والأحياء ، تمضي السرية التي يخدم فيها نيكولاي روستوف الى القتال ، ويرى روستوف ذلك الخط بعيني بصيرته . انني أتذكر تلك الفقرة على وجه التخصيص بشكل حي هذا اليوم ، لأننا في فجر اليوم قمنا بهجوم على وحدة من الخيالة الالمانية الخفيفة . فمنذ غبشة الصباح كانت قواتهم ، تساندها المدفعية الممتازة ، تشيع القلق في صفوف مشاتنا . رأيت بعض رجالنا - كتيبتي المشاة ٢٤١ و ٢٧٣ ، على ما أظن - يلوذون بالفرار وقد استبد بهم الرعب . لقد انهارت معنوياتهم تماماً بعد أن دفعوا الى الهجوم من غير ما مدفعية تساندهم . وكانت نار العدو قد حصدت ثلث عددهم تقريباً ، وكانت

الخيالة الالمانية تطاردهم . ثم قذف بكتيبتنا في المعركة ، وكانت تقف في فسحة داخل احدى الغابات . هذا هو الحدث كما أتذكره .

غادرنا قرية تيشفيتشي بين الثانية والثالثة صباحاً . كان الفجر على وشك أن يطل ، والظلام دامساً ، وكان الهواء مفعماً برائحة الشوفان وابر الصنوبر . تقدمت الكتيبة على شكل سرايا . انحرفنا عن الطريق وصرنا نضرب عبر الحقول . وراحت الخيل تنخر وهي تنفض الندى الثقيل عن الشوفان بحوافرها .

كان البرد لاسعاً رغم معاطفنا . جعلوا الكتيبة تسير عبر الحقول وقتاً طويلاً ، ومرت ساعة قبل أن يقدم ضابط على حصانه ويسلم أمراً الى آمرالكتيبة . وتلا شيخنا الأمر علينا بنبرة برمة ، فاستدارت الكتيبة يمينا صوب الغابة . وانحشرت أرتالنا في الممر الضيق . كان القتال يدور في موضع ما الى اليسار . وأدركت من الأصوات ، أن عدداً كبيراً من البطاريات الالمانية تطلق النيران . وكان صوت الرمي يتذبذب في الهواء ، فخامرني شعور بأن كل الصنوبر الشذي فوق رؤوسنا تلتهمه النيران . ولم نكن لنفعل شيئاً غير الإنصات ، حتى مشرق الشمس . انطلق هتاف «هورا» ، هتاف مبتور مهلهل ، ثم خيم السكون يسحبه الطرق الصافي للمدافع الرشاشة ، وفي تلك اللحظة كانت أفكارى تدور في دوامة ، كان الشيء الوحيد الذي أستطيع تذكره - واضحاً كل الوضوح والى حد الالم - هو وجوه مشاتنا وهم يتقدمون .

كنت أستطيع أن أرى بعين بصيرتي تلك الهياكل الرمادية الخرقاء ، بقبعاتهم العسكرية المسطحة ، وجزمهم القصيرة الغليظة وهي تضرب على الارض الخريفية ، وكنت أستطيع أن استمع الى ثرثرة المدافع الرشاشة الالمانية ، الحادة المبحوحة ، وقد شرعت تحيل هذه الأجسام البشرية العرقة الحية الى جثث .

كانت الكتيبتان قد حصد منهما الكثير ، فهرب الباقون تاركين

أسلحتهم وراءهم ، ثم أغارت كتيبة من الخيالة الألمانية الخفيفة عليهم . فخرجنا اليهم من جانبهم على مبعدة قليلة . وصدر أمر إلينا . فتشكلنا في الحال . ثم سمعت أمراً بارداً مقتضياً :

« الى الأمام! » . وبدا وكأنه يمنعنا عن التقدم . كما تفعل الشكيمة بالحصان . ثم انطلقنا إلى الأمام كانت اذنا حصاني ملتصقتين تماماً على رأسه بحيث لم يكن أن ترفع باصابع اليد . ألقيت نظرة حولي - كان ورائي آمر الكتيبة وضابطان . أجل ، هو ذاك الخط الفاصل بين الأحياء والأموات . تلك هي ، لحظة الجنون الكبرى!

تخبط الخيالة الالمان واستداروا أمام عيني ، قام أمر سريرتنا تشيرنتسوف بقتل فارس ألماني . ورأيت قوزاقياً من السرية السادسة يلحق بألماني ويعمل سيفه بجنون بكفل حصانه . واثالث شرائط من الجلد عن السيف فيما كان يعلو ويهبط . كان شيئاً لا يصدق! لا اسم له! وفي طريق العودة رأيت الى وجه تشيرنتسوف ، راسخاً مرحاً - وكأنه جالس الى طاولة قمار ، لا على سرجه ، وقد قتل رجلاً لتوه ، سيصعد أمر السرية تشيرنتسوف في مدارج الرقي . إنه رجل كفوء!

٤ أيلول

نحن في فترة استراحة . يجري الآن استقدام الفرقة الرابعة للجيش الثاني الى الجبهة . نحن معسكرون في بلدة كويلينو الصغيرة . مرت هذا الصباح مسرعة عبر البلدة وحدات من فرقة الخيالة الحادية عشرة وقوزاق الاورال . مازال القتال مستمراً في الجبهة الغربية . هدير لا ينقطع . ذهبت بعد الغداء الى مستشفى الميدان . كانت عربات الجرحى قد وصلت لتوها . وكان حَمَلَة النقلات يفرغون عربة كبيرة ويتضاحكون . مضيت اليهم . كان جندي مديد القامة ذو وجه مجذور قد هبط لتوه بمساعدة نفر وهو يتألم ويبتسم . قال ، موجهاً كلامه الي : « مارأيك بهذا أيها القوزاقي . لقد افرغوا

حملاً من الحمص في عجيزتي . إنها ملأى بنثار قذيفة عنقودية » . فسأله
النفر إن كانت القذيفة قد انفجرت خلفه . « اللعنة على خلفي . كنت أتقدم
مديراً ظهري الى الأمام » . خرجت ممرضة من أحد الأكواخ . رنوت اليها
فشعرت بضعف بالغ حتى أنني اضطررت الى الاتكاء على عربة . كان لها شبه
خارق بليزا . العينان نفسيهما ، الوجه البيضوي نفسه ، الأنف ، الشعر ،
حتى صوتها كان مشابهاً . أم تراني كنت أتخيل الأشياء ؟ أحسب أنني ،
الآن ، سأجد شبيهاً لها في كل امرأة أصادفها .

ه أيلول

نعمت الخيل بيوم كامل من الطعام في المعالف ، وها نحن بصدد
المضي الى الجبهة من جديد . أنا حطام من الناحية البدنية . وها هو البوقي
يطلق الايعاز بالركوب . هو ذا رجل بودي أن أضع رصاصة في رأسه !

كان أمر السرية قد أرسل غريغوري ميليوخوف يحمل رسالة الى مقر
قيادة الكتيبة . وفيما كان سائراً على حصانه عبر المنطقة التي وقع فيها القتال
الاخير لاحظ قوزاقياً ميتاً ممدداً على قارعة الطريق العام . كان مستلقياً
برأسه الاجعد الاشقر قريباً من الطريق الذي حفرته السنايك . فترجل
غريغوري وأمسك انفه (فقد كان الميت يفوح بجيفة التفسخ) ، وفتشه .
فوجد دفتر المذكرات هذا في جيب سرواله ، وبقيّة قلم لا يمحي أثره
ومحفظة نقود . ازاح سير العتاد ونظر الى الوجه البليل الشاحب الذي جعل
يتفسخ . كان لون الصدغين وجسر الانف يحول الى سواد وعلى جبينه
أخدود مائل مغفر بالتراب وقد جمد هناك جمود الأموات .

غطى غريغوري الوجه بمنديل رقيق القماش وجده في جيب الميت ثم
مضى على حصانه الى المقر ، كان يلقي بين الفينة والفينة نظرة الى الوراء...

وسلم دفتر المذكرات الى كُتّاب المقر الذين تجمعوا ليقرووه ويضحكوا من حياة هذا الرجل الوجيزة ورغباته الدنيوية .

١٢

خلال بداية شهر آب ، راحت فرقة الفرسان الحادية عشرة تستولي خطفاً على المدن ، واحدة إثر الاخرى ، وفي أواسط الشهر كانوا منتشرين حول بلدة كامينكا - سترو ميلو فو . وكان الجيش ، يأتي خلفهم ، ووحدات المشاة تتكثل في قطاعات استراتيجية مهمة ، ووحدات القيادات وقطر الأمتعة تتجمع عند مفارق خطوط السكك الحديدية . وامتدت الجبهة من البلطيق كلفحة سوط مميتة . وفي مقر هيئة الاركان كان العمل يجري لاعداد هجوم كبير . كان الجنرالات يحدقون في خرائطهم ، والسعاة الفرسان يمرقون جيئة وذهاباً حاملين أوامر المعركة ، وكان مئات الالاف من الجنود يغذون السير نحو حتفهم .

افادت دوريات الاستطلاع أن قوات كبيرة من خيالة العدو كانت تقترب من البلدة . وفي الغابات الواقعة على امتداد الطرق حدثت مناوشات بين مفارز القوزاق والحرس الأمامي للعدو .

منذ أن رأى غريغوري ميليوخوف أخاه وهو يسعى لوضع حد لأفكاره المؤلمة ، ولاستعادة هدوئه الذهني السابق . بيد أن ذلك كان عبثاً . وفي التعزيزات الأخيرة التي جيء بها من وجبة الاحتياط الثالثة ، كان ثمة قوزاقي يدعى اليكسي اوريوبين قد جند في رغيل غريغوري . كان اوريوبين طويل القامة ، ظهره مقوس ، وفكه الاسفل عدائي المظهر ، وعذاراه كالميكيان متهدلان . كانت عيناه الجذلتان الجريئتان دائمتي الابتسام ، وكان أصلع الرأس خلا شعرات مفرقة حمر حول حوافي جمجمته حادة التقاطيع . وقد أطلقت عليه كنية « الاشعث » منذ اليوم الاول لوصوله .

بعد أن انتهى القتال حول بلدة برودي أعطيت الكتيبة يوماً للراحة . كان
غريغوري وأوريوبين ينزلان كوخاً واحداً ، وسرعان ما ضمهما حديث :
- اتعلم ، يا ميليوخوف ، لا بد أنك مهلوس .
فتساءل غريغوري متجهماً :
- ماذا تعني : مهلوس ؟
فشرح له أوريوبين :
- أنت خامل ، كأنك مريض .

كانا يطعمان حصانيهما وقد توقفا يدخنان وظهراهما الى سياج متداع
نما عليه الطحلب . كان ثمة فرسان يسرون في الطريق في تشكيكه رباعية ،
وجثث الموتى مبعثرة هنا وهناك حذاء الاسيجة ، فقد نشب القتال في
الشوارع أثناء انسحاب النمساويين ، وكانت رائحة أشياء محروقة تنبعث من
خرائب معبد يهودي مبقر البطن . وفي زحمة الالوان الثرة للمساء المبكر
بدت البلدة صورة هائلة واحدة للخراب والفراغ الموحش .
- أنا بخير - وبصق غريغوري دون أن ينظر الى الآخر .
- أنت تكذب! لي عينان أرى بهما!
- حسناً ، وما الذي باستطاعتك أن تراه ؟
- أنت خائف! تخاف الموت ؟
- انك أحمق! - قال ذلك غريغوري بازدراء ، وهو يحدق في أظافره
بعينين ضيقتين .

فأستأنف أوريوبين استجوابه محدقاً في وجه غريغوري :
- قل لي ، هل قتلت أحداً ؟
- نعم ، وماذا في ذلك ؟
- هل يثقل ذلك على قلبك ؟
- يثقل على قلبي ؟
وابتسم غريغوري بمرارة .

فاستل اوريوبين حسامه من غمده ، وقال :

- اتريدني أن أطوح برأسك ؟

- وماذا بعد ذلك ؟

- سأقتلك بلا أنه ندم . لا رحمة عندي .

كانت عينا اوريوبين تبتسمان ، ولكن غريغوري ادرك من صوته واختلاجة منخريه الوحشية أنه يعني ما يقول .

فقال غريغوري ، وهو يتفحص وجه اوريوبين عن كثب :

- أنت غريب الأطوار ، أنت متوحش .

- ياه ، إن قلبك مصنوع من ماء . اتعرف هذه الضربة ؟ انتبه!

وانتقى اوريوبين شجرة بتولا عجوزاً في السياج ، ويمم صوبها مباشرة ، وهو يقيس المسافة بنظرة . وتدلّت دونما حراك ذراعاه الطويلتان القويتان برسغيهما العريضين بشكل خارق .

- انتبه!

ورفع حسامه ببطء ، وفجأة هوى به مائلاً بقوه فظيعة . فقطع الشجرة كلياً على علو اربعة ارشينات* من الأرض ، فهوت ، واغصانها تخبط على النافذة وتخمش حيطان الكوخ .

- أرايت ذلك ؟ تعلّمه . كان هناك اتمان يدعى باكلانوف ، أسمعت به ؟ كانت شفرة حسامه مسقيه بالفضة . فكان رفعه ثقيلاً ولكنه كان يستطيع أن يشطر حصاناً به . هكذا!

استغرق غريغوري وقتاً طويلاً ليتعلم تكنيك هذه الضربة الجديدة .

- أنت قوي ، ولكنك بليد في استعمال سيفك . هذه هي الطريقة!

ومضى اوريوبين يعلمه ، هاوياً بحسامه على نحو مائل وبقوة هائلة . -
اقتل الناس بقوة قلب! فالانسان رخو كالعجين - وسرت ابتسامة الى عينيه -

* مقياس طول روسي قديم يساوي ٧١ ، ٠ متر . الناشر .

لا تفكر بالاسباب والنتائج . أنت قوزاقي ، مهمتك أن تقتل دون أسئلة . إن قَتَلَك عدواً في معركة واجب مقدس . وكل رجل تقتله تكفر لك عن خطيئة عند الرب وكذلك عند قتلك لأفعى ولكن لا تقتل حيواناً الا عند الضرورة ، عاجلاً أو غيره ولكن امحق الانسان! إنه كافر ، نجس . يسمم الاراضي ، وهو يعيش مثل نبات الفطر!

واذ اعترض غريغوري على كلامه ، قطب وجهه وخلد الى صمت عنيد . لاحظ غريغوري مندهشاً ان جميع الخيول كانت تخاف اوريوبين فاذا ما اقترب منها نصبت آذانها وتجمعت معاً وكأن المتقدم منها حيوان لا انسان . وحدث ذات مرة أن كان على السرية أن تشن هجوماً على الاقدام في منطقة تغطيها الغابات والمستنقعات . فاقترنت الخيول الى وهدة جانبية . وكان اوريوبين من بين الذين انتدبوا لهذا العمل ، الا أنه رفض ذلك رفضاً باتاً . فهاجمه عريف الرعيل : « اوريوبين لماذا بحق الشيطان لا تقود خيلك ؟ » أجاب اوريوبين والتألول المعهود يومض في عينيه : « إنها تخافني ، والله ، انها تخافني! »

لم يكن لياخذ دوره في سوس الخيل قط . سوى أنه كان يعامل حصانه بلطف ، بيد أن غريغوري لاحظ أنه كلما اقترب من الحيوان مسبل اليدين كالعادة سرت رجفة في ظهر الحصان وراح يتململ قلقاً . وسأله غريغوري ذات مرة : « قل لي ، لم تخافك الخيل ؟ » فأجاب ، هازأ كتفيه : « لا أدري . فأنا شفيق بها » .

- انها تعرف السكر فتخشاه ، ولكنك لا تسكر قط .

- عندي قلب قاس ، ويبدو انها تحس بذلك .

- ان لك قلب ذئب . أو لعل الذي لديك حجر وليس قلباً البتة .

- جائز! - رد بذلك اوريوبين موافقاً .

أرسل الرعيل الثالث في مهمة استطلاعية . اذ كان تشيكي هارب من الجيش النمساوي قد أخبر القائد الروسي في المساء السابق عن تحول في

موقف قوات العدو وعن نيته بشن هجوم مضاد ، فاستجدت الحاجة الى بث مراقبة دائمة على الطريق الذي يتعين على الكتائب المعادية أن تتجازه . ترك ضابط الرعيل أربعة قوزاق بصحبه العريف في طرف احدى الغابات ، واتجه هو بالباقيين صوب بلدة تقع خلف المرتفع الآخر . وكان الذين تركوا مع العريف هم غريغوري ، واوريوبين ، وميشا كوشيفوي ، وقوزاقي آخر . اتخذوا موقعا لهم بالقرب من مصلى قديم .

اصدر العريف لهم أمراً بالترجل وطلب من كوشيفوي أن يقود الخيل الى ماوراء أجمة كثيفة من أشجار الصنوبر ويعنى بها .

استلقى القوزاق يدخلون بجانب صنوبرة ساقطة ، فيما راح العريف يراقب المدى خلل منظارته . ولبثوا هناك نصف ساعة يتبادلون جملاً كسلى . وكان يتناهى من مكان ما الى اليمين هدير رمي متواصل . وكان ثمة حقل من الجويدار غير المحصود على مبعدة بضع خطوات ، لم تعد سنابله تحمل حبوباً ، يتماوج في مهب الريح . فزحف غريغوري الى داخل الجويدار ، وانتقى بضع سنابل لم تزل محملة ، فقشرها ومضى يمزغ الحبوب .

قال العريف بصوت خفيض :

- لا بد أنهم نمساويون .

انتفض سيلانتيف : - أين ؟

- انظر الى اليمين .

خرجت ثلة من الفرسان من غابة بعيدة وتوقفت لتتفحص المنطقة المكشوفة ، ثم استأنفت عدوها باتجاه القوزاق .

صاح العريف : - ميليخوف!

زحف غريغوري الى شجر الصنوبر .

همس العريف بنبرة محمومة :

- لندعهم يقتربون ثم نصليهم بنارنا استعداداً ببنادقكم ، يا أولاد .

مضى الفرسان من غير عجلة متجهين الى اليمين . أما القوزاق الاربعة فكانوا منبطحين تحت الصنوبر صامتين وأنفاسهم محبوسة . تناهى الى مسامعهم صوت جهير يتكلم بالالمانية .

رفع غريغوري رأسه . كانوا ستة من الخيالة المجريين بقمصلاتهم الأنيقة المزركشة بالصفائر والشرائط البيض . وكان قائدهم يمتطي حصاناً أدهم ضخماً ويمسك بغدارته بين يديه ، وهو يضحك بهدوء .

وانطلق أمر العريف : « ارم ! » فاندفعت رشقة الرصاص تتصادى خلل الاشجار .

وجاءت صيحة مذعورة من كوشيفوي من وراء أشجار الصنوبر : « ماذا حدث ؟ هو ، أيها الشيطان ! اهدأ في مكانك ! » . وبدا صوته عالياً جداً . وهرع الخيالة هذباً الى داخل حقل الجويدار في تشكيلة أحادية . واطلق أحدهم ، وهو القائد ، طلقة في الهواء واقعى أخرهم ، وهو يتشبث برقبة الحصان ويمسك قبعته بيده اليسرى .

كان اوريوبين أول من وثب على قدميه . واسرع متعثراً خلل الجويدار وهو يرفع بندقيته مستعداً لاطلاق النار . وعلى مبعده مائة خطوة تقريباً ، وجد حصاناً منطرحاً على الأرض يرفس وينافح ، وخيالاً مجرياً واقفاً الى جانبه يفرك ركبته التي اصببت عند السقوط . هتف بشيء لاوريوبين ورفع يديه علامة الاستسلام وهو يحدق في رفاقه المتراجعين .

حدث كل هذا بسرعة كبيرة بحيث لم يتسن لغريغوري أن يستوعب ماكان يجري حينما عاد اوريوبين بالاسير .

صرخ اوريوبين بالمجري : « جرده ! » وهو يجرده بفضاظة من سيفه . فابتسم الاسير مذعوراً ، واسرع يتلمس نطاقاً سعياً لتسليم السيف بأسرع مايمكن . لكن يديه ارتعشتا ، ولم يستطع أن يفلح في حل المشبك . فعاونه غريغوري بحذر ، فشكره الخيال بابتسامة وايماءة من رأسه ، وكان فتى منتفخ الخدين تعلو زاوية شفثيه العليا شامة صغيرة . وبدا

سعيداً بتجريدته من السلاح ، ثم نقب في جيبه باضطراب واخرج كيساً
جلدياً ، وغمغم بشيء ، وقدم تبغاً للقوزاق .

- انه يعزمننا! - وابتسم العريف ومدّ يده باحثاً عن أوراق سكائره .
وقهقه سيلانتييف قائلاً : «لندخن على حساب الغير» .

ولف القوزاق سكائر من تبغ الخيال ودخنوا . وسرعان ما صعد التبغ
الاسود القوي الى رؤوسهم .

وتساءل العريف وهو يسحب نفساً شرباً من سيكارتته : « أين
بندقيته ؟ » .

فقال اوريوبين : « هي ذي » ، وكشف من وراء ظهره عن الحماله
الصفراء المخاطة . قال العريف :

- من الأفضل أن نأخذه الى السرية . فسوف يرغبون في سماع
مالديه . من منكم سيأخذه ، يا أولاد ؟ - ونحنح ومر عينيه على القوزاق .

فأسرع اوريوبين مجيباً : « أنا » .
- حسناً ، هيا !

وبدا على الاسير أنه أدرك ما كان ينتظره ، اذ أنه ابتسم ابتسامة
شوهاء ، وأفرغ جيوبه ، وقدم للقوزاق شيئاً من الشيكولاته الطرية
المتكسرة . وراح يتأتى ، وهو يلوح بارتباك ، ويده ممدودة بالشكولاته :
« روسين ابش... روسين... ناين اوستريش... »*

فسأله العريف : « هل من أسلحة لديك ؟ لا تتعقع هكذا ، فنحن لا نقدر
أن نفهمك هل لديك مسدس ؟ طاق - طاق ؟ » وسحب العريف زنابداً خالياً .
فhez الاسير رأسه نفياً .

وعرض عليهم أن يفتشوه عن طيب خاطر ، وخداه المنتفخان
يرتعشان . والدم يسيل من خدشة على ركبتة فمسحها بالمنديل وتمطق

* بالالمانية ما معناه : أنا مع روسيا... مع روسيا... لا مع النمسا . المترجمون

بالشفقتين ودمدم بلا انقطاع ، وكان قد ترك قبعته بجانب حصانه الميت ، فسأل أن يسمح له بجلبها مع بطانيته ودفتر ملاحظاته حيث كان يحتفظ بتساوير عائلته . وبذل العريف جهداً في محاولة فهمه غير أنه لوح بيده في النهاية يائساً وقال :

- هيا امض به!

فامتطى اوريوبين حصانه ، ثم أشار الى الاسير ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره . واذا استشعر المجري التشجيع من ابتسامة اوريوبين ، ابتسم هو الآخر وسار بجانب الحصان . وحاول أن يشيع اللفة بينهما فربت على ركبة اوريوبين ، غير أن القوزاقي أطاح بيده عن ركبته بفضاذه وشد العنان على حصانه .

- هيا امض . لا تجرب أيا من حيلك معي!

فابتعد الاسير عن الحصان كمن اقترب ذنباً ، وسار مكتئب الوجه ، وهو لا يني ينظر الى الورا نحو القوزاق الآخرين ، وقد انتصب شعره الأشقر متألقاً على تاج رأسه . هكذا انطبعت صورته في ذاكرة غريغوري : بقمصته الملقة على كتفه ، وشعره الأشقر المنفوش ، ومشيته المتزنة الوثوق .

أصدر العريف أمراً : «ميليخوف ، اذهب وحل السرج عن الحصان!» وقذف من فمه أسفاً عقب سيكارته التي كان قد دخنها حتى احرقت أصابعه . فسار غريغوري الى الحيوان الطريح ، وازاح عنه السرج ، ولسبب مبهم التقط القبعة المطروحة على مسافة قريبة . فتشم بطانتها وأحس برائحة الصابون الرخيص والعرق . وعاد يحمل عدة الحصان الى أجمة الاشجار وهو يمسك باعتناء بقبعة الخيال في يده اليسرى . فقرص القوزاق على مؤخراتهم وراحوا ينقبون في خرج السرج متأملين الشكل الغريب للسرج .

- كان تبغه جيداً . كان علينا أن نطلب منه المزيد .

- نعم تبغه جيد .

وتأوه العريف وهو يستعيد طعم السيكاره وبلع ريقه .

سنوبر ، ثم جاء اوريوبين على حصانه . فهتف العريف وهو ينتفض
هولاً :

- ماذا ، أين النمساوي ؟ لعلك لم تدعه يهرب ؟ فاقرب اوريوبين و
روح بسوطه ، ثم ترجل ومط كتفيه . فتساءل العريف من جديد وهو يعض
له : « مالذي صنعت بالنمساوي ؟ »

فرد اوريوبين مزجراً : « لقد حاول أن يهرب » .
- تركته يهرب ؟

- بلغنا ممراً مكشوفاً ، وأراد... . ولهذا قتلته . فصرخ غريغوري :

- أنت كذاب ! انك قتلته بدون أي سبب .

- علام تصرخ ؟ ماعلاقتك بذلك ؟- وسمّر اوريوبين عينيه في وجه
غريغوري .

- ماذا ؟

وكان غريغوري ينهض ببطء ، ويده المرتعشة تتلمس الأرض . فأجاب
خر بصرامة :

- لا تتدخل بما لايجوز لك ! أفهمت ؟

فنتش غريغوري بندقيته ورفعها . وراح اصبعه يرتعش وهو يتلمس
يقيه الى الزناد ووجهه المكفهر يعتمل غضباً .

فهتف العريف متوعداً وهو يهرع اليه : « على مهلك ! » ، وطوى
بندقية قبل أن تنطلق ، فأطارت الرصاصة غصناً من أحد الاشجار وابتعدت

. فشقق كوشيفوي صائحاً : « مالأمر ؟ »

وتهدل فك سيلانتييف فقعد فاغر الفم .

دفع العريف غريغوري في صدره وانتزع البندقية من يديه ، فيما وقف

- هيا ، اطلق النار من جديد!

- لسوف اقتلك! - واندفع غريغوري صوبه . فصاح العريف :

- مهلاً ، علام كل هذا ؟ أتريد أن تحاكم أمام محكمة عسكرية وتعدم ؟

ودفع غريغوري الى الوراء ، ثم وضع نفسه بين الرجلين وقد بسط ذراعيه .

- أنت تكذب ، لن تقتلني! - وابتسم اوريوبين .

- وبينما كانوا في طريق عودتهم ، كان غريغوري أول من رأى جثة الخيال ملقاة في الممر . فسار أمام الآخرين ، ثم كبج جماح حصانه الخائف وجعل يحدّق الى أسفل . كان الرجل ممدداً وذراعا منشوران فوق الطحلب المخملي ، ووجهه الى أسفل ، وراحته الصفراوان كأوراق الخريف ، مبسوطتان الى أعلى . كانت ضربة فظيعة من الخلف قد شطرته نصفين من الكتف الى النطاق .

- شطره شطرين... - غمغم العريف بذلك فيما كان يمر ناظراً بذعر الى شعر القتل الاشقر المنفوش ، وقد مال جانباً عن الرأس الملتوي .
مر القوزاق على خيلهم صامتين الى مقر قيادة السرية . كانت ظلال المساء قد ادلهمت ، وثمة نسيم يصعد غيمة سوداء رقيقة من الغرب . ومن مستنقع قريب انبعثت رائحة ثقيلة من أعشاب المستنقعات ومن الرطوبة الدبقة والعفونة . وهدر طائر الأنيس . ولم يكن يقطع الصمت الوسنان سوى جلجلة عدة الخيل ، وصليل السيوف على الركائب بين الحين والحين ، أو خشخشة مخاريط الصنوبر حين تهرسها حوافر الخيل . كان الألق المخضب المدلهم للشمس الراحلة ينساب فوق جذوع الصنوبر خلال الممر . ظل اوريوبين يدخن بلا انقطاع ، وكان الشرر المتطاير من سيكارتة يضيء أصابعه الغليظة بأظفارها المسودة ، وهي تعتصر السيكاارة عصراً .

طافت الغيمة فوق الغابة ، فادلهمت الألوان الداوية لظلال المساء وعمقت اساهها الذي يعز عن الوصف .

بدأ في الصباح التالي هجوم على البلدة . كان المفروض أن يتقدم
مشاة من ناحية الغابة عند الفجر ، يعززهم الفرسان من الجانبين ، في
ف وحدات أخرى من الفرسان احتياطاً . ولكن خطأ ارتكب في موضع
من جهة ما ، فلم تصل كتيبتا المشاة في الوقت المحدد . فصدر أمر لكتي
نادق رقم ٢١١ بالعبور صوب الجناح الأيسر ، وفي أثناء حركة الالتفاف
بي بدأتها كتيبة أخرى ، تعرضت الأولى لنيران صبتها عليها البطارية التاب
ما . فحصل اضطراب ولبلة مهلكة قلبت الخطط ، وبات مصير الهجوم
هدده الفشل ، إن لم يكن كارثة . وبينما كان المشاة ينقلون هنا وهناك
مدفعية تجر جر مدافعها من أحد المستنقعات حيث أرسلت بناء على أوام
بدرت من جهة ما ، هبط أمر بالتقدم على فرقة الفرسان الحادية عشرة
بد أن الأرض التي أوقفوا فيها على أهبة الاستعداد كانت أرض غابا
ستنقعات ، فلم يكن بمستطاعهم ، والحالة هذه ، أن يشنوا هجوماً جبهو
سعاً ، وصار على القوزاق في بعض الأحيان أن يتقدموا رعائل . وكان
سريتان الرابعة والخامسة التابعتان للكتيبة الثانية عشرة قد وضعتا احتيا
الغابة ، فلم ينقض ربع ساعة على بدء التقدم العام حتى تناهت
ماعم ضوضاء المعركة الهادرة القاصفة .

انطلق هتاف راعش مديد . ومن حين لآخر ، كان قوزاقي يتكلم .
- هذه منا .

- لقد بدؤوا .

- أي صخب يبعثه ذلك المدفع الرشاش .

- يحصد أصحابنا ، على ما يبدو .

- صمتوا ، ها ؟

- يعني سندخل المعمعان بعد قليل .

سيقت السريتان الى ممر في الغابة . فأحاطت بهما جذوع الصنوبر القوية وحجبتهم عن تتبع سير المعركة . مرت بهم سرية من المشاة تكاد تركض خبياً . وتوقف ضابط صف ، أنيق المظهر خفيف الحركة ، وصاح بصوت أجش في الصفوف الخلفية :

- نظام ، ايتها الصفوف!

ومضت السرية وعدتها تجلجل ، ثم اختفت في أجمة من أشجار الحور الرومي .

ومن بعيد ، تنهى ذلك الهتاف الراعش ، خافتاً خلال الاشجار ، ثم انقطع على حين غرة وخيم صمت عميق .
- لقد وصلوا هناك الآن .

- أي ، هم الآن في المعمعان... . يقتتلون .

أصاخ القوزاق السمع ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يسمعوا أكثر من ذلك . فمن الجناح الأيمن ، كانت المدفعية النمساوية تقصف بقذائفها صوب القوات المهاجمة ، وكان القصف تتخلله لعلعة المدافع الرشاشة .
القي غريغوري نظرة على رعيه . كان القوزاق يتململون بعصبية ، والخيال لا يقر لها قرار وكأن ذباباً يضايقها . وكان اوريوبين قد علق قبعته على قربوس سرجه وراح يمسح رأسه الأصلع ، فيما كان ميشا كوشيفوي الى جانب غريغوري ينفث بقوة دخان تبغ المملح . كانت كل الأشياء من حوله متميزة وحقيقية أكثر مما هي في الواقع ، تماماً كما تبدو غبّ ليلة مؤرقة .

أبقيت السريتان في الاحتياط ثلاث ساعات . كان الرمي يتلاشى حيناً ، ويرتفع حيناً ، وهدرت طائرة من عل . وبعد بضع دورات على ارتفاع شاهق ، يمت صوب الشرق موجلة في الارتفاع ، وانتشرت على صفحة السماء الزرقاء نفثات بلون اللبن لقذائف متفجرة أطلقتها المدافع المضادة للطائرات .

نفذت كل عدة التبغ ، كان الرجال يتحرقون الى نتيجة ما حينما قدم قبيل الظهر مراسل يحمل تعليمات ، وهو يعدو هذبا على جواده . فقاد أمر السرية الرابعة رجاله في الحال الى احد الجوانب . وبدا لغريغوري انهم لايتقدمون ، بل يتراجعون . اما سريته هو فقد سارت خلال الغابة زهاء عشرين دقيقة ، وضوضاء المعركة تقترب منهم قليلا قليلا . وعلى مسافة غير بعيدة خلفهم كانت بطارية تطلق نيرانها سريعة ، فتشق القذائف طريقها خلال السماء المنيعة بهدير زاقق . وقد أدت ممرات الغابة الضيقة الى تشتيت نظام السرية ، فخرجت الى العراء بلا نظام وعلى مبعده نصف فرست تقريبا كان فرسان مجريون يعملون السيوف برجال بطارية روسية .

فصاح الامر :

- سرية ، انتظم!

ولم يكن القوزاق قد نفذوا الى فحوى الامر تماما حتى انطلق الامر الثانى :

- سرية ، استلوا السيوف . هجوما الى الامام !

فومض بریق خاطف ازرق من السيوف . وانطلق القوزاق من الخشب الخفيف الى هذب سريع .

كان ستة فرسان مجريين منشغلين بخيل مدفع الميدان في الطرف الايمن للبطارية . وكان احدهم يجرجر شكائم خيل البطارية الهائجة ، واخر يضربها ببطن سيفه ، فيما كان الباقيون المترجلون يدورون ويسحبون قضبان عجلات العربة . وكان ضابط يصدر أوامره من على فرس بنية قصيرة الذيل . واذا لمحو الفرسان القوزاق ، قفزوا الى خيلهم .

-«اسرع ، فاسرع» ومضى غريغوري يستحث ايقاع حصانه المنطلق . وبينما هو في انطلاقه ، انزلت احدى قدميه لحظة من ركابها ، فأحس بالقلق فوق سرجه وخالجه ذعر داخلي ، فانحنى وتلمس برأس قدمه الركاب

السائب . وحينما استرجع موضع قدمه ، صعد نظره فوجد نفسه أمام الجياد الستة لمدفع الميدان . كان الحارس المتقدم ممدداً فوق رقبة الحيوان ، محتضنها ، وقد تناثر الدم والمخ على قميصه . فوطاً حصان غريغوري جثة المدفعي القليل بحافره محدثاً خشخشة فظيعة . وكان اثنان آخران ممددين بجانب حافظة قذائف مقلوبة . وكان رابع قد هوى على عربة المدفع ، ووجهه الى اسفل . كان سيلاتيف أمام غريغوري مباشرة . وأطلق الضابط المجري النار ، برمية تكاد تكون أفقية ، فهوى القوزاقي ، ويداه تمسكان بالهواء وتحتضنانه . جر غريغوري عنان حصانه ، وحاول أن يغير على الضابط من جهة اليسار ، حيث يستطيع أن يستعمل سيفه بشكل أفضل ، بيد أن الضابط أدرك مناورته فأطلق عليه النار من تحت ذراعه . واذا وجد أن عتاد مسدسه قد نفذ ، استل سيفه . وأفلح في تجنب ثلاث ضربات قاصمة بمهارة المبارز الخبير . فصرّ غريغوري على أسنانه ، وانقض عليه بضربة رابعة وهو منتصب على ركابه . حصاناهما يعدوان الآن جنباً الى جنب تقريباً ، فاستطاع أن يلمح خد الضابط الحليق الداكن ورقم كتيبته المطرز على ياقته . وبحركة خادعة أفلح غريغوري في حرف انتباه الضابط ، ثم غير اتجاه ضربته وعرز نصل سيفه بين لوحى كتف المجري . ثم سدد ضربة ثانية على رقبته ، في أعلى العمود الفقري تماماً . فأسقط الضابط سيفه والعنان من يديه ، وقوس ظهره كمن أصابته لسعة ، ثم انكفاً على قريوس سرجه ، واذا استشعر غريغوري راحة فظيعة لفحة بضربة على رأسه ، فرأى سيفه ينفذ الى العظم فوق اذنه .

ثم نزلت على غريغوري ضربة فظيعة من الخلف افقدته وعيه . وأحس مذاق الدم المالح المحروق في حلقه ، فأدرك انه يهوى ، ورأى الأرض الجرداء تتقدم نحوه من الجانب مدومة ، محومة في الجو . وحينما طاح على الأرض ، أعاده صوت السقوط العنيف الى وعيه لحظة . ففتح عينيه ، فتدفق الدم فيهما . ومرت باذنيه قعقة . وأنفاس خيل مجهدة . ثم فتح

عينه للمرة الاخيرة ورأى منخري حصان ورديين مفتوحين ، وقدم انسان ما في ركاب . «النهاية!» انسلت الخاطرة المريحة خلل ذهنه ، كالافعى . وضع هدير ما ، ثم خيم فراغ مظلم .

١٤

في بداية آب قرر يفغيني ليستنتسكي أن يقدم طلباً بنقله من كتيبة حرس الاتمان الخاص* الى أحد الكتائب القوزاقية الاعتيادية . فحرر طلبه الرسمي ، وبعد ثلاثة أسابيع جاءه أمر النقل المطلوب . وقبل أن يغادر بتروغراد كتب الى أبيه يقول :

«والدي . لقد قدمت طلباً بنقلي من كتيبة الاتمان الى الجيش النظامي . ولقد استلمت اليوم أمر نقلي ، وأنا راحل الى الجبهة للمثول أمام أمر الفيلق الثاني . لعلك ستندهش لقراري هذا ، غير أنني أود أن اشرح دوافعي اليه . لقد سئمت ما يحيط بي هنا . استعراضات ، حراسة ، واجبات خفارة - إن خدمتي في القصر توتر أعصابي . وأنا برم بها . انني أريد عملاً حياً أو - كما تشاء - أعمالاً بطولية . أحسب أنه دم آل ليستنتسكي الذي بدأ يفصح عن نفسه عندي ، ذلك الدم الطاهر لأولئك الذين ضاعفوا ، منذ حرب ١٨١٢ ، أكاليل الغار على مجد السلاح الروسي . اني ذاهب الى الجبهة . أرجو أن تمنحني بركتك . رأيت الامبراطور في الاسبوع الماضي قبل أن يغادر مقره . انني أعبد هذا الرجل . كنت أقف للحراسة داخل القصر . وحينما مرّ بي ابتسم وقال بالانكليزية لرودزيانكو الذي كان بصحبته : «حرسى المجيد . سأضرب على يد فيلهلم** به» . انني أعبد ، كما تفعل صبية صغيرة . ولست خجلاً من الاعتراف بذلك ، رغم أنني قد تعدت

* المقصود الحرس الامبراطوري الخاص . المترجمون

** امبراطور النمسا آنث . المترجمون

الثامنة والعشرين من عمري . ان القيل والقال الذي يدور في القصر يسبب لي أظفح القلق ، فهو يلوث الاسم المجيد للامبراطور . انني لا اصدقه . لا أقدر أن أصدقه . لقد كدت أن أطلق الرصاص على النقيب كروموف قبل مدة لأنه تفوه أمامي بكلمات مستخفة عن حضرة جلالته الامبراطورية . كان ذلك شيئاً دنيئاً ، وقلت له أنه لا أحد يستطيع أن يهبط الى مستوى ذلك الدرك القذر الا من تجري في عروقه دماء العبيد . حدثت الواقعة أمام عدد آخر من الضباط . كنت عصبياً ، فأمسكت مسدسي وأوشكت أن أغرز رصاصة في ذلك الوضع ، الا أن رفاقي انتزعوا المسدس من يدي . إن حياتي يزداد بؤسها مع كل يوم أقضيه في هذه البالوعة . وانك لن تجد أي وطنية صميمة في صفوف كتائب الحرس ، وعلى الأخص بين الضباط ، ولا تحس - وإن كان النطق بذلك يرعيني - أنهم يشعرون بأي حب للعائلة المالكة . فما هؤلاء بالنبل ، انهم رعا . وهذا هو السبب الحقيقي الذي دعاني لترك الكتيبة ، فليس بمستطاعي أن أعمل مع أناس لا يحترمهم . وبعد ، فهذا هو كل مالدي تقريباً . ارجوك أن تغفر لي تشتت أفكاري ، فأنا في عجلة ، وعلى أن أحزم حوائجي وارحل الى القومندان . حافظ على صحتك ، يا بابا . سأكتب لك مطولاً من الجبهة » .

ولذلك يفغيني »

كان القطار القاصد وارشو يترك بتروغراد في الثامنة مساءً . فاستأجر ليستنتسكي عربة ومضى بها الى المحطة . وامتدت خلفه بتروغراد في ألق من الضياء أزرق بلون الحمام . كانت المحطة شديدة الضوضاء مزدحمة بالناس ولا سيما العسكريين . جلب الحمال حقيبة ليستنتسكي ، واذا نفحه هذا شيئاً من النقود تمنى له سفره طيبة . نزع ليستنتسكي نطاق سيفه ومعطفه ، ثم نشر على المقعد لحافاً قفقاسياً حريراً مزركشاً . وكان يجلس الى جانب النافذة قس له وجه الزهاد الناحل ، وقد نشر زاده على طاولة صغيرة . ومدّ يده بفطيرة الى فتاة سمراء البشرة ناحلة ترتدي بزة مدرسية

وتجلس في المقعد المقابل له ، وهو ينفض النثار من لحيته الشبيهة بالقنب .

- كلي شيئاً ، يا عزيزتي .

- لا ، شكراً لك .

- لا داعي للاستحياء ، إن فتاة على مثل جسمك بحاجة الى غذاء كثير .

- لا ، شكراً لك .

- تذوقي شيئاً من هذه الفطيرة اذن ، عسى أن تأخذ شيئاً من هذا ،

ياسيدي ؟

مال ليستنتسكي رأسه الى أسفل لينظر اليه ، وتساءل :

- اترك توجه الحديث الي ؟

- اي ، نعم - انبعثت من عيني القس الدكناوين نظرة نفاذة ، ولم تفتر

سوى شفقيه الرفيقتين عن ابتسامة تحت شاربه الرفيع المتهدل .

- لا ، شكراً لك . فلست أشتهي أي طعام الآن .

- خسارة . فما الاكل بخطيئة هل أنت في الجيش ؟

- نعم .

- عسى أن يعينك الله .

وبينما كان النور يغشى ليستنتسكي ، تناهى الى مسمعه صوت القس

الرخو وكأنه قادم من مسافة بعيدة ، وخيل اليه أنه يتسمع الى صوت النقيب

كروموف الشاكي يقول :

- أنت تعلم أي دخل بئس هذا الذي تحصل عليه عائلتي . ولهذا فإنني

ماضٍ لأعمل قساً عسكرياً للقطعات . فليس باستطاعة الشعب الروسي أن

يحارب بلا إيمان . وكما لا يخفى عليك ، فالإيمان في تزايد ، عاماً بعد

عام . ولاشك ، أن هناك من ينحرف عن الطريق القويم ، ولكن أولئك من بين

المثقفين فقط ، أما الفلاحون فإنهم معتصمون بحبل الله .

لم يستطع صوت القس الخفيض أن ينفذ الى أبعد من ذلك في مدارك

يفغيني وآخر ما يحسّه في اليقظة هو رائحة ذكية للدهن الذي كان يطلي به

السقف الخشبي وما يسمعه هو صيحة فيما وراء النافذة : « هذا من شأن قسم الأمتعة ، ليس من شأني ! » ففكر للحظة خاطفة : « أى قسم للأمتعة ؟ » ثم انقطع خيط ادراكه . فقد غمره نعاس لذيذ ، غب ليلتين مسهدتين . ولم يستيقظ الا بعد أن ابتعد القطار زهاء أربعين فرستا عن بتروغراد . كانت العجلات تقعق بإيقاع رتيب ، والعربة تترنج وتتمايل ، وكان ثمة من يغني في مقصورة مجاورة ، والمصباح يلقي ظلالاً ليلية مائلة .

كانت الكتيبة التي نسب اليها ليستنتسكي قد أصيبت بأضرار فادحة في المعارك الأخيرة ، وقد سحبت من الجبهة لتستكمل خيلها وتسد الخسائر البشرية . كان مقر هيئة أركان الكتيبة في قرية بيريزنياكي ، وهي مركز تجاري كبير . فغادر ليستنتسكي القطار عند موقف لا اسم له . وفي نفس المحطة انزل من القطار مستشفى ميدان . فاستفسر من الطبيب المسؤول عن وجهة المستشفى ، وعلم أن المستشفى كان قد نقل من الجبهة الجنوبية - الغربية - الى القطاع الذي تعمل فيه كتيبته . وتحدث الطبيب الضخم ذو الوجه الاحمر عن رؤسائه بلهجة لاذعة ، وشم ضباط أركان الفرقة ، وراح ينفس عن غضبه المحموم في أذني هذا الشخص الذي تعرف عليه صدفة ، وهو يشد على لحيته طوال الوقت وعيناه تومضان من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه .

فقاطعه ليستنتسكي متسائلاً :

- هل تستطيع أن تأخذني الى بيريزنياكي ؟

- أجل ، اصعد الى العربة ، أيها الملازم - وجعل يدور الزر في معطف ليستنتسكي بلا كلفة ، واستأنف يقعق بشكاواه من جديد : - حسبك أن تتصور فقط ، أيها الملازم . اننا قطعنا مائتي فرست داخل شاحنات للمشاة لا لشيء الا لنتسكع هنا بلا عمل ، في حين أن معركة دموية تجري منذ يومين في القطاع الذي نقل منه مستشفانا . كان هناك المئات من الجرحى ممن هم في أمس الحاجة الى مساعدتنا !

وكرر الطبيب كلمتي « معركة دموية » بنبرة ملؤها الغيظ .

فتساءل الملازم مجاملاً : - كيف تفسّر مهزلة كهذه ؟

- كيف ؟ - ورفع الطبيب حاجبيه فوق نظارتيه متهمكماً وانطلق هادراً : -

فوضى ، هرجلة ، غباء هيئة اركان القيادة - ذاك هو السبب . أوغاد يحتلون المناصب العليا ويلوصون بكل شيء . عجزة ، يفتقرون حتى الى التفكير السليم . هل تتذكر مذكرات فرسايف عن الحرب الروسية - اليابانية ؟ حسناً ، فالحال مثل تلك الحال ، سوى أن سوءها قد تضاعف .

حياة ليستنتسكي ثم مضى الى العربات ، فيما كان الطبيب لايزال ينعب من ورائه :

- لسوف نخسر الحرب ، أيها الملازم . لقد خسرنا واحدة مع اليابانيين ، الا أننا لم نزدد عقلاً أبداً . فكل ما نستطيع فعله هو التباهي ، ولا شيء غيره .

ومضى يسير على امتداد السكك ، متجنباً الوقوع في برك صغيرة يغشيها غطاء من الزيت ثر الألوان ، وهو يهز رأسه في يأس .

كان الغسق ينشر أذياه حينما اقترب مستشفى الميدان من بيريزنياكي . وكانت الريح تعبث بجذامة الزرع الصفراء ، والسحب تتكاثف في الغرب ، فكانت كتلة بنفسجية دكناء في الأعالي ، ليلكية مضببة خفيفة الظلال في الاسافل . أما في الأواسط ، فقد انداحت جانباً كتلة السحب الشوواء ، وتكومت مثلما تتكوم طافيات الجليد ازاء سد في النهر . ومن خلال فرجة بين الغيوم ، سال فيض برتقالي من أشعة الشمس ، لينشر نثارة من الضوء ، ولينسج تحته طيفاً باخوسياً من الألوان .

كان ثمة حصان ميت ملقى في حفرة ممتدة على جانب الطريق . وكان النعل يلتصق في أحد حوافره ، التي طرحت الى أعلى بشكل عجيب . واذ كانت العربّة تمر بالجمّة مقعقة ، القى ليستنتسكي نظرة عليها . أما الجندي الذي كان راكباً بصحبة ليستنتسكي فقد بصق على بطن الحصان الضخم وقال

موضحاً : «لابد انه كان ينهب الحبوب...» ثم صحح قوله بعد أن نظر الى الملازم : «يأكل أكثر مما يجب من الحبوب...» وأوشك أن يبصق ثانية ، الا أنه ابتلع البصقة ، تأدباً ، ومسح فمه بكمّته . «يرقد هناك ، ولا أحد تكلف نفسه عناء دفنه . أما الالمان فإنهم يختلفون عنا » .

فصاح يفغيني بغضب هائج لا سبب له : «وما الذي تعرفه أنت ؟» . وكانت كراهيته لوجه الجندي البليد الموحى بالكبرياء والاستخفاف قد فاضت في تلك اللحظة وكان الرجل في الواقع ذابلاً كليلاً مثل حقل أجرد في شهر أيلول . ولم يكن ليختلف قط عن آلاف الجنود الفلاحين الذين كان يفغيني قد صادفهم في طريقه الى الجبهة . فقد بدا الذبول والتهدل على الجميع ، والكلال يطل من أعينهم جميعاً ، شهباء ، زرقاء ، خضراء ، أو أي لون كانت ، وكانوا يذكرونه بشكل لجوج بقطع نقود نحاسية قديمة دراسة .

أجاب الجندي متمهلاً : «لقد عشت في المانيا ثلاث سنين قبل الحرب» . وكان صوته ينم عن نفس الكبرياء والاستخفاف الباديين على وجهه . واستأنف الجندي كلامه متكاسلاً ، وهو يلفح الحصان بالعنان المعقود : «اشتغلت في مصنع للسكاير في كونيكسبرغ» .

فهتف ليستنتسكي أمراً بصرامة : «امسك لسانك!»
والتفت ليحدّق في رأس الحصان وشعر ناصيته المتناثر فوق عينيه وصف أسنانه المكشوفة المصفرة بفعل الشمس .

كانت إحدى سيقانه قائمة ثم منحنية على شكل قوس ، وكان الحافر مشقوقاً شقاً صغيراً ، الا أنه كان ينبعث من الفجوة بصيص رمادي صقيل ، وكان بمقدور الملازم أن يدرك من ساق الحصان ورسغه البديع أنه كان حصاناً فتيماً وأصيلاً .

ساروا على الطريق الوعر . الالوان في الغرب قد ذوت ، وهبت ريح ففرقت شمل الغيوم . وازاءها كان ساق الحصان الميت قائماً مثل صليب

مكسور على جانب الطريق . وحينما التفت يفتني الى الوراء ورنا اليه ، سقطت على الحصان حزمة من الأشعة فجأة ، فازهر الساق بشعره الأشقر تحت ضيائها البرتقالي ، على غير ميعاد ، كما يزهر فرع شجرة أجرد سحري في اسطورة من الاساطير .

وبينما كان مستشفى الميدان يمضي داخلاً بيريزنياكي مروا بقافلة من الجنود الجرحى . وكان بيلوروسي كهل ، وهو صاحب العربة الأولى ، يمشي على مقربة من رأس حصانه ، وعنائه القنبي مجموع في يديه . وكان يرقد في العربة قوزاقي معصوب الرأس . كان متكئاً على مرفقه ، بيد أن عينيه كانتا مغمضتين بكلال فيما راح يمضغ الخبز ثم يبصقه خليطاً أسود . والى جانبه مدد جندي ، وقد تغضن فوق ردفه بنطلونه الممزق وتصلب بالدم المتجمد . وكان يقذف سباباً مقذعاً دون أن يرفع رأسه . وأصاب ليستنتسكي الفزع بينما هو يتسمع لنبرات صوت هذا الجندي ، ذلك لأنها بدت كنبرة مؤمن يتمم صلاته بحماس . وكان في العربة الثانية خمسة أو ستة جنود يرقدون جنباً الى جنب . وكان أحدهم يروي حكاية ، وقد استبد به مرح محموم ، وعيناه مشعتان ملتهبتان بصورة غير طبيعية :

.... . يبدو أن سفيراً من لدن امبراطورهم جاء هنا وقدم عرضاً لاعلان السلم . والواقع أن الذي أخبرني بهذا رجل شريف . كل أملي أنه لم يكن ينسج لي حكاية ملفقة .

فاشترك في الحديث أحدهم بلهجة شكوك : « أحسبه كان كاذباً » ، وهو يهز رأسه الحليق الذي تعلوه ندب داء الخنازير الذي أصابه مؤخراً . وعلق ثالث برطانة أهل الفولغا الرقيقة : « ولكن ، من المحتمل أن يكون قد أتى هنا فعلاً » . كان هذا جالساً وظهره الى الخيل . وكان في العربة الخامسة ثلاثة قوزاق في جلسة مريحة .

وحينما مرّ بهم ليستنتسكي رنوا اليه بصمت دون أن تفصح وجوههم

الخشنة المغفرة عن أيما احترام للضابط . فحياتهم الملازم : « طاب يومكم ، أيها القوزاق ! »

فرد القوزاقي الوسيم ذو الشارب الفضي والحاجبين الكثيفين والجالس الى جانب السائق ، بلهجة خالية من الاهتمام : « طاب يومك ، يا صاحب السعادة » .

فاستمر ليستنتسكي ، محاولاً أن يميز الرقم المنقوش على سير كتف القوزاقي الازرق : « ومن أية كتيبة أنتم ؟ »
- الثانية عشرة .

- وأين هي كتيبته الآن ؟

- لا ندرى .

- حسناً ، أين جرحت ؟

- على مقربة من القرية... ليس بعيداً من هنا .

وتبادل القوزاق الهمس فيما بينهم ، ثم قفز أحدهم من العربة وهو يمسك يده المعصوبة عصاً غير محكم بيده السليمة ، وقال :

- لحظة ، يا صاحب السعادة - وخطا عبر الطريق ، عاري القدمين ، شديد

الاعتناء بيده التي مزقتها الرصاص وبدأت علائم الالتهاب تظهر على الجرح .

- لعلك من فيشينسكايا ، أليس كذلك ؟ لعلك ليستنتسكي ؟

- أجل ، هو أنا .

- ذاك ما حسبناه . هل لديك شيء ندخنه ، يا صاحب السعادة ؟ أعطنا

شيئاً بحق المسيح ، فنحن نموت شوقاً الى نَفَس واحد من التبغ .

وجعل يسير بمحاذاة العربة ممسكاً بجانبها المطلي . فأخرج

ليستنتسكي علبة سيكائره . فابتسم القوزاقي متوسلاً وقال : « اتستطيع أن

تستغني عن دزينة منها ؟ فنحن ثلاثة ، كما ترى » .

فأفرغ ليستنتسكي محتويات علبته في راحة الرجل السمراء العريضة ،

وسأله : « هل جرح الكثير من كتيبته ؟ »

- ما يزيد عن العشرين .

- خسائر فادحة ؟

- قتل الكثير منا . اشعل عود ثقاب لي ، يا صاحب السعادة . اشكرك
جزيل الشكر . - واذا أشعل سيكارتك ، تباطأ في السير وصاح : « ثلاثة
قوزاق من تتارسكي ، بالقرب من ضيعتكم ، قتلوا ، واجهز على الكثير منا ،
نحن القوزاق » .

ثم لوح بيده ومضى ليلحق بالعربة . وعبثت الريح بقمصلته غير
المنطقية .

كان أمر كتيبة ليستنتسكي الجديدة قد اتخذ مقره في بيت قس .
وعندما بلغوا الساحة ودّع ليستنتسكي الطبيب الذي تفضل باعطائه مقعداً في
عربة المستشفى ، ومضى يبحث عن مقر قيادة الكتيبة ، وهو ينفض الغبار
عن بزته . ومرّ به رئيس عرفاء ذولحية زاهية الاحمرار يقود حرساً ،
ليستبدلهم بأخرين . فأدى التحية لـليستنتسكي بلباقة ، ورد على استفساره ،
بالإشارة الى بيت القس . كان المكان هادئاً ومتكاسلاً ، شأن كل مقرات
هيئات الأركان البعيدة عن خط الجبهة : الكتّاب منكبون فوق طاولة ، ونقيب
كهل يتضاحك في لاقطة الصوت لتلفون ميدان ، والذباب يطن حول
الشبابيك ، واجراس تلفونات بعيدة تنز كالبعوض . أخذ جندي ليستنتسكي
الى الغرفة الخاصة بأمر الكتيبة . فالتقيا عند عتبتها بعقيد مديد القامة على
ذقنه ندبة ، حيّاه بفتور وسمع كل ما قاله له يفغيني ودعاه بإيماءة للدخول
الى الغرفة . واذا أغلق العقيد الباب مر بيده على شعره بحركة تنم عن ارهاق
لا يوصف ، وقال بصوت رقيق رتيب :

- اعلمتني هيئة أركان اللواء أمس بأنك في الطريق إلينا ، اجلس .

واستفسر من يفغيني عن خدمته السابقة ، وعن آخر الأخبار من
العاصمة ، وتساءل عن الرحلة ، ولكنه ، أثناء كل حديثهما القصير ، لم
يحدث قط أن أرفع عينيه المرهقتين الى وجه ليستنتسكي .

فحدث ليستنسكي نفسه مشفقاً وهو ينظر الى جبين الأمر العريض الذي كان يوحى بالذكاء : «لابد أنه قاسى أياماً عصيبة في الجبهة . ان عليه علائم ارهاق مميت» . ولكن العقيد حك جسر أنفه بمقبض سيفه وقال ، وكأنه يريد ازالة الوهم الذي خطر ببال ليستنسكي :

- حسناً ، أيها الملازم ، يجب أن تتعرف على اخوانك الضباط . ارجو أن تعذرني ، فأنا لم أنم منذ ثلاث ليال متوالية . ففي هذا الجحر المميت ليس لدينا مانفعله سوى السكر ولعب الورق .

فأدى ليستنسكي التحية ، واستدار نحو الباب ، مخفياً ازدراءه وراء ابتسامة . وخرج وهو يستعيد بامتعاظ مقابلته الاولى هذه مع ضابطه الأمر ، ويسخر مما أوحى اليه من احترام مظهر العقيد المرهق والندبة في ذقنه .

١٥

أوكلت الى الفرقة مهمة شق الطريق عبر نهر ستير وضرب العدو في مؤخرته .

وفي غضون أيام قلائل ألفا ليستنسكي ضباط كتيبته وسرعان ما جرفه تيار المعركة فزايله شعور الدعة والرضى الذي كان قد تسلل الى نفسه .

تمت عملية اقتحام النهر على نحو رائع فحطمت الفرقة تجمعات كبيرة من قوى العدو على الجناح الأيسر منها ، ونفذت الى مؤخرة قوات العدو .

وحاول النمساويون شن هجوم مضاد مستعينين بالخيالة المجريين ، الا أن بطاريات القوزاق اكتسحتهم بالمنثار ، فتقهقرت سرايا المجريين دونما نظام ، تمزقها نيران المدافع الرشاشة التي أحاطت بها ، وتتعبها خيالة القوزاق .

شارك ليستنسكي في الهجوم المضاد مع كتيبته . وخسر الرعيل الذي كان تحت امرته قوزاقياً واحداً ، وأصيب أربعة بجراح وقد سحق أحدهم

تحت حصانه الميت ، وكان شاباً معقوف الأنف . فمر الملازم به ، وهو بادي الهدوء ، جاهداً أن لا يسمع أنين القوزاقي الخفيض الأبح . كان مصاباً في كتفه ، وظل يتوسل الى القوزاق المارين على خيلهم بقربه :

- لا تتركوني أيها الاخوان . خلصوني من الحصان ، يا اخوان... .

كان صوته المعذب يحمل نداءاته الخافتة الى أسماع القوزاق ، ولكنه لم يثر في قلوبهم الهائجة ذرة من الرحمة ، ولو كان عندهم شيء منها لسحقتها ارادتهم المحرمة عليهم أن يترجلوا . وسار الرعيل لخمس دقائق خبياً لكي يدعوا الخيل تستعيد أنفاسها . وكانت سرايا المجريين المتبعثرة ، على بعد نصف فرست ، في تقهقر عام ، وتظهر بينهم ، هنا وهناك ، بزات مشاة العدو ذات اللون الازرق الداكن . وانسلت قافلة شحن نمساوية على سفح تل يودعها دخان القنابل المحموم من فوقها .

كانت احدى البطاريات تقصف القافلة من جهة اليسار ، فيهدر دويها الكئيب على الحقول ويتجاوب خلل الغابة .

أصدر المقدّم الذي يقود السرايا الثلاث أمره بالخبيب فانطلقت في خبيب غير سريع . فراحت الخيل تتمايل تحت فرسانها والزبد ينتشر من خواصرها على شكل أزهار وردية مصفرة .

توقفت الكتيبة لتبيت ليلتها في قرية صغيرة . وانحشر الضباط الاثنا عشر في كوخ صغير . وكان قد أضناهم الإرهاق والجوع فاستسلموا للنوم . ولم يصلهم مطبخ الميدان حتى منتصف الليل تقريبا ، حين جاءهم حامل العلم تشويوف بقدر من الحساء . وقد أيقظت الضباط الرائحة الطيبة ، وما أن مرّت دقائق حتى شرعوا يأكلون بصمت ونهم ، ووجوههم مازال منتفخة من النوم ، ليعوضوا عن اليومين اللذين أنفقوهما في القتال . زال شعورهم بالنعاس بعد تلك الوجبة المتأخرة ، وجلسوا فوق عباءاتهم على القش يتجاذبون أطراف الحديث ويدخنون .

لوح النقيب كالميكوف يديه بحدّه ، وهو ضابط ربعة ، كان وجهه

المدور فضلاً عن اسمه ، يحمل آثار أصله المنغولي ، قال موجهاً كلامه الى الملازم ترسينتيسيف :

- هذه الحرب لاتروق لي . لقد ولدت بعد زماني بأربعة قرون . أتدري ، إنني لن أعيش لأرى نهاية هذه الحرب . ردّ عليه الملازم من تحت عباءته بصوت جهير :

- دعك من قراءة الفال!

- إنه ليس فالاً . بل نهايتي المكتوبة . أنا ممن يؤمنون بعودة الانسان الى أصله ، ولا يحتاجني أحد هنا ، حين كنّا اليوم عرضة للنار ارتجفت بجنون ، أنا لا أطيق قتالاً لا أرى فيه عدوي وجهاً لوجه . إن الشعور الفظيع الذي يتملكني أشبه بالخوف . إنهم يطلقون النار عليك من بعد عدة فرستات ، وأنت على حصانك كطير حباري يطارد على السهب .

قال الرئيس اتاما نتشوف ، وهو يلحق بقايا اللحم المقلب من على شاريه الأحمرين المشذبين على الطريقة الانكليزية :

- رأيت مدفعاً نمساوياً في كوبالكا . هل رأى أحدكم مدفعاً من هذا النوع ، أيها السادة ؟

فجاءه جواب حماسي من حامل العلم تشوبوف الذي كان آنئذ قد أفرغ قدراً ثانياً من الحساء :

- صناعة رائعة! مسدداته ، وماكنته برمتها هي الكمال بعينه .

- لقد رأيته ، ولكن ليس لدي ما أقوله ، أنا جاهل كل الجاهل في شؤون المدفعية . إنه لم يبد لي سوى مدفع كسانر المدافع له ماسورة كبيرة ، وهذا كل ما في الأمر .

استطرد كالميكوف ، ملتفتاً صوب ليستنتسكي :

- اني أغبط أولئك الذين حاربوا في الأيام الخوالي ، على الطريقة البدائية . فالكّر على العدو في معركة مشرّفة ، وشطره بسيفك شطرين ، ذلك هو النمط من القتال الذي أفهمه . أما هذه الحرب فالشيطان وحده يعرف ماهي .

- لن يبقى للخيالة دور في حروب المستقبل .

- سوف تلغى تماماً .

- لا أعتقد .

- ليس ثمة شك في ذلك .

- ولكن ليس بوسعك أن تستبدل الرجال بالمكائن . أنت تبالغ كثيراً .

- أنا لا أعني الرجال ، بل الخيل . ستحل الدراجات البخارية أو السيارات محلها .

- لا أكاد أتصور شكل سرية من السيارات!

فقاطعه كالميكوف منفِعلاً ،

- كل هذا هراء! وهم سخيّف! ستظل الجيوش تستخدم الخيل لوقت طويل . لسنا ندري كيف ستجري الحرب بعد قرنين أو ثلاثة ، أمّا اليوم فإن الخيالة... .

- ماذا أنت فاعل بالخيالة اذا ما حفرت الخنادق على طول الجبهة ؟
أجبني!

- نقتحم بها الخنادق ، فنشب عبرها ، وتعمق الى مؤخرة العدو ، تلك هي مهمة الخيالة .
- هراء .

- الزمن خير حكم .

- اخرسوا ، دعونا نأخذ قسطاً من النوم .

وصل النقاش الى نهايته ، وحلّ الشيخير محلّه . استلقى ليستنتسكي على ظهره ، ورائحة القش اللذيذة ، الذي فرش عباءته عليه ، تنفذ الى أنفه . واستلقى كالميكوف بجانب يفغيني ، وهو يرسم علامة الصليب .

عليك أن تتحدث الى المتطوع بونتشوك . إنه في رعيك ، وهو رجل يثير الاهتمام .

فسأله ليستنتسكي وهو يدير اليه ظهره :

- كيف ؟

إنه قوزاقي عاش في روسيا . سكن موسكو . إنه عامل اعتيادي . ولكنه مولع بأمور المكانن وهو حامل رشاش من الطراز الأول كذلك .
فاقترح ليستنتسكي قائلاً :

- دعنا ننام .

فأيده كالميكوف قائلاً : « ربما كان علينا أن نفعل ذلك » . وهو يفكر بشكل آخر ، ثم تجهّم وقال محرّجاً : « يجب أن تغفر لي جيفة قدمي ، أيها الملازم . إنني لم أغتير جوربي منذ اسبوعين ، إنهما متعفنان من العرق تماماً... رائحة كريهة حقاً . عليّ أن أحصل على زوج من الجوارب من أحد الجنود » .

فغمغم ليستنتسكي وهو يغفو :

- لا عليك .

نسى ليستنتسكي اشارة كالميكوف الى بونتتشوك تماماً ، ولكن الصدفة ساقته في اليوم التالي الى التعرف على هذا المتطوع . فقد أمره قائد الكتيبة أن يخرج عند الفجر على رأس دورية استطلاع ، وأن يجري اتصالاً ، إن أمكن ، مع كتيبة المشاة التي استمرت على التقدم في الجناح الأيسر . فذهب في عتمة الفجر يتعثر في أرجاء الحوش ، ويقع على أجسام القوزاق النائمين ، فوجد عريف الرعيل وقال له :

- أريد خمسة رجال يذهبون معي في مهمة استطلاع . دعهم يسرجون حصاني . اسرع! وفيما كان ينتظر حضور الرجال ، جاء الى باب الكوخ قوزاقي ربعة ، وقال :

- يا صاحب السعادة ، العريف يرفض السماح لي بالذهاب معك بحجة

أنه ليس دوري . هل تسمح لي أن أذهب ؟

فسأل ليستنتسكي الرجل ، جاهداً أن يتبين وجهه في الظلام :

- هل ارتكبت شيئاً ؟ وتريد أن تبرر خطأك ؟

- لم أرتكب أي شيء .

فقال ليستنتسكي : « لا بأس . بوسعك أن تأتي » . وحين استدار القوزاقي ليذهب ، صاح في اثره :

- هاي! ارجع!

اقترب القوزاقي منه .

- قل للعريف

فقاطعه القوزاقي قائلاً :

- اسمي بونتشوك .

- متطوع ؟

- أجل .

وحين تدارك ليستنتسكي ارتباكاه ، عدل اسلوب كلامه فقال :
« حسنًا ، يابونتشوك ، قل للعريف أن اوه ، لا بأس سأقول له ذلك بنفسي » .

خفت عتمة الفجر حين خرج ليستنتسكي من القرية على رأس رجاله عبر الحراس والمراكز الأمامية . حين قطعوا بعض المسافة نادى قائلاً :
- أيها المتطوع بونتشوك .
- سيدي .

- اقترب بحصانك مني ، من فضلك .

فقرب بونتشوك بمطيته الاعتيادية الى جانب حصان ليستنتسكي الأصيل . فسأله ليستنتسكي وهو يتملى صورته الجانبية :
- من أي قرية أنت ؟
- نوفوتشيركا سكاي .

- هل لي أن أعرف السبب الذي دعاك الى التطوع في الجيش ؟
فأجابه بونتشوك وعلى شفثيه أثر ضئيل من ابتسامة ، وفي عينيه الخضراوين نظره قاسية نفاذة مسمرة :

- بالتأكيد! إنني مولع بفن الحرب . أريد إتقانه .

- هناك مدارس حربية أسست لهذا الغرض .

- نعم .

- حسناً ، ما السبب إذن ؟

- أريد دراسته في التطبيق أولاً . وبوسعي أن أحصل على النظرية فيما بعد .

- ماذا كنت قبل اندلاع الحرب ؟

- كنت عاملاً .

- أين كنت تشتغل ؟

- في بترسبورغ ، وروستوف ، وفي معمل السلاح في تولا . أنا أفكر

في طلب الانتقال الى مفرزة الرشاشات .

- هل تعرف أي شيء عن الرشاشات ؟

- بوسعي أن استعمل أنواع برتية ، ومادسن ، وماكسيم ،

وهوتشكيس ، وفيكس ، ولويس ، وبضعة أنواع أخرى .

- أو هو! سأقول لأمر الكتيبة كلمة حول ذلك!

- افعل ذلك من فضلك .

وصوب ليستنتسكي نظرة ثانية الى هيئة بونتشوك الربعة ، فذكرته

بشجرة الدردار الفليني التي تنمو على ضفاف الدون . فلم يكن في الرجل

مايثير الانتباه ، ولا يميزه عن حوله من جموع الجنود القوزاق سوى فكيه

المنطبقين بشدة ونظراته المتحدية المباشرة . كان لا يبتسم الا لماما ،

بشنيات من شفتيه ، وحتى لو فعل ذلك فلم تكن عيناه تزدادان رقة بل

تحتفظان بوميض خافت من اللامبالاة . كان بتحفظه البارد يشبه شجرة

الدردار الفليني ، شجرة الصلابة الحديدية القاسية التي تنمو على التربة

الدكناء الرخوة عند ضفاف الدون غير المعطاء .

سارا صامتتين بعض الوقت . وأسند بوتشوك راحتيه الواسعتين على

قربوس سرجه الأخضر المقشّر . وانتقى ليستنتسكي سيكاره ، ولمّا أشعلها

من ثقاب بوتتشوك شَمَ في يد الرجل رائحة عرق الخيل الراتنجية الحلوة .
كان ظهر يده مكسواً بشعر بني كثيف ، فاتتابت ليستنتسكي رغبة لا إرادية
في أن يمسد عليه . ثم ابتلع دخان التبغ الحريف ، وقال :

- حين نصل الغابة ، ستذهب أنت وقوزاقي آخر في الطريق المؤدي الى
اليسار . هل تراه ؟

- أجل .

- وإذا لم تصادف مشاتنا بعد أن تقطع نصف فرست ، عد أدراجك .

- حسناً جداً .

شرعوا يخبّون . كان عند منعطف الطريق المؤدي الى داخل الغابة أجمة
من أشجار البتولا . وحين يتعداها المرء يرهق عينيه الصفار الكئيب لأشجار
الصنوبر القميئة ودق الشجر البري والشجيرات التي سحقته قوافل الشحن
النمساوية . كانت الأرض ، والى يمينهم ، ترتج بالمدافع البعيدة ، ولكن
عند أجمة البتولا خيم صمت لا يوصف . كانت الأرض تعبّ الندى الغزير ،
والأعشاب ذات الظلال الوردية تطفح بالألوان الخريفية التي كانت تندب
موتها الوشيك . توقف ليستنتسكي عند البتولا ، وأخرج منظاره وراح
يتفحص المرتفع المائل وراء الغابة ، وقد حطّت نحلة على مقبض سيفه
العسلي اللون . فعلق بوتتشوك قائلاً بهدوء وعطف :

- يا للحمقاء !

فاستدار ليستنتسكي اليه ، قائلاً :

- من هي ؟

فأوماً بوتتشوك الى النحلة بعينه ، فابتسم ليستنتسكي قائلاً :

- سوف يغدو عسلها مرأً ألا تظن ذلك ؟

لم يأت الجواب من بوتتشوك . فقد بدد الصمت صياح عقق في ثنايا
أكمة بعيدة من أشجار الصنوبر ، ومرقت رشقة من الرصاص خلال أشجار
البتولا ، فأهوت غصناً على عنق حصان ليستنتسكي .

للسياط . وراح الرشاش النمساوي يقذف بقية عتاده وراءهم .

بعد هذا اللقاء تعددت لقاءات ليستنتسكي مع المتطوع بونتشوك .
بعد راعه كل مرة ما يومض في عيني هذا الرجل من عزم لا يلين ،
يستطع أن يتوصل الى ما يكمن وراء هذا الغموض المغلق الذي يغشى و
الانسان غير الملفت النظر كثيراً . كان بونتشوك كلما تحدث ا
تتبس بين شفثيه القويتين ابتسامة ، وقد خلق لدى ليستنتسكي انطباع
ببق قواعد محددة ليسلك سبيلاً ملتويًا . ثم نقل الى مفرزة رشاشات
بعد أيام ، والكتيبة تنال قسطاً من الراحة ، خلف جبهة القتال ، ل
ستنتسكي به اذ كان سائراً حذاء جدار لماوى أتت النار عليه .

- آه ، المتطوع بونتشوك !

فأدار القوزاقي رأسه وأدى التحية . فسأله ليستنتسكي :

- الى أين أنت ذاهب ؟

- الى أمر وحدتي .

- نحن إذن سائران في نفس الطريق .

- نعم .

سارا بصمت بعض الوقت في شارع القرية المهدم . كان الناز
جولون حول مرافق الأبنية القليلة التي مازالت سالمة ، ومرّ بهما خيال
ان ثمة مطبخ ميدان يرسل الدخان في وسط الشارع وقد وقف صف طو
القوزاق الى جانبه في انتظار أدوارهم ، وكان في الهواء رذاذ بارد .
سأل ليستنتسكي وهو يخاوص النظر الى بونتشوك الذي كان متخلاً
قليلاً ،

- حسناً ، هل تتعلم الآن فن الحرب ؟

- ماذا تنوي أن تفعل بعد الحرب؟

أجاب بونتشوك مضيقاً عينيه :

- البعض يحصد ما يزرع... ولكني سأرى .

- كيف لي أن أفسر هذه الملاحظة؟

- أتعرف المثل القائل « من يزرع الرياح يحصد العاصفة ؟ » هكذا يكون الأمر .

- ولكن إذا وضعنا الأحاجي جانباً ؟

- المسألة واضحة كما هي . عفوك ، إني ذاهب من هنا صوب اليسار .

ثم رفع أصابعه الى قمة قبعته ، واستدار من الطريق فهزّ ليستنتسكي كتفيه ووقف يرسل النظرات وراءه .

سأل ليستنتسكي نفسه مغتاضاً وهو يدلف الى حفيرة* آمر السرية المعتنى بها : « أياحاول صاحبنا أن يبدو شخصاً غريب الأطوار ، أم أن في رأسه نحلة تطن ؟ » .

١٦

استدعيت وجبتا الاحتياط الثانية والثالثة للخدمة سوية . فبدت قري الدون خاوية وكأن الجميع غادروها للحصد أو الحش في زحمة موسم الحصاد .

إلا أن الذي جنّاه القوزاق على امتداد الحدود عامنذ كان حصاداً مريراً ، فقد اقتفت المنية خطى القوزاق ، فناح العديد من زوجاتهم وهن حاسرات الرأس على من رحلوا عنهن ، « آواه ، يا حبيبي ، ياعزيزي كيف سأعيش في هذه الدنيا من دونك ؟ » وقد تهاوت رؤوس الأعزاء في كل مكان ، وأريقّت

* الحفيرة - خندق مستوف لوقاية وايواء الجنود في ميدان القتال . المترجمون

للحن الجنائزي ، في النمسا ، وفي بولندا ، وفي بروسيا... . فريخ الش
م تعد تحمل الى مسامعهم نواح زوجاتهم وأمهاتهم .
لقد بارحت القرى نخبة القوزاق وهلكت وسط قمل وفظائع س
قتال .

ذات يوم جميل من أيام أيلول تعلق فوق تتارسكي خيط حليبي من
شمس . وراحت الشمس الشاحبة تبتسم كالثكلي ، وكانت الس
مقطبة ذات الزرقة العذرية صاحبة شماء على نحو يثير النفور . وك
غابة عبر الدون تكتسي صفرة يرقانية ، فالحور خابي الألق ، والبلوط ين
ن حين وآخر أوراقاً ذات أشكال هندسية ، إلا الحور الرومي فقد بقي أح
وقاً يسرّ بديمومة خضرته عين العقق النفاذة .

تلقى بانتلاي بروكوفتش ذلك اليوم رسالة من الجيش المحارب
ءات دونيا برسالة من البريد . وكان مأمور البريد العجوز ، حين ناو
رسالة قد انحنى وهز هامته الصلعاء ونشر ذراعيه متضرعاً :

- اغفروا لي بحب الله . لقد فتحت الرسالة . أخبري أباك أنني فتحت
ت بحاجة ماسة الى معرفة كيف تسير الحرب... . اغفروا لي ، وأخبر
نتلاي بروكوفتش بما قلت .

كان بادي الاضطراب ، ولم يظن الى بقعة الحبر على أنفه ، فخرج
تبه بصحبة دونيا . وهو يتمتم شيئاً غير مفهوم وقد ملأها القلق ، فقف
جعة الى البيت . وراحت تفتش عن الرسالة في صدرها لوقت طويل
رخ فيها بانتلاي بروكوفتش وهو يجز لحيته :

- عجلي!

وفيما أخرجت الرسالة قالت لاهثة :

يتنفس في وجهها منفعلاً ، وأضاف : - أمن غريغوري ؟ أم من بيوتر ؟
- كلا ، يا ابتي... لا أعرف هذا الخط .

فصرخت الينشنا وهي تترنح بثقل نحو المصطبة : « اقرئها ! » .
كانت ساقاها تسببان لها في تلك الأيام متاعب جمّة . وهرعت ناتاليا
الى الحوش ووقفت عند الموقد ، مائلة الرأس ، ومرفقاها يشدان على
صدرها . واختلجت على شفتيها ابتسامة كشعاع الشمس كانت ماتزال
ترقب من غريغوري رسالة أو أقل إشارة اليها في رسالة جزاء أمانتها وولاءها
للذين يشبهان أمانة الكلب وولاءه . وهمست ايلنتشنا :
- أين داريا ؟

فصرخ بانتلاي بروكوفتش : « اخرسي ! » واردف مخاطباً
دونيا « اقرئها ! »
« ينبغي أن أحيطكم علماً » هكذا بدأت الرسالة ، وتهاوت دونيا من
على المصطبة ، حيث كانت جالسة ، وعاطت :
- أبتاه! أماه!... ويلاه ، ماما... عزيزنا غريشا! : أواه ، أواه!...
غريشا... قتل .

كان ثمة يعسوب يضطرب بين أوراق الجيرانيوم التي أوشكت على
الذبول ، فراح يضرب على النافذة ويطن مهتاجاً . وفي الفناء كانت دجاجة
تقوق رضية ، وتناهى خلال الباب المفتوح ضحك طفولي رنان .
سرت اختلاجة عبر وجه ناتاليا ، رغم أن شفتيها مازالتا تكتسيان
بسمتها الراحشة . قام بانتلاي بروكوفتش على قدميه ، ورأسه يرتعش
كالمشلول ، وراح يحملق الى دونيا بحيرة مخبولة . جاء في الكتاب :

ينبغي أن أحيطكم علماً أن ولدكم غريغوري باتتليفتش ميليوخوف ، من قوزاق
كتيبة الدون الثانية عشرة ، قد قتل في السادس عشر من أيلول قرب مدينة
كامينكا - ستروميليو . لقد مات ابنكم ميتة الشجعان ، فأتمنى أن يكون ذلك

وتر ميليخوف . وسيبقى حصانه في الكتيبة .

أمر السرية الرابعة النقيب بولكو فنيكو
جيش الميدان - ١٨ أيلول ، ١٩١٤

اعتري بانتلاي بروكوفتش ، بعد تلقي هذه الرسالة ، ذبول مفاجئ
بانت الشيوخوخة تظهر عليه أكثر مع كل يوم حتى أخذت ذاكرته تخونه و
نفاء الذهن . كان يتجول هنا وهناك بظهر محني ، وقد علا وجهه ظل
حديد ، وكان الوميض المحموم في عينيه ينم عن اجهاد في نفسه .

أخفى الرسالة تحت الأيقونة . وكان يذهب الى سقيفة الباب
سديدة كل يوم ليوميء الى دونيا . وحين تدخل الدار يأمرها أن تأ
لرسالة لتقرأها له ، وهو يتطلع بوجل الى باب غرفة أمامية حيث تم
رجته أيام الحداد . كان يقول لدونيا ، وعينه تطرف بدهاء : « اقرئي
هدوء ، وكأنك تقرئين لنفسك لكي لا تسمع الوالدة... والا... » . فتخ
ونيا بعبراتها ، وتقرأ الجملة الأولى ، وبانتلاي بروكوفتش جا
نرفصاء ، فيرفع يده السمراء الكبيرة التي تشبه الحافر ليقول :

- كفاية . أعرف البقية . خذي الرسالة واعيديها حيث كانت . هدوء
الوالدة... - ثم يغمز بعينه غمزة ناشزة ووجهه ملئ كلاء شجرة محروق .
بدأ يشيب وأخذت شعرات الشيب الساطعة تبقع رأسه وتوخط لح
سرعة . وغدا كذلك شرها يزدرد طعامه ازدراداً دون أن يعتني بالنظافة
كل .

مضت أيام تسعة على قداس الجنازة فدعا آل ميليخوف الأب فيساري
لأقارب الى وليمة في ذكرى القتل غريغوري . وتناول بانتلاي بروكوفتش

- ما بك يا أب ؟

- هاه ؟

قال العجوز ذلك جافلاً ، وهو يرفع عينيه العمشاوين من على صحنه .
فلوحت الينتشنا يدها وادارت وجهها وهي تشد المنديل على عينيها .
فقالت داريا مغضبة وعيناها تتقادحان :
- أبي ، أنت تأكل وكأنك صُمت ثلاثة أيام .
- أنا أكل ؟... حسناً ، لن أكل .

هكذا رد بانتلاي بروكوفتش وقد تملكه الحرج . ثم أجال ناظريه حول
المائدة ، وضم شفثيه وعقد ما بين حاجبيه وخلد الى الصمت ، دون أن يجيب
على أي سؤال . وحاول الأب فيساريون بعد أن فرغوا من الطعام أن يشجعه
فقال :

- تشجع ، يابروكوفتش ! ماجدوى كل هذا الأسى ؟ لقد مات غريغوري
ميتة مقدسة ، فلا تغضب الرب ، يا شيخ . لقد فاز ابنك بأكليل الشوك من
أجل قيصره ووطنه . وها أنت ذا... إنها الخطيئة ، وإن الله لن يغفرها لك .
- هكذا بالضبط ، أيها الأب «لقد مات ميتة الشجعان» . ذلك ماكتبه
آمر وحدته .

وبعد أن لثم الشيخ يد القديس ، اتكأ على عمود الباب ، وللمرة الاولى
منذ وصول الرسالة ، اجهش في البكاء ، فراح جسده يختض بعنف .
ومنذ ذلك اليوم استعاد رباطه جأشه ، وأبلّ من مصابه قليلاً .
لعق كل منهم الجرح على طريقته : فحين سمعت ناتاليا دونيا تصرخ ان
غريغوري قد مات هرعت الى الحوش : «ساقتل نفسي . انتهى كل شيء»
بالنسبة لي» . كانت هذه الفكرة تسوقها كالنار . فجعلت تقاوم بين ذراعي
داريا ، ثم اغمي عليها ، فاستسلمت بارتياح . لقد اجل الإغماء ، على
الأقل ، لحظة عودة الوعي ، حين تقفز الأحداث الى ذاكرتها بعنف . وأمضت
اسبوعاً في ذهول مطلق . ثم افافت الى عالم الواقع ، وقد تغيرت ، فغدت

سرنية تحوم في أرجاء بيت ميليخوف ، فيعيش الاحياء في لجة رانحتها العفنة

١٧

بعد مضي اثني عشر يوماً على نبأ وفاة غريغوري ، تلقى آل ميليخوف من بيوتر رسالتين دفعة واحدة . قرأتها دونيا في دائرة البريد ، وجر سرعة الى البيت ، كقشة حملتها الرياح ، ثم ترنحت ووقفت متكئة على أحد الاسيجة . وقد أثارت في القرية بلبلة غير قليلة ، وأشاعت في البيضا اضطراباً لا يوصف . فقد نشجت واعولت وهي ماتزال على مبعدة :

- غريشا حي! عزيزنا على قيد الحياة! بيوتر كتب الرسالة . غريشا جرح ، ولكنه لم يموت وانه حي ، حي!

كتب بيوتر في رسالته المؤرخة في العشرين من أيلول :
« تحية ، يا أبوي العزيزين ، ينبغي أن أخبركما أن عزيزنا غريشا كلفظ أنفاسه ، لكنه الآن ، والحمد لله ، حي معافى ، كما نتمنى لكم الصحة والرفاه ، بجاه الله . فقد اشتبكت كتيبته في معركة قرب مدينة كامينكا ستروميلوفو ، ورأى قوزاق رعيه فارساً مجرباً يطعنه فهوى غريغوري الأرض من على حصانه ، ولم يدر أحد ما الذي حصل بعد ذلك ، وحيستفسرت منهم لم يستطيعوا أن يفيدوني بشيء . ولكني علمت من ميشونوشيفوي بعدئذ - وهو جاء الى كتيبتنا في مهمة الاتصال - إن غريغوري بقى طروحاً حتى الليل ، ولكنه تاب الى وعيه أثناء الليل وشرع يزحف . وقزحف مسترشداً بالنجوم ، وعثر على أحد ضباطنا وقد أصابته شظية في بطنه يساقه . فالتقطه وجره مسافة ستة فرسات . وقد منح غريغوري جزاء ذلك

الى الجبهة ثانية . ارجو الا تعيبوا علي هذا الخط ، فإني اكتب وأنا على السرج » .

وفي الرسالة الثانية طلب بيوتر من أهله أن يرسلوا له بعض الكرز المجفف من بستانهم ، واخبرهم الا ينسوه بل أن يكتبوا له اكثر مما يفعلون . وانحنى باللائمة على غريغوري في الرسالة نفسها ، لأنه لا يعني بحصانه العناية اللازمة ، - على حد أقوال القوزاق - وكان بيوتر غاضباً لأن الحصان يعود له في واقع الحال . ورجا اباه ان يكتب الى غريغوري ، وذكر انه ارسل من يقول له أن بيوتر سيلطمه لطمة تدمي أنفه إن لم يعن بالحصان ، رغم كونه يحمل وسام القديس غيورغي . واختتم رسالته بقائمة لا نهاية لها من التحيات . ولم يكن عسيراً أن يستشفوا من خلال السطور المغضنة التي بقعها المطر شعوراً بالمرارة والأسى . فمن الجلي أن بيوتر ، هو الآخر ، كان يجابه في الحرب وقتاً عصيباً . كان مرأى بانتلاي بروكوفتش يبعث على الاشفاق . لقد دوخه الفرح ، فأمسك بكلتا الرسالتين في يده وخرج بهما الى القرية ، مستوقفاً كل من يستطيع القراءة ليحمله على تلاوة الرسالتين . لم يكن الخيلاء ، بل هو الفرح المتأخر ، الذي دفعه الى الزهو في شوارع القرية بكاملها .

ما إن يرفع يده حين يبلغ القاري المتعثر تلك الفقرة التي وصف فيها مأثرة غريغوري ، فيقول : « اها! مارأيك بولدي غريشا ؟ إنه أول من نال وساماً في القرية » . كان يعلن ذلك بفخر ، ثم يأخذ الرسالتين بكل اهتمام ، فيدسهما في بطانة قبعته ويمضي في البحث عن قاري آخر .

حتى سيرغي موخوف ، الذي رآه من خلال نافذة دكانه ، خرج لملاقاته رافعاً قبعته :

- ادخل دقيقة . يا بروكوفتش!

وحين دخلا ، شد على قبضة الشيخ بيده البيضاء المنتفخة ، وقال :
- حسناً ، اني اهنتك ، فلا بد أنك فخور أن يكون لك ولد مثله . كنت أقرأ لتوي عن مآثرته في الجرائد .

- هل أخذتها الجرائد ؟

- أجل ، لقد قرأتها لتوي .

وانزل موخوف من على الرف علبة من أجود التبوغ التركية ، وافر بعض الحلوى الغالية في كيس دون أن يكلف نفسه عناء وزنها . ثم قال وه يناول بانتلاي بروكوفتش التبغ والحلوى :

- حين ترسل رزمة الى غريغوري بانتلاي بروكوفتش ابعث اليه تحية هذه من عندي .

غمغم العجوز ، وهو يهبط درجات الدكان : « يا الهي ! أي شرف ها لغريشا ! القرية برمتها تتحدث عنه . لقد عشت لارى... » ثم تمحط ومسي الدموع من على خديه بكمه ، وهو يقول في نفسه : « ها ان علا الشيوخوة تظهر علي ، فما أسرع ما تدمع عيناى . آه يابانتلاي ! ماذا فعلت بك الأيام ؟ كنت ذات يوم صلباً كحجر الصوان ، كان بوسعك أن تحمل علي ظهرك ثمانية بودات وكأنها ريشة ، وها انت ذا . إن قضية غريشا قد هدت حيلك بعض الشيء ! »

وفيما كان يتطلع على امتداد الشارع ، ضاماً كيس الحلوى الى صدره عادت أفكاره ترفرف حول غريغوري كما يرفرف زقزاق فوق غيضة ، وجالت كلمات بيوتر في مخيلته . وفي تلك الاثناء كان كورشونوف حمو غريغوري مقبلاً في الطريق ، فنادى على بانتلاي :

- يابانتلاي توقف دقيقة !

لم يكن الرجلان قد التقيا منذ اعلان الحرب ، فقد فترت وتوترت العلاقة بينهما وغدت اضطرارية منذ غادر غريغوري بيت أهله . وكان ميرو غريغوريتش متكدراً من ناتاليا لأنها اذلت نفسها لغريغوري ولأنها جعلت والدها يعاني ذلة مماثلة .

هل زوجها ؟ لكنهم يطعمونها خيراً منا . ينبغي لوالدها ، جراً حمقها ، أن
يتحمل هذا الخزي فلا يقوى على رفع رأسه في القرية .
تقدم ميرون غريغورفتش من بانتلاي بروكوفتش ومذا إليه يد
لنمشاء :

- كيف حالك ؟

- الحمد لله

- كنت تتسوق ؟

فهر بانتلاي بروكوفتش رأسه ملوحاً بيده اليمنى وقال :
« هذه هدايا لبطلنا . لقد قرأ سيرغي بلاتونوفتش عن مآثرته في
الجراند فأهدى إليه بعض الحلوى والتبغ قال : « سلم عليه وابعث له هذه
لهدايا ننتظر منه المآثر في المستقبل أيضاً » . أتدري ، عيناه اغرورقت
بالدموع » . ومضى العجوز يتباهى ، مسمراً نظراته في وجه ميرون
غريغوريتش ، محاولاً أن يجتلي أثر كلماته .

تجمعت الظلال تحت أهداب ميرون غريغوريتش الشقراء ، مضيفة على
حياته بسمة ساخرة ، فقال باقتضاب :
- هكذا !

ثم استدار ليعبر الشارع ، فهرع بانتلاي بروكوفتش وراءه ، فاتح
لكيس وهو يهتز غضباً ، وقال له بنبرة حاقة :
- هاك ، ذق هذه الشوكولاته ، إنها حلوة كالعسل . ذقها ، أنا أقدمها
اسم ولدي . ليست حياتك حلوة جداً ، فبوسعك أن تأكل واحدة ، وقد ينال
منك شرفاً كهذا في يوم من الأيام ، وقد لا ينال شيئاً .
- لاتحشر نفسك في حياتي ... أنا ادرى بها .

فانحدر بانتلاي بروكوفتش بركة مبالغ فيها ، وحدي أمام ميرون

- ذق واحدة على الأقل ، اعمل لي هذا المعروف .

فدفع ميرون غريغوريتش يده جانباً وقال :

- لسنا متعودين على الحلوى ، فهدايا الغرباء تؤذي أسناننا . لا يليق بك أن تستجدي الصدقات لولدك . إذا اضطرتك الحاجة يمكن أن تجيء الي . ابنتنا ناتاليا تأكل خبزكم . كان بوسعنا أن نعطيك شيئاً توارى به فقرك .

- لا أحد منا استجدي صدقة في عائلتنا . فلا تكذب بلسان خشن ، يانسيب . أنت متباه جداً . اترى ابنتك أتت إلينا لكونك ثرياً ؟

فقال ميرون غريغوريتش بلهجة متسلطة :

- مهلاً! لا داعي لشجارنا . أنا لم استوقفك للشجار . لدي أمر أود أن أحدثك به .

- ليس هناك أمر نتحدث به .

- أجل ، هناك . تعال .

أمسك بانتلاي بروكوفتش من كفه وجره الى زقاق فرعي . فسارا خارج القرية نحو السهب .

سأله بانتلاي بروكوفتش بلهجة أكثر هدوءاً ووداً : «حسناً ، ما الأمر ؟» وخواوص بصره الى وجه ميرون غريغوريتش النمش فطوى ميرون غريغورتش ذيل معطفه الطويل تحته وجلس على حافة حفرة واخرج كيس تبغه العتيق .

- أتدري ، يابروكوفتش ، ان الشيطان وحده يعلم سبب هجومك علي كالديك المعارك . الحق أن الأمر غير لائق ، أليس كذلك ؟

ثم تحولت نبرة صوته فغدت خشنة جافة فيما استطرد : - أود أن أعلم الى متى يجعل ابنك من ناتاليا اضحوكة . قل لي!

- ينبغي أن تتوجه بالسؤال اليه ، لا الي .

- ليس عندي ما أسأل منه ، أنت رب البيت . وأنا اتحدث اليك .

اعتصر بانتلاي بروكوفتش الشوكولاته ، التي مازالت في يده ، فاندلق الخليط اللزق من بين أصابعه . ومسح راحة يده بطين الجرف الأسمر ، ثم شرع يلف سيكارة بصمت ، فاتحاً علبة التبغ التركي . وبعد أن أخذ منها تتفة ناولها الى ميرون غريغورتش . فأخذها ميرون غريغورتش دونما احجام ولف سيكارة من التبغ الذي أهدها موخوف بكل اريحيه . وتعلقت فوق رأسيهما غمامة بيضاء ثرة مزبدة ، وامتد نحوها خيط صاعد رقيق كان يتماوج في الريح .

آل النهار الى نهايته ، وتهدهد سكون أيلول بسلام وحلاوة لا توصفان . كانت السماء قد فقدت وهجها الصيفي الكامل ، فأمست زرقاء باهتة . وانتشرت في الحفرة أوراق تفاح أرجوانية زاهية ، الله وحده يدري من أين جاءت . واختفى الطريق على امتداد حافة التل المتماوجة وراح يوميء بلا طائل صوب الاصقاع المجهولة وراء الأفق الزمردي الغامض كالأحلام . وقد لازم الناس أكوأخهم وحياتهم اليومية فراحوا يضنون الأنفس كدحاً ، ويستنزفون قواهم على ساحات درس الحبوب ، فاذا بالطريق درب مهجور ، يستبد به الحنين وينساب عبر الأفق صوب المجهول ، وجرت الريح عليه مثيرة الغبار .

قال ميرون غريغوريتش وهو ينفث سحابة من الدخان :

- هذا تبغ ضعيف . كالعشب .

فأيده بانتلاي بروكوفتش الى حد ما :

- ضعيف ، ولكنه لطيف .

ثم رجاء ميرون غريغورتش بنبرة هادئة وهو يطفئ سيكارتته :

- اعطني جواباً ، بانتلاي بروكوفتش .

- غريغوري لا يأتي على ذكر الموضوع في رسالته . إنه الآن جريح .

- نعم بلغني ذلك .

- ماذا وراء ذلك ، لا أدري . قد يقتل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟

فطرف ميرون غريغوريتش بعينه شارد الفكر تعيساً :
ولكن كيف يمكن استمرار الحال على هذا المنوال ؟ لاهي فتاة ،
ولا هي زوجة ولا أرملة شريفة ، إنه لوضع معيب ، فلو كنت أعلم أن
الأمر ستنتهي الى هذا المآل لما سمحت للخاطبين أن يتخطوا عتبة
داري . آه ، بانتلاي... . بانتلاي... كل والد يأسى لطفله . الدم أكثف من
الماء... .

فرد عليه بانتلاي بروكوفتش بغضب مكظوم :
- ماذا يمكن ان افعل ؟ اتظنني سعيدا بخروج ولدي من البيت ؟ هل
جنيت من ذلك شيء ؟ يا للناس !
فأملى عليه ميرون غريغوريتش ، والتراب ينهال من تحت يديه الى
الحفرة على وقع كلماته :
- اكتب اليه . دعه يقرر بشكل نهائي .
- ان له طفلة من تلك... .

فصاح كورشونوف ، وقد ازرق لونه : « وسيكون له طفل من هذه! هل
يمكنك ان تعامل انسانا بهذا الشكل ؟ هاه ؟ حاولت ان تقتل نفسها فصارت
شوهاً ببقية عمرها... . هل تريدون دفعها الى القبر ؟ هاه... .
يا لقلبه ، يا لقلبه... . كان صوت غريغوريتش كالفحيح ، وهو يمزق صدره
بيد ، ويشد طرف معطف بانتلاي بروكوفتش باليد الاخرى... . ام له قلب
ذئب ؟

فند عن بانتلاي بروكوفتش صوت كالازيز واشاح بوجهه .
- المرأة مخلصه له ، ولا حياة لها بدونه . اهي قن في خدمتكم ؟
فصاح بانتلاي بروكوفتش وهو ينهض من جرف الحفرة :
- هي اكثر من ابنة بالنسبة لنا! امسك لسانك! وافترقا دون وداع ، كل
الى حال سبيله .

حين تنجرف الحياة عن مجراها الطبيعي تتشعب جداول متعددة . ومن العسير ان يتنبأ المرء اي جدول منها سيضم مسار حياته الملتوي الغدار . فحيث يترقق اليوم ، كالنهر على ارض رملية ، تكاد لضحاياه ترى قعره ، يجري في الغد ثرا طافحا

على حين غرة قررت ناتاليا ان تذهب الى اكسينيا ، في ياغودونويه ، وتسالها وتتضرع اليها ، ان تعيد غريغوري اليها . وقد خيل لناتاليا ، لسبب ما ، ان كل شيء يتوقف على اكسينيا ، وان كل ما عليها ان تفعله هو ان ترجوها فيعود اليها غريغوري ، ومعه يعود هناؤها السابق . ولم تترو لتعرف ما اذا كان ذلك ممكنا ، او كيف ستلقى اكسينيا رجاءها هذا . ساقتها دوافع العقل الباطن ، فعمدت الى تنفيذ قرارها باسرع ما يمكن . وصلت في نهاية الشهر رسالة من غريغوري . وبعد ان خاطب اباه وامه بعث تحياته واحتراماته الى ناتاليا . ومهما يكن السبب الذي دفعه الى ذلك فإنه كان بمثابة الحافز الذي كانت ناتاليا تحتاجه ، فتأهبت للذهاب الى ياغودونويه يوم الأحد التالي .

سألتها دونيا فيما كانت تراقبها وهي تتملى ملامحها باهتمام في كسرة من مرآة :

- الى أين ذاهبة ، يانااتاليا ؟

- ذاهبة لزيارة أهلي .

كذبت ناتاليا ، فاحمر وجهها اذ ادركت للمرة الاولى انها معرضة نفسها لمهانة عظيمة ، وامتحان أخلاقي مريع . فاقترحت داريا قائلة :

- لم لا تخرجين معي في إحدى الامسيات ؟ تعالي هذا المساء ، الا تأتين ؟

- لا أدري ، لا أظن ذلك .

- يا للراغبة! دورنا يأتي فقط حينما يكون ازواجنا غائبين .

قالت داريا ذلك وغمزت بعينيها ، ثم انحنت لتتفحص الحاشية المطرزة لتنورتها الجديدة الزرقاء الفاتحة . لقد تغيرت داريا كثيراً منذ رحل بيوتر ، فبدأ نفاذ الصبر في عينيها ، وفي حركاتها ومشيتها . فراحت تزين نفسها بعناية أشد أيام الأحاد ، ولا تعود الى البيت الا في ساعة متأخرة في المساء ، كتيبة العينين سيئة المزاج ، قتبث شكواها الى ناتاليا :

- فظيع ، فظيع حقاً! اخذوا من القرية كل القوزاق اللائقين ، ولم يتركوا فيها سوى الصبيان والشيوخ .

- حسناً ، وما الفرق بالنسبة لك ؟

- كيف ، لم يعد هناك أي شخص الهو معه مساء . ليتني أستطيع الذهاب يوماً الى الطاحونة لوحدي . فليس ثمة مسلاة لنا هنا بوجود حمينا .

ثم سألت ناتاليا بصراحة لودعية : - كيف يسعك ، يا عزيزتي ، أن تصبري هذه المدة الطويلة من دون قوزاقي ؟

فاحمر وجه ناتاليا وقالت :

- اخذك الله! أليس لديك ضمير ؟

- الا تشعرين بأية شهوة ؟

- واضح أنك تشعرين بها .

فاحمر وجه داريا وارتعش قوسا حاجبيها وردت ضاحكة :

- بالطبع أشعر! لماذا يجب أن أخفي ذلك ؟ أنا على استعداد في اللحظة أن ابعث الحرارة حتى في شيخ عجوز واهيجه! حسبك أن تتصورني ، لقد مضى شهران مذ رحل بيوتر .

- أنت تدخرين لنفسك الاحزان ، ياداريا .

- اخرسي ، أيتها العجوز الفاضلة! نحن نعرفكن ، أيتها الهادئات! أنتن لا تعترفن به .

- ليس لدي ما أعترف به .

فصويت اليها داريا نظرة جانبية ساخرة ، ثم عضت على شفتيها
بأسنانها الصغيرة الشرسة وقالت :

- قبل أيام جلس بجائبي تيموفي ما نتسيف ، ابن الاتمان . جلس وهو
يتصبب عرقاً . رأيته يخاف أن يبدأ . ثم دس يده تحت ذراعي بهدوء ، ويده
ترتجف . لم أفعل شيئاً سوى الانتظار ، ولم انبس ببنت شفة ، ولكن الغضب
بدأ يتملكني . ليته كان شاباً - لكنه مجرد سافل صغير . كان عمره ستة
عشر عاماً ولا أكثر من ذلك بيوم واحد . الا أن دمّه يفور أيضاً . جلست
صامتة ، ومضى هو يخمش بيده ويخمش ، ثم همس : « تعالي معي الى
سقيفة المواشي في بيتنا » وحينذاك اتحفته بشيء !

ضحكت بمرح ، وارتعش حاجباها واندلق الضحك من عينيها نصف
المغمضتين واردفت :

- أي درس علمته! قفزت ناهضة : « انت ، يا كذا ويا كيت! أنت أيها
الجرو الغبي! أتحسب نفسك قادراً على مراودتي بهذا الشكل ؟ متى بللت
فراشك لآخر مرة ؟ » وجهت اليه كلاماً جميلاً .

تغير موقف داريا من ناتاليا في الاونة الاخيرة ، وغدت العلاقة بينهما
بسيطة ودية . لقد تلاشى النفور الذي استشعرته داريا ازاء المرأة الاصغر منها
سناً فأخذت المرأتان ، المتباينتان في كل شيء ، تعيشان معاً عيشة ود .

فرغت ناتاليا من ارتداء ملابسها وخرجت . وادركتها داريا عند سقيفة
الباب . فقالت :

- هل ستفتحين الباب لي هذه الليلة ؟

- اتصور أنني سأقضي الليل عند أهلي .

فراحت داريا تحك أنفها بمشطها وهي مستغرقة بالتفكير ، ثم هزت
رأسها :

- آه ، حسناً ، لم يكن بودي أن أطلب ذلك من دونيا ، ولكن لا أرى
بدأً من ذلك .

اخبرت ناتاليا ايلنتشنا بأنها ذاهبة لزيارة أهلها ، ثم خرجت الى الشارع . كانت العربات تفرقع قادمة من ساحة السوق ، والقرويون عاندين من الكنيسة . انعطفت في زقاق جانبي وتسلمت التل على عجل . والتفتت عند القمة فنظرت خلفها . كانت القرية سابحة في نور الشمس ، والبيوت الصغيرة المطلية بالكلس تبهر العين ببياضها ، والشمس تنعكس على سقف الطاحونة المائل ، جاعلة صفائح الحديد تتوهج كذوب المعدن الخام .

١٩

كانت ياغودنويه قد دخلت أيضاً من رجالها بسبب الحرب . ذهب فنيامين وتيخون ، ففدا المكان أكثر قفراً ، ومللاً ، وانعزالاً . وتولت اكسينيا خدمة الجنرال بدل فنيامين ، وتولت لوكيريا ذات العجيزة مهام المطبخ واطعام الدواجن . وكان ساشكا العجوز يعنى بالخيول والبستان . ولم يكن هناك سوى وجه جديد واحد ، هو قوزاقي عجوز يدعى نيكييتش استخدم حوذاً .

بذر ليستنتسكي العجوز عامئذ بذراً أقل ، وزود الجيش بحوالي عشرين حصان ركائب عسكرية ، فلم يبق للضيعة سوى جياذ أصيلة وثلاثة جياذ لجر العربة . وكان يمضي وقته في صيد الحباري والقنص بكلاب الصيد . لم تتلق اكسينيا من غريغوري الا رسائل قليلة مقتضبة ، يخبرها أنه مازال بخير وهو يعاني مرارة التجربة . كان قد اشتد عوده ، والا فإنه لا يريد أن يخبرها بضعفه ، فقد عمد ألا تفلت منه أية شكوى من حياة الجندية التي ألفاها شاقة كئيبة . كانت ثمة نبرة فاترة في رسائله ، وكأنه كتبها شعوراً منه بالواجب . ولم يقل إلا في رسالة أخيرة : « كل وقتي في جبهات القتال ، لقد مللت الحرب وأنا أحمل الموت على ظهري » . وكان في كل رسائله يسأل عن ابنته ، ويطلب من اكسينيا أن تكتب له عنها : « اكتبني كيف حال ابنتي

وما هو مظهرها الآن ؟ رأيته منذ أيام في منامي مرتدية فستاناً أحمر ومتكبرة .

بدا على اكسينيا وكأنها تتحمل الفرقة بشجاعة . وقد أغدقت كل حبها على طفلتها ، سيما بعد أن اقتنعت بأنها طفلته حقاً . لقد زودتها الحياة ببراهين لا تدحض : فتبدل شعرها الكستنائي واستحال أسود مجعداً ، وغدت عيناها سوداوين مستطيلتين وحتى ابتسامتها أصبحت تشابها ابتسامة غريغوري . ويزداد شبهها بأبيها يوماً بعد يوم . وبات بوسع اكسينيا أن ترى صورته في الطفلة بما لا يقبل الشك ، فازدادت عاطفتها نحوها عمقاً . ولم تعد تشيح عن المهد رأسها ، كما فعلت بعض الأحيان في السابق ، لأنها كانت تستشف في وجه الطفلة الغافي بعض ملامح ستيبان المقيمة .

على أن الأيام مضت متشاقلة ، وفي نهاية كل يوم تجثم على صدر اكسينيا مرارة كاوية . كان القلق على حياة محبوبها ينفذ في ذهنها كإبرة حادة ، فلا يبارحها نهائياً . كل ما اعتصر نفسها وحاولت أن تكبحه بإرادتها يعود فيقوِّض كل السدود أثناء الليل ، فتتصور وتقلّب ، باكية دونما صوت ، وهي تعضّ على يدها ، كي لا توقظ الطفلة بنשיجها ، وقد بذلت وسعها لإغراق عذاب روحها بعذاب جسدها . وكانت تفرغ بقية دموعها على قماط طفلتها ، فتحدّث نفسها بسذاجتها الطفولية : « إنها طفلة غريشا ، لا بد أن يحس في صميمه كم أحن اليه » .

كانت اكسينيا تنهض صباحاً بعد ليالي مثل هذه وكان أحداً قد أشبعها ضرباً لا رحمة فيه . كان الألم يبرّح كل جوارحها ، وتدق في عروقهها مطارق فضية صغيرة لا تنقطع ، ويلوح الحزن في طرف شفيتها . وأضفت هذه الليالي الشيخوخة عليها .

ذات يوم أحد قدمت الفطور الى سيدها ، ثم خرجت الى الفناء وإذا كانت واقفة على عتبة الباب رأت امرأة تدنو من البوابة . كانت العينان تبدوان من تحت العصابة البيضاء مألوفتين بشكل غريب . فتحت المرأة

البوابة وولجت الفناء . وشحب وجه اكسينيا إذ عرفت ناتاليا ، ومضت إليها متمهلة . كانت طبقة كثيفة من الغبار قد استقرت على حذاء ناتاليا . توقفت وقد تدلت على جانبيها بلا حياة يداها الكبيرتان الخشنتان من الكدح ، وكانت تسحب أنفاسها بمشقة ، وهي تحاول عبثاً أن تقيم رقبتها الشوهاء . فبدت وكأنها تنظر جانباً . قالت ، وهي تمرر لسانها الجاف فوق شفتيها : « جئت لأراك ، يا اكسينيا » .

القت اكسينيا نظرة خاطفة على نوافذ البيت وقادت ناتاليا بصمت الى داخل غرفتها فتبعتها ناتاليا . وبدا لأذني ناتاليا المصيختين بأن حفيف تنورة اكسينيا كان عالياً بشكل غير طبيعي : « أذنأي ليستا على مايرام . لا بد أن ذلك بفعل الحرارة » . راحت هذه الفكرة المضطربة تعتمل في رأسها مع جملة من أفكار أخرى .

أغلقت اكسينيا الباب ، ثم وقفت في وسط الغرفة ويدها تحت وزرتها وأخذت زمام المبادرة .

سألت اكسينيا بصوت واطئ أقرب الى الهمس :

— علام جئت ؟

فأجابت ناتاليا وهي تجول بعينيها في أرجاء الغرفة ببطء :

— أريد أن أشرب ماء .

انتظرت اكسينيا فشرعت ناتاليا في الكلام رافعة صوتها بمشقة :

— لقد أخذت زوجي متي... أعيدي لي غريغوري العزيز . حطمت

حياتي . ألا ترين كيف...

فصرت اكسينيا بأسنانها وتساقطت الكلمات من فمها متلاحقة كما تتساقط قطرات المطر المتباطئة على الحجر :

— أعيد زوجك ؟ أعيده ؟ ممن تطلبين ؟ لماذا جئت ؟ طلبك بعد فوات

الأوان . بعد فوات الأوان!

دنت اكسينيا من ناتاليا وهي ترسل ضحكات كاوية تهز بدنها برمته .

وراحت تهزأ بها وهي تصوب النظرات الى غريمتها . هاهي واقفة ، تلك الزوجة الشرعية المهجورة ، ذليلة ، سحقته التعاسة ، هي ذي المرأة التي حلت بين اكسينيا وغريغوري ففرقت بينهما ، وأدمت قلب اكسينيا ألماً . ويوم كانت تفني نفسها بالشوق القتال كانت الاخرى ، ناتاليا هذه ، تداعب غريغوري وتضحك منها دونما ريب ، تضحك منها هي العشيقة المهجورة . لهت اكسينيا قائلة :

- وجئتِ تطلبين مني أن أتخلى عنه ؟ ايتها الأفعى الزاحفة ، أنت التي اغتصبت غريشا مني لأول مرة ! كنت تعرفين أنني أعاشره . لماذا تزوجته ؟ أنا استعدت ما يخصني . إنه ملكي ولي منه طفلة ، أما أنت

وراحت تحدق في عيني ناتاليا بمقت عاصف ، وفيما كانت تلوح ذراعيها بجنون ، طفقت تصب حمماً جارفة من كلماتها :

- غريشا لي ، ولن اتخلّ عنه لأحد ! إنه لي ، لي ! أسمعيني ؟ ... لي ! اخرجي أيتها العاهرة الفاحشة ، أنت لست زوجته . أتريدين أن تسرقي من الطفلة أباه ؟ ولماذا لم تأتي قبل هذا ؟ ها ، لماذا لم تأتي ؟

مشّت ناتاليا جانباً وجلست على المصطبة ، مسبله رأسها مغطية وجهها بيديها :

- أنت تركت زوجك . لا تصرخي هكذا .

- لا زوج لي سوى غريشا . ليس لي في الدنيا أحد .

أحسّت اكسينيا بغيظ يلتهب في داخلها ولا يجد له منفذاً ، وراحت تحدق في خصلة الشعر الأسود التي انسلت من تحت عصابة ناتاليا ، وسألتها غاضبة :

- أهو بحاجة اليك ؟ انظري الى رقبتك الملتوية ! أحسبينه يحن اليك ؟

لقد هجرك وأنت سليمة ، فهل يمكن أن ينظر اليك وأنت شوهاء ؟ لن أتخلى عن غريشا ! ذلك كل ما عندي من قول . اخرجي ! .

تنمرت اكسينيا في الذود عن عشها ، وفي الثأر لكل ما عانتها في

الماضي . كان بوسعها أن تلاحظ أن ناتاليا مازالت تبدو مليحة رغم عنقها المعوج قليلاً . كان خدا وشفتا ناتاليا نضرتين ، لم تمتد اليهما يد الزمن ، أما هي فقد أحاطت الغضون عينيها ، وكل ذلك بسبب ناتاليا .

رفعت ناتاليا عينيها ، وقد دوخها الألم :

– أظنني أنني كنت آمل أن استعيده بالرجاء ؟ فلهئت اكسينيا قائلة :

– اذاً لم آتيت ؟

– دفعني الشوق .

استيقظت طفلة اكسينيا على الأصوات فتلملمت في فراشها وشرعت تبكي . فرفعت الأم ابنتها ، وجلست ووجهها صوب النافذة . وحملت ناتاليا بالطفلة وأوصالها ترتعش . واحتبست غصة يابسة في حنجرتها . كانت عينا غريغوري تطلان عليها من وجه الطفلة بفضول .

خرجت ناتاليا الى سقيفة الباب وهي تبكي وتترنح ، ولم تنهض اكسينيا لتودعها . وبعد دقيقة أو دقيقتين دخل عليها ساشكا الغرفة . وسألها ، ولا بد أنه قد حزر :

– من تلك المرأة ؟

– واحدة من قريتنا .

قطعت ناتاليا في طريق عودتها مسافة ثلاثة فرسات تقريباً ، ثم رقدت تحت شجيرة شوك برية . كان الحنين قد هدّ حيلها فاستلقت ورأسها خلو من أي فكرة . ولم تغب عن مخيلتها صورة عيني غريغوري الكئيبتين وهما تطلان عليها من وجه الطفلة .

انطبعت الليلة التي اعقبت المعركة في ذاكرة غريغوري انطباعاً عميقاً لا يمحوه الدهر . فغدا وكأنه ألم يعمي الأبصار . ثاب الى رشده قبيل الفجر ،

فتلملت يده على جذامات الزرع الواخزة ، وعلى أنينه من الألم الذي ملأ رأسه . ورفع يده بمشقة ، فجراها الى جبينه ، وتلمس شعره المتلبد بدمه .
وحين لامس اصبعه الجرح أحسّ وكأن جمرة حمراء قد وضعت عليه . ثم صرّ بأسنانه وانقلب على ظهره . كانت أوراق شجرة أذواها الزمهرير تحف فوق رأسه بجرس بلوري أسيان . وبدت الأغصان السوداء واضحة المعالم على صفحة السماء ذات الزرقة العميقة ، وكانت ثمة نجوم تومض من خلالها . شخص غريغوري اليها بعين لا تطرف ، فبدت له النجوم أشبه بشمار غريبة صفر مزرقة تتدلى من الأغصان .

أدرك ما حل به ، فانتابه هلع لا مفر منه وشرع يزحف على أطرافه الأربعة وهو يصصر بأسنانه . اشتدت عليه وطأة الألم فجعلته يهوى ووجهه الى الأسفل . خيل اليه أنه زاحف أبد الدهر ، فحمل نفسه على التطلع الى وراء ، فإذا الشجرة التي كان يرقد تحتها فاقد الوعي ماثلة بسوادها على بعد خمسين خطوة تقريباً . وزحف مرة عبر جثة هامدة ، فأسند مرفقيه على بطن الرجل الميت الفائرة الصلدة . كان خائر القوى من كثرة ما فقد من دم ، فجعل يبكي كالرضيع ، وراح يعضغ العشب الندي لكي لا يفقد وعيه . واستطاع أن ينهض على قدميه مستعيناً بصندوق مقلوب من صناديق القنابل ، فوقف يترنح وقتاً طويلاً ، ثم شرع يسير . وبدأت قواه تعاوده ، فمشى بخطى أشد ثباتاً ، واستطاع أن يسترشد بالدب الأكبر ، فيمم وجهه صوب الشرق .

وعند طرف الغابة أوقفته صرخة منذرة مباغته :

- قف ، والا أطلقت النار!

سمع طقة مسدس ، فنظر باتجاه الصوت . كان ثمة رجل يتكأ على شجرة صنوبر .

- من أنت ؟

قالها غريغوري ، منصتاً لصوته وكأنه صوت رجل آخر .

- روسي ؟ يا الهي ! تعال هنا!

وتهاوى الرجل المائل قرب الصنوبر على الأرض ، فتقدّم غريغوري

نحوه :

- أنحن!

- لا أقدر .

- لمَ لا ؟

- سأقع فلا أستطيع النهوض ثانية ، أنا مصاب بجرح في رأسي .

- من أي كتيبة أنت ؟

- من كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة .

- ساعدني ، أيها القوزاقي!

فأجابه غريغوري ، وقد عرف من سيرى كتفه أنه ضابط :

- سأقع ، يا صاحب السعادة .

- أعطني يدك على الأقل .

أعان غريغوري الضابط على النهوض ، ومضيا سوية ولكن الضابط اشتد تعلقه بذراع غريغوري خطوة بعد أخرى . وفيما كانا يصعدان من وهدة ، أمسك الضابط غريغوري من كمّه وقال مصراً بأسنانه :

- اتركني ، يا قوزاقي . أصبت بجرح ... في معدتي تماماً .

كانت عيناه خابيتين وراء نظارته المعلقة على أنفه ، وجعل فمه الفاجر يلهث بأنفاس مبحوحة . ثم أغمي عليه ، بيد أن غريغوري جرّه معه ، فراح يهوي وينهض مرة بعد أخرى . وقد ألقى حملة مرتين وتركه ، ولكنه في كل مرة كان يعود فيرفعه ويمضي كالسائر في نومه .

وعند الساعة الحادية عشرة التقطتهما دورية وذهبت بهما الى مركز

للتضميد .

انسل غريغوري من المركز في اليوم التالي مباشرة . وما أن بلغ الطريق حتى انتزع الضماد من على رأسه ، وسار يلوّح ضماده المضمخ بالدم في يده وهو يتنفس الصعداء .

وحين ذهب الى مقر قيادة الكتيبة سأله آمر سريته بدهشة :
من أين أتيت ؟

- عدت الى الواجب ، يا صاحب السعادة .

وحين غادر آمر السرية التقى بعريف فصيله .

- حصاني ... الكميت ، أين هو ؟

- إنه بخير ، يافتى . امسكنا به حالما فرغنا من النمساويين . ولكن

ماذا حل بك ؟ لقد صلينا من أجلك ، كي تذهب الى الجنة .

فقال غريغوري ، وهو يبتسم ابتسامة كالحة :

- كنتم على عجل . .

وجاء في الأمر الصادر عن كتيبته مايلي :

بالنظر لإنقاذ حياة آمر كتيبة الفرسان التاسعة ، المقدم كوستاف كروزبرك ،

على يد القوزاقي التابع لكتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، غريغوري ميلخوف ،

تقرر ترفيعه الى رتبة نائب عريف ، والإيضاء بمنحه وسام القديس غيورغي ، من

الدرجة الرابعة .

كانت كتيبة غريغوري قد توقفت في كامينكا ستروميلوفو مدة

يومين ، وكانوا حينذاك على أهبة التقدم ثانية . وعثر غريغوري على البيت

الذي أوى اليه قوزاقي رعيه ، ثم ذهب ليرى حصانه . وافتقد منشفته

وبعض ملابسه الداخلية من خرج سرجه . فاعترف ميشا كوشيفوي اعتراف

المذنب قائلا :

- سرقت امام عيني ، يا غريغوري . نزل هنا حشد من المشاة ،

وسرقوها .

- حسنا ، يمكن ان يحتفظوا بها ، عليهم اللعنة! اريد فقط ان اعصب

رأسي

- بوسعك أن تأخذ منشفتي .

دخل اوريوبين السقيفة ، حيث كانا واقفين . ، فمد لغريغوري يده
وكأن شجارا لم يحدث بينهما قط .

- مرحبا ، ميليخوف! اذن ما زلت حيا!
- تقريبا .

- الدم ينزف من رأسك . امسح جبينك .

- سوف افعل ذلك في أوانه .

- دعنا نرى ما فعلوا بك .

ثم حمل غريغوري على ان يميل برأسه الى وراء ، وزنخر قائلا :

- لماذا سمحت لهم بقص شعرك ؟ يا لمنظرك! الأطباء لا ينفعونك
دعني أداويك .

دون أن ينتظر موافقة غريغوري ، اخرج خرطوشة من حافظته ، ثم أفرغ
البارود الاسود في راحه يده .

- ميشا ، آتني بنسيج عنكبوت .

كشط كوشيفوي برأس سيفه نسيج عنكبوت من أحد أعمدة السقف
وناوله الى اوريوبين . ثم حفر اوريوبين بالسيف نفسه بعض التراب ، وبعد
أن مزجه بنسيج العنكبوت والبارود مضغه بين أسنانه . ثم لبخ المزيج اللزج
على الجرح النازف وابتسم اذ أعلن

- سيكون الآن على مايرام في غضون أيام ثلاثة . ولكن ها أنذا اعتني
بك ، بينما كنت ستقتلني .

- شكراً لعنايتك بي ، ولكني لو قتلتك لَقَلَّ خطيئة واحدة عدد ما يثقل
ضميري من خطايا .

- يا لك من ساذج ، أيها الفتى .

- ربّما . كيف يبدو رأسي ؟

- هناك جرح لا بأس به . انه شيء يذكرك بهم .

- سوف لا أنساهم .

- لن تستطيع أن تنسأهم حتى لو شئت ، فالنمسأويون لا يشحذون سيوفهم كما ينبغي ، لذلك ستبقى لديك ندبة بقية حياتك .
قال كوشيفوي باسمأ :

- من حسن حظك ، ياغريغوري ، ان الضربة انحرفت ، والا كنت ستواري بترية أجنبية .

ولوى غريغوري قبعته الممزقة المملطخة دماً بين يديه بحيرة ، اذ قال :
- ماذا عساني فاعلاً بقبعتي ؟
- ارمها . ستأكلها الكلاب .
وتناهت اليهم من باب الدار صيحة قائل :
- وصل الطعام ، اولاد . هلموا لاستلامه!
ترك القوزاق السقيفة ، وصهل وراءهم حصان غريغوري الكميت ، وهو يقلب بياض عينيه .

فأوما كوشيفوي الى الحصان وقال :
- كان يحن اليك ، ياغريغوري . لقد استغربت ذلك ، كان يصد عن الطعام ويصهل طوال الوقت .

فقال غريغوري بصوت متهدج وقد أشاح بوجهه :
- حين كنت أزحف بقيت أنادي به . كنت على ثقة أنه لن يتركني ، وكنت أعلم أنه لن يكون من السهل على غريب أن يمسكه .
- هذا صحيح . لم نستطع الامساك به الا بالانشوطة .
- إنه حصان طيب . حصان أخي بيوتر .
والتفت غريغوري ليخفي عينيه الدامعتين .

دخلوا الدار . كان يغورزاكوف نائماً في الغرفة الامامية على فراش ذي نوابض . كان ثمة اضطراب لا يوصف يشهد بصمت على عجالة أهل البيت عندما رحلوا عنه . فثمة كسرات وأوان ، وأوراق ممزقة ، وكتب ، وسقط متاع ولعب أطفال ، وجزم عتيقة ، وطحين منثور ، كلها ممرغة على الأرض باضطراب .

كان يميلان كروشييف وبروخور زيكوف قد نظفا فسحة في وسط
الغرفة ، وجلسا يتناولان غداءهما ، ولدى رؤية غريغوري ، كادت عينا
بروخور الشبيهتان بعيني العجل تطفران من محجريه :

- غريشا! من أين نبعث ؟

- من الآخرة .

فصاح اوريوبين :

- اهرع واجلب له شيئاً من الطعام . لا تحملق به هكذا!

- لن يستغرق ذلك دقيقة . المطبخ عند المنعطف .

وهرول بروخور الى الباب ، ي مضغ أثناء عدوه . وجلس غريغوري في
مكانه بوهن . ثم قال : « لست أتذكر متى أكلت آخر مرة » . ثم ابتسم
ابتسامة ذاوية وكأنه يحس بالذنب .

كانت وحدات من الجيش الثالث تتحرك خلال المدينة ، فغصت
شوارعها الضيقة بالمشاة ، وعربات الشحن ، والخيالة ، وكانت مفارق الطرق
مزدحمة ، والفضوضاء تلج البيوت حتى وهي مغلقة الأبواب . وعاد بروخور
على عجل بإناء من الحساء ومقلاة من الحنطة السوداء .

- أين أصب الطعام ؟

فالتقط كروشييف مbole ، دون أن يعرف ماهي ، وقال : « اليك إناء ذا
عروة » . فقال بروخور عابساً :

- إن إناءك هذا كرية الرائحة .

- لا بأس عليك . افرغه وستنقاسمه فيما بعد .

قلب زيكوف الاناء في الصحن فاندلقت العصيدة الدسمة الثخينة
كتلة واحدة ، يحيط بها سوار من دهن عنبري . فراحوا يأكلون
ويثرثرون . حكى لهم بروخور ، وهو يمسح باللعاب بقعة من على
شريط سرواله :

- هناك بطارية تابعة لفوج جبلي من المدفعية الخيالة في جوارنا . إنهم

يطعمون الآن خيلهم وقد قرأ نائب ضابطهم في الجريدة أن حلفاء الالمان يتبعثرون .

غمغم اريوبين من فمه المملوء بالعصيدة :
- ليتك كنت هنا يا ميلخوف هذا الصباح . أمر الفرقة شكرنا بنفسه .
استعرضنا ثم شكرنا على سحق الخيالة المجرية وإنقاذ البطارية . قال :
«ايها القوزاق إن القيصر والوطن لن ينسياكم» .

وفيما هو يتحدث ارتفع في الخارج صوت اطلاقه ثم اخرى . وطفق مدفع رشاش يلعلع . تنهى الى مسامعهم صوت يأمر : «اخرجوا!» فرمى القوزاق ملاعقهم وهرولوا الى الخارج . كانت ثمة طائرة تحوم واطئة فوق الرؤوس بهدير يحمل النذير .

فصاح اوريوبين :
- انبطحوا تحت السياج . سيقذفون قبلة بعد لحظة فهناك بطارية تأوي بجوارنا .

- ليذهب واحد ويوقظ يغور . سوف يقتل على فراشه الوثير!
- اخرجوا البنادق .

سدد اوريوبين مرماء بدقة من على الدرجات وأطلق النار . وتراكم في الشارع جند وقد خفضوا رؤوسهم لسبب ما . وتنهى من الحوش المجاور سهيل الخيل وأمر مقتضب . القى غريغوري نظرة عبر الحاجز فرأى المدفعيين يدخلون مدفعاً الى السقيفة على عجل . وخاوص عينيه من زرقة السماء الواخزة وشخص الى الطائر الهادر المنقض . وفي تلك اللحظة سقط منه شيء توهج في نور الشمس بشدة . وهز دوي ماحق الدار والقوزاق المنبطحين قرب الدرج ، وصهل في الحوش المجاور حصان في احتضاره . وهبت عبر السياج موجة من دخان البارود الحريف .

صاح اوريوبين وهو يهرع هابطاً الدرج : «انبطح!» فقفز غريغوري وراءه ، والقييا بنفسيهما قرب السياج . وتوهج أحد جناحي الطائرة فيما

استدارت . وبلغهما صوت اطلاقات متقطعة في الشارع . كان غريغوري قد دس لثوه مشطاً جديداً من الخراطيش في مخزن بندقيته حين قذف به دوي ساحق مسافة بضع خطوات عن السياج . ولطمته لبدة من التراب على رأسه بقوة ، فمالت عينيه غباراً... .

انهضه اوريوبين على قدميه . وقد حال ألم حاد في العين اليسرى بين غريغوري والرؤية . ثم رفع جفنه الأيمن بمشقة فرأى أن نصف الدار قد تهدم . وتصاعد فوق حطام الآجر دخان وردي . زحف يغور زاكوف من تحت الدرجات . كان وجهه يصرخ برمته ، وعيناه تذرفان دمعاً دامياً وقد اندلقتا من محجريهما . دفن رأسه بين كتفيه ، ويصرخ دون أن يفتح شفتيه المزرقتين .

انجرت وراءه احدى ساقيه ، مقطوعة عند الفخذ ، متعلقة بخيط من الجلد وشريط من سرواله المحروق ، أما الساق الأخرى فقد زالت تماماً . كان يزحف على يديه ببطء ، ومن شفتيه ينبعث صراخ رفيع يكاد يشبه صراخ الأطفال . ثم انقطع الصراخ ، وسقط على جنبه ، شاداً بوجهه على الأرض الصلدة القاسية التي تبثر فوقها الطابوق والروث . ولم يحاول أحد أن يذهب اليه .

صاح غريغوري ويده ماتزال تضغط على عينه اليسرى :
- التقطوه!

تراكض رجال من المشاة داخل الحوش ، وتوقفت عند البوابة عربية ذات عجلتين يصحبها جنود التلفونات . وصاح بهم ضابط وهو يتعدهم هذباً على حصانه :

- استمروا في المعركة! لا تقفوا هناك يا شياطين!

وتقدمت امرأتان ورجل عجوز يرتدي معطفاً طويلاً أسود . وسرعان ما حفّ بزاركوف حشد صغير . واندفع غريغوري بينهم فرآه ما يزال يتنفس وينشج بعنف ويرتعش رعشة شديدة . حبات كبيرة من العرق تبتدت على جبينه الاصفر الموات .

- احمלוه! هل أنتم ، رجال أم شاطين ؟

فزجر رجل من المشاة قائلاً :

- فيم عواؤك ؟ احمלוه ، احملوه! ولكن الى أين يمكن أن نذهب به ؟
الا تراه يحتضر ؟

- ذهبت ساقاه كلتاهما!

- انظروا الى الدم! ما أكثره!

- أين هم حملة الناقلات ؟

- ماجدواهم!

- وما يزال على وعيه .

لمس اوريوبين غريغوري كتفه من الخلف ، وهمس قائلاً :

- لا تحركه ، تعال الى الجهة الاخرى وانظر .

ثم سحب غريغوري من كمه ، ودفع الحشد جانباً . القى غريغوري نظرة
واحدة ، فأحنى منكبيه وأشاح بوجهه صوب البوابة . فتحت بطن زاكوف كانت
الامعاء الوردية والزرقاء يتصاعد منها البخار . كانت الكومة المتشابكة ملقاة
على الرمل والروث ، وتنتفخ ، والى جانبها يد الرجل المحتضر تهرش الارض .
اقترح أحدهم قائلاً :

- غطوا وجهه .

وفجأة رفع زاكوف نفسه على يديه ، وأمال رأسه الى الخلف حتى تدلى

من بين عظمي اللوح ، وصاح بصوت مبحوح لا يشبه صوت البشر :

- اخواني ، اقتلوني... اقتلوني! ... لماذا تقفون متفرجين ؟... اواه... اواه

اخواني ، اقتلوني!

تمايلت عربة القطار برفق وكانت ضربات عجلاتها تبعث في النفس
نعاساً مهدهداً . وانسابت من الفانوس حزمة صفراء من النور . ما أحلى أن

يتمدد المرء بطوله ، وقد خلع جزمته ، لتحظى قدماء براحتهما ، فيخلى المسؤولية جانباً ، ويدرك الآ خطر يتهدد حياته ، وان الموت بعيد عنه . وثمة متعة خاصة أن ينصب الى ثرثرة العجلات المتغيرة ، فمع كل دورة ، ومع كل جرة من جرات القاطرة ، تتناهى جبهة القتال عنه . ورقد غريغوري يصغي ويلوي أصابع قدميه العاريتين ، فينعم كل بدنه بالملابس الجديدة النظيفة . واستولى عليه شعور من نزع عن نفسه جلدأ قذراً وانطلق يلج الى عالم جديد وهو نظيف تمام النظافة .

ولم يكن يقطع عليه هناءه الرائق الهادئ سوى ألم في عينه اليسرى . كان يتلاشى بين أونة وأخرى ، ليعود فجأة ، فيضرم عينه ويحمل الدمع على الانسياب من تحت ضماداته . كان طبيب يهودي شاب قد فحص عينه في مستشفى الميدان وكتب شيئاً على قصاصة ورق وقال له :

- ينبغي لك أن ترحل من هنا . إن حالة عينك سيئة للغاية .

- هل سأفقدھا ، يادكتور ؟

فابتسم الطبيب وقد أحسّ بالرعب البادي في صوت غريغوري ، وقال له مبتسماً برقة : « ما الذي يدعوك الى هذا الظن ؟ ولكن يجب أن تعالجهما ، وربما دعت الضرورة الى اجراء عملية . سنرسلك الى بتروغراد أو موسكو » . - شكراً جزيلاً .

- لا تخف ، ستكون عينك على مايرام .

وربت على كتف غريغوري وقاده الى الممر بلطف . وحين استدار ، شمر عن ساعديه تأهباً لاجراء عملية .

وبعد انتظار طويل ، الفى غريغوري نفسه في قطار خاص بالمرضى . واستلقى طيلة أيام ، يهنأ بنعمة الطمأنينة . وقد بذلت القاطرة العتيقة كل قواها لجر الصف الطويل من العربات .

دنوا من موسكو ، فبلغوها ليلاً . ونقل ذوو الحالات الخطرة على الناقلات ، أما الذين يستطيعون السير فقد جمعوا على الرصيف . ونادى

الطبيب المرافق للقطار باسم غريغوري وسلمه الى احدى الممرضات وأخبرها
أين يجب أن يذهب .

- أمعك أمتعة ؟

- أية أمتعة تحسبين القوزاقي يملك ؟ معطف وحقيبة ميدان ، وهذا كل

شيء .

- اتبعني .

قاداته الممرضه الى خارج المحطة ، ولباسها يحف وهي تعدل شعرها
تحت عصابتها . وراح غريغوري يسير بخطى غير واثقة وراءها . ثم اكتريا
عربة . لقد خلف هدير المدينة الكبيرة ، وصخب اجراس الترام ، والوهج
الازرق المنبعث من المصابيح الكهربائية ، شعوراً بالانسحاق لديه . فاتكأ
على مسند العربة وراح ينظر بفضول الى الشوارع المزدهمة رغم أن الليلة
قد حلت ، وكان غريباً لديه أن يشعر بالدفء المثير لجسد امرأة تجلس الى
جانبه . كان الخريف قد حل في موسكو . وكانت أوراق الاشجار على جانبي
الشوارع تومض وميضاً أصفر في ضوء المصابيح ، وأنفاس الليل تحمل
رطوبة باردة كعهدا في الخريف . وانحرفا في وسط المدينة الى شارع فرعي
مهجور . وراحت حوافر الخيل تصفق أحجار الشارع ، وتمايل الحوذي على
مقعده المرتفع بسترته الطويلة الزرقاء وهو يلوح لفرسه بطرف العنان .
وتناهى اليه صفير قاطرات بعيدة . فقال غريغوري في نفسه وقد وخزه
الحنين : « ربّما تحرك قطار لتوّه صوب الدون » .

سألته الممرضة قائلة :

- أتشعر بالنعاس ؟

- كلا .

- سنصل عما قريب .

استدار الحوذي : - ماذا تريدان ؟

- اسرع!

التمتع ماء بركة من وراء قضبان حديدية التماع الزيت ، ولمح غريغوري
مرسى تسوّره القضبان وقد ربط اليه قارب . وكان الهواء مفعماً برائحة
الرطوبة .

قال غريغوري في نفسه شارد الذهن : «أنهم هنا يحبسون حتى الماء
وراء القضبان ، ليس الامر كالدون...» وخشخششت اوراق الشجر تحت
دواليب العربة المطاطية .

توقفا خارج منزل ذي ثلاثة طوابق ، فقفز غريغوري نازلاً . وقالت
المرمضة وهي تنحني صوبه :
- اعطني يدك .

فأمسك يدها الغضة بيده ، واعانها على النزول . فقالت وهي تدق
الجرس وتضحك بهدوء :
- إن فيك رائحة عرق الجنديّة .

فرد عليها غريغوري بغضب مكبوت :
- ينبغي أن تعيشي هناك بعض الوقت . يا ممرضة ، وحينئذ سينبعث
منك تنن آخر .

فتح الباب حاجب ، فارتقيا سلماً ذا سوار ذهبي الطلاء الى الطابق الثاني
فدقت الممرضة الجرس ففتحت لهما الباب امرأة برداء أبيض . فجلس غريغوري
ازاء طاولة مستديرة فيما همست الممرضة شيئاً الى امرأة فسجلت كلماتها .
وظهرت من أبواب الغرف الممتدة على جانبي الممر الضيق وجوه عليها
عوينات من شتى الالوان .

طلبت امرأة أن ينزع غريغوري معطفه فأخذه منه خادم يرتدي ملابس
بيضاء هو الآخر وقاده الى الحمام .
- اخلع ملابسك .

- علام ؟

- ينبغي أن تستحم .

وفيما كان غريغوري يخلع ملابسه ، ويجيل النظرات الدهشة في الحمام ، بنوافذه ذوات الزجاج المغبش ، ملاً الخادم الحوض بالماء ، وقاس الحرارة ، ثم طلب اليه النزول فيه . فغمغم غريغوري في حيرة وهو يرفع ساقه السمراء لينزلها في الحوض :

- هذا الحوض لا يجديني .

ساعده الخادم على غسل بدنه كله ، ثم أعطاه منشفه ، وقمصاناً ، وخفّاً منزليّاً ، ومعطفاً رمادي اللون ذا حزام . فسأله غريغوري مستغرباً :

- ماذا عن ملابسي ؟

- سترتدي هذه مادمت هنا . وستعاد ملابسك حين تغادر المستشفى .
وحين مر غريغوري بمرآة جدارية لم يعرف نفسه . فقد بدا ممشوق القامة ، داكن المحيا ، على خديّه بقع قرمزية وبعض الشعر على شاربيه وذقنه ، وقد ارتدى معطفاً منزليّاً ، وخصلات شعره تتدلّى من تحت عصابة الضماد ، ولم يبق الا شبه طفيف بينه وبين غريغوري ميليخوف السابق . فابتسم ابتسامة ضامرة وهو يقول في نفسه : « لقد غدوت أصغر سنّاً » .
قال الخادم :

- الردهة السادسة ، الباب الثالث الى اليمين .

وفيما دخل غريغوري الردهة الواسعة البيضاء كاد قسيس يرتدي قميص المستشفى ونظارات داكنة ، أن ينهض . وقال مجاملاً ، وهو يقدم الى غريغوري كرسيّاً :

- آه ، جار لي ؟ يسعدني لقائك ، سيؤنس أهدنا الآخر . أنا من زاريسك .

وبعد دقائق قليلة فتحت الباب ممرضة بدينة لها وجه كبير لا جمال فيه . ثم قالت بصوت خفيض كأنه ينبعث من صدرها :

- ميليخوف ، نريد أن نلقي نظرة على عينك . ثم وقفت جانباً لتفصح له الطريق .

قررت قيادة الجيش أن تشن بالفرسان هجوماً واسع النطاق على الجبهة الجنوبية الغربية بغية اقتحام خطوط العدو وتخريب خطوط مواصلاته ، وإشاعة البلبلة في قواته بهجمات مباغتة على مؤخرته . وكانت القيادة تعلق على هذه الخطة آمالاً كبيراً ، فحشدت قوى كبيرة من الفرسان في المنطقة ، وكانت من بينها كتيبة يفغيني ليستنتسكي . وقد حدد الثامن والعشرون من آب موعداً للهجوم ، غير أن عاصفة من المطر أدت الى تأجيله الى اليوم التالي .

وفي الصباح الباكر انتشرت الفرقة على رقعة واسعة تأهباً للهجوم . وشن المشاة هجوماً مصطنعاً على بعد ثمانية فرسات بغية اجتذاب نيران العدو . وأرسل كذلك جانب من إحدى فرق الخيالة باتجاه آخر للتضليل .

لم يبد أمام كتيبة ليستنتسكي أي أثر للعدو . وكان بوسع يفغيني أن يرى على بعد فرست تقريباً صفوف خنادق العدو المهجورة ، ومن ورائها حقول الجويدار تتماوج في ضباب الصباح الباكر المائل الى الزرقة تتلاعب به الريح . لا بد أن العدو لمس بؤادر الهجوم ، وتراجع خلال الليل نحو ستة فرسات ولم يترك وراءه سوى مكانن الرهاشات لمضايقة المشاة .

بزغت الشمس من وراء سحب مدلهمة ، واكتنف الوادي برمه ضباب أصفر حليبي ، وصدرت الأوامر للبدء في الهجوم ، فزحفت الكتائب . وقد بعثت ألوف الحوافر دويماً هادراً بدا وكأنه صادر عن جوف الارض . وجر ليستنتسكي عنان جواده كي يحول بينه والهذاب . قطعوا فرستا فاقتربت طلائع القوات المهاجمة من الحقول . كان الجويدار يعلو الى خصر الرجل بطوله وقد تشابك بأعشاب ونباتات متسلقة مما جعل تقدّم الخيالة غاية في المشقة . ومن أمامهم كانت ذؤابات الجويدار الصفراء مازال تتماوج . ومن

خلفهم انطرحت على الأرض مهروسة بحوافر الخيل . وبعد أربعة فرسات من هذه المسيرة بدأت الخيل تتعثر وتتصبب عرقاً ، ولكنهم لم يقعوا للعدو على أثر . والقى ليستنتسكي الى أمر سرّيته نظرة فالفى وجه النقيب في سيماء القنوط التام .

استنزفت ستّة فرسات من هذه المسيرة قوى الخيل ، فتهاوى بعضها تحت فرسانها ، وتعثر أشدها قوه وهي تبذل كل ما في طاقتها لتواصل التقدّم . وعند ذاك بدأت رشاشات النمساويين عملها ، فأمرتتها وابلأ من الرصاص . واصلتهم البنادق رشقات من نارها . وكانت كتيبة من حملة الرماح أول من تخاذل وتراجع ، ثم تمزّق شمل كتيبة قوزاقية . فقد لفح رجالها وابل من رصاص الرشاشات والمدافع واشاع فيهم الذعر وحملهم على الهزيمة . وانتهى ذلك الهجوم الواسع النطاق الى هزيمة تامة ، جراء الاهمال الاجرامي الذي أبدته القيادة العليا . وقد فقدت بعض الكتائب نصف تعدادها من الرجال والخيل . ووقع مابين قتيل وجريح اربعمائة قوزاقي وستّة عشر ضابطاً في كتيبة ليستنتسكي وحدها .

وكان حصان ليستنتسكي قد صرع من تحته ، وأصيب هو بجراح في رأسه وساقه ، فقفز رئيس عرفاء من على حصانه والتقطه والقاء على قربوس سرجه وعاد يهذب به .

التقط رئيس أركان الفرقة العقيد الركن كولفاتشيف بضع صور فوتوغرافية للمعركة ، وعرضها بعدئذ على بعض الضباط فكان تشيرفاكوف وهو ملازم جريح أول من هوى بقبضة يده على وجهه وانفجر باكياً . ثم جاء بعض القوزاق ومزقوا كولفاتشيف اربأ ، ومثلوا بجثته ، ثم القوا بها آخر الأمر في حفرة على قارعة الطريق . وهكذا انتهى ذلك الهجوم المشين .

ومن احدى مستشفيات وارشو اخبر يفغيني اباه انه منح اجازة ، وانه قادم الى ياغودنويه . فأوصد العجوز عليه باب حجرته ولم يخرج ثانية الا في اليوم التالي ووجهه عابس متجهم . فأمر نيكيتيتش الحوذي أن يشد الحصان

الخباب الى عربة خفيفة ، ثم تناول طعام الفطور ، وذهب الى فيشنسكايا .
ومن هناك حول لابنه اربعمائة روبل بريقياً ، وأرسل اليه رسالة مقتضبة :
«يسعدني جداً ، يا ولدي العزيز ، أنك تعمّدت* في النار . فسوح
القتال هي المكان اللائق بالنبل لا القصور . إنك لأشرف وأذكى من أن
تحتمل التذلل براحة ضمير ، ولم يفعل ذلك أي فرد من عائلتنا قط . من
جاء ذلك فقد جدك حظوته ومات في ياغودنويه غير آمل أو منتظر فضل
الامبراطور . اعتن بنفسك ، يا يفغيني واستعد صحتك ، تذكر أنك كل
ماعندي في هذه الدنيا . عمّتك تبلّغك حبها . إنها بصحة جيدة . أما أنا ،
فليس ثمة ما أخبرك به ، فأنت تعلم كيف أعيش . ترى كيف يمكن أن تؤول
الأمر في الجبهة الى هذا الحال ؟ أمن المعقول أن تخلو بلادنا من أناس ذوي
فطنة ؟ لست أصدق أخبار الصحف . إنها أكاذيب برمتها ، كعهدي بها في
السنين الخوالي . أثمة احتمال أن نخسر هذه الحملة يا يفغيني ؟ إنني
انتظر في البيت بفارغ الصبر» .

والحق ، لم يكن في حياة ليستنتسكي الشيخ ما يكتب عنه ، فقد مضت
متناقلة كالسابق دون أن يطرأ عليها تغيير ، الا أن تكاليف اليد العاملة قد
تصاعدت ، وشحّت الكحول . كان رب البيت يشرب أكثر من عادته ، فازداد
طبعه حدة ومشاكسة . وذات يوم استدعى اكسينيا وتبرّم قائلاً :
- إنك لا تولين واجباتك عناية . لماذا كان فطور الأمس بارداً ؟ ولماذا
لم تنظفي الأقداح كما ينبغي ؟ اذ حدث ذلك مرة ثانية سأستغني عن
خدمتك ، فاهمة ؟ أنا لا أطيق الإهمال . أسمعين ؟ ولوح بيده في تهيج .
زمت اكسينيا شفيتها ثم انفجرت باكية :

- نيكولاي اليكسييفتش! طفلي مريضة . دعني اعطني بها بعض
الوقت . أنا لا أستطيع تركها .

* من التعميد : أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية . وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن
والروح القدس . المترجمون

- ما بال طفلة ؟

- يبدو عليها الاختناق .

- ماذا ؟ الحمى القرمزية ؟ لماذا لم تنطقي من قبل ، أيتها الحمقاء ؟
اسرعي واخبري نيكيتين أن يذهب بالعربة الى فيشنسكايا لاحضار الطبيب .
اسرعي !

فهرعت اكسينيا خارجة ، والعجوز يزمجر وراءها بصوته الجهوري العميق :

- أنت يا حمقاء النساء ، يا حمقاء !

جاء نيكيتتش بالطبيب صباح اليوم التالي ففحص الطقلة المغشية المحمومة ، وذهب الى السيد مباشرة دون أن يلتفت الى ضراعة اكسينيا ، فاستقبله الشيخ في غرفة الانتظار دون أن يصادفه . وسأل الطبيب ، وهو يرد على تحيته بإيماءة لا تنم عن اهتمام :

- حسناً ، ما بال طفلة ؟

- الحمى القرمزية ، يا صاحب السعادة !

- هل ستشفى ، أهنالك أمل ؟

- الأمل ضئيل جداً . انها تحتضر . إنها صغيرة السن .

فقال الشيخ وقد احمر وجهه : « أنت أيها الأحق ! علام درست الطب ؟ اشفها ! » ثم صفق الباب بوجه الطبيب وراح يقطع الصالة جيئة ورواحاً .

طرقت اكسينيا الباب ودخلت :

- يريد الطبيب خيلاً ثقله الى فيشنسكايا .

فاستدار الشيخ على عقبيه وصاح ، وهو يهز قبضته العظيمة :

- قلبي له انك بليد العقل ! اخبريه أنه لن يبارح هذا المكان حتى تتعافى

الطفلة . اعطيه حجرة وأطعميه واسقيه ما شاء . ولكنه لن يذهب .

وخطا الى النافذة ، ونقر عليها بأصابعه ، ثم التفت الى صورة لابنه

وهو طفل بين ذراعي مربيته ، فخطا الى الوراء خطوتين وراح يتفرس في الصورة ، وكأنه لا يستطيع معرفة الطفل .

حين انتاب طفلة اكسينيا المرض تملكها الاعتقاد بأن الله يعاقبها لاساءتها الى ناتاليا . وفقدت توازنها تحت وطأة الاشفاق على حياة الطفلة ، فراحت تجول على غير هدى ، ولم تستطع القيام بعمل . «يقيناً أن الله لن يأخذها الى جواره» كانت هذه الخاطرة المحمومة لا تني تطرق رأسها ، فلم تسلم ، وحاولت بكل جوارحها ألا تسلم ، بأن الطفلة ستموت ، فراحت تتضرع الى الله بجنون ، تسأله رحمة أخيرة ليحفظ حياة الطفلة .

لكن الحمى أخذت بخناق الروح الصغيرة ، فرقدت البنت على ظهرها ، وانبعثت الأنفاس من حنجرتها الوارمة بشهقات قصيرة مبحوحة . ظل الطبيب يفحصها اربع مرات كل يوم ، وكل مساء كان يقف طويلاً يدخن على عتبة جناح الخدم وهو شاخص بنظره الى النثار البارد لنجوم الخريف . ومكثت اكسينيا طوال الليل جاثية الى جانب السرير . كانت حشرجة الطفلة المقرقرة تعصر قلبها . همست الشفتان الصغيرتان اليابستان :

- ماما...

فأنت الأم :

- صغيرتي . بنيتي الصغيرة ، زهرتي ، لا تذهبي ، ياتانيا . انظري ، يا حلوتي ، افتحي عينيك الصغيرتين ، عودي . يا حبيبتي ياسوداء العينين! لماذا ، رياه ؟ ...

ومن حين لآخر كانت الطفلة تفتح أجفانها الملتهبة فتند من عينيها المحمرتين ومضة حيرى ، فتتشبث الأم بالنظرة بنهم ، فتبدو البنت كالمنطوية على نفسها . وقد انتابها الحنين والاذعان .

ماتت البنت بين ذراعي أمها ، فقد انفجر فمها الصغير للمرة الاخيرة واختلج جسدها . وانكفأ الرأس الصغير على ذراع الأم ، وراحت العينان الميليخوفيتان الصغيرتان تحدقان بنظرة مأخوذة اسيانه .

حفر ساشكا العجوز قبراً صغيراً تحت شجرة حور شائخة على ضفة البحيرة ، وحمل التابوت الى القبر وواراه بعجالة غير مألوفة ، ثم انتظر في صبر ريثما تنهض اكسينيا من الربوة الطينية . وحين عيل صبره ، تمخّط بعنف ومضى الى الاسطبل . واخرج من المعلق قنينة من ماء الكولونيا وابريقاً من الكحول المهدوم . فمزج الشرابين في قنينة ، وتمتم وهو يرفع المزيج الى الضوء :

- في ذكرها! لتفتح مملكة السماء للصغيرة أبوابها! لقد مات الملاك .
وعبّ من الشراب ثم هز رأسه بعنف وهو يفرز أسنانه في الطماسة المخلفة ، ثم حدّق في القنينة برقة ، وقال :

- لا تنسيني ، يا عزيزتي ، أمّا أنا فلن أنساك قط!
ثم أجهش باكياً . بعد ثلاثة أسابيع بعث يفغيني ليستنتسكي برقية يقول فيها أنه قادم الى أهله ، فأرسلت عربية تجرها ثلاثة خيول لكي تلقاه في المحطة ، وكان كل من في الضيعة على أحر من الجمر في انتظاره . وقد ذبحت الديكة الرومية والاوز ، ونحر ساشكا العجوز خروفاً . كانت الاستعدادات قمينة بحفلة راقصة ضخمة . وصل السيد الشاب ليلاً . كان ثمة مطر بارد يساقط ، وفوانيس الفناء تلقي على البرك أشعة عابرة صغيرة . توقفت الخيل عند درجات الباب وأجراسها تجلجل . فألقى يفغيني المبتسم عباءته الوثيرة الى ساشكا وخطا وهو يطلع قليلاً صعد الدرج بانفعال . وهرع أبوه يلقاه ، مطيحاً بالكراسي في طريقه .

اعدت اكسينيا مائدة العشاء في غرفة الطعام ، ثم ذهبت تدعوها الى العشاء . وحين تطلعت خلال ثقب المفتاح رأت الشيخ يعانق ابنه ويقبله على كتفيه ، واللحم المترهل يرتعش على رقبتة . انتظرت بضع دقائق ، ثم نظرت ثانية . كان يفغيني هذه المرة يركع على ركبتيه أمام خارطة كبيرة منشورة على الأرض ، والشيخ يدق على مسند الكرسي بعقل أصابعه ، وينفث من غليونه سحاً من الدخان ، ويهدر ساخطاً :

- الكسييف ؟ لا يمكن ذلك ! لا أصدق ذلك .

كان يفغيني يرد عليه بهدوء وهو يمرر أصابعه على الخارطة ليقنعه .
فأجاب الشيخ بصوت رصين عميق : « إن القائد العام ، والحالة هذه ،
على خطأ . افتقار كلي للبصيرة . اسمع ، يفغيني ، سأورد لك مثلاً مشابهاً
من الحرب الروسية اليابانية . دعني ! دعني ! »

طرقت اكسينيا الباب ، وتردد صوت الشيخ :

- ماذا ؟ العشاء جاهز ؟ نذهب حالاً .

فخرج الشيخ منتعشاً مرحاً ، تشع عيناه بوميض الشباب . وشرب مع
ابنه قنينة شراب معتق منذ عام ١٨٧٩ . وقد اشتد باكسينيا الشعور بالوحدة
فيما كانت تخدمهما فترى البشر في محياهما... كان يعذبها حنين لم تبلمه
الدموع . فقد أرادت أن تبكي بعد موت طفلتها ، بيد أن الدموع لم تؤاتها .
كانت الغصة تتصاعد الى حلقها غير أن عينيها بقيتا جافتين ، فتضاعفت وطأة
الحزن الخائق عليها . امست كثيرة النوم ، تنشد العزاء في سباتها ، الا أن
نداء الطفلة كان يتناهى اليها حتى في نومها . فيخيل اليها أن الطفلة نائمة
الى جوارها ، فتقلب يدها تتحسس على الفراش وهمسة « ماما ماما » ترن
في أذنيها . فتجيب بشفتين مثلجتين :

« أي حبيبتي » . وكانت حتى في ضوء النهار المزعج تتصور أن الطفلة
ازاء ركبتيها ، فتفيق على نفسها ويدها ممتدة تداعب شعرها الأجعد .

جلس يفغيني بعد عودته بأيام ثلاث يسامر ساشكا العجوز في
الاسطبل ، الى وقت متأخر من المساء ، منصتاً الى حكاياته الساذجة عن
الحياة الطليقة التي عاشها القوزاق في الأيام الخوالي ، ثم بارحه في بداية
الساعة التاسعة . وكانت ثمة ريح شديدة تهب عبر الحوش ، والوحل
يخشخش تحت قدميه . ومضى هلال أصفر العذارين يتوائب خلال السحب ،
فنظر يفغيني على ضوئه الى الساعة ، ثم عرج الى جناح الخدم . توقف عند
الدرج فأشعل سيكارة ولبث يفكر برهة ، ثم هز كتفيه وارتقى السلم بعزم .

ورفع المزلاج حاذراً ، ثم فتح الباب ومضى الى غرفة اكسينيا وأشعل عود ثقاب .

تساءلت وهي تجر الغطاء حولها :

- من هناك ؟

- أنا ، لا غير .

- سأرتدي ملابسني في الحال .

- لا تزعجي نفسك . لن أبقى الا لحظة أو لحظتين . القى معطفه وجلس

على حافة السرير .

- اذن ، فقد ماتت ابنتك الصغيرة .

فهمت أكسينيا مرددة : أجل ، ماتت... .

- يبدو عليك تغير ملحوظ . بوسعي أن أخمن ما يعنيه فقدان الطفلة

عندك . ولكن احسبك تعذبين نفسك دونما طائل ، فليس بإمكانك أن

تعيديها . ما زلت شابة تستطيعين انجاب الاطفال . شدي حيلك ، اصبري ثم

أنك على أية حال ، لم تفقدي كل شيء ، مازالت الحياة برمتها أمامك .

شد على يدها ، راح يربت عليها ملاطفاً متسلطاً في آن واحد ، وهو

يلعب بأوتار صوته الواطئة . ثم خفض صوته فغدا همساً ، وحين سمع بكاء

اكسينيا الكظيم ، شرع يلثم خديها وعينيها الخضلتين .

ما أسرع ما يستجيب قلب المرأة للرقّة والعاطفة . كان اليأس قد أثقل

عليها ، فلم تدرك ماهي فاعلة حين استسلمت له بكل عواطفها الجياشة التي

طال عليها الرقاد . ولكنها ثابت الى رشدتها حين همدت موجة النشوة

العارمة الساحقة ، فصرخت بحدة ، وفقدت كل معاني الصواب أو الحياء

فاندفعت راکضة الى سقيفة الباب وهي شبه عارية ، لا يسترها سوى

قميصها . وهرع يفغيني يخرج في اثرها ، تاركاً الباب مفتوحاً ، يرتدي

معطفه أثناء سيره . وفيما كان يرتقي السلم الى شرفة المنزل تبسم راضياً

مسروراً . شمله الشعور بالمرح . وحين آوى الى فراشه ، راح يدلك صدره

اللدن المكتنز ، وهو يقول في نفسه : « إن ما أتيت به معيب يناقض الأخلاق ، من وجهة نظر الرجل الشريف . غريغوري... لقد سلبت جاري ، وعلى كل حال ، فقد عرضت حياتي للخطر في جبهة القتال . فلو أن الرصاصة مالت الى اليمين قليلاً لاخترقت رأسي ، وترتب على الآن أن أكون طعاماً للديدان . على المرء أن يحيا هذه الأيام بعواطفه كيفما اتفق . إن بوسعي أن أفعل أي شيء » . وقد راعة برهه مايدور في أفكاره ، بيد أن الخيال عاد به ثانية الى لحظة الهجوم ، وكيف أنه رفع نفسه من على حصانه الميت ليهوى ثانية ، وقد أصابه الرصاص . وفيما كان يغفو قرر أن « غداً نفكر في هذا ، أما الآن فإلى النوم » .

وصباح اليوم التالي ، حين وجد نفسه منفرداً واكسينيا في غرفة الطعام ، دنا منها ، وعلى محياه ابتسامة مذنبية ، ولكنها التصقت بالجدار ، ومدت ذراعيها ، فألهبته بهمسها الخانق :
- ابتعد عني ، ايها الشيطان!

ولكن الحياة تملئ على الانسان شرائعها التي لم يسنها مخلوق . فما أن مضت ثلاثة أيام ، حتى ذهب يفغيني ثانية الى اكسينيا ليلاً ، فلم تصده .

كانت ثمّة حديقة صغيرة ملحقة بمستشفى العيون . وفي ضواحي موسكو عديد من هذه الحقائق المشذبة غير الجذابة حيث لا تجد العين ما يزيح عنها وطأه المدينة الحجرية الثقيلة ، وحين يتطلع المرء الى هذه الحقائق تعود ذاكرته بألم أشد الى طلاقة الغابات الفطرية . وقد خيم الخريف على حديقة المستشفى فعلت ممراتها أوراق برتقالية وبرونزية ، وسحق زهبرير الصبح الازهار واغرق رقع الحشيش بأخضر مائي . كان المرضى في الأيام الصباحية يجوبون الممرات ، فينصتون الى أجراس كنائس

موسكو الورعة . وحين يسوء الطقس (وكانت أغلب الأيام عامئذ كذلك) فإنهم يتجولون من ردهة الى أخرى أو يستلقون على سررهم صامتين ، يبعثون السأم في نفوسهم ونفوس الآخرين .

وكان المرضى المدنيون يشكلون غالبية نزلاء المستشفى ، وقد افردت ردهة للجنود الجرحى ، وكانوا خمسة : يان فاريكيس ، وهو لاتفى مديد القامة ، أزرق العينين ، له لحية عريضة ، وإيفان فروبلنسكي ، وهو فارس وسيم من مقاطعة فلاديمير ، وحامل بندقية من سيبيريا يدعى كوسيوخ ، وجندي قميء أصفر لا يقر له قرار ، يدعى بوردين ، وغريغوري . وفي أواخر أيلول أضيف اليهم رجل آخر .

كانوا يتناولون شاي المساء حين سمعوا رنين جرس متواصل ، فأطل غريغوري الى الممر . كان ثلاثة أشخاص قد دخلوا الصالة : ممرضة ، ورجل يرتدي معطفاً قفقاسياً طويلاً يمسك بثالث من تحت ابطيه . ودلت قمصلة الجندي الوسخة ، وقد علت صدرها لطخ سود من الدم ، على أنه جاء من المحطة لتوه . وقد أجريت له عملية في المساء ذاته . وبعد أن أدخلوه صالة العمليات ببضع دقائق ، سمع المرضى الآخرون صوت غناء مكتوم . كان يغني ويرسل شتائم مبهمة وهو واقع تحت تأثير الكلورفورم فيما كان الجراح يزيل بقايا احدى عينيه التي مزقتها شظية قذيفة . وجيء به اثر العملية الى الردهة . وحين زال عنه أثر الكلورفورم ، أخبر الآخرين أنه جرح في الجبهة الالمانية ، وأن اسمه كارانجا ، وأنه حامل رشاشة أوكراني من مقاطعة تشرنيكوف . وقد اقام مع غريغوري ، الذي يجاوره السرير ، صداقة خاصة ، فكانا بعد التفتيش كل مساء يتسامران وقتاً طويلاً بصوت خفيض .

افتتح حديثه الأول قائلاً :

- حسناً ، أيها القوزاقي ، كيف تجري الأمور ؟

- عفنة .

- هل ستفقد عينك ؟

- أنا اتلقى حقنات الابر .

- كم تلقيت منها ؟

- ثماني عشرة ، حتى الان .

- هل توجعك ؟

- كلا ، أنا اجدها ممتعة .

- التمس منهم ان يقلعوا لك عينك .

- علام ؟ لا يجوز أن يكون الجميع عوراً .

- صحيح .

كان جار غريغوري المغل الحاقدا لا يرضيه شيء . كان يشتم الحكومة ،
والحرب ، وحظه ، وطعام المستشفى ، والطباخ والاطباء ، وكل ما يأتي على
لسانه .

- علام حاربنا ، إنا وأنت ؟ هذا ما أريد أن أعرف .

- لنفس السبب الذي حارب لأجله كل الاخرين .

- هاه ! أنت أحقق عليّ أن أجتز الأمر ثانية من أوله الى آخره ! اننا
نحارب من أجل البرجوازية ألا ترى ذلك ؟ ومن هم البرجوازيون ؟ إنهم طيور
على الفاكهة .

وراح يفسر لغريغوري تلك الكلمات الصعبة ذاراً على أقواله فلفلاً من
الشتائم . وكان غريغوري يقاطعه قائلاً : « لا تسرع في كلامك هذا . لا
استطيع أن أفهم رطانتك الاوكرانية . تكلم ببطء أكثر » .

- لست سريع الكلام هكذا يابني . اتحسب انك تقاتل من أجل
القيصر ؟ ولكن ما القيصر ؟ انه نهاب ، والقيصرة عاهرة ، وكلاهما عبء على
كواهلنا . الا تفهم ؟ ان صاحب المعمل يشرب الفودكا ، أما الجندي فيقصع
القمل . إن صاحب المعمل يجني الارباح ، اما العامل فيعيش عرياناً . هذا
هو النظام الذي لدينا . واصل خدمتك ، أيها القوزاقي ، واصل . ستنال وساماً
آخر ، وساماً جيداً ، مصنوعاً من خشب البلوط .

كان يتحدث بالاوكرانية ، ولكنه ، في مناسبات نادرة ، حين يفعل ، كان يتحول الى الروسية الصافية ويغدق عليها سباباً جمّاً .

راح يكشف لغريغوري ، يوماً بعد يوم ، حقائق كان يجهلها ، موضحاً له الأسباب الحقيقية للحرب ، ساخراً مرّ السخرية من الحكومة الاتوقراطية . وقد حاول غريغوري أن يعترض عليه ، بيد أن كارانجا كان يسكته بأسئلة بسيطة ، قاتلة في بساطتها ، فلا يجد بداً من الموافقة .

وافظع مافي الأمر ، أن غريغوري أخذ يعتقد أن كارانجا على حق ، وأنه عاجز عن معارضته لأنه لا يملك ما يعترض عليه به . وادرك بشعور من الرعب أن الاوكراني الذكي الحائق يقوّض ببطء وعزم كل أرائه السابقة عن القيصر ، والوطن ، وواجبه العسكري كقوزاقي .

وخلال الشهر الذي أعقب مجيء الاوكراني ، أمسى البناء الذي كانت ترتكز عليه أفكار غريغوري حطاماً ينبعث منه الدخان ، وكانت العفونة قد شاعت فيه قبل ذلك ، حيث تأكلته قروح الشعور بعثت الحرب ووحشيتها ، ولم يكن يعوزه الا رجه واحدة كي يتقوّض ذلك البنيان . وقد أتت الرجة ، فاستيقظ ذهن غريغوري الساذج الطيب . كان يتخبّط بحثاً عن مخرج له ، عن حل لعقدته ، وقد سرّه أن يعثر على ذلك في أجوبة كارانجا .

نهض غريغوري في هزيع متأخر لاحدى الليالي وأيقظ كارانجا . وجلس على حافة سرير الاوكراني . كان ينساب خلال النافذة ضوء مخضوضر من قمر أيلول . وبدا خذاً كارانجا داكين من كثرة الغصون ، وكان محجراً عينيه الاسودان يومضان . ثم تشاءب ودثر ساقية بالبطانية .

- لماذا لم تنم ؟

فأجاب غريغوري :

- لا أستطيع النوم . أوضح لي هذا الأمر فحسب . الحرب تفيد البعض

وتضر الآخرين ، أليس كذلك ؟

فتشاءب الاوكراني قائلاً :

- حسناً ؟

فهمس غريغوري وهو يتأجج غضباً : « مهلاً أنت تقول أنك تساق الى حتفك لمصلحة الاغنياء . ولكن مابال أفراد الشعب ؟ أليس ثمة من يوقظهم ، من يستطيع الذهاب اليهم ليقول : اخواني ، من أجل هذا تموتون ؟ » .

- من يستطيع ذلك ؟ قل لي ؟ لنفرض أنك قمت بذلك . ها نحن اولاء نتهامس كالاوز بين القصب ، ولكن ما أن ترفع عقيرتك بالصياح ، حتى يهينوا لك رصاصة . إن الشعب غارق في جهله . وستوقظه الحرب . فالرعد تتبعه العواصف .

- ولكن ما عسانا فاعلين بشأنها ؟ قل لي ، يا أفعى ! لقد أيقظت قلبي .
- وماذا يقول لك قلبك ؟

فاعترف غريغوري قائلاً :

- لا أستطيع أن أفهم ما يقول .

- إن من يدفني الى شفا الهاوية سوف يقع هو فيها . يجب ألا نخشى أن ندير بنادقنا الى صدورهم . علينا أن نقتل الذين يسوقون الشعب الى الجحيم . - ثم رفع كارانجا جسمه قليلاً على فراشه ، ومد يديه ، وهو يصبر بأسنانه : - ستطفي موجة عارمة تودي بهم جميعاً .

- أنت تعتقد اذن أن كل شيء ينبغي أن يقلب رأساً على عقب ، أليس كذلك ؟

- أجل ، يجب أن نرمي الحكومة جانباً مثل خرقة بالية . ينبغي أن نجتز صوف الاسياد ، فقد طال عهدهم بتقتيل الناس .

- وماذا تراك فاعلاً بالحرب حين تحصل على الحكومة الجديدة ؟ سنمضي في الاحتراب ، وإن لم نفعل ذلك نحن ، فإن أطفالنا سوف يفعلون ذلك . أتى لك اجتثاث الحروب . وما فتىء الناس يقتتلون منذ عصور ؟

- هذا صحيح ، لقد استمرت الحرب منذ الازل ، وستستمر حتى نكنس الحكم الفاسد . ولكن حين تصبح كل الحكومات بيد العمال فإنها ستكف عن

الاحتراب . هذا ما ينبغي أن نفعله . وسوف يتحقق لنا ذلك ، وليوارهم الشيطان جميعاً! سوف يكون ذلك . فحين يقيم الالمان ، والفرنسيون ، والآخرين كلهم ، حكومات العمال والفلاحين ، علام نتحارب حينذاك ؟ لتزل الحدود ، ليزل الغضب! حياة حلوة واحدة في أرجاء الدنيا بأسرها . آه!...
وتنهذ كارانجا ، ثم ابتسم حالماً وهو يقتل طرفي عذاريه ، وعينه الوحيدة تومض :

- غريشا ، اني على استعداد لأن أريق دمي قطرة اثر قطرة كي ترى عيني ذلك اليوم . قلبي يلتهب .

وامتد بهما الحديث حتى مطلع الفجر . وحين لاحت الظلال الرمادية استسلم غريغوري الى رقاد مضطرب .

أيقظه في الصباح صوت كلام ونحيب . كان ايفان فروبلفسكي مستلقياً على وجهه يبكي في فراشه ، وقد وقفت من حوله الممرضة ويان فاركيس وكوسيوخ . فزمرج بوردين ، مخرجاً رأسه من تحت أغطيه للفراش :
- علام يعول ؟

فأجابه كوسيوخ بنبرة فيها من الضغينة أكثر مما فيها من شفقة .

- كسر عينه . اخرجها لتوه من القدح فسقطت على الأرض .

كان الماني متجنّس بالجنسية الروسية ، يبيع العيون الصناعية ، قد دفعه شعوره الوطني الى تزويد الجيش بمنتجاته مجاناً . وفي اليوم السابق كانوا قد ركبوا لفروبلفسكي عيناً زجاجية صنعت بمهارة جعلتها تبدو بزرقة عينه الحقيقية تماماً . كانت صناعتها من الكمال بحيث يعجز الفاحص المتمعن أن يميّز العين الحقيقية من المقلّدة ، فظل فروبلفسكي بسببها ضاحكاً جذلاً كالطفل .

وقد قال بلهجة أهل الفولغا المترامية :

- سأرجع الى أهلي ، واحصل على اية فتاة أريد . سأتزوج ، وبعدئذ

سأعترف بأن عيني زجاجية .

فقهقه بوردين قائلاً :

- يا للشيطان ! سيفعل ذلك .

واذا بالحادث يقع ، وها هو الفتى الوسيم سيرجع الى قريته أعور العين أشوه . فواساه غريغوري قائلاً :

- سيعطونك عيناً جديدة ، لا تنعب .

فرفع فرويلفسكي وجهه المبتل بالدمع من على الوسادة ، كاشفاً عن محجره الخاوي :

- كلا ، لن يعطوني . لقد كلفت تلك العين ثلاثمئة روبل . لن يعطوني عيناً جديدة قط .

فقال كوسيخ باعجاب وحماس :

- يالها من عين ! كم كانت دقيقة الصنع !

وبعد الفطور ذهب فرويلفسكي الى حانوت الالماني بصحبة الممرضة ، فأعطاه عيناً جديدة . وهتف فرويلفسكي ، وقد جنّ فرحاً :

- عجباً ، الالمان أفضل من الروس ! إن تاجراً روسياً لن ينفحك كوبيكاً ، ولكن هذا أعطاني عيناً جديدة دون أن ينبس بشيء .

انقضى شهر أيلول . ومضت الأيام متعاقلة لا نهاية لها ، يملؤها سأم مميت . ففي الساعة التاسعة صباح كل يوم يقدم الشاي للمرضى مع شريحتين شفاقتين بانستين من الخبز ، وفص من الزبدة بحجم ظفر الاصبع . وكان الجوع لا يفارقهم حتى بعد تناول الغداء . ثم يشربون الشاي في المساء ثانية ، فيرتشفون معه الماء البارد لمجرد التنويع . وقد تغير مرضى الردهة العسكرية (هكذا أصبح المرضى يسمون ردهة الجنود الجرحى) . فرحل السيبييري أولاً ، ثم أعقبه اللاتيفي . ثم صرف غريغوري في أواخر تشرين الأول .

فحص جراح المستشفى عينيه وقرر أن بصرهما بحالة مرضية . ولكنه نقل الى مستشفى آخر نظراً لأن جرح رأسه انفتح على غير انتظار وأخذ يتقيح قليلاً . وقال غريغوري وهو يودّع كارانجا :

- أترانا نلتقي ثانية ؟

- الجبلان لا يلتقيان ، ولكن

- حسناً يا جار ، اشكرك لتبصرتي . وبوسعي الآن أن أرى . واصبحت

حاقداً .

- حين تعود الى كتيبتك أنقل للقوزاق الآخرين ماقلته لك .

- سأفعل ذلك .

- وإذا صادف أن جئت الى منطقة تشيرنيكوف في قرية كوروخوفكا

أسأل عن الحداد اندريه كارانجا ، وسأكون مسروراً لرؤيتك . الى اللقاء ،
يافتي .

تعانقا . ولبث في ذاكرة غريغوري طويلاً صورة الاوكراني بعينه

العواء ، والخطوط اللطيفة تمتد من فمه عبر خديه المصفرين .

امضى غريغوري في المستشفى الثاني عشرة أيام . وقد راحت تراود

ذهنه قرارات لما تتخذ شكلها النهائي بعد . كانت تعاليم كارانجا الثورية

تعمل في دخليته . فلم يتحدث الى جيرانه في الردهة الا لمأماً ، واتسمت

كل حركاته بشيء من الاضطراب والحذر .

واعتبره رئيس الاطباء « رجلاً قلقاً » حين القى الى وجهه غير الروسي

نظرة عاجلة أثناء الفحص الأول .

وقد انتابت غريغوري الحمى في الايام القليلة الاولى ، فلزم فراشه ولبث

ينصت الى طنين يدوي في اذنيه .

ثم طرأ حادث .

قدم شخص مرموق ، من أفراد العائلة الامبراطورية ، لزيارة

المستشفى . وقد أبلغ الاطباء والممرضات بالنبا صباحاً ، فراحوا يتراکضون

هنا وهناك كالفئران في مخزن تلتهمه النيران . فغيروا ملابس الجرحى وبدلوا

أغطية الاسرة قبل أوانها . وقد بلغ الامر بأحد الاطباء أن حاول تلقين

المرضى كيف يجيبون على أسئلة شخصية مرموقة ، وكيفية التحدث اليها .

وسرت عدوى القلق الى المرضى كذلك ، فشرع بعضهم يتحدث همساً قبل حلول موعد الزيارة بوقت طويل .

وارتفع عند الظهر صوت بوق سيارة ، فمرّ الشخص المرموق عبر بوابة المستشفى يرافقه العدد المألوف من الموظفين والضباط . وقد أكدّ أحد المرضى لزملائه بعد ذلك ، وكان رجلاً مرحاً مضحكاً ، أن علم الصليب الاحمر المعلق خارج المستشفى أخذ يرفرف خافقاً على حين غرة لحظة دخول الزوار المرموقين رغم صفاء الطقس وركود الهواء على غير عادته ، كما أن الرجل الانيق بخصلات شعره الجميلة المرسوم على رقعة حلاق في الجانب الآخر من الشارع قد انحنى مطأطئاً بالفعل . طاف الوجيه المرموق بالردّهات ، موجهاً الأسئلة السخيفة المعهودة التي تناسب مركزه ومقامه . فأجاب المرضى ، وعيونهم تحملى أكثر من اللازم ، وفق تعليمات الطبيب المساعد : «تماماً ، يا صاحب السمو الامبراطوري» و«لا ، ابدا ، يا صاحب السمو الامبراطوري» . وكان رئيس المستشفى يعقب على أجوبتهم وهو يتلوى كحبة العشب حين تخزقها المذراة ، كان منظره يثير الاشفاق حتى لدى من ينظر اليه من بعيد . وقد وزع الامير ايقونات صغيرة على الجنود . ثم اندفع حشد البزات المتألقة وموج العطور الفواحة الثمينة نحو غريغوري . كان واقفاً بجانب سريره ، طويل اللحية ، هزيل البدن ، محموم العينين . وقد فضحت انفعاله تلك الاختلاجة الطفيفة البادية على البشرة السمراء التي تعلو عظمي وجنتيه .

كان يقول في سريرة أفكاره : «هاهم اولاء! هاهم الذين يتلهون بسوقنا من قرانا ودفعنا الى الهلاك . آه! يا للخنازير! عليهم اللعنة! ها هو القمل العالق بظهورنا . أمن اجلهم وطننا قمح الآخرين بخيلنا وقتلنا الغرباء ؟ أمن اجلهم زحفت فوق جذامات القمح باكياً ؟ والذعر الذي حل بنا ؟ لقد انتزعونا من عوائلنا وسامونا الجوع في الثكنات . اثقلت تلك الأفكار اللاهية رأسه وارتعشت شفتاه حنقاً : «انظر الى وجوههم السمينة اللماعة! لو كان الأمر بيدي لارسلتكم الى هناك ، عليكم اللعنة ، لأضعنكم على الخيل ، والبنادق على

ظهوركم ، واحملكم بالقمل ، واطعمكم خبزاً متعفنأ ولحماً مدودأ»
راحت عينا غريغوري الضجرتان تنخران ضباط الحاشية ذوي الوجوه
الناعمة ، ثم استقرنا على خدي الامير المتهدلين .
تكلف رئيس المستشفى بالابتسام وهو يشير الى غريغوري ويقول : « من
قوزاق الدون ، إنه يحمل وسام القديس غيورغي » . وقد أوجت نبرات صوته
وكأنه هو الذي نال الوسام . فسأل الأمير ، وقد تأهب لاعطاء الأيقونة :
- من أي منطقة ؟

- من فينشسكايا ، يا صاحب السمو الامبراطوري .

- كيف نلت الوسام ؟

لاح السأم والتخمة في عيني الامير الصافيتين الخاويتين . وقد تكلف رفع
حاجبه الايسر لكي يضيفي على وجهه المزيد من سيماء العظمة . احس غريغوري
بالبرد لحظة واعتمل في داخله احساس ممزق . كان يستشعر احساساً كهذا
وهو ينطلق صوب المعركة . فالتوت شفتاه واختلجتا دون ارادته :
- عفوك... انني بحاجة ماسة الى أن - يا صاحب السمو - إنها حاجة
صغيرة فحسب .

ثم ترنّح غريغوري ، وكأن ظهره قد قصم . وأشار الى تحت السرير .
ازداد حاجب الامير ارتفاعاً ، والتفت ، وقد انفرجت شفتاه دهشة ، صوب
جنرال أشيب ، يقف بجانبه فسأله شيئاً بالانكليزية ، واعتري أفراد الحاشية
حرج لا تكاد العين تلمسه . فقد مس ضابط طويل القامة ، يحمل شارات كتف
مقصبة ، عينه بيده ذات القفاز الأبيض ، وطأطأ ثاب رأسه ، والتفت ثالث الى
جاره بنظره مستفهمة . وتبسّم الجنرال الاشيب باحترام ، ورد على صاحب
السمو الامبراطوري بالانكليزية ، وقد سر صاحب السمو أن يدس الأيقونة في
يد غريغوري ، وينعم عليه بشرف لا يدانى حين لمسه من الكتف .

ولما بارح الضيوف هوى غريغوري على سريره ، فدفن رأسه في
وسادته ، ورقد بضع دقائق ، وكتفاه يهتزان ، ولم يكن بالوسع أن يتبين

المرء ما اذا كان يبكي أم يضحك . ثم نهض جاف العينين . وقد استدعى الى غرفة رئيس المستشفى في الحال .

بادره الطبيب وهو يدعك بأصابعه لحيته التي تحاكي بلونها الفأر :
- أيها الجلف الفظ!

فرد غريغوري ، وهو يخطونحو الطبيب : « لست جلفاً ، ياخنزيراً ! اني لم أرك في الجبهة » . ثم استعاد زمام نفسه ، فقال بهدوء : « ارسلني الى أهلي » .
تقهقر الطبيب خلف مكتبه وهو يقول بلطف : « سنرسلك! بوسعك أن تذهب الى الشيطان! » .

خرج غريغوري وشفته تخرجان ابتساماً ، وعيناه تشعان بريقاً . وقد حرم من طعامه ثلاثة أيام لسلوكه الفظيع ، الذي لا يغتفر ، في حضرة الأمير . ولكن رفاقه في الردهة مدوه بالطعام . فضلاً عن الطباخ ذي القلب الرقيق الذي كان مصاباً بالفتق .

٢٤

في مساء الرابع من تشرين الثاني بلغ غريغوري أول قرية من قرى منطقته وهو في طريقه من المحطة . لم تكن ياغودنويه لتبعد عن تلك القرية الا بضعة فرسات . وبينما هو سائر في الشارع كان الفتيان ينشدون أغنية قوزاقية قديمة تحت ظلال الصفصاف على الشاطئ .

ينطلق القوزاق على الخيل بسيوف وهاجه...

اعترت الرجفة قلبه ، وتحجرت عيناه اذ راح يصفي الى تلك الكلمات المألوفة وظلت الأغنية تلاحقه وهو سائر عبر القرية يتنسم بنهم رائحة الدخان المتصاعدة من المداخن .

« وأنا الآخر كنت أنشد هذه الأغنية ، ولكن صوتي قد ذهب الآن ، وحالت

الحياة دون أن أتم أغنيتي . ها أنا ماضٍ للعيش مع زوجة رجل آخر ، لاركن لي ، لا بيت لي ، كأنني ذئب » هذا مادار في خلدّه ، وهو سائر بخطى متواصلة كليلّة ، يبتسم بمرارة من حياته التي كانت ملتوية على نحو غريب .

وارتقى التل خارجاً من القرية ، ثم التفت من على قمته لينظر خلفه ، كان الضوء الاصفر ينبعث خلال النافذة من نافوس معلق في آخر منزل وأبصر في الضوء امرأة كهلة تجلس الى دولاب غزل...

مضى سائراً خلال العشب الرطب المتجمد على حافة الطريق . وبات ليلته في قرية صغيرة ، ثم استأنف رحلته حالما أطل الصباح . بلغ ياغودويه عند المساء ، فقفز عبر السياج ومَرَّ قُرب الاسطبل ، فاستوقفه سعال ساشكا ، فصاح :

- هل أنت نائم ، أيها الجد ساشكا ؟

- مهلاً ؟ أنا أعرف الصوت . من هذا ؟

خرج ساشكا ، وهو يلقي معطفه العتيق حول كتفيه :

- يا أباءنا القديسين... غريشا! من أين أتيت بحق الشيطان ؟

وتعانقا . ثم قال ساشكا وهو يصعد الى وجه غريغوري :

- ادخل ودخّن سيكارة .

- كلا ، ليس الآن . سأتي غداً . أنا... .

- قلت لك ، ادخل .

فدخل غريغوري وراءه على مضض ، وجلس على المقعد الخشبي ريثما ينتهي العجوز من نوبة سعاله .

- حسناً أيها الجد ، أنت مائزال حياً ، اذن . مائزال تدب على الأرض ؟

- آه أنا كحجر الصوان لا يبليني شيء .

- وكيف حال اكسينيا ؟

- اكسينيا ؟ الحمد لله ، إنها على مايرام .

وسعل العجوز بعنف فعرف غريغوري أنه يصنع السعال لاختفاء حرجه .

- أين دفنتم تانيا ؟

- في البستان تحت شجرة حور .

- حسناً ، حدثني بكل ما عندك من أخبار .

- إن سعالي يسبب لي متاعب جمّة يا غريشا .

- حسناً ؟

- إننا جميعاً على قيد الحياة وبصحة جيدة . وإن السيد يفرط في

الشراب بجنون ، يالللأحمق .

- كيف حال اكسينيا ؟

- إنها وصيفة البيت الآن . هلا دَخَنْت . جرّب تبغي من الدرجة الأولى .

- لا أريد أن أدخّن . تكلم ، والاذهبت! أشعر... .. واستدار غريغوري بقوة

فصرّ المقعد من تحته . - اشعر أنك تخفي عني شيئاً ، كحجر تحت معطفك . ارم به!

- وسأرمي به! لا أقدر على السكوت ، يا غريشا ، سيكون معيباً .

فقال غريغوري « قل لي ، اذن » . والقي يده على كتف العجوز برقة .

وانتظر حائياً ظهره .

فصاح ساشكا على حين غرة بصوت فظ حاد :

- كنت تربي حية . كنت تطعم ثعباناً . إنها تعبت مع يفتيني .

وانساب خيط من اللعاب اللزج حذر ذقن العجوز الذي تعلوه الندبة ،

فمسحه وجفف يده على سرواله .

- أحقاً ما تقول ؟

- لقد رأيته بأم عيني . إنه يذهب إليها كل ليلة . أظنه معها الآن .

- هكذا الأمر اذن!

طقطق غريغوري عقل أصابعه ، وجلس مدّة طويلة محدودب الظهر

وعضلات وجهه تختلج .

وكان في أذنيه طنين هائل رنان .

قال ساشكا :

- المرأة كالقطعة تتودد الى كل من يداعبها . لاتثق بهن ، ولا توليهن ثقتك .

لف ساشكا سيكارة ودسها في يد غريغوري قائلاً : « دخن! » .

جر غريغوري نفسين أو ثلاثة من السيكارة ثم أطفأها بين أصابعه وخرج دونما كلمة . توقف عند نافذة جناح الخدم ، وهو يلهث بشدة ، وقد رفع يده عدة مرات ليطرق بها ، ولكنها كانت تنكفئ في كل مرة ، وكأنها قد نحتت بضربة . وحين طرق النافذة آخر الأمر ربت عليها بأصابعه في البداية ، إلا أن صبره نفذ فأهوى بثقله على الحائط وراح يضرب النافذة بجمع يديه ، فجعل الاطار يرن مع الضربات ، ونور الليل الأزرق يتلامع مع الزجاج .

فظهر وجه اكسينيا المرتعب في النافذة هنيئة ، ثم فتحت الباب فندت عنها صرخة خافتة . احتضنها وهو يرى الى عينيها .

- طرقت بشدة فأرعبتني . كنت نائمة . لم أكن أتوقع مجيئك يا عزيزي .

- أنا متجمّد الأوصال .

احست اكسينيا جسمه الهائل يرتجف بعنف رغم أن يديه ساختان كالملتهبتين .

وأحدثت جلبّة لاداعي لها ، فأشعلت المصباح ، وتراكضت في أرجاء الغرفة وعلى كتفيها الأبيضين المكتنزين شال ازغب وأخيراً اشعلت النار في الموقد .

- لم أتوقع مجيئك . لم تكتب لي منذ زمن طويل . حسبت أنك لن تعود . هل تسلمت آخر رسائلي ؟ كنت سأرسل لك رزمة ، ولكنني آليت التريث علني اتسلم منك رسالة...

كانت تخاوص النظر الى غريغوري وقد تجمّدت ابتسامة على شفتيها الحمراءوين .

جلس غريغوري على المصطبة دون أن يخلع معطفه ، كان خداه غير الحليقين يضطربان ، وقد انحجبت عيناه المسبلتان بياقة معطفة . ثم شرع يفك أزرار الياقة ، ولكنه تملل فجأة ليتحسس كيس تبغ . وراح يبحث في جيوبه عن ورقة . ومَر بعينه على وجه اكسينيا بشوق لاحد له .

لقد ازدادت حسناً شيطانياً أثناء غيابه . كان رأسها الجميل شامخاً
بمهاة لاعد له بها ، ولم يبق على سابق حاله سوى عينيها وجعدات شعرها
الوبري الكبيرة . لكن هذا الجمال العارم الساحق لم يعد ملك يده . كيف له
أن يستحوذ عليه ، وهي خلية ابن صاحب الضيعة ؟
- إنك في مظهرك أشبه بوصيفة بيت منك بخادمة .
فألقت اليه نظرة وجلة ثم تضحكت غصباً .
جر غريغوري صرته وراءه ، ومضى نحو الباب .
- الى أين أنت ذاهب ؟
- لكي أدخن .
- قليت لك بعض البيض .
- لن أتأخر .

فتح غريغوري الصرة على الدرج واخرج من باطنها عصابة رأس منقوشة
باليد وقد لفت بعناية في قميص نظيف ، . كان قد ابتاعها من تاجر يهودي
في جيتومير لقاء روبلين ، وقد حافظ عليها كما يحافظ على حدقة عينيهِ ،
كان يخرجها أحياناً ويمتّع ناظره بوفرة ألوانها القزحية ، ويستبق مذاق
الفرحة التي ستغمر اكسينيا وهي تنشر العصابة أمامها . يالها من هدية
تعيسته! أبوسعه أن ينافس بهدايا ابن ملاك ثري ؟ ومزّق العصابة ارباً ثم
دسّها تحت الدرج وهو يكبح نوبة من البكاء الجاف . ثم القى الصرة على
المصطبة في المجاز وعاد الى الغرفة .

- اجلس ، وسأنزع عنك جزمك ، ياغريشا .

وراحت تشد حذاء غريغوري العسكري الثقيل بيدين بيضاويين طلقتا
العمل الشاق منذ حين . ثم جثت عند ركبتيه تبكي بصمت لوقت طويل .
فتركها غريغوري تبكي ما شاءت ثم سألها قائلاً :

- ما خطبك ؟ الا تسرك رؤيتي ؟

وحين هجع الى فراشه استسلم للنوم بسرعة ، وخرجت اكسينيا الى

الدرج وليس عليها سوى قميصها . وقفت في مهب الريح الباردة النفاذة ،
وذراعاها يعانقان العمود الرطب ، وراحت تصفي الى مرثاة الجنائز ترتلها
ريح الشمال العاصفة ، ولبثت على حالها تلك حتى مطلع الفجر .

وفي الصباح ، القى غريغوري معطفه على كتفه ومضى نحو الدار . كان
الشيخ واقفاً على الدرجات وقد ارتدى سترة من الفرو وقبعة استراخانية صفراء .
- عجباً! هو ذا حامل وسام القديس غيورغي! ولكنك غدوت رجلاً ،

ياصاحبي!

ثم حياً غريغوري ومد له يده .

- هل ستبقى طويلاً ؟

- اسبوعين ، ياصاحب السعادة .

- لقد دفننا ابنتك ، والاسفاه . والاسفاه... .

لبث غريغوري صامتاً . ثم خرج يفغيني وهو يلبس قفازه .

- ماذا ، هذا غريغوري ، من أين قدمت ؟

اسودّت الدنيا في عيني غريغوري ولكنه تبسّم قائلاً :

- عدت من موسكو ، بإجازة .

- لقد جرحت عينك ، أليس كذلك ؟ سمعت بهذا . لقد غدا فتى رائعاً

ليس كذلك ياابا ؟

وأوماً الى غريغوري ثم استدار نحو الاسطبل منادياً الحودي :

- الحصان ، يا نيكييتيش!

فاتم نيكييتيش الرزين شد الحصان بالعربة الخفيفة ، ثم قاد الحصان
الاشهب الخباب الى الدرجات ، وهو يحدج غريغوري بنظرة عدائية .
وخشخت الأرض المتجمدة تحت عجلات العربة . فالتفت غريغوري صوب
يفغيني بابتسامة متوددة وقال بلهجة فيها رجاء :

- ياصاحب السعادة ، دعني أسوق مركبتك بحق الأيام الخوالي .

فقال يفغيني في نفسه ، « يا للفتى المسكين ، إنه لايدري » . وابتسم

راضياً ، والتمعت عيناه من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه . ثم قال :
- لا بأس ، اصعد .

فقال ليستنتسكي الشيخ ، وهو يبتسم متلطفاً :

- ماذا ، لم تكد تصل ، وها أنت ذا ستترك زوجتك الشابة . ألم تفقدها ؟
ضحك غريغوري قائلاً :

- ليست الزوجة ديباً . إنها لن تهرب الى الغابة .

اعتلى مقعد السائق ودس السوط تحته ثم لمّ الأعنة في يده .

- آه ، سأمتك بسياقة ، يا يفيني نيكولا يفتش !

- سق جيداً ، وسأنفحك بقشيش .

- ألم أتل مافيه الكفاية لكي أشعر بالامتنان ... انني ممتن لك لإطعامك
... اكسينيا ... لإعطائها كسرة ...

انقطع صوت غريغوري فجأة ، فاشاع شك غامض مزعج اضطراباً في
نفس الملازم : « أمن المؤكد أنه لا يعرف طبعاً لا ! كيف يسعه ؟ » ثم اتكأ
في مقعده واشعل سيكارة .

ونادى ليستنتسكي الشيخ وراءهما قائلاً :

- لا تتأخر .

وتطايير مثار الثلج من تحت العجلات كالأبر .

جر غريغوري على فم الحصان بالعنان واستحقّه الى اقصى سرعته . ولم
تمض خمس عشرة دقيقة حتى اجتازوا الربوة ، وما أن بلغا أول وهدة ، حتى
قفز غريغوري الى الأرض ، وسحب السوط من تحت المقعد .

فقال الملازم عابساً :

- ما الأمر ؟

- سأريك !

لوح غريغوري سوطه وانزله بقوة مريعه على وجه الملازم . ثم أمسك
السوط من مجلدته ، وراح يضرب الضابط بمقبضه على وجهه وذراعيه دون

أن يتيح له وقتاً للنهوض . وقد أصابت ليستنتسكي شظية من زجاج عويناته فوق حاجبيه ، فانساب الى عينه خيط من الدم . وقد غطى أول الأمر ، وجهه بيديه ، غير أن الضربات تعاقبت عليه بسرعة متزايدة ، فوثب على قدميه ، وقد شوه الدم والهياج وجهه ، فحاول أن يذود عن نفسه ، بيد أن غريغوري تراجع وشل ذراع الضابط بضربة على معصمه .

- هذه من أجل اكسينيا! وهذه من أجلي! من أجل اكسينيا! واخرى من أجل اكسينيا! من أجلي .

راح السوط يصفر والضربات تتعاقب بصوت طامس وأخيراً طرح غريغوري يفيغيني على نتوءات الطريق الوعرة ، وراح يدحرجه على الأرض ، وهو يركله بوحشية بكعب حدائه المغطى بالحديد .

وحين لم تعد فيه قوة تساعد على المضي ، اعتلى مقعد العربة وعاد ينهب الأرض نهباً وهو يكاد ينهك قوى الحصان . وترك العربة عند البوابة وامسك بالسوط ، واندفع الى جناح الخدم متعثراً بأذيال معطفه المفتوح .

وحين اصطفق الباب وانفتح تلفتت اكسينيا حولها .

- يا أفعى! يا عاهرة!

وصفر السوط فالتف حول وجهها .

اندفع غريغوري الى الحوش وهو يلهث ناشداً الهواء ، ثم غادر الضيعة دون أن يلتفت الى تساؤلات ساشكا . وحين قطع مسافة بضعة فرسقات ادركته اكسينيا . فمضت تسير الى جانبه صامته . وهي تلهث بشدة ، وتجرح كمه بين حين وآخر . وعند مفترق الطريق ، وقرب المصلى البني المثبت على جانبه ، قالت له بصوت غريب ناء :

- غريشا ، اغفر لي!

فكشّر عن أسنانه ، واحنى كتفيه ، وهو يرفع ياقة معطفه وترك اكسينيا واقفة عند المصلى ، ولم يلتفت مرة ، ولم ير يدها ممدودة اليه .

وحين بلغ قمة التل المطل على تتارسكي وجد أنه ما يزال ممسكاً

السوط ، فألقى به جانباً ، وانحدر الى القرية . والتصقت وجوه الناس بزجاج النوافذ وقد أخذتهم الدهشة لرؤيته ، وانحنت النسوة تحية له وهو يمر بهن . وعند بوابة حوش بيته ، هرعت حسناء ، ضامرة القد ، سوداء العينين ، لتلقاه ، فالتفت ذراعيها حول عنقه ودفنت رأسها في صدره . فضم غريغوري خديها بين يديه ورفع رأسها فوجد أنها دونيا .

تناهى الى سمعه صرير الدرجات الذي كان مألوفاً لديه الى حد الإيلام ، ثم وجد نفسه في سقيفة الباب . وجرت أمه العجوز اليه بخطوات سريعة كالفتاة ، فبللت ياقة معطفه بدموعها ، واحتضنت ابنها وشدته اليها ، وهي تتمتم بأشياء لارابطة بينها بلغة الأمومة التي لا يسع المرء أن يعبر عنها بالكلمات ، وكانت ناتاليا واقفة عند الباب ، متشبثة به مخافة السقوط ، وقد ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة معذبة . واذا أصابتها نظرة غريغوري الخاطفة الشاردة ، كادت تهوي الى الأرض...

وحين أوى باتتلاي بروكوفيتش وزوجته الى فراشهما تلك الليلة لكز زوجته في ضلوعها وهمس :

- اذهبي بهدوء وانظري ان كانا مضطجعين معاً أم لا ؟

- لقد أعددت فراشهما على السرير .

- ولكن اذهبي ، وانظري ، انظري!

نهضت ايلنتشنا واسترقت النظر خلال شق الباب المؤدي الى غرفة .

- انهما سوية .

فنشج الشيخ وهو ينهض على مرفقيه ويرسم على نفسه اشارة الصليب .

- الحمد لله! الحمد لله!